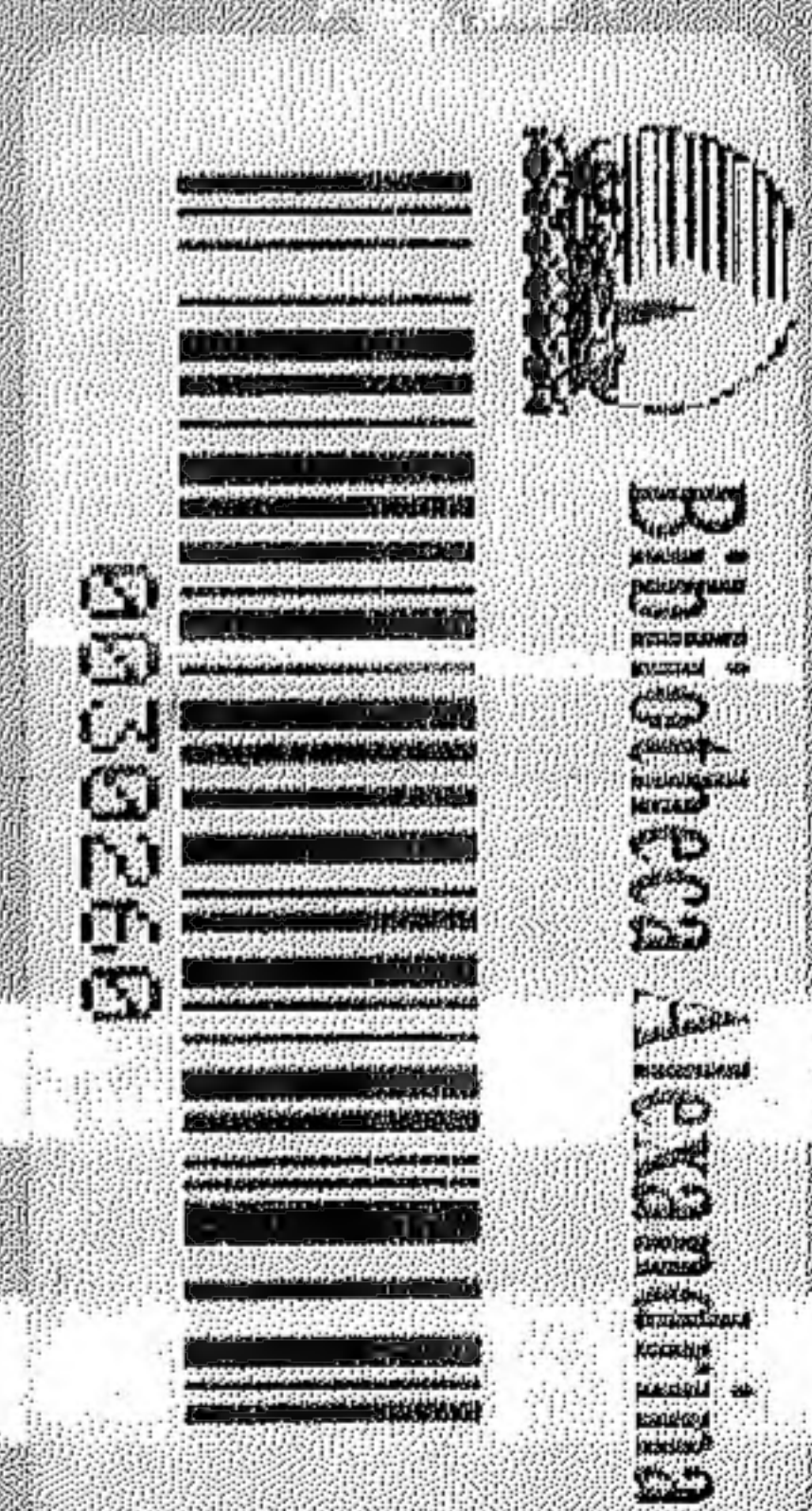


دكتور لويس عوض

ثورة الفكر

في عصر النهضة الأوروبية



مركز الأهرام
للترجمة والنشر

ثورة الفكر

في عصر النهضة الأوروبية

دكتور لويس عوض

الطبعة الاولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الاهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الاهرام - شارع الجلاء القاهرة

تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلکس ٩٢٠٠١ يوان

المحتويات

صفحة

٥	تمهيد
٧	ماركو بولو
٢٧	دانتى اليجيرى
٥٥	بـتـرارك
٦٣	بوكاشيو
٧٣	مكيافيللى
١٠٦	لورنزو دى مديتشى
١٢٨	سافونارولا
١٧٣	بيكو ديلا ميراندولا
١٨٢	ليوناردو دافنشى
٢٠١	رفاييل
٢٠٩	ميكالانجلو
٢٢٨	إرازموس
٢٤١	جوردانو برونو
٢٧٣	جاليليو
٣٠٢	كامبانيلا

تمهيد

ليست هذه الكلمة مقدمة ، ولكنها مجرد تمهيد . ومن يتأمل هذه الدراسات يجد أنها تمثل أهم مقومات عصر الرنيسانس المعروف بعصر النهضة الأوروبية ، ويجد من جهة أخرى أنها تمثل الدعائم الفكرية التي قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة .

فهناك روح الاستكشاف والمغامرة والاقتحام التي تجلت في أسفار ماركو بولو وما زالت تلتهم الوجدان الأوربي قرونا حتى أينعت في مفامرة كولبوس الكبرى والكشف عن الأمريكتين ، والكشف عن رأس الرجاء الصالح واستراليا ونيوزيلندا والقطبين ، حتى فض مغاليق القارة العذراء ، (إفريقيا) ، في القرن التاسع عشر . وبعد أن فرغ الانسان من كوكبنا بدا يغزو الكواكب الأخرى في نهاية القرن العشرين . وقد استغرقت قيادة الفضاء ستة قرون كاملة ، منذ حسابات كوبرنيك وجاليليو الدقيقة لمدارات الأنلاك حتى وطئت أقدام الانسان أرض القمر .

هذه الروح ، روح البحث والسطو ، ولا سطو بغير بحث ، هي وراء ظاهرة الاستعمار التي اقترنت بالحضارة الغربية الحديثة وانتهت بنزح ثروات العالم وكنوزه وتكديسها أو استغلالها في أوروبا في الانتاج والخدمات وفي مزيد من البحث والاقتحام .

وهناك ظهور ظاهرة الدولة القومية من انقراض الجامعة الدينية التي نجد دعائمها النظرية في دانتي الإيجيري وفي مكيافيلي . وهي في وجهها الناصر وراء كل حركات التحرير الوطني منذ جان دارك ، أم شهداء الوطنية في العالم الحديث ، وفي وجهها الكرية وراء العنجهيات القومية والعنصرية والدينية ووراء بحار الدماء التي خضبت وجه الأرض منذ آلاف السنين ، وحالت ولا تزال تحول دون قيام مجتمع دولي ترفعف عليه رايات الحرية والعدل والسلام .

وهناك انتصار اللهجات الشعبية على اللغة الفصحى (اللاتينية) ، وتحولها الى لغات حية مزدهرة بالآداب الخصبة بثمار القلب والعقل ، بعد ألف عام من العقم الكنسي الذي قتل الآداب والفنون والعلوم ، وخنق لغة الشعب وجرم ترجمة الكتاب المقدس اليها حتى يحتكر الكهنة فهم نصوص الدين وتفسيرها للملايين من بسطاء المؤمنين .

هذه اللغات الشعبية التى أينعت فى أدب دانتي وبترارك وبوكاشيو ، ونظائريهم فى الآداب الأوروبية الأخرى ، كان انتصارها على اللاتينية الفصحى مقدمة لازمة لحركة الإصلاح الدينى لأنها أشركت الجماهير فى قراءة نصوص دينها وفهمها ومناقشتها ، ومقدمة لازمة لاتساع قاعدة الديمقراطية لأنها أشركت الجماهير فى قراءة نصوص القانون والسياسة بعد أن كانت كالتعاويذ لا يفهمها الا الصفوة ، لأنها كانت محنطة فى اللغة اللاتينية الفصحى .

وهناك انتصارات الفنون التشكيلية التى بدأت بفنانى الكواتروتشنتو وبلغت قممتها فى روائع ليوناردو دافنشى ورفاييل وميكلانجلو ، بعد ألف عام من انقراض التصوير والنحت ، فلم يبق من الفنون التشكيلية الا فن العمارة لحاجة الكنيسة لبناء الكاتدرائيات ، ولحاجة أمراء الاقطاع لبناء القصور والقلاع . أما التصوير والنحت فقد ازدهراهما الشعور الدينى لانهما يذكران بالوثنيات الأولى .

وهناك رد اعتبار الانسان ورد اعتبار الحياة الدنيا بعد ألف عام من العصور الوسطى ملأت أوربا بالأديرة واقنعت البسطاء أن نصيبهم فى ميراث الأرض هو حرثها وزرعها لأمراء الاقطاع ، وأن ميراثهم الحقيقى هو ما كان الدكتور حسين فوزى يسميه « القيراط الخامس والعشرون » . الحياة ذاتها خطيئة ، فما بالناس بمجد الحياة : بالعلم ، بالفن ، بالفكر ، بالمال ، بالجمال ، بالقوة ، بالسعادة ، بالحرية ، بالمساواة . مجد العالم زائل . وكل هذه الكنوز لا معنى لها الا فى العالم الآخر .

وجاء لورنزو دى مديتشى وبيكو ديللا ميراندولا ورازموس ليدحضوا ذلك ، كل بمنطقه الخاص . بل جاء كامبانيلا ليتصور امكان بناء المدينة الفاضلة على الأرض .

وأجمع الجميع على رد اعتبار الحضارات « الجاهلية » ، ولاسيما حضارة اليونان والرومان ، لأنها حضارات اعترفت بالانسان والحياة وبكل ما تحت الشمس . كانوا يقولون : بكل ما تحت القمر . كلهم الا ذلك الراهب العجيب سافونارولا . ولكن هذه قصة أخرى .

• • •

ماركوبولو

MARCO POLO

١٢٥٤ - ١٣٢٥



□ لعل ماركو بولو كان أشهر رحالة أوربي قبل كريستوفر كولومبوس (١٤٥١ - ١٥٠٦) في بدايات أوربا الحديثة ، فهو من أسبق الرواد الذين عبروا آسيا الوسطى واستقروا في الصين . وقد ترك لنا تجربته مدونة . أملاها في سجنه بميناء جنوا بعد عودته من أسفاره على رفيق سجنه روستكان فألهمت خيال الأوربيين وحفزتهم الى ارتياد أقطار العالم المجهولة شرقا وغربا ، وقد كانت يومئذ ثلاثة أرباع العالم .

وفي العالم القديم لم يكن سكان البحر الأبيض المتوسط يجهلون تماما وجود الصين ، فهناك وثائق صينية ويونانية ولاتينية تدل على وجود علاقات تجارية طفيفة بين بعض دول البحر المتوسط والصين . ومع ذلك فأقدم هذه النصوص لا يتجاوز القرن الأول ق.م .

وفي « جغرافية » استرابو (٥٨ ق.م . - ٢٥ ميلادية) أن أول من جاء الى البحر المتوسط بأخبار الصين كان الضابط نياركوس وهو أحد قواد الاسكندر الأكبر ، وقد سار بجنوده من الخليج الفارسي الى مصب نهر السند في القرن الرابع ق.م . وكان اليونان يعرفون الصينيين باسم « الصير » غالبا من اسم « الحرير » باللغات القديمة ، وهو « سيريكوم » ، أو ربما كان اسم الحرير على اسم « الصير » .

وجغرافيو مدرسة الاسكندرية في القرنين الأول والثاني للميلاد يحدثننا عن نشاط التجار المصريين القوي في العصرين البطلمي والروماني بين موانئ البحر المتوسط والنوبة والبحر الأحمر والهند وسيلان . ففي كل صيف كان يخرج من مصر أسطول تجارى قوامه نحو مائة سفينة قاصدا المحيط الهندي ثم يعود مع الرياح العكسية في ديسمبر - يناير . وقد وصل الملاحون المصريون الى الهند الصينية في القرن الأول الميلادي وعند عودتهم نقلوا أخبار الصينيين الى علماء الاسكندرية وكانوا يسمونهم أهل « الصين » أو

« الصينا » .. ومعنى هذا أن المصريين نقلوا الى الرومان أخبار أمتين هما « الصير » الذين كانوا يزودون الرومان « بالسيريكوم » أى الحرير ، و « الصين » الذين لا يمكن بلوغهم الا بعد رحلة طويلة وراء المحيط الهندى . والحقيقة ان « الصير » و « الصين » كانتا أمة واحدة .

وقد ورد ذكر حرير « الصير » فى بلينيوس الأكبر (٢٣ — ٧٩ م) ، وفى ديو كاسيوس (١٥٥ — ٢٢٥ م) ، كما حدثنا الرحالة المؤرخ الجغرافى باوسانياس (ق ٢ للميلاد) عن ذلك وعن دودة القز . وبالمثل ورد ذكر « الصير » فى الشعر اللاتينى عند هوراس (٦٥ — ٨ ق.م) وفرجيل (٧٠ — ١٩ ق.م) ، على أنهم قوم ناءون غريبو الأطوار والعادات .

وكانت أساطير الرومان تقول ان الصينيين لا يعرفون الحرب ولا السلاح وان الفرد منهم يعمر مائتى عام . وفى بلىنى الأكبر أن روما كانت تستورد من الصين الحرير والمصنوعات الحديدية والفراء — أما الوثائق الصينية فتقول ان الصين كانت تستورد من البحر المتوسط الزجاج والألوان والصوف والكتان والمعادن والرصاص والأحجار الكريمة . وقد جاء فى تاريخ الرومان أن « الحرير الذى كان قديما الامتياز الخاص بالنبلاء ، أصبح كل الناس يلبسونه فى أيامنا هذه » . وكان هذا يستنزف ذهب الامبراطورية ، فحاول أباطرة روما الحد من استيراده باصدار المراسيم ولكن دون جدوى .

كان طريق التجارة بين الامبراطورية الرومانية والصين يمر بالعراق وفارس وباكثريا وقشغر ، وهو نفس الطريق الذى سلكه ماركو بولو . وكثيرا ما كان التجار الرومان يشترون منتجات الصين من الهنود فى طريق الملاحه أو من الفرس فى طريق القوافل ، مما رفع ثمن المنتجات الصينية فى روما مائة ضعف عن ثمنها الاصلى فى الصين . ولما أقفل الفرس طريق التجارة مع الشرق فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى أيام الدولة الساسانية قيل ان رطل الحرير بلغ ثمنه فى روما رطلا من الذهب .

وأول مرة نسمع فيها عن بعثة دبلوماسية بين روما والصين ، كانت عام ١٦٦ ميلادية عندما أرسل امبراطور روما الفيلسوف مارك أوريليوس (١٢١ — ١٨٠ م) ، وهو من أسرة الانطونين ، سفيرا الى تونكين يحمل هدية منه الى امبراطور الصين مكونة من العاج وقرن الخرتيت وظهر السلحفاة ، وهى هدية هندية لا رومانية . والوثائق الصينية تتحدث عن « أندون » امبراطور روما . ويظن البعض ان هذه البعثة لم تتجاوز أن تكون زيارة مجموعة من التجار المصريين أو السوريين للصين — وفى ٢٢٦ م زار

الصين تاجر سورى عن طريق الهند الصينية ، ولكن الطريق البرى ، كان هو الطريق الأكثر أهمية .

غير أنه ابتداء من القرن الثالث والقرن الرابع سدد الفرس طريق القوافل بين البحر المتوسط والصين ثم تلاهم العرب فى القرن السابع فقلت القوافل وقلت السفن الساعية بين العالم اليونانى الرومانى والصين . كما أن أوربا الاقطاعية كانت فقيرة قليلة الاحتياج الى صادرات الشرق . فذبلت التجارة بينهما . وفى القرنين الخامس والسادس نقلت بيزنطة زراعة شجر التوت وأنشأت مصانع الحرير وأخذت تصدر الحرير الى روما . وقد انتهى الانحطاط الثقافى وعزلة أوربا الاقطاعية ، بأن نسي الأوروبيون درجة درجة وجود الصين .

وبتشقق الامبراطورية العربية بدأت أوربا من جديد تحاول أن تخرج من عزلتها عن طريق الحروب الصليبية لاستعمار الشرق الأدنى ، وفى الوقت نفسه ظهرت فيها ارهاصات الاهتمام من جديد بالشرق الأقصى . وكانت الطلائع فى هذا ماركو بولو وأسرته ، وهم من أهل البندقية التى كانت أقوى دويلة بحرية فى البحر المتوسط ولا منافس لها الا دويلة جنوا .

وفى الحروب الصليبية اكتشف الأوروبيون أن الشرق كان أرقى بكثير من الغرب . تدفق أمراء الاقطاع على سورية وفلسطين ومصر وبيزنطة لتهب ما يحتلونه من بلاد . فكانوا يفتصبون القصور بما فيها من تحف ثمينة وبدا لهم الشرق كأرض سحرية ونشأت بينهم أسطورة « كنوز الشرق » وتجاهلوا أن السواد الأعظم من أهل المشرق كانوا يعيشون فى فقر مدقع بسبب جبروت حكامهم . كان تاجر أوربا وفرسان العالم المسيحى قد ألفوا مقاعدهم العادية الخشنة المصنوعة من خشب الأرو أو البلوط فى قلاعهم فראوا لأول مرة أرائك أمراء المسلمين والمغول وفرسانهم وتجارهم مكسوة بالوسائد والسجاجيد متعددة الألوان ، وراوا الخناجر والسيوف المطعمة قبضاتها بالأحجار الكريمة . وكان ماركو بولو ابن عصره فكان من الفارقين فى الافتتان بالشرق وكنوزه .

وفى فترة الحروب الصليبية تسلمت الى أوربا بضائع الشرق الأدنى ورقيقه والفاظه العربية واليونانية ، بل وتأثرت عادات الفرسان الفرنسيين والايطاليين وملابسهم بعادات الشرقيين وملابسهم . ولطول اقامة ماركو بولو وأسرته فى القسطنطينية وشبه جزيرة القرم تحولوا الى شرقيين .

وكان المستفيد الأول من الحروب الصليبية المدن التجارية الايطالية ، ولاسيما موانئ البندقية وجنوا وبيزا ، فقد كانت هذه المدن والموانئ تمد

الصلبيين بالسفن والسلاح والغذاء ، ومقابل هذا كانت تحصل على القسم الأكبر من الغنائم . وبعد الحملة الصليبية الثالثة حصلت جنوا وحدها على جزء من القدس وعلى انطاكية واللاذقية وعلى ثلث بيروت وقيصرية وعكا . وبعد ذلك استولى اهل جنوا على فافا جوستا عاصمة قبرص ، وعلى طرابلس في سورية ، وعلى بعض جزر اليونان مثل خيوس وصاموس ، الخ واسبسوا في القرم مستعمرة خاصة بهم كانت بمثابة محطة لهم للتجارة مع فارس وآسيا الوسطى .

وفي الحملات الثلاث الأولى استولت جنوا والبندقية على صـوـر وصيدا ، وانتهت المنافسة بينهما بحرب دامية للسيطرة على البحار وعلى طرق التجارة وعلى المستعمرات في بر الشام . وكانت امالفي أول ضحية لهذه الصراعات . ففي القرن ١٢ حطمتها بيزا وحطمت كل أسطولها . ثم حطمت جنوا أسطول بيزا عام ١٢٨٤ واستولت جنوا منها على ٣٣ سفينة وأسرت ١٠٠٠٠ محارب . وفي ١٢٩٠ تعاونت جنوا وفلورنسا على تحطيم ميناء بيزا وأغلقتا بالصخور مصب نهر الأرنو .

وبدا الصراع الرهيب بين البندقية وجنوا للسيطرة على البحر المتوسط وطرق التجارة مع الشرق . فكان أهلها يتقاتلون في البحر والبر وفي أسواق التجارة وفي مدن الشرق بلا رحمة ويحرق بعضهم سفن البعض الآخر ومصانعه . وكانوا أحيانا يستأجرون المرتزقة لذلك وأحيانا يتنافسون في استرضاء عرش بيزنطة ويستغلون الخلافات بين أمراء الصليبيين .

وقد كانت النقطة الحاسمة بين البندقية وجنوا هي الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ . فقد سارت الحملة الصليبية الرابعة بناء على نصيحة البندقية وبسند من أسطولها الى بيزنطة بدلا من قتال المسلمين ، واستولت على القسطنطينية ودمرتها وأنشأت فيها امبراطورية لاتينية ونهبت من كنوزها غنائم بغير حصر من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والجواهر النفيسة والحرير والفراء والطنافس . واستولى اهل البندقية بالاتفاق السابق على نصف الغنائم وعلى كثير من الامتيازات : استولوا بعد الحملة الرابعة على أهم جزر الأرخبيل وعلى شواطئ بحر مرمرة وعلى كريت وعلى جزر أيونيا وعلى ساحل دالماسيا (في يوجوسلافيا الحالية) ، وعلى الأحياء التجارية في القسطنطينية وغيرها من مدن بيزنطة . وأقاموا المصانع على سواحل بحر آزوف ، وبهذا استولت البندقية على ثلاثة أثمان الأراضى التي استولى

عليها الصليبيون وحاولت ان تحتكر الربا في هذه الامبراطورية الرومانية الجديدة ، وبلغت البندقية قمة سطوتها .

كانت البندقية لا تزال في قمة سطوتها في ١٢٦٠ حين بدأ الاخوان نيكولو وماتيو بولو رحلتها الى الشرق ومعهما الفتى اليافع ماركو بولو بن نيكولو بولو . وكان تجار البندقية في حماية أمراء الفرنجة اللاتين وفرنسانهم . وكان أهل جنوا يستعدون للثأر بجولة ثانية ، فتعاونوا مع الأمراء والفرسان اليونان في دويلات آسيا الصغرى من بقايا امبراطورية بيزنطة .

وفي ١٢٦١ كانت أسرة بولو ، وهم من تجار البندقية ، قد وصلت الى نهر الفولجا عندما أسقط أهل جنوا الحكام اللاتين في بيزنطة ، وخل أهل جنوا محل أهل البندقية في السيطرة على كل شيء من جزر الباسا وكورسيكا وسردينيا غربا الى آسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم والبحر الاسود وبحر آزوف وبحر قزوين شرقا .

وسواء تحت هيلمان البندقية أو جنوا لم يكن التجار الأوربيون يتجاوزون في رحلاتهم مدن نهر الفولجا وفارس وآسيا الوسطى لأن طريق الشرق الأقصى كان مسدودا بقوة المغول .

أما في الشرق الاسلامي فقد كانت الشام مجزأة الى امارات أو دويلات عربية صغيرة بعضها تحت حكم الصليبيين . وكان أكثر آسيا الصغرى تحت حكم الأتراك السلاجقة . وفي فارس وآسيا الوسطى تعاضمت قوة شاهات خوارزم . أما في بغداد فقد كانت الخلافة العباسية مجرد ديكور أو واجهة ، والسلطة الفعلية في أيدي الأمراء والسلاطين الترك أو الكرد والوزراء الفرس . وكان الفاطميون في مصر لا يعترفون بدولة بنى العباس .

وفي المدن الكبرى مثل دمشق وحلب وبغداد والموصل وتبريز وخوارزم وبخارى وسمرقند وهرات تكونت طبقة ضخمة من الحرفيين الذين كان التجار يستغلونهم بلا رحمة مما اشاع الفتن والقلق في هذه المناطق . وكان كبار التجار يسيطرون على القوافل ناقلة التجارة الرئيسية بين الشرق الأقصى والشرق الأوسط والشرق الأدنى . ولاسيما الأقمشة والتوابل والطيبور والجلود والفراء والحريير والجواهر والرقيق . واختل الأمن بسبب القلق الاقتصادي والقلق الاجتماعي وفتن الصناعات وثورات العبيد ، فاختلت طرق التجارة مع الشرق الأقصى ، مما جعل كبار التجار يعملون على ظهور قوة ضاربة موحدة تؤمن لهم طرق القوافل . وفي هذه الظروف قاد جنكيزخان جحافل المغول عبر آسيا وأوروبا الشرقية .

فحتى النصف الثاني من القرن ١٢ كان النظام الاقتصادي في منغوليا نظاما اقطاعيا يقتسم فيه امراء منغوليا سهوب بلادهم ومراعيها وبراريها وكانوا يسمون أنفسهم بالقباب « النويون » و « البكولت » . وفي اواخر القرن ١٢ قاد تيموشين هذه الارستقراطية المغولية ، وفي ١٢٠٦ وحدها ووحد بها كل منغوليا وسمى نفسه جنكيزخان . وبين ١٢١١ و ١٢١٦ اجتاح جنكيزخان بجيوشه الجرارة ، وقوامها من الفرسان ، الصين الشمالية ، وفي ١٢١٧ اجتاح آسيا الوسطى وهزم محمد خان الذي أسس في خوارزم دولة قوية بين ١٢٠٠ و ١٢٢٠ .

وفي ١٢٢٠ أحرق جنكيزخان بخارى ثم سمرقند ، وفي ١٢٢١ دمر مدينة بلخ بتركستان الأفغانية وأباد أهلها بعد أن كانت أكبر مركز تجاري في آسيا الوسطى ، وهكذا قضى نهائيا على دولة خوارزم . وفي ١٢٢١ أيضا اجتاحت جيوش المغول شمال إيران وهزمت قوات جورجيا في تفليس . ومن شمال فارس والقوقاز احتل المغول سهوب نهر الدون بقيادة أحد أبناء جنكيزخان وهو طولاي خان ، وسحق الروس حتى نهر الدنيبر . واحتلوا القرم في الجنوب وخرّبوا مدن القوط والبيزنطيين .

واجتاح المغول روسيا بين ١٢٣٧ و ١٢٤٠ بقيادة باطاي أو باطو، وفي ١٢٤٠ خربوا مدينة كييف وفي ١٢٤١ خربوا بولندا وسيليزيا ومورافيا ، وفي ١٢٤١ أيضا سقطت في أيديهم مدينة بيشيت (بودابست) ، عاصمة المجر ، وزحفوا الى بحر الادرياتيک . ولكنهم انسحبوا بعد وفاة ابن جنكيزخان ، واسمه أوجوداي ، وعادوا الى منغوليا .

وفي ١٢٥٨ دمر هولاكو حفيد جنكيزخان بغداد وقتل آخر الخلفاء العباسيين . واستمر المغول بقيادة كوبلاي خان ، حفيد جنكيزخان ، في غزو الصين الوسطى والصين الجنوبية ، وفي ١٢٧٠ صفى كوبلاي خان امبراطورية أسرة سونغ في الصين الجنوبية واستولى على التبت وبورما في زمن زيارة ماركو بولو للصين . وأصبح كوبلاي خان أول موحد للصين بعد أن ظلت قرونا طويلة تنقسم الى شمالية وجنوبية . وقد ساعد المغول في كل هذه الانتصارات الساحقة أن العالم من شرقهم وغربهم كان ينقسم الى امارات أو « دويلات » مفتتة متحاربة وليس فيه دولة موحدة قوية .

كانت الحروب المستمرة بين هذه الامارات تهدد باستمرار طريق القوافل بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى فتضاfer كبار التجار أولا مع محمد خان ليبنى دولة عسكرية قوية في خوارزم تؤمن طريق القوافل ، وقد نجح في تأمين آسيا الوسطى ، ولكن يبدو أن الأمر كان بحاجة الى قوة

ضاربة أكبر من قوته لربط الصين بشرق البحر المتوسط ومن هنا نقل
التجار بعد ١٢١٨ تأييدهم للمغول ومولوا جنكيزخان حتى استطاع أن
يقيم أوسع امبراطورية عرفها التاريخ وربما أقصرها عمرا .

كان جيش المغول عبارة عن حشود ضخمة من الفرسان سريعي
الحركة ، ينقضون بسرعة ويختفون بسرعة ويثيرون الرعب بحرق المدن
والفتك بالتجمعات البشرية . وكانوا يستخدمون أسرى البلاد المفتوحة جنودا
في جيوشهم ويضعونهم في الصفوف الأمامية وفي أقل من مائة عام امتدت
امبراطوريتهم من الصين الى المتوسط ومن نهر لينا الى المحيط الهندي
وشملت العراق وأرمينيا وجورجيا وإيران وأفغانستان وروسيا الموسكوفية
والقرم والفلجا وسيبيريا الغربية وكازاكستان وآسيا الوسطى وتركستان
الشرقية ومنغوليا وبايكل ومنشوريا والصين والتبت وبورما . وفتحت هذه
الامبراطورية طريق التجارة من المحيط الهادي حتى البحر الأبيض المتوسط .

• • •



كتاب كوبلاي خان

□ ولد ماركو بولو بن نيكولو بولو عام ١٢٥٤ في جزيرة الريالتو بالبندقية . ولا أحد يعرف شيئاً عن حياته الأولى وعن تنشئته ، ويظن البعض انه لم يدخل مدرسة ولم يكن يعرف القراءة والكتابة بالاطالية .

وكان أبوه نيكولو بولو وعمه ماتيو من تجار البندقية الصغار أو متوسطي الحال . وكانا يسافران الى الشرق للتجارة . وفي سن الخامسة عشرة خرج ماركو مع أبيه وعمه الى عكا وتوجه ثلاثتهم الى القدس للحصول على زيت من سراج القبر المقدس . وكانت القدس يومئذ تحت حكم المغول ، وكان آل بولو يحملون خطاباً من البابا جريجورى التاسع في عكا الى خان المغول الأعظم في القدس ، فزود خان المغول آل بولو بألواح ذهبية عليها خاتم كوبلاي خان لضمان الأمان في الطريق .

وكان سلطان مصر البندقدارى يهاجم أرمينيا بجيش جرار ، ولكن آل بولو استطاعوا بلوغ أرمينيا بفضل هذه الألواح الذهبية . وكانت أرمينيا مركزاً لتجمع فرسان التتار بسبب كثرة الكلا فيها . ومن هناك وصلوا الى أرضروم وهي الأناضول التي كانت بلاد التركمان . وفي أرمينيا يصف لنا ماركو بولو أشياء تذكرنا بحواديت « ألف ليلة وليلة » وقصص السندباد . فهو يحدثنا عن جبال أرمينيا العالية وأخاديدها الغائرة التي تتساقط فيها جداول المياه المحملة بالماس من أعالي الجبال . وطريقة جمع الماس هي أن يلقي الناس بقطع من اللحم في هذه الجبال والأخاديد فيلتصق فيها الماس ، وتجتمع النسور على قطع اللحم فتحملها الى الوديان ، وهناك يتجمع الناس ويخيفون النسور بصياحهم فتطير النسور تاركة ما قد حملت من اللحم والماس .

ومر آل بولو بالموصل فتحدث ماركو بولو عن حرير المسلمين . ثم انطلقوا الى تبريز « وهي مدينة كبيرة وعريقة في قطر كبير يدعى العراق » .

وهناك وجد الناس يعيشون على التجارة وعلى صناعة الحرير المطعم بخيوط الذهب وعلى تجارة اللؤلؤ . وقد ذكر رحالة آخر عن نبريز أن تجار جنوا بنوا قلعة على جبل مشرف على هذه المدينة فقال لهم الخان : هذا ممنوع . انا بعثكم الجبل ، فأنقلوه الى بلادكم ، وهناك ابنوا عليه ما تشاءون . ولما بدعوا يجادلونه أمر بقطع رؤوسهم جميعا .

وبعد سبعة أيام من الرحيل وصل آل بولو الى مدينة كرمان التي كانت قد سقطت حديثا في أيدي التتار وكانت شهيرة بمناجم الفيروز . وبعد سفر أيام عديدة وصل ماركو بولو وأسرته الى ميناء هرمز على الخليج الفارسي حيث كانت الحرارة خانقة . وقرروا الرحيل الى الصين بالطريق البري فلتحقوا بالقوافل المسافرة شمالا الى هضبة البامير شمال الهند ليصلوا الى دولة كوبلاي خان . وكان الخان الأعظم كوبلاي قد منح هولاء لقب خان وأطلق يده في فارس . وكان آل بولو أثناء عبورهم فارس يجمعون المعلومات لصالح كوبلاي خان عن طائفة الحشاشين التي كانت تخل بالآمن في ايران وتقطع طرق القوافل في السهوب والبراري ، وهي منطقة الحشاشين .

كان الحشاشون ينقسمون الى سبع درجات على رأسها زعيمهم « عجوز الجبل » ، ومن تحته « الدعاء الكبار » وهم أعوانه الذين يسكنون القلاع ويلبسون ملابس بيضاء ، وتلا هؤلاء الطبقة الثالثة ، وهم « المجندون العاديون » (بكسر النون) ، والطبقة الرابعة ، وهم « الرفاق » (جمع « رفيق ») ، وهؤلاء لا يعرفون أسرار الجماعة . ثم الطبقة الخامسة ، وهم « المحكوم عليهم » ، وهؤلاء ينفذون أحكام « عجوز الجبل » ويلبسون الملابس البيضاء ولكن مع طائفة حمراء وحزام أحمر وتزلك أحمر . وأخيرا فهناك الطبقة السادسة وهم المبتدعون .

هذا ما يبدو للناس ، أما الحقيقة فغير ذلك . فالقمة في هذا النظام يحتلها الامام « الخفي » الذي سيأتي في آخر الزمان . والطبقة الثانية يحتلها « الكوديديا » وهم طبقة تعرف بأنها « حجة اللطف الالهي » . والطبقة الثالثة هم « الصادقون » وهم الحجة بأن حجة اللطف الالهي مكلفون من الامام وأن الامام مكلف من الله . أما الطبقة الرابعة فهم « الدعاء » ، والخامسة هم « الاتباع الجدد » الذين تلقوا حديثا أسرار الطائفة وأقسموا يمين الولاء لها ، والسادسة هم « المسوخون كلابا » أي الباحثون عن القبول في الطائفة بحث كلاب الصيد عن الفريسة . والسابعة هم « المؤمنون » وهم الشعب . وفي ماركو بولو أن طائفة الحشاشين هي طائفة الاسماعيلية

أو متفرعة منها . وقد كان الحشاشون يحاربون المسلمين والصليبيين في آن واحد .

قال ماركو بولو ان « عجوز الجبل » كان يقيم في قصر آية في البهاء وسط حديقة شاسعة غناء لا منيل لها في العالم كله فيها جداول من خمر ولبن وشهد وهور ، وكان يلقي أتباعه انها الفردوس الأرضي . وكان في بلاطه غلمان عمر كل منهم نحو اثني عشرة سنة ، وكان يعطيهم مخدرا يشربونه وحين يفيقون يجدون أنفسهم بين هؤلاء الحور في الفردوس الأرضي . أما هذا المخدر فهو الحشيش ، وهذا ما لم يعرفه ماركو بولو وإنما تحدثت عنه المصادر الأخرى . وكان « عجوز الجبل » يخدر الغلمان ثم ينقلهم الى قصره ويصحون في دهشة لخروجهم من الفردوس الأرضي . كل هذا ليسيطر على ارادتهم فيجعلهم يقتلون من يريد .

وذكر ماركو بولو أن هولاكو أراد أن يتخلص من شرهم في ١٢٥٢ فدمر قصر « عجوز الجبل » بعد حصار دام ثلاث سنوات ، وأباد الحشاشين عن آخرهم . ولكن ماركو بولو أخطأ في روايته لأن منهم كثيرين فروا الى جبال البامير ، وعند بعض المؤرخين أن طائفة الاسماعيلية من بقيائهم .

ثم سافر ماركو بولو وأسرته الى قشغر في غرب الصين ، ثم عبر صحارى جرداء قليلة الواحات حتى بلغ سور الصين العظيم . وتوقف آل بولو سنة كاملة في مدينة كانتشيو حيث وجدوا مسجدا وثلاث كنائس وعددا عظيما من المعابد الصينية . وكان ماركو بولو قد تعلم لغة التتر .

وبعد سنوات من الرحيل استعد ماركو بولو للقاء كوبلاي خان ، خان المغول الأعظم فوصل الى بلاطه في مايو ١٢٧٥ مع أبيه نيكولو وعمه ماتيو . وقادهم رسول الخان الى بلاطه في تشانج تو فبلغها بعد رحلة أربعين يوما .

ووجد ماركو بولو كوبلاي خان يجلس على عرشه كل يوم ويصدر أوامره اليومية لتصرف أمور الدولة ، ومن بين هذه الأوامر أمر يومى للشمس أن تشرق . وحين شاخ كان يخشى أن يتأخر في النوم فكان يكلف أحد رجال البلاط بتلاوة هذا الأمر الفلكي حتى لا يختل نظام الكون . ووجد بلاط الخان الأعظم الذى جلس على العرش منذ ١٢٥٦ ، يعج بالأجانب من نساطرة سوريا ومن العرب ومن البنادقة ومن أهل جنوا . وأبلغ ماركو بولو كوبلاي خان بكل ما رآه وسمعه في رحلته ، وكان قوى الذاكرة فأعجب به كوبلاي خان . وكان واضحا أن ماركو بولو استثمر مواهب الرحالة الأوربي في التجسس لحساب كوبلاي خان لينال الخطوة في بلاطه .

ووجد ماركو بولو كوبلاى خان متزوجا من أربع زوجات شرعيات يسميهن بالامبراطورات ، وخصص لكل منهن ٣٠٠ آنسة من الوصيفات وحشدا من الرجال لخدمتهن ، فكان فى بلاط الخان الأعظم نحو ١٠٠٠٠ شخص . وكانت له محظيات عديدات يختارهن سفراؤه أو مبعوثوه وكن يفحصن من جميع الوجوه ويعطون درجات بالقيراط ، وأخيرا تختار كل من تحصل على ٢١ قيراطا ، ويدخلن عليه خمسا ، ويتغيرن كل ثلاثة أيام ، ثم تبدأ الدورة من جديد . أما من بلغ تقديرهن بين ١٦ و ٢٠ قيراطا فكن يعشن فى القصر الملكى ويتعلمن الخياطة والأعمال المنزلية ويتزوجن من رجال البلاط بعد أن يمنحهن كوبلاى خان الدوطة اللازمة . وكان لكوبلاى خان ٢٢ ولدا ذكرا من زوجاته الأربع منهم عشرة صاروا ملوكا . وكان له من محظياته ٢٥ ولدا آخرين .

وكان كوبلاى خان ، كما يروى ماركو بولو ، كثير السأم ، وكان يبدد هذا السأم بدعوة اليهود والمسلمين والمسيحيين والسحرة الوثنيين ، ويجعلهم يتجادلون أمامه فى الدين ويهب المنتصر الهدايا . وكان دائم التنقل بين قصوره . وكان رهيبا ومرهوبا يرتعد الناس فى حضرته ، وكان يسكر بلا حساب ، فحذره طبيبه من أن الاسراف فى تناول الكحول وأكل اللحم يسبب تورم ساقيه .

وقد تبع ماركو بولو الخان الأعظم الى قصره الشتوى فى كامبالوك أو « خان بليغ » ، وهى مكان بكين الحالية ، وكان بها مرصد كبير .

وقد جمع كوبلاى خان ثروة طائلة من تجارة الجملة . وجمع كنوزا مقابل عملة ورقية ابتكرها ولم تكلفه شيئا ، فكان بذلك أول ملك ابتكر العملة الورقية . وكانت العملة الورقية عبارة عن شرائح مربعة من لحاء شجر التوت وقد طبع عليها الخاتم الامبراطورى . وقد أساء خلفاء كوبلاى خان استعمال اصدار العملة الورقية فنشبت ثورة ١٣٥٩ ، وبعد عشر سنوات انتهى حكم المغول . وكان طبيب كوبلاى خان الايطالى ، واسمه ايسيا ، يشغل بمحاولة تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، فحاول ماركو بولو اقناعه بأن التجارة أوفر كسبا من تجاربه الكيميائية أو السيميائية .

أوفد كوبلاى خان ماركو بولو فى مهمة عبر الصين وكلفه بمهمتين : الأولى معرفة من يقبلون عملته الورقية ومن يرفضونها ، والثانية هى اعداد بيان بصادرات المناطق المختلفة . وكانت هناك محطات لتغيير الخيول كل منها تبعد عن الأخرى ٢٥ ميلا ، وبين هذه المحطات رجال بريد كل ثلاثة أميال مجهزون بأجراس يعلنون بها اقترابهم لتسليم الرسائل للطوائف فى

كل مرحلة تالية ، وبهذا كان الطوافون يقطعون بالرسائل في يوم واحد مسافة ١٠ أيام .

وكان كوبلاي خان يستخدم البغايا لأكرام ضيوفه ، وكان عددهن ٢٥٠٠٠ بغى ، وكن يقمن بهذا الواجب بدلا من دفع الضرائب للدولة . وفي مناطق من الصين كانت بكاره العذارى بلا قيمة . وكانت النساء العجائز تقدن البنات للتجار المسافرين وللرحالة في خيامهم ، وتدوم المعاشرة حتى رحيل الرجال ، وينتهى دائما بهدية يقدمها الرجل للفتاة . فمن لم تجمع من الفتيات عشرين هدية كانت تعد بلا قيمة . ولكن بعد الزواج كانت الفتيات تخلصن لأزواجهن .

وقد عبر ماركو بولو ثماني مناطق من الصين حتى بلغ منطقة اعتادت أن يقدم فيها المضيف زوجته أو أخته أو أبنته لضيفه إكراما له . وكان رب الدار يترك بيته ولا يعود إليه قبل انصراف الضيف حتى لا يزعجه .

وبلغ ماركو بولو منطقة أخرى من الصين اسمها زار دندان ، وتعنى « ذوى الأسنان الذهبية » . وفي هذه المنطقة كان الزوج حين تلد زوجته يتظاهر بالمرض وآلام الولادة ويتلقى التهاني بأنه أصبح أبا ، كل ذلك ليثبت أنه بالفعل الأب الحقيقي للطفل .

وقد ساعدت أسرة ماركو بولو كوبلاي خان على فتح الصين الجنوبية التي استعصت على جنوده ، وذلك بإدخال المنجنيق في أسلحته لقذف كرات حجرية زنة كل منها ٣٠٠ رطل لتدمير التحصينات .

وكان كوبلاي خان لا يثق في الأمراء المغول ، فكان يتوسع في استخدام الجنرالات التتر والعرب والأوروبيين في بلاطه . وكان يصفى المؤامرات بعدام الخونة والقاء جثثهم للكلاب في الشوارع أو سلخ جلودهم أحياء ، كما فعل مع قائده العربى أحمد الذى قاد فتنة ليستولى على جزء من مملكة كوبلاي خان .

وبعد سقوط أحمد ازدادت ثقة كوبلاي خان في ماركو بولو ، فعينه حاكما على إحدى مقاطعاته بينما انصرف أبوه نيكولو وعمه ماتيو الى التجارة . ويصف لنا ماركو بولو صناعة الخمر من الأرز في الصين وعن فرض كوبلاي خان العملة الورقية على الصينيين . كذلك كانت العملة الحديدية وعملة الأصداق أو « الودع » منتشرة في الصين ، فحلت محل العملة النحاسية ، حتى حرمت الدولة بيع الحديد في القرن ١٢ ، وبدأت تصهر الحديد في أفران عالية الحرارة وهو ما لم تعرفه أوروبا الا في القرن ١٨ . وفي عودة ماركو بولو لوطنه مر بفارس فوجد العملة الورقية تستخدم هناك .

وفي ١٢٨٦ كان عمر كوبلاي خان ٧٦ سنة . وأراد نيكولو وماتيو بولو العودة الى البندقية ، ولكن كوبلاي خان رفض الأذن لهما في ذلك . ولكنه وافق أخيرا على سفر آل بولو الثلاثة الى فارس في ١٢٩٢ لمصاحبة عروس مغولية اختارها كوبلاي خان للزواج من أرجون ملك فارس المغولي . وأعطاهم ألواحاً ذهبية مختومة تؤمن مرورهم في كل إمبراطورية المغول ، وحملهم رسائل للملك فرنسا وملك إنجلترا وملك أسبانيا والبابا وغيرهم من أقيال أوروبا ، وجهزهم بثلاث عشرة سفينة كل سفينة منها بأربعة صواري ، واثنى عشر شراعاً . وكانت حاشية الأميرة العروس تبلغ ٦٠٠ شخص ، وقد حملت السفن تموين عامين من الرحيل . وكان عمر ماركو بولو يومئذ ٤٢ سنة .

وكان ماركو بولو يعرف الطريق البحري . . وكان الصينيون يعرفون البوصلة التي تتجه للنجم القطبي كما يقول ماركو بولو . ومر بجزر منها جاوة وسنغافورة حيث لم تكن النقود من الأصداغ أو الودع كما كانت الحال في الصين . ومر بسومطرة حيث توقفت السفن خمسة شهور ، وهناك جمع ماركو بولو حبوب التقاوى ليزرعها في البندقية عند عودته . واختفى النجم القطبي ، وتاهت سفنهم فترة . وفي ماركو بولو أنه نشأت بينه وبين الأميرة علاقات غرامية .

وبلغت السفن سيلان ثم الهند . وفي سيلان رأى ماركو بولو صيادي اللؤلؤ يغطسون طول النهار وراء اللؤلؤ . وفي الهند كان الملك متزوجاً من ٥٠٠ امرأة ، وكان الهنود وثنيين يعبدون آلهة من إناث وذكور . وكانت آلهتهم سوداء أما شياطينهم فكانت بيضاء ، وهو ما عجب له ماركو بولو .

وعند ساحل مالابار تحرش بهم قرصان من ماليزيا . وعاد النجم القطبي الى الظهور ، ولكن السفن تاهت من جديد لأن الربان مات ، وكان عدد البحارة يتناقص كلما توقفوا في ميناء . وأخيراً وصلوا الى أفريقيا الشرقية قبالة زنجبار . ويبدو أن ماركو بولو يصف هنا جزيرة مدغشقر لأنه يقول انها كانت أكبر جزيرة رآها في حياته .

وفي كل محطة كان أبوه وعمه يشتريان البضائع للتجارة . ثم أبحروا شمالاً الى سقطرة أمام ساحل جزير العرب . ووصلوا الى هرمز ولكنهم وجدوا في فارس جيوش المغول تقاتل جيوش المغول . فسلم التجار الأميرة للملك الغزنوي المنتصر . وانتهى أمر آل بولو الى تبريز ، فباعوا لآلهم ورحلوا متخفين الى تقليس في جورجيا وكانت خاضعة للتتار . وهناك رأوا آبار النفط تتفجر كالنوافير . ونزل الأب والعم في ترابيزون على البحر الأسود

ومنها ركبوا المركب حتى القسطنطينية ، ولم ينزلوا على اليابسة بعد أن عرفوا
أن أهل جنوا أصبحوا سادة البر والبحر في كل مكان .

ومر آل بولو الثلاثة بأرخبيل بحر ايجه ، وأخيرا عادوا الى دارهم
في البندقية عام ١٢٩٥ وكانت خالية ليس بها الا خادمهم المعجوز الفانى فلم
يتعرفوا عليه بعد غيبة خمسة وثلاثين سنة .





القصر الذهبي

□ لم يكن ماركو بولو أول من زار الصين من الأوروبيين في العصور الحديثة فقد سبقه إليها سفير البابا أنوتشينتو الرابع في ١٢٤٦ وسفير لويس التاسع في ١٢٥٣ .

وفي رحلة الأخوين نيكولو وماتيو الأولى عام ١٢٦٠ كانت دولة المغول تنقسم إلى أربعة أقسام مستقلة رغم أنها كانت اسمياً يرأسها كوبلاي خان . وكانت هذه الأقسام هي :

(أ) دولة باركا خان قائد الجيش الذهبي ، وهو حفيد جنكيز خان ، وتشمل أوربا الشرقية وامارات روسيا حتى جبال الأورال .

(ب) دولة هولكو ، حفيد جنكيزخان وأخو الخان الأعظم كوبلاي ، وتشمل العراق وفارس وأفغانستان وأرمينيا وجورجيا .

(ج) دولة آسيا الوسطى وكازاكستان الجنوبية ومنغوليا الغربية وكان يحكمها بعض أحفاد جنكيز خان .

(د) شرق الأمبراطورية ، أي الصين وبورما ومنشوريا وأكثر منغوليا وبايكال والتبت وتركستان الشرقية ، وكان يحكمها الخان الأعظم كوبلاي .

وكانت طرق التجارة من الصين إلى البحر المتوسط والبحر الأسود مفتوحة على الدوام إلا عندما تفشيت الحرب بين المغول أنفسهم ، كحرب ١٢٦٢ بين باتركا وهولاكو . فكانت القوافل تسير سنوياً من آسيا الوسطى إلى الصين ومن شواطئ الفولجا إلى فارس وبخارى . وكان يلحق بها صغار التجار والحجاج .

وكان ابن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٧٧) معاصراً لماركو بولو . وكان المسلمون في الصين كثيرين ، وقد قابل ماركو بولو منهم عدداً كبيراً من

الأطباء والعلماء والجنود والمديرين في الصين التي فتحها المغول . وفي الموانئ وفي المراكز التجارية بطول طريق القوافل أسس المسلمون أحياء كاملة . كذلك بدأ عهد جديد في علاقات الصين بأوروبا منذ الحروب الصليبية بعد أن ذبلت هذه العلاقات قرونا بقيام الدولة الساسانية ثم الدولة العربية .

ورغم انقطاع علاقات الصين بأوروبا طوال العصور الوسطى فقد استمرت علاقات الصين مع الهند ومع آسيا الوسطى . وقد حاولت الصين أن تستفيد من الصراع الدائر بين العرب والفرس في القرن السابع عند ظهور الاسلام ، فحاولت أن تضم بعض أقاليم آسيا الوسطى ، ونشبت في القرن الثامن صراع مسلح بين العرب والصين . وكانت البوذية قد انتشرت في الصين منذ القرن الرابع الميلادي فكثر الحجاج الصينيون الى الأماكن المقدسة في الهند . وفي العصر الاسلامي ترك الرحالة العرب والفرس كتابات هامة عن الصين .

وبعد أن عاد ماركو بولو الى البندقية وجد دويلته في حرب ضروس مع دويلة جنوا فاشترك في هذه الحرب التي انتهت بهزيمة البندقية ، وأسر ماركو بولو في الحرب وقضى ست سنوات في السجن بجنوا ثم أفرج عنه وعاد الى البندقية .

وفي أثناء حبسه في سجن جنوا أملى ماركو بولو على زميل له في السجن يدعى روستيكان كتابه الشهير المعروف باسم « كتاب كوبلاي خان العظيم » ، وهو مدون بالفرنسية القديمة التي كانت لغة الثقافة العالمية في تلك الأيام .

وكان روستيكان نفسه فارسا يشتغل بتأليف الروايات الخيالية المليئة بالمغامرات . ولعل هذا هو السبب في أن قراء ماركو بولو ظلوا قرونا لا يأخذونه مأخذ الجد ، ويتصورون أن « كتاب كوبلاي خان العظيم » هو مجرد عمل من أعمال الخيال .

ولكن البحث في القرن التاسع عشر أثبت صدق تفاصيل رحلة ماركو بولو في مجموعها بغض النظر عن اعتماده على السماع في بعض الأحيان . فهو أحيانا يروي الأساطير عن الصين وعن بعض البلاد التي زارها والقصص الشبيهة بقصص « ألف ليلة وليلة » ، ومنها حكاية الطائر الجسيم أو الرخ الذي يرد في حكاية السندباد ، ومنها وصفه لجبال الماس .

ومن المفارقات الغريبة أن فارسا رحالة اسمه جان دي مانديفيل كتب مثل ماركو بولو كتابا بالفرنسية عن أسفاره في الشرق بين ١٣٥٧ و ١٣٧١ ، أي بعد ماركو بولو بمائة عام تقريبا ، وقال إنه ساح أربعين سنة في تركيا

وارمينيا وسوريا وفلسطين ومصر وليبيا . وفي مصر ذكر مانديفيل انه كان يعمل في جيش السلطان الذى اراد أن يزوجه من ابنته بشرط أن يعتنق الاسلام ، ولكنه رفض وهرب الى القدس ، ثم زار روسيا وبولندا ولتوانيا والهند وسومطرة والصين . ولما ترجم كتابه الى الانجليزية كان له اثر عظيم تجاوز بكثير اثر كتاب ماركو بولو .

ففى القرن الخامس عشر صدرت من كتاب مانديفيل ٢٥ طبعة بينما لم تصدر من كتاب ماركو بولو الا ٥ طبعات ، رغم انه تبين بعد ذلك أن مانديفيل كان شخصية وهمية وأن كتابه بقلم طبيب بلجيكي من مدينة لياج يدعى جيهان دى لبارب .

وقد كان ماركو بولو منحازا للمغول لأنه كان معجبا بهم ، فهو لا يتحدث عما أنزلوه بالبلاد المفتوحة من تدمير وتقتيل واحراق ، بل لا يتوقف عن التعبير عن الاعجاب بهم ويعظيمهم كويلاي خان على وجه الخصوص . وهو يعبر عن حزنه لما اصاب المغول من تدهور بسبب مخالطتهم لشعوب كان يراها منحلة كالصينيين والفرس والسوريين وغيرهم من الأمم التى قهرها المغول .

وبعد أن ثبت للناس أن ماركو بولو لم يكن مجرد قصاص بارع بل كان بالفعل رحالة يصف البلاد على الطبيعة ، أخذوا يمجّدونه تمجيدهم لمكتشف عظيم اماط اللثام عن بلاد جديدة ، فذهبوا من النقيض الى النقيض . فحقيقة الأمر أن ماركو بولو كان مجرد تاجر من تجار الجملة يعرف طرق القوافل والمسافات ومواقع الكلا وموارد المياه والبرارى والقفار معرفة تامة ، كما كان يعرف أسرار بعض البضائع والصنائع ، وهى اهتمامه الاول . لقد كان اثناء مقامه فى الصين وغيرها اجنبيا فى بلاط ملك اجنبى . ولم يعن بأن يتعلم لغة الصين وانما اكتفى بتعلم لغة المغول وابجدية التتر مع ذكريات من السريانية والعربية اللتين تعلم جانباً منهما فى بداية رحلته الطويلة ، وربما بعض الفارسية .

فماركو بولو اذن لم يكن مؤرخا ولا جغرافيا ولا عالما فى علم الاجتماع ، وانما كان اهتمامه الأكبر هو اهتمام التاجر الذى يفكر دائما فى الانتاج والاستهلاك أو على الأصح ما يمكن شراؤه وبيعه . وهو لا يطيل الحديث عن عادات الأقوام وتقاليدهم ومعتقداتهم الا ما شذ من احوالهم ، وانما يطيل الحديث عن الأقمشة والحريز والدنتيلا والطيوب والتوابل والأحجار الكريمة ، وهى مطالب تجار البندقية من الشرق .

فهو مثلا فى القسم (٣٨) يقول : « كوينان مدينة كبرى أهلها يتبعون محمدا وفيها حديد كثير وصلب كثير ، وهناك يصنعون من الصلب مرايا

جسيمة الحجم . جميلة الهيئة . وهناك أيضا يصنعون التوتيا لعلاج العيون» .
وهو فى القسم (٢٣) يقول : « وكل المنسوجات التى تصنع من الحرير
وخيوط الذهب تسمى موسلين ، ومن هذه البلاد يسافر تجار عديدون
يسمون بالموصلين . وهم يصدرون كميات وافرة من التوابل ومن الأقمشة
ومن منسوجات الذهب والحرير » .

وهو فى القسم (٣٤) يقول : « الرجال هنا مهرة يحسنون ببراعة
صناعة كل الادوات اللازمة للفرسان كالعقود والبرادع والمهاميز والسيوف . .
والسيدات والأنسات يشتغلن بمهارة فائقة اشغال الابرة الجميلة على
الأقمشة الحريرية والبروديرى بالألوان المختلفة . فيرسمن صور الحيوانات
والطيور والأشجار والزهور » .

وفى القسم (٤٦) بحدثنا ماركو بولو عن الأحجار الكريمة . أما فى
القسم (٢١) فيحدثنا عن بترول باكو فى أذربيجان فيقول : « اعلّموا أن هناك
نافورة ينبثق منها النفط بغزارة لدرجة أنه يمكن لمائة سفينة أن تأخذ حمولتها
منه فى وقت واحد ، وهو لا يصلح للأكل ولكن يصلح للاشعال ولدهن الجمال
المريضة . والناس تأتى من اقاصى البلاد لحمله ، ففى كل هذه البلاد
لا يستخدمون الزيت فى الاشعال » . وفى القرن ١٣ كان الصينيون يستخدمون
الفحم للوقود وماركو بولو يخصص فصلا لذلك .

ومن الغريب أن ماركو بولو لا يحدثنا عن الزراعة فى الصين ولا عن
زراعة الشناى رغم أنه يحدثنا باستفاضة عن العملة الورقية ، كذلك لا يحدثنا
ماركو بولو عن أن الصين عرفت الورق والطباعة فى أيامه كما هو مأثور ،
ومع ذلك فإنه يقال أنه عاد الى البندقية بكتاب مطبوع فى الصين ويقال
أيضا ان حكومة البندقية كلفت موظفا فيها يدعى كاستالدى (١٣٩٨ —
١٤٩٠) بنسخ بعض الأوراق الرسمية ، فاستفاد من اختراع توصل اليه كبير
اساقفة أكويلا ، واسمه ناتالى ، حين صنع حروفا منفصلة من زجاج ،
وكان يضغط بها على الورق وتلون باليد . وقد صنع كاستالدى هذه
الحروف المنفصلة من الخشب ومن المعادن بدلا من الزجاج ، بعد أن رأى كتبها
كان ماركو بولو قد جاء بها من الصين ، وطبع الأوراق بمساعدة الواح
صغيرة من الخشب يمكن تغيير مواضعها وكان ذلك عام ١٤٢٦ . وتقول
الرواية ان يوهان فاوست ، زميل جوتنبرج مخترع الطباعة كان يتردد على
« منسخ » كاستالدى وأنه تعلم منه هذه الطريقة .

كذلك من الغريب أن كتاب ماركو بولو ليس فيه ذكر لأن الصينيين
عرفوا البارود كما هو شائع ، ومع ذلك فنحن نعرف ذلك من مصادر أخرى

مثل قول شيلجيل « ومع ذلك فأنى أؤكد أن المغول كانت لديهم مدفعية في ١٢٩٣ ، وأنهم عرفوا مدافع الهاون منذ ١٢٣٢ . ومنذ ١٢٣٣ كان الصينيون يستعملون قوة النار في المنجنيق » .

ومن وصف ماركو بولو لثروات الشرق الأقصى وكنوزه الأسطورية التي بقيت في ذاكرة الأوربيين وجعلتهم يلهثون وراء ذهب العالم قرنا بعد قرن ، وصفه لجزيرة اسمها زيبانجو قال انها تقع على بعد ١٥٠٠ ميل من اليابسة في أقصى الشرق . قال :

« وسوف أروى عليكم عجيبة هائلة هي قصر سيد هذه الجزيرة — فأعلموا اذن أنه يملك قصرا عظيما سقفه كله من الذهب الخالص على غرار ما نكسو نحن سقوف كنائسنا بألواح الرصاص ، بحيث تتجاوز قيمة هذا القصر كل ما يمكن أن نتصوره . وفوق هذا فان أرضفة القصر وأرضية الحجرات مكسوة تماما بألواح الذهب وكأنها مربعات من بلاط حجري سمكه بين أصبعين وثلاثة أصابع . وبالمثل فكل نوافذ القصر من الذهب الخالص ، حتى أن قيمة هذا القصر تتجاوز كل تصور .

« ولديهم بوفرة أيضا الأحجار الكريمة واللآلئ الوردية اللون وهي غاية في الجمال . وهي غالية الثمن . وهذه اللآلئ كبيرة الحجم جدا ومستديرة ويبلغ ثمنها ثمن اللآلئ البيضاء » .

وقد كان وصف قصر جزيرة زيبانجو من أكثر الأشياء التي استرعت انتباه الأوربيين في بدايات عصر النهضة الأوربية وحفزت مئات المغامرين الى التجوال برا وبحرا في أركان المعمورة الأربعة فيما يسمى بحركات الكشف الجغرافي ، رغم أن هذا الوصف وصف لقصر أسطوري نعرفه نحن جيدا في الخيال الشرقي الفولكلوري أو كما تقول حواديتنا هو قصر فيه طوبة من ذهب وطوبة من فضة .

وفي متحف كولبوس بأشبيلية نسخة من كتاب ماركو بولو عليها سبعون ملاحظة بقلم كولبوس الذي تأثر كثيرا بوصف هذا القصر الذهبي وكان يظن أنه في اليابان ، وقد كتب الجغرافي باولو توسكانيلى خطابا مشهورا الى كولبوس عام ١٤٧٤ يتحدث فيه عن هذا القصر العجيب ويستحثه للوصول الى جزيرة زيبانجو بكنوزها الوفيرة وقد لمع هذا السراب الذهبى بعد مائتي عام ، كما لمعت لآلئ الهند التي تحدث عنها ماركو بولو وأماض ، في خيال كولبوس حين خرج في رحلته المشهورة غربا في أغسطس ١٤٩٢ ليصل الى الشرق الأقصى والهند اعتمادا على كروية

الأرض . فوصل بدلا من ذلك الى جزر الهند الغربية (سان سلفادور) في
١٢ أكتوبر ١٤٩٢ .

ومنذ ذلك التاريخ والاستعمار الأوربي لم يهدأ ولا يريد أن يهدأ في بحثه
عن قصور الذهب في زيبانجو أو زاردندان أو زانادو ، جزيرة كوبلاي خان
المسحورة . وفي هذا البحث الدائب خاض الاستعمار في بحار الدماء ، ولكنه
أيضا اكتشف مجاهل الأرض والسماء .

• • •

دانتي اليجيري

DANTE ALIGIERI

١٢٦٥ - ١٣٢١



□ لو أردنا أن نؤرخ لبداية عصر النهضة الأوروبية لما وجدنا تاريخا
انسب من مطلع القرن الرابع عشر ، وهو فترة انشاء ملحمة « الكوميديا
الالهية » الشهيرة - التي نظمها بين عام ١٣٠٧ وعام ١٣٢١ - « دانتي
اليجيري » أبو الشعر الايطالي كما يسمونه في تاريخ الآداب الأوروبية
(١٢٦٥ - ١٣٢١) .

فإذا أردنا أن نحدد معنى عبارة « أبي الأدب الايطالي » قلنا ان
معناها هو ان دانتي اليجيري هو واضع أساس الأدب القومي في ايطاليا ،
لانه كان أول شاعر فحل يستخدم اللغة الايطالية وهي اللهجة العامية من
لهجات اللغة اللاتينية التي كانوا يتكلمون بها في ايطاليا في التعبير الأدبي
العظيم . وبذلك جعل دانتي من هذه اللغة العامية الرثة القلقة الفقيرة
الريكة لغة فصحي قادرة على التعبير الأدبي البليغ .

وبذلك أيضا مكن دانتي الايطاليين من الاستغناء درجة درجة عن
الكتابة باللغة اللاتينية ، بعد أن ظلت اللغة اللاتينية الفصحى أولا ، ثم
اللاتينية الوسطى ثانيا ، أكثر من أربعة عشر قرنا هي اللغة الرسمية
في روما وكافة أرجاء الامبراطورية الرومانية ثم في ايطاليا وكافة أرجاء
العالم المسيحي الغربي . فكانت لغة الدولة ولغة الكنيسة الكاثوليكية
ولغة القانون ولغة الخطابة ولغة الرسائل ولغة التأليف في كل ما يتصل
بالدين والدنيا .

كانت اللاتينية لغة مقدسة تستمد قداستها من ممارسات الكنيسة
الكاثوليكية وشعائرها فلا صلاة الا بها ولا قداس الا بها ولا وعظ الا بها
ولا نصوص دينية أو دنيوية الا بها ، بل ولا نصوص من التوراة والانجيل
معتمدة من الكنيسة الا الصيغة المترجمة الى اللاتينية من الكتاب المقدس .
وكانت الكنيسة حريصة على بقاء هذا حتى تحول الأمية وجهل العامة

باللاتينية الفصحى والوسطى دون فهم العامة لنصوص دينهم بالاطلاع المباشر فيدوم اعتمادهم على رجال الدين في كل ما يتصل بأمور دينهم .

ولم يكن هذا وضعاً خاصاً بإيطاليا وحدها أو بفرنسا وحدها أو بأسبانيا وحدها . حيث اللهجات العامية منحدره انحداراً مباشراً من أصول لاتينية فيقال ان لغة الكلام قريبة الشبه بلغة الكتابة . ولكنه كان القاعدة أيضاً في ألمانيا ومجموعة الشعوب الجرمانية وفي إنجلترا وفي شعوب شمال أوروبا . حيث لغة الكلام لم تنحدر من اللاتينية وحيث الفجوة بين لغة الكلام ولغة الكتابة اشد عمقا وأوسع مدى .

كانت اللاتينية الوسطى لغة منحلة من اللاتينية الفصحى شبيهة بلغة الجرائد والاذاعة والتلفزيون في بلادنا اليوم . . بالقياس الى اللغة العربية الفصحى .

ورغم أنها سارت في طريق التبسيط . ورغم أنها كانت لغة مهجنة . إلا أنها حافظت بقدر الامكان على نحو الفصحى وصرفها واعرابها وما يكفى من سماتها الرئيسية بما يجعلها لاتينية منحلة بعيدة عن فهم العامة وخائفة للتعبير الادبي في وقت واحد .

بعبارة أخرى كان هناك ازدواج لغوي : فالناس تقول شيئاً وتكتب شيئاً آخر . . بما أدى الى شل كل تعبير وجداني تلقائي وكل وصف صادق للحياة والطبيعة . . وحبس العاطفة والخيال في اطارات البلاغة التقليدية القديمة . فأجهض كل ابداع ادبي اكثر من ألف عام .

وطوال هذه الأعوام الألف لم تكن هناك مشكلة متأزمة . لأن سيطرة الدين على كل مرافق الحياة لم تترك إلا هامشاً ضئيلاً للفن والادب . بل لقد كان الفن والادب في نظر القائمين على الدين محرمات دنيوية تلهي الانسان عن ذكر الله وتستدرجه الى الشهوات ، وعبادة الجمال .

أما اللغات العامية في أوروبا . . أو « المنحلة » كما كانت تسمى يومئذ . . فقد كانت في المجموعة اللاتينية وهي الإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية والرومانيش . . لغات منحلة أو لهجات من اللاتينية الوسطى نفسها وقد اختلطت عبر القرون بلغات القبائل المتبربرة الغازية وبالتعبيرات الشعبية من مفردات وتراكيب ومصطلحات وعادات خاصة في النطق والنحو والصرف والعروض . . ولأنها كانت لغات الشعوب فقد كانت تتميز بالحيوية والتلقائية والصدق في التعبير أكثر من اللاتينية

الوسطى . رغم كل ما كان يشوبها من فوضى وعدم الخضوع دائما لقواعد واضحة . . بل وغلظة وجلافة في بعض الأحيان .

ولذا فقد اقترب ظهور الآداب الأوروبية الحديثة بالثورة على تلك اللغة الجامعة ، لاتينية العصور الوسطى ، وباتخاذ اللغات العامية في أوروبا أدوات للتعبير الأدبي في الشعر أولا ثم في النثر . . وقد اقترن هذا التحول الخطير بظهور القوميات الحديثة في أوروبا وبسيادة لغة الشعب على لغة السادة الرسمية . . ولذا فقد كان اتخاذ لغة الكلام لغة للكتابة وللتعبير الأدبي بمثابة ثورة كبرى رسخت دعائم القوميات الحديثة ومهدت للديمقراطية منذ بدايات عصر النهضة الأوروبية .

واجتاحت أوروبا بين ١١٠٠ و ١٣٠٠ (أى طوال القرنين ١٢ و ١٣) . . موجة من التعبير الأدبي بالشعر العامى — الغنائى والقصصى . ففي فرنسا شاع الشعر الغنائى الذى كان ينظمه أو يرتجله الشعراء الجوالون في الجنوب (التروبادور) والشعراء الجوالون في الشمال (التروفير) . وهم أشبه ما يكونون بشعراء الماويل الشعبية . . كذلك اشتهر كريتيان دى تروا (١١٣٥ — ١١٨٣) بما نظمه من فصول ملحمة شعرية باللغة الفرنسية العامية . وفي نفس الفترة اشتهرت ملحمة « أغنية رولان » التى نظمت بين ١١٠٠ و ١١٢٥ وهى عن مغامرات فرسان شرلمان وملاحم أبطال الفرنجة مع أبطال العرب في جنوب فرنسا والبرانس . وسيرة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة ثم تلك الملحمة الروحية العجيبة « أغنية الورد » التى بدأها جويوم دى لوريس نحو ١٢٣٦ وأتمها جان دى مانج (١٢٤٠ — ١٣٠٥) . ويقال إنه أكملها بين (١٢٧٥ و ١٢٨٠) .

هذه الأشعار العامية أشبه شئ بأشعار المواليا أو بالماويل الغنائية والموشحات التى ورثناها عن العصور الوسطى . . وهذه السير والملاحم أشبه شئ بتغريبة بنى هلال وبسير عنتره وسيف بن ذى يزن والأميرة ذات الهمة والوزير سالم والظاهر بيبرس التى ورثناها عن نفس الفترة في العالم العربى . كانت هذه ونظائرها الأساس الذى بنى عليه الأدب القومى في فرنسا . وفي انجلترا كانت هناك « حكايات كانتربرى » وأمثالها للشاعر تشوسر أبى الشعر الانجليزى (١٣٤٠ — ١٤٠٠) . و « سيرة الحارث بيرس » للشاعر لانجلاند وموال « السير جاوين والفارس الأخضر » الخ . . هى الأساس الذى بنى عليه الأدب القومى في انجلترا . وبهذه الآداب القومية نضجت اللغات القومية وغدت أدوات صالحة للتعبير الأدبى العظيم . وكانت الثورة على اللغة الرسمية الجامعة والاعتراف باللغات العامية هما الأساس الذى بنيت عليه القوميات الأوروبية الحديثة .

وهذا عين ما فعله في ايطاليا الشاعر دانتي اليجيرى (١٢٦٥ — ١٣٢١) ومن بعده الشاعر بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) والروائى بوكاشيو (١٣١٣ — ١٣٧٥) . هؤلاء الثلاثة تاروا على اللغة اللاتينية المقدسة الجامعة التى كانت لغة الدين والدولة في ايطاليا وفى كافة أرجاء أوروبا واتخذوا من اللغة الايطالية العامية أداة للتعبير الأدبى فى الشعر والنثر . . . وبذلك وضعوا أساس الأدب القومى وانضجوا اللغة القومية في ايطاليا .

وقد ولد دانتي في فلورنسا عام ١٢٦٥ لأب قيل انه كان يعمل موثق عقود . وأنه كان ينتمى لأسرة من صفار النبلاء . . . وأصاب دانتي في شبابه الباكر بعض الصيت في نظم الشعر الغنائى . وكان بين أصدقائه الشاعر كافالكانتى والرسام جيوتو . وفى شبابه الباكر تعرف أيضا على الفتاة بياتريس بورتينرى التى أحبها حب العبداء ونظم فيها قلائد الغرام . . . ولكن حبه لها كان حبا عذريا وكأنها طيف أثرى سرعان ما أصبح محورا هاما في كل أشعاره . فلما ماتت بياتريس عام ١٢٩٠ ، ودانتي لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره ، جمع قصائده فيها ونشرها مع مقدمة بعنوان « الحياة الجديدة » .

وتزوج دانتي من فتاة تدعى جيما دوناتى أنجب منها ولدين وبنتين . ويقال ان جيما كانت خطيبته منذ الصبا على عادة تلك الأيام حين كانت الأسر تربط ما بين بنيتها وبناتها وهم بعد صفار . ولا يعرف الكثير عن تعليم دانتي في شبابه ولكننا نسمع أنه قد التحق بنقابة الأطباء والصيادلة . ولم يكن في تلك الأيام ممكنا ان يشتغل أحد في مهنة من المهن الا اذا كان عضوا في نقابتها . . . ولا نعرف ماذا أهل دانتي لدخول هذه النقابة الا ان يكون قد تلقى العلم والتدريب في المهن الطبية .

كذلك نسمع عنه يعمل فارسا مقاتلا في معركة كامبالدينو ، وأنه كان يعمل أيضا في المجالس البلدية قبل ١٣٠٠ وهى وظيفة مدنية أهله لها عضويته في تلك النقابة المهنية الهامة . وكان قريبه كورسو دوناتى زعيم الحزب الارستقراطى الذى كان يسمى بالحزب الأسود ، أما صديقه الشاعر جويدو كافالكانتى فقد كان زعيم الحزب الأبيض ، وهو الحزب الشعبى ، فوقع دانتي بين هذين النقيضين . ونفى الشاعر كافالكانتى من فلورنسا أيام عضوية دانتي لمجلس الستة الذى كان يدير هذه الدويلة ، بسبب اشارة كافالكانتى لبعض الفتن في فلورنسا . ومن الوظائف التى تقلدها دانتي وظيفة السفير ووظيفة المشرف على تخطيط فلورنسا ، والعضو في اللجنة المشرفة على الانتخابات . ثم نسمع عنه وقد نفى من فلورنسا في ١١ يناير ١٣٠٢

حين استولى الأمير شارل دى فالوا ، أخو ملك فرنسا تحت جناح البابا ، على مدينة فلورنسا ، ثم عدل الحكم عليه في مارس ١٣٠٢ فصار « الموت حرقا » .

ولجا دانتي الى مدينة بولونيا عام ١٣٠٣ واشتغل بالمؤامرات مع الحزب الأبيض لقلب نظام الحكم في فلورنسا والاطاحة بالحزب الأسود الحاكم ، وهو حزب الارستقراط . فلما فشل قصد الى فيرونا في شمال غربى ايطاليا وربما سافر الى باريس . والارجح انه كتب كتابه الفلسفى « المائدة » (كونفيديو) بين أعوام ١٣٠٤ و ١٣٠٨ ، والارجح ايضا انه بدأ كتابه الناقص « فى البلاغة العامية » فى تلك الفترة . أما « الكوميديا الالهية » فقد بدأها دانتي على الأرجح فى فترة متأخرة من حياته ، ومعها بحثه « فى النظام الملكى » (دى موناركيا) ، وان كانت هناك اشارات فى نهاية ديوان « الحياة الجديدة » توحى بأن دانتي كان يفكر فى نظم « الكوميديا الالهية » فى تاريخ باكر هو ١٢٩٤ .

على كل فقد أصدرت حكومة فرنسا عفوا عاما عن أعدائها السياسيين فى ١٣١١ ولكن دانتي بالذات قد استثنى من هذا العفو . ثم لا يلبث الحكم عليه أن يتجدد فى ١٣١٥ . وقد أقام دانتي بعض الوقت فى فيرونا ضيفا على آل سكاليجر ، تحت حماية الدوق الشاب كان جراندى ديلا سكالا الذى أهدى اليه قسم « الفردوس » من « الكوميديا الالهية » . ثم انتقل دانتي الى رافنا بدعوة من أحد ساداتها اسمه جويدو نوفيللا دى بولينتا . ويبدو أن دانتي كان يحاضر فى رافنا واشترك فى جدل علمى حول دعوة وجهت اليه لأن يكتب ملحمة باللغة اللاتينية وقد كان دانتي كما هو معروف من أنصار العامية . وقد رحل فى سفارة الى البندقية ليوقف الغزو عن رافنا . ثم مات دانتي فى رافنا عام ١٣٢١ ودفن فيها .

وقد بدأ دانتي بالدفاع عن اللغة العامية فى تاريخ باكر من حياته الأدبية ، ولكن دفاعه الباكر كان يشوبه التحفظ . ففى ديوان « الحياة الجديدة » يذكر مترجمه ، دانتي جابرييل روزيتى ، أن دانتي استخدم العامية الايطالية لكى يسهل فهم قصائده على سيدة لا تتقن اللاتينية ، وكذلك ليعبر عن مضمونه الفلسفى تعبيرا غنائيا بلغة الحب . او كما قال دانتي نفسه ان العامية لا تصلح الا للتعبير عن الحب ، أما المعانى الأخرى فهى قاصرة عنها . ولكن دانتي لم يلبث أن خرج بعد ذلك بنظرية متكاملة فى الدفاع عن اللغة العامية ، فاستفز أكثر فقهاء عصره .

وفي « المائدة » يقول دانتي : « ان اللاتينية لغة ثابتة وغير قابلة للاضمحلال ، بينما العامية لغة غير مستقرة وهي قابلة للاضمحلال » . كذلك يعترف دانتي بأن اللاتينية « أكثر جمالا وامتيازا ونبلا من عاميتها الايطالية ، ولكن اللاتينية النصحى اقل استعمالا من لهجتها العامية » . وهو يعتذر عن استعماله للغة العامية بقوله : « انما اخترت هذا الطريق يدفعني حبي الطبيعي للغة موطني . . لكى ارفع أولا من شأن المحبوب ، ثم لكى اغار عليه نائيا ، ثم لكى اذافع عنه ثالثا » . والمحبوب هنا هو لغة الموطن (الايطالية) التى تنبأ لها دانتي بأنها « سوف تبرز كالنور الجديد وكالشمس الجديدة التى سوف تشرق عندما تغيب الشمس القديمة ، وسوف تسطع على من تكتنفهم الظلمة والضباب لأن الشمس القديمة لم تعد تسطع عليهم بالضياء » .

وهكذا تقدم دانتي على استحياء من مرحلة التجريب الى مرحلة اليقين والاعتزاز بلغة قومه وعصره ، فقد بدت له اللغة اللاتينية (الفصحى) لغة شكلية مصطنعة لا تعبر عن الواقع بعد أن ماتت جذورها الحية وتضاءلت علاقتها بالحياة . وحين بدأ دانتي فى انشاء « الكوميديا الالهية » كان مترددا حائرا بين القديم والجديد حتى أنه نظم مطلعها باللغة اللاتينية ، وكأنها كان يخشى أن تعجز اللغة العامية عن اثبات نبليها أو قدرتها على الحياة ، ولكن دانتي لم يلبث أن وثب الوثبة الكبرى فعدل عن كتابتها باللاتينية وقرر انشاءها بالايطالية .

وقد أورد بوكاشيو فى كتابه « سيرة دانتي » الأبيات الثلاثة الاولى من «الكوميديا الالهية» حين بدأ نظمها باللاتينية ثم أضاف : ولكن دانتي أعاد صياغتها « بلهجة فلورنسا . . لكى تعم قراءتها بين مواطنيه وبين غيرهم من الايطاليين . فقد عرف دانتي أنه لو نظمها بالعروض اللاتينية كما فعل أسلافه من الشعراء لما انتفع منها الا الراسخون فى المعرفة ، فى حين أنه بكتابتها بالعامية يحقق شيئا لم يحققه أحد قبله ، دون أن يمنع هذا فهم الأدباء لشعره » .

والحق أن القضية لم تكن قضية اللغة العامية وحدها أو مولد اللغة الايطالية كلفة صالحة للتعبير الأدبى ، وانما كانت القضية تمتد الى الدفاع عن الشعر والأدب الابداعى بعامه . فبالأكثر من ألف عام ، بعد انتصار المسيحية على الوثنيات الاولى ، انقرض الشعر اليونانى واللاتينى والأدب الابداعى بعامه مع ما انقرض من تراث وثنى ، بل ودخل الشعر والأدب الابداعى بعامه فى نطاق المحظورات والسفاسف الدنيوية التى لا يجوز لمؤمن زاهد فى عرض الدنيا أن يهتم بها ، وشاعت فى العالم المسيحى نظرية أفلاطون القائلة بأن الشعر غواية ونزيف ومجافاة للأخلاق الفاضلة والروحانية المثالية

الدائمة وابتنعاد عن عالم الحقائق وتزيين للخطيئة والكفر والشرك ، ومثل الشعر بقية الفنون .

وقد كان القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) من أسبق من روجوا لهذه النظرية . ولكن ذلك قاد به الى نظريته في الحقيقة الرمزية للأدب ، وهي النظرية التي مكنت مفكرى الرنيسانس بعد ألف عام من انقاذ آداب القدماء وفنونهم ومن الدفاع عن الآداب والفنون بوجه عام .

متى كتب دانتي بحثه الهام الناقص « في البلاغة العامية » ؟ بحسب ما جاء في « سيرة دانتي » لبوكاشيو : « وعندما اقتربت منية دانتي كتب كتابا صغيرا باللاتينية اسمه (في البلاغة العامية) . . ويبدو أنه كان ينتوى أن ينشئ أربعة فصول في هذا الكتيب . . الا أنه لم يبق لنا منه الا فصلان » . فإذا كان كلام بوكاشيو دقيقا من أن دانتي كتب دفاعه عن العامية قبيل وفاته ، فقد وجب أن ننظر الى هذا البحث نظرا الى آخر موقف اتخذته دانتي من قضية العامية والفصحى ، بل ونظرنا الى « مانيفستو » أو « بيان » أقدم أخيرا على اعلانه في هذا الموضوع ، الشائك بعد أن أتم « الكوميديا الالهية » باللغة العامية فأصبحت الأساس الأدبي الحقيقي الذي بنيت عليه اللغة الإيطالية .

ومما يلفت النظر أن دانتي في « البلاغة العامية » كتب دفاعه من اللغة الإيطالية العامية باللغة اللاتينية الفصحى . وقد دل هذا على أن اللغات الشعبية حتى ذلك التاريخ كانت قد نضجت للإبداع الأدبي ، ولاسيما في الشعر ، ولكن استخدامها في النشر العلمى والتعليمى وفى نشر البحوث والدراسات لم يأت الا متأخرا بعد أن استقر استخدامها في النشر الإبداعى (الرواية والقصة القصيرة والمسرح) ، فظلت اللغة اللاتينية لغة التعبير القانونى والدبلوماسى والعلمى والتعليمى والفلسفى والفكرى بصفة عامة أكثر من ثلاثة قرون بعد دانتي ، حتى فرانسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) ولايبنتز (١٦٤٦ — ١٧١٦) ، أو لعلها بقيت بعد ذلك الى حد ملموس .

بل ان الناقد الانجليزى الكبير صمويل جونسون (١٧٠٩ — ١٧٨٤) حين زار جامعة باريس فى أواسط القرن الثامن عشر اتخذ من اللغة اللاتينية اداة للتخاطب اليومى بينه وبين اساتذة تلك الجامعة ، حتى يتجنب استخدام الفرنسية ويعفى أصحاب البيت من استخدام الانجليزية فى بلادهم .

لن نتكلم هنا عن « الكوميديا الالهية » فهذه شرحها يطول ، وانما نتكلم عن وجه واحد فى دانتي هو الذى جعل كل حديث عن الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية لابد وأن يبدأ به ، وذلك هو موقفه من اللغة . فهو أول من

دعا في ايطاليا نظريا وعمليا الى التخلي عن اللغة اللاتينية والى استخدام عاميتها الايطالية أداة للابداع الأدبي .

وقد كان هناك في ايطاليا قبل دانتي من الشعراء من استخدم اللغة العامية في المواويل الشعبية ، ولكن هؤلاء كانوا من صغار الشعراء والشعراء الشعبيين الذين تغلب قيمتهم التاريخية على قيمتهم الفعلية . فعبرية دانتي اذن هي التي جعلت من البلاغة العامية بلاغة فصحي ووضعت أساس اللغة الايطالية كلغة قومية استغنى بها الايطاليون عن ذلك اللسان الجامد المتحجر العتيق أسير قواعد النحو والصرف القديم ونقايد الفصاحة الميتة التي لم تكن تعبر عن الحياة بعد قرون من اندثار حضارة الرومان .

فعل دانتي كل ذلك حين نظم مقطوعات « الحياة الجديدة » آية في الرقة والسمو ، فكانت مثلا أعلى للشعر الغنائي تأثر به كافة الشعراء من بعده في كافة الآداب الأوروبية ، وفعل ذلك حين نظم بالعامية الايطالية ملحمة الخالدة « الكوميديا الالهية » (الجحيم والمطهر والفردوس) ، فكانت مثلا أعلى للشعر الفلسفي لا نظير له في العصر الحديث الا ملحمة « الفردوس المفقود » للشاعر الانجليزى ميلتون والا « فاوست » للشاعر الألماني جوته .

وقد حاول دانتي أن يكتب دفاعا نظريا عن اللغة العامية ، فكتب بحثه عن « البلاغة العامية » ، ولكنه لأمر ما لم يكمل بحثه فكتب فيه فصلين من أربعة فصول .

يبدأ دانتي دفاعه عن اللغة العامية بتعريفها على الوجه الآتى : « اللغة العامية هي تلك اللغة التي نتعلمها بلا قواعد بمحاكاة مرضعاتنا » . ومن هذه اللغة تخرج لغة ثانوية هي ما كان الرومان يسمونه « اللغة النحوية » ، « وهي لغة لا يتعلم استخدامها الا الأقلون لأننا لا نكتسب معرفتها الا بعد انفاق وقت طويل ونتيجة لدراسة مثابرة » . والحكم الذى يصدره دانتي فى هذا الشأن منذ البداية هو أنه : « من بين هذين النوعين من الكلام نجد أن الكلام العامى أعظم نبلا ، من جهة لأنه الأسبق استعمالا بين البشر ، ومن جهة أخرى لأن كل الناس يستخدمونه رغم انقسامه الى لهجات مختلفة فى النطق والمفردات . كذلك فإن اللغة العامية أعظم نبلا من اللغة النحوية لأنها طبيعية بالنسبة لنا ، بينما اللغة النحوية تدخل فى باب اللغة المصطنعة » .

ثم ينتقل دانتي الى التحليل البشرى لسكان أوروبا فيفترض أنهم جاءوا أصلا من المشرق ثم تفرقوا الى ثلاث مجموعات لغوية متميزة بالطريقة التى تقول بها « نعم » . فسكان شمال أوروبا يقولون « اوى » (أيوه) ، وسكان

وسطها يقولون « اوك » (آه) ، وسكان جنوبها يقولون « سى » ، وهؤلاء هم الايطاليون والفرنسيون والاسبان ، وقد كانت هذه المجموعات الثلاث أصلاً تتكلم لغة واحدة ثم تعددت لغاتها رغم وحدة الأصل أو تبلبلت بعد تفرقتها في المكان وتطورها في الزمان كما تقول أسطورة برج بابل .

والغريب في هذا التحليل ان دانتى كتب هذا الكلام عن هجرة الأقوام الأوروبية من المشرق أكثر من ستة قرون قبل اهداء الدراسات الأنثروبولوجية (الجغرافيا البشرية) والدراسات الفيلولوجية (فقه اللغة) الى منبع سكان أوروبا من شمال الهند ما بين نهر سيحون وجيحون وانتمائهم ، سلالات ولغات ، الى المجموعة الهندية الأوروبية ، والهندية الإيرانية ، والهندية الجرمانية . وهى نظرية تقريبية فى تقديرى لأنها تصف جزءاً من الحقيقة وليس الحقيقة كلها ، فهى تستبعد الصحراء الكبرى كأحد المصادر الأصلية لسكان أوروبا فى العصور الجيولوجية .

أيا كان الأمر ، فدانتى يفسر تعدد لغات أوروبا رغم وحدة أصلها بثلاثة عوامل (١) اختلاف الزمان ، (٢) اختلاف المكان ، (٣) اختلاف المناخ والبيئة ، أو لنقل إنهما عاملان وهما اختلاف الزمان واختلاف المكان ، وهذان العاملان يشملان اختلاف المناخ والبيئة . أما اختلاف الزمان فهو يجرى على اللغات كما يجرى على الأحياء : فكما أن الأحياء تولد وتنمو وتزدهر وتهرم وتموت فكذلك اللغات تولد وتنمو وتزدهر وتهرم وتموت . وبالمثل فإن اختلاف المكان يتبعه اختلاف المناخ وما يترتب عليه من اختلاف فى بعض الخصائص العضوية عند البشر متمثلة فى تطور جهاز النطق ، ويتبعه اختلاف البيئة الجغرافية والمادية والاجتماعية وما يترتب عليه من اختلاف المفردات والمصطلحات وعادات التعبير عند الأقوام المختلفة .

يقول دانتى : « وما دام الانسان حيوانا كثير الانتقال شديد التغير ، فلا يمكن ان تكون هناك لغة بشرية دائمة أو مستمرة ، وانما لا مناص من أن تتغير اللغة كما تتغير بقية خصائصنا ، كما يتغير سلوكنا وملبسنا على سبيل المثال بحسب بعد الزمان والمكان » . أو كما يقول دانتى ، لو عاد أهل إيطاليا القدماء من قبورهم الى الحياة لوجدوا الإيطاليين الأحياء يتكلمون لغة مختلفة عن لغتهم . ولا عجب فى ملاحظة هذا الاختلاف . فنحن حين لا نرى شاباً وهو ينمو نحس بما طرأ عليه من تغير بعد أن تقدمت به السن . أما اذا لازمناه فى نموه فنحن لا نلاحظ ما يطرأ عليه كل يوم أو كل سنة من تغيرات تدريجية طفيفة . « فلا نعجب إذن اذا وجدنا رأى الناس الشبيهين بالبهايم أنهم يحسبون أن سكان أية بلدة كانوا دائماً يتكلمون بلغة لا تتغير ، فتغير لغة أية بلدة يأتى تدريجياً وعبر أزمنة طويلة متعاقبة ، بينما نجد أن حياة الانسان

قصيرة بالطبيعة » . وما يقال في اختلاف الزمان يقال أيضا في اختلاف المكان .
وبسبب هذا الاختلاف نشأ « النحو » .

يقول دانتي : « وهكذا بدأ عمل مخترعي علم النحو ، فما النحو الا نوع من تثبيت هوية الكلام في الأزمنة المختلفة وفي الأمكنة المختلفة . ولما كانت هذه الهوية مستقرة باتفاق الكثيرين ، فهي لا تخضع لتحكم أحد بالذات ، ولذا فهي لا تقبل التغيير . فالنحاة اذن اخترعوا النحو حتى لا نعجز كلياً أو جزئياً عن معرفة أفكار القدماء وأعمالهم أو معرفة أفكار وأعمال النائيين عنا في المكان ، بسبب اختلاف اللغة نتيجة لنزوات بعض الأفراد في التعبير » .

ودانتي يشير هنا الى انقسام اللغات نفسها الى لهجات معاصرة ويقول ان العامية الإيطالية ذاتها كانت فيها أكثر من ألف لهجة ، وان بعض هذه اللهجات أقرب الى الروح الإيطالية من غيرها . ومع ذلك فهو يقول ان بنية العامية الإيطالية يجب ان تلمس فيما ما هو مشترك بين كل أقاليم إيطاليا .

وقد كان من رأى دانتي ان استعمال العامية ينبغي أن يقتصر على أفضل الشعراء الموهوبين من أصحاب الفكر النبيل . فاللغة العامية لغة نبيلة ولا يصلح لها الا الفكر النبيل . أما العاجزون والتافهون من الشعراء فيمكنهم أن يستروا عجزهم وتفاهتهم بالتعبير بالفصحى ، فان هم عبروا بالعامية تجلى قصورهم ونقصهم في الالهام .

أما أهم أغراض الشعر العامي فهي عنده ثلاثة أغراض ، وهي التعبير عن النافع والمتع والأخلاقي : « فالباحثون عن النافع لن يجدوه الا في معاني (الأمان) . ثم هناك ثانياً المتع ، وفيه نقول انه ليس هناك أمتع لأشواق الإنسان من (الحب) . وثالثاً ، بالنسبة الى ما هو أخلاقي ، وفي هذا الصدد لا يشك أحد في أن موضوعه الأول هو (الفضيلة) . ومن هذا يتضح ان هذه الأشياء الثلاثة ، ألا وهي الأمان والحب والفضيلة ، هي فيما يبدو الأغراض الرئيسية التي ينبغي أن تكون أهم ما يعالجه الشعر العامي ، أقصد التعبير عن أهم ما يفضي اليها كبطولة السلاح ونار الحب واتجاه الإرادة نحو الخير . وإذا نحن تدبرنا الأمر جيداً ، وجدنا أعظم كتاب العامية قد نظموا الشعر في هذه الأغراض وحدها دون سواها : وهؤلاء هم برتران دي بورن الذي كتب عن بطولات السلاح ، وأرنو دانييل الذي كتب عن الحب ، وجيرو دي برونيل الذي كتب عن الفضيلة ، وتشينو دي بيسثرو الذي كتب عن الحب ، وصاحبه (أي دانتي نفسه) كتب عن الفضيلة . ومع ذلك فلست أجد بين الشعراء الإيطاليين من مجد بالشعر بطولة السلاح » .

ومن هذا يتضح أن دانتي يستعمل اصطلاح « الأمان » بمعنى خاص ، هو الذود عن الوطن أو القوم أو العرض أو المصلحة ، وأنه يتحدث هنا عن الشعر الملحمى الذى كان شائعا فى الأدب الفرنسى العامى فى زمن دانتي وقبيل زمنه ، ونموذجه « أغنية رولان » التى تصور وقائع شرلمان وفرسانه مع الغزاة العرب ، ونظيرها فى الآداب الجرمانية « أغنية النبلونج » وفى الآداب النوردية « أغنية الفولسونج » . هذا الشعر البطولى الذى عرفه اليونان فى « الإلياذة » و « الأوديسا » المنسوبتين الى هوميروس ، وعرفه الرومان فى « انيادة » فرجيل ، لم يعرفه الايطاليون الا حين نظم أريوسطو (١٤٧٤ — ١٥٣٣) فى العامية الايطالية ملحمة « أورلاندو غاضبا » ثم نظم تاسو (١٥٤٤ — ١٥٩٥) ملحمة « أورشليم محررة » عن الحروب الصليبية .

ثم يتطرق دانتي بعد ذلك الى الكلام عن مقومات البلاغة العامية فى الألفاظ والتراكيب والأسلوب والعروض فيحدثنا عن أوزان الشعر وعن مكان الألفاظ الرقيقة والألفاظ الفخمة والألفاظ الضخمة . . الخ . . فى شعر شعراء العامية ويبين لنا وظيفة كل فصيلة على حدة فى أنواع الشعر المختلفة .

هذا مجمل دفاع دانتي عن اللغة العامية فى ايطاليا ودعوته الى اتخاذها أداة للتعبير الأدبى بدلا من اللغة اللاتينية . فهو بذلك قد وضع أساس اللغة القومية التى أمكن أن تبني عليه فكرة القومية الايطالية . قال الشاعر الانجليزى الكساندر بوب فى القرن الثامن عشر عن الشاعر الانجليزى جون درايدن فى القرن السابع عشر انه « وجد اللغة الانجليزية طوبا فتركها رخاما » . فاذا جاز لنا أن نستعير هذه العبارة المشهورة ونطبقها على شعر دانتي الجيجيرى ، فأكثر صدقا أن نقول ان دانتي الجيجيرى وجد اللغة الايطالية طوبا فتركها رخاما .

وهكذا بالرغم من أن كثيرا من أفكار دانتي تنتمى فى حقيقتها الى العصور الوسطى ، الا أن هذه الثورة اللغوية والأدبية والقومية التى استحدثها قد جعلته أول رائد لعصر النهضة الأوربية فى ايطاليا وربما فى أوربا بصفة عامة .

فلنذكر قول دانتي فى ديوانه « فيتا نوفا » أى « الحياة الجديدة » :

« ولكى أسر هذا الأمر على الوجه الأمثل ، لابد أن نتذكر أولا أن من كانوا يكتبون قديما قصائد الحب ، لم يكتبوها باللغة العامية وانما كتبها بعض الشعراء المعينين باللغة اللاتينية ، أقصد بين الايطاليين . ومع أن هذا الأمر يصدق أيضا على أبناء الشعوب الأخرى ، وهو ما ينطبق أيضا على اليونان ، فلم يكن بيننا ولا بينهم كتاب يكتبون بلغة الكلام ، وانما كان

بينهم ادباء يعالجون هذه الأشياء باللغة الفصحى . يجب أن نذكر حقاً أنه لم تمض سنوات عديدة منذ بدأ نظم الشعر باللغة العامية ، وكان نظم القوافي بلغة الكلام هو ما يعادل استخدام البحور في الشعر اللاتيني وهو غير مقفى . أقول إنه لم يمض وقت طويل ، لأننا لو تأملنا اللغة البروفنسالية في جنوب فرنسا واللغة الإيطالية لما وجدنا في هاتين اللغتين شيئاً مكتوباً في تاريخ أقدم من مائة وخمسين سنة . كذلك فإن بعض شعراء الشعراء بالعامية قد اكتسبوا أولاً بعض الشهرة ، وذلك لمجرد أن أحداً لم يسبقهم إلى الكتابة بالإيطالية . ومن بين هؤلاء كان أولهم شاعر وجد دافعه إلى كتابة شعره بالعامية رغبة منه في أن تفهم محبوبته قصائده لأن الشعر اللاتيني كان مستعصياً عليها .

فإذا ذكرنا كلام دانتى هذا أدركنا مدى الثورة التى استحدثها دانتى في تحويل لغة ناشئة بلا تقاليد ولا ضوابط ، لغة لم تعرف الانشاء الأدبى في الشعر أو في النثر قبل قرن واحد من زمانه ، إلى لغة للشعر الغنائى فى ديوان « الحياة الجديدة » وللشعر الفلسفى فى « الكوميديا الإلهية » تفيض عذوبة وشجواً ونبلاً وعمقا ، لغة عامية لا يدفع إلى الانشاء بها العجز عن فهم الفصحى أو عن التعبير بها ، وإنما يدفع إليه احساس شاعر مبدع بما فى لغة الشعب من جمال وجلال وصدق وعمق ، خصائص لا تنتظر إلا العبقرى الجبار ليجلوها ويفجرها وينشر عليها غلالة من سحر هاروت وماروت .

وهذا ما اكتشفه دانتى فى اللغة الإيطالية التى سماها لغة « قومية » لأنها الأساس والقاسم المشترك الأعظم فى كافة لهجات إيطاليا المحلية . وعنده أن اللغة لا تكون قومية إلا اذا اتصفت بأربع خصائص :

١ — أن تكون مضيئة .

٢ — وأن تكون محورية .

٣ — وأن تكون نبيلة .

٤ — وأن تكون محكمة . وهذا فى رأيه هو حال اللغة الإيطالية التى دافع عنها دانتى كلغة قومية تتوفر فيها كل هذه الخصائص .

هى أولا لغة « مضيئة » بمعنى أنها « منيرة ومنارة » ، وضياؤها يضفى الشرف والمجد على أصحابها وهو الضياء الذى استمدته من قوة أصحابها الذين أزالوا عنها جلالة اللهجات الريفية ، وحوشية التعبيرات المتذلة

فبلغت بذلك مرتبة عالية من « الرفعة » و « الوضوح » و « التمام » و « الصقل » .

وهي ثانيا لغة « محورية » كالمصراع الذى يتحرك عليه البسبب الى الداخل أو الى الخارج ، وتبعاً لحركتها تتحرك بقية اللهجات المحلية . (والاصطلاح الذى يستخدمه دانتي هو « الكردينالية » . والكاردينال هو « مفصلة الباب » أى الفصل الذى يتحرك عليه الباب ، أى ان الكرادلة فى الدين المسيحى الكاثوليكي هم مصاريح باب الجنة الذى يحمل القديس بطرس مفاتيحه ، وقد استعار دانتي هذا التعبير لوصف اللغة المحورية أو المركزية التى تتبع حركتها كل اللهجات) .

وهي ثالثا لغة « نبيلة » لأنها تصلح لأن تكون لغة البلاط . والبلاط عند دانتي هو صورة الأمة ممثلة فى صفوتها لأن فيه يجتمع حول الملك أو الأمير النبلاء من كل الأقاليم . ومن تجمعهم تنشأ لغة راقية تمثل خير ما فى كل اللهجات .

ودانتي يأسف لأن الايطاليين فى أيامه لم يكن لهم بلاط كالفرنسيين لأنه لم يكن لهم ملك أو أمير يوحد كلمتهم ويلتفون حوله : « لهذا فإن لغتنا المضيئة تتجول هنا وهناك كعابر سبيل ولا تجد مأوى يرحب بها غير بيوت البسطاء ، فليس هناك بلاط يحميها » .

وهي رابعا لغة « محكمة » كلفة المحاكم والقضاء والقانون والادارة والمجالس التى تسن الشرائع للناس ، ومقياس هذا الاحكام هو التوازن والدقة وضبط التعبير . واللغة الايطالية عند دانتي تستطيع أن تباهى بهذا الاحكام بفضل « نور العقل » الذى يتميز به الايطاليون .

أهذا كلام عاشق للغة العامية الايطالية أم كلام محام قدير ؟ سواء أكان الأمر هذا أو ذاك ، فهذه المرافعة التى كتبها دانتي عن اللغة الايطالية باللغة اللاتينية لم تكن هى التى زحزحت اللاتينية الوسطى وأخرجتها من الميدان وأحلت محلها اللغة الايطالية كلفة قومية للايطاليين ، وإنما فعل كل ذلك عجز اللغة العجوز عن التعبير الأدبى ونضارة لغة الشعب التى ضفرتها دانتي حول رأسه كأكليل الغار .





ف الملكية

□ كانت دعوة دانتي للتخلي عن الكتابة باللغة اللاتينية والى الكتابة بصيغتها العامية (الإيطالية) تدخل في باب التجديف الذى استوجب غضب الكنيسة ، لأن اللاتينية كانت لغة الكنيسة ولغة الدولة فى القوانين والادارة والدبلوماسية ، الخ ..

واستخدام الإيطالية لغة للقراءة والكتابة كان سيفضى بالضرورة الى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العامية ، بعد أن كان العالم المسيحى الكاثولى لا يقرؤه الا فى اللاتينية التى لا يعرفها الا القساوسة والمتقفون الذين احتكروا تفسير الكتاب المقدس واقامة الصلوات والوعظ بسبب جهل العامة باللغة اللاتينية ، مما زين لرجال الدين التحكم فى عقول الناس وكل ما يتصل بشئونهم الروحية ، وفيما بعد ذلك بقرنين (فى ١٥٢٠) سوف نرى ان البابوية قد أصدرت قرار الحرمان على المصلح الدينى الالمانى مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) لأنه كان يهاجم صكوك الغفران ويدعو لترجمة الكتاب المقدس الى الألمانية ، لغة اهل بلاده ، حتى يكسر احتكار أصحاب اللاتينية لتعليم الدين المسيحى وتفسيره ، ولأنه كان يطالب بالغاء دور الكهنوت فى الوساطة بين الانسان والله .

دعوة دانتي للتخلي عن اللغة الفصحى (اللاتينية) والى استخدام اللغة العامية (الإيطالية) ، كانت اذن وحدها كافية لغضب الكنيسة عليه . ومع ذلك فنحن نرى دانتي ينفى من مدينته أو دويلته ، فلورنسا ، عام ١٣٠١ ، أى وهو فى سن السادسة والثلاثين ، ويقضى فى المنفى عشرين عاما متصلة حتى وفاته فى ١٣٢١ .

بل نرى ان الحكم بنفيه يتحول بعد شهرين الى الحكم باحراقه حيا ثم يمتد فى ١٣١٥ الى اعدام أولاده الثلاثة أو الأربعة الذين كانوا لا يزالون فى سن اليقاعة والصبا !

لماذا ؟ في الظاهر لأن دانتى اشتغل بالسياسة وانضم الى الحزب الخاسر . أما في الحقيقة فلأنه كان صاحب مبادئ نورية خطيرة في السياسة والدين ، نجدها مشروحة في كتابه الشهير « دى موناركييا » ، أى في الملكية أو « في النظام الملكى » .

وقد بدأت متاعب دانتى في عام ١٣٠٠ . فقد كان في فلورنسا حزبان يتنازعان السلطة ، هما حزب الارستقراطية الذى كان يسمى بحزب « السود » ، ويتزعمه كورسو دوناتى ، قريب زوجته ، وحزب البورجوازية ، أو الأثرياء المحدثين ، وكان يسمى بحزب « البيض » ، ويتزعمه أصدق أصدقائه الشاعر جويدو كافالكانتى . . . ووقع دانتى بين هذين النقيضين . وكان قد بلغ بالانتخاب منصبا عاليا في فلورنسا ، فانتخب عضوا في المجلس الحاكم في المدينة وهو مؤلف من ستة أعضاء . فلما أثار « السود » الفتن للاستيلاء على الحكم قرر المجلس الحاكم نفى زعماء الطرفين ، ومنهم صديقه الشاعر كافالكانتى .

ولكن حزب « السود » الارستقراطى تأمر مع بابا روما ليعيده الى الحكم . فمدفع البابا شارل ، دوق فالوا في فرنسا الى غزو فلورنسا ، وتسليمها للحزب الارستقراطى ، حزب « السود » . وعرف المجلس الحاكم هذا المخطط ، فأوفد دانتى مع آخرين في سفارة الى روما ليتوسط لدى البابا بونيفاسيو الثامن ليووقف هذا الغزو . ولكن فلورنسا سقطت في يد الدوق دى فالوا ، أخو ملك فرنسا عام ١٣٠١ ، أثناء سفارة دانتى في روما ، فعاد كورسو دوناتى زعيم « السود » الى فلورنسا واستولى على الحكم بقوة الغزاة الفرنسيين وبتأييد البابا .

وحكم على دانتى وهو في الخارج وعلى أربعة من البيض في يناير ١٣٠٢ بغرامة فادحة وبالنفى لمدة عامين وبالحرمان الدائم من المناصب العامة ، وكانت التهمة التآمر والتواطؤ لقلب نظام الحكم . ثم عدل الحكم في مارس ١٣٠٢ الى مصادرة كل أمواله واعدامه حرقا اذا قبض عليه داخل فلورنسا أو اقليمها . ومنذ ذلك التاريخ حتى وفاته لم تطأ قدما دانتى أرض وطنه ، بل عاش مشردا ينتقل من مدينة الى أخرى .

كان دانتى بشهادة معاصريه متعاطفا مع « البيض » أو منحازا لمبادئهم ولكنه سرعان ما سئم صحبة زملائه المنفيين منهم ، فتركهم وانتقل الى فيرونا حيث أقام مع آل سكالا ، وهى أسرة الناقد الشهير سكاليجر ، وفي عام ١٣٠٦ كان يدرس في باريس بحسب رواية بوكاشيو عنه .

ثم خابت آمال دانتي من جديد ونهايا . ففى ١٣١٠ أراد هنرى دوق لوكسمبورج ، بعد ان أصبح الامبراطور هنرى السابع ان يوحد دويلات شمال ايطاليا ويدمجها فى امبراطوريته . فكتب دانتي خطابا مفتوحا الى اهالى فلورنسا يدافع فيه عن هنرى السابع ويهاجم بعنف من يعدون العدة فيها لمقاومته . وبالفعل حاصر هنرى السابع فلورنسا عام ١٣١٢ ، ولكنه لم يلبث ان انسحب ، ثم توفى فى العام التالى ، فمضى ذلك على كل امل عند دانتي فى العودة الى وطنه . وكانت حكومة فلورنسا قد أصدرت فى ١٣١١ قرارا بالعفو العام عن جميع المنفيين ، ولكنها استثنيت دانتي بالاسم بسبب صلاته بهنرى السابع دوق لوكسمبورج . وفى ١٣١٥ تجدد قرار نفيه واعدامه حرقا اذا وطأ اراضى فلورنسا وامتد حكم الاعدام الى اولاده .

وبعد اقامته فى فيرونا فى رعاية كان جراندى ديلا سكالا امير فيرونا ، انتقل دانتي الى رافينا فى ١٣١٨ — بدعوة من الدوق جويدو نوفيللا دى بولنتا امير رافينا ، وهناك كان يلقى المحاضرات ويرد على دعوة له ان يكتب ملحمة باللغة اللاتينية ببحوث فى علم اللغة وبالدراسات الادبية . ثم قصد الى دوق البندقية فى سفارة ليحول دون قيامه بغزو رافينا . وكانت شهرته قد طبقت الافاق كأمير لشعراء ايطاليا فقدمت له مدينة بولونيا اكليل من الغار رمزا لامارة الشعر ، ولكنه اعتذر عن قبوله لانه كان يأمل ان يأتيه اكليل الغار من موطنه فلورنسا . وفى طريق عودته من البندقية اصيب بالمalaria ومات فى ١٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ ودفن فى كنيسة الفرانسيسكان فى رافينا . وبعد ذلك بخمسة وسبعين عاما حاول اهل فلورنسا وحكومتها فى ١٣٩٦ ان يستردوا رفات الشاعر الذى نفوه مدى الحياة وأمروا باحراقه ، ولكن جهودهم ذهبت ادراج الرياح . ومن قبل أنشأت جامعة فلورنسا ، بعد خمسين سنة من وفاته ، كرسيًا لدراسة شعر دانتي ، امير شعراء ايطاليا فى كل العصور ، وأحد شعراء خمسة لم يجد الزمان بمثلهم ، هم هوميروس وفرجيل وشكسبير وجوته ودانتي اليجيري .



كانت لدانتي فى الفكر السياسى معتقداته التى كانت تقوض سلطان الكنيسة فى الدولة وتحرر السلطة الزمنية (الدنيوية) من السلطة الدينية وترفع ولاية البابوات على الملوك ، بعد ان كان البابوات فى زمانه وطوال الف عام من العصور الوسطى هم الذين يتوجون الملوك والاباطرة ويفوضونهم فى حكم شعوبهم بحق الملوك الالهى . وبهذا المعنى يجب ان نعد فكر دانتي السياسى مرحلة هامة فى تاريخ العلمانية .

وقد طرح دانتى قضية الحكم على الوجه التالى فى كتابه عن « الحكم الملكى » :

« (٢) وبناء عليه يجب علينا أولا أن نتدبر معنى الملكية الزمنية ، (أى الدنيوية أو العلمانية) ، وما نموذجها وما غايتها . فالملكية الزمنية اذن ، وهى ما يسمى بالامبراطورية ، هى اماره واحده يمتد سلطانها على كل الناس فى وجودهم الزمنى او على كل شىء يقاس بالزمن أى متصل بالدنيا ومن هنا تنشأ ثلاثة مباحث فى هذا الصدد : فيجب أولا أن نبحث وندرس ما اذا كانت السلطة الزمنية ضرورية لسعادة العالم ، ثم نبحث ثانيا ان كان الرومان قد اصابوا باقامة امبراطوريتهم ، ثم نبحث ثالثا ان كانت سلطة الملك تعتمد على الله مباشرة او تعتمد على ممثل آخر لله .

« (٣) والآن علينا أن نتدبر ما الغاية من الحضارة الانسانية فى مجموعها . فاذا اهتدينا الى هذه الغاية فقد قطعنا نصف الطريق كما يقول المعلم الاول أرسطو صاحب (علم الاخلاق ، الى نيقوماخوس) . فاحدى غايات الحضارة هى خلق الانسان الفرد ، وغايتها الثانية هى خلق الأسرة ، والثالثة هى خلق الحى ، والرابعة هى خلق المدينة الدولة ، والخامسة هى خلق المملكة ، وأخيرا فهناك الغاية النهائية التى يحققها الله بيد الفنان عن طريق الطبيعة وهى جمع الجنس البشرى فى مجتمع واحد . وهذه الغاية الأخيرة هى المبدأ الاول الذى نحاول الآن أن نستهدى به فى بحثنا » .

الغاية النهائية لحالة المدنية التى ارادها الله للانسان هى عند دانتى اذن وحدة الجنس البشرى تحت رايات السلام . ومادامت هناك غاية واحدة للجنس الانسانى فلا مناص من أن تقوده قيادة واحدة أو أمير واحد أو ملك واحد أو امبراطور واحد ، سمه ما شئت من الأسماء . فدانتى اذن كان من أوائل من وضعوا فى الفكر السياسى أساس الحكومة العالمية ، وعنده أن مجتمعات القبائل ثم الدويلات ثم القوميات ليست الا خطوات فى طريق اقامة الحكومة العالمية .

منطق الكمال لله وكمال الطبيعة يمنعان أن يكون هناك صراع بين الكائنات ، لأن الصراع دليل النقص . وحيثما وجد الصراع فلا بد من وجود حكم او قاض يحسم هذا الصراع : « فلو وجد أميران ، فلن يخضع أحدهما للآخر ، وهنا قد ينشأ الصراع ، أما بسبب خطأ منهما أو بسبب خطأ يرتكبه رعاياهما ، وهذا امر واضح فلا بد عندئذ من وجود حكم يفصل بينهما . ولما كان كل منهما لا يعترف بالآخر ، فليس بينهما من يخضع للآخر لأن الأنداد لا سلطان لبعضهم على بعضهم الآخر ، فلا بد أن يوجد

أمير ثالث يتمتع باختصاص أوسع من اختصاص كل منهما ،
يستطيع بما له من حق أن يفرض أمارته عليهما معا . وهذا يجعل الملكية
لازمة للعالم ، وقد أدرك أرسطو هذا المنطق حين قال : (لا شيء يجب
الاعوجاج ، وتعدد الإمارات أمر سيء ، ولذا فقد لزم أن يكون هناك
أمير واحد) .

ونفس هذا المنطق يفضي بنا الى أن تعدد الدول القومية يؤدي
بالضرورة الى الصراعات التي لا حل لها الا قيام حكومة عالمية .

ولكن اليس هذا هو المنطق الذي كانت تستخدمه الكنيسة
الكاثوليكية طوال العصور الوسطى : " اخاء البشر في الله الذي لا سبيل
الى تحقيقه بقيام الدول القومية وانما يتحقق فقط اذا كانت السلطة العليا
على كل الشعوب والأمراء والملوك هي سلطة البابا ، خليفة الله على
الأرض بوصف أنه خليفة القديس بطرس الذي سلمه المسيح مفاتيح الفردوس؟

كلا . فهي كذلك في الظاهر فقط ، أما في الحقيقة فان دانتى يجرد
السلطة الروحية من حق الولاية على السلطة الدنيوية وينزع من البابوات
احتكارهم للوكالة عن الله التي يفوضون بموجبها الملوك في الحكم بالحق
الالهي . فهو يؤسس نظريته على أن الملك الدنيوي يتلقى تفويضه في السيادة من
الله مباشرة لا عن طريق البابا أو السلطة الروحية ، وهو يتلقاه من الله
مباشرة بوصف أنه أداة الله في تحقيق السلام بين البشر وأداته في تحقيق
العدالة والخير والحرية بين الناس .

فهذه المبادئ عند دانتى لا تتوفر الا بانفراد حاكم أعلى بالسلطة
الدنيوية ، أميرا كان أم ملكا أم امبراطورا ، و لا يمكن أن تتحقق في ظل أمراء
متعددين انداد يحكمون إمارات أو دوقيات أو ولايات مستقلة متعددة متنازعة
كل منها تستمد شرعيتها وسيادتها بل وسلطانها الدنيوي وتخومها الدنيوية
من البابوات الذين كانوا يتلاعبون بهم وبها لكي تتحول سلطتهم الروحية
الى سلطة زمنية ويصبح ملك الدين هو ملك الدنيا .

يرى دانتى ، ما رآه أرسطو في الفصل الخامس من « علم الأخلاق :
الى نيقوماخوس » ، أن عدو « العدل » الأول هو « الطمع » ، أما صديق
« العدل » الأول فهو « الخير » أو « الاحسان » . ومن تأصل غيبه حب
« الخير » كان « العدل » أقوى صفاته . و « الملك » أو الحاكم المفرد هو
عنوان « الخير » و « العدل » :

« والطمع يهدر قيمة الانسان الجوهرية لانه يبحث عن الاشياء ولا يبحث عن الانسان . اما الخير فيهدر كل شيء ما خلا الله والانسان ، وبالتالي فهو يبحث عن خير الانسان . ولما كان السلام من بين النعم التي ينعم بها الانسان ، ولما كان العمل هو اكبر محقق للسلام ، كان عمل الخير أقوى محرك للعدل ، وكلما ازداد عمل الخير ازداد تحقيق العدل .

« وحب الخير ينبغى أن يكون ملازما لطبيعة الملك . . »

« (١٢) والجنس البشرى كلما اكتملت حريته اكتملت سعادته . وهذا يتضح اذا فهمنا مبدأ الحرية على حقيقته . فلنعلم اذن أن أول مقومات الحرية هو حرية الاختيار ، وهى شيء يترنم به الكثيرون بشفاهم ولكن لا يفهمه الا الاقلون » .

.

« وعندما نرى هذا ندرك أيضا أن هذه الحرية هى أعظم نعمة بحباها الله للطبيعة الانسانية . فبالحرية نبلغ سعادتنا فى هذا العالم ، وبالحرية نبلغ سعادتنا فى غير هذا العالم بوصفنا ملائكة . والجنس الانسانى لا يوجد لذاته وليس من أجل شيء آخر الا اذا حكم الناس ملك فرد . عندئذ فقط تستقيم نظم الحكم المعوجة ، الا وهى الديمقراطيات ، والليجاريات (حكم القلة) ، والديكتاتوريات الشعبية ، وهى تفرض العبودية على الناس بالقهر كما هو واضح لكل من يجربها جميعا . الجنس البشرى لا يوجد لذاته الا اذا حكمه الملوك والصفوة والمتحمسون لحرية الشعب . مثل هذه الحكومات تستهدف تحقيق الحرية ، أى أن الناس توجد لذاتها . . أى أن المواطنين لا يوجدون من أجل حكامهم ولا الشعوب توجد من أجل ملوكها ، وانما ، على العكس من ذلك ، يوجد الحكام من أجل مواطنيهم ويوجد الملوك من أجل شعوبهم . فكما أن المجتمع لا يؤسس لتطبيق القوانين وانما توضع القوانين لمنفعة المجتمع ، كذلك فان من يطبق عليهم القانون لا يخضعون لمنفعة المشرع وانما يخضع المشرع لمنفعة من يسرى عليهم القانون ، كما جاء أيضا فى فيلسوفنا أرسطو . . »

وواضح من كل هذا الكلام أن دانتى ، متأثر بأرسطو فى كتابه « علم السياسة » ، وكان عديم الثقة فى الديمقراطية (حكم الشعب) ، والتي كان يعدّها نوعا من حكم الرعاع ، كما أنه كان عديم الثقة بحكم الاقلية وبحكومات « الطغاة » ، أى الملوك المنتخبين أو « التيرانوس » كما كانت اليونان تقول ، بوصف هذه الحكومات مرادفة للدكتاتوريات الشعبية أو لدكتاتورية الاقلية ، وكلاهما مناف للحرية ومرادف للقهر .

وواضح أيضا أن دانتى ، مثل أرسطو ، كان يؤمن بحكم الملكية والارستقراطية والمدافعين عن حرية الشعب . ويبدو أن دانتى لا يستخدم كلمة « الارستقراطية » بمعناها الشائع وإنما يستخدمها بمعناها اليونانى القديم ، أى « حكومة الصفوة » (الارستوى) بمعنى « النخبة » أو الطبقة الممتازة ، وليس بمعنى الطبقة التى تتمتع بالامتيازات أو تتوارثها .

هذا الكلام قد يبدو غريبا اذا لم ندرك المعنى الخاص لمفهوم « الحرية » عند دانتى . . فالحرية عنده هى « حرية الاختيار » ، ولكن ما دمنا نتحدث عن « الاختيار » فلا اختيار الا بالقدرة على التمييز والقدرة على الحكم . وكل ما يعطل ملكة التمييز أو الحكم عند الانسان ، كالخضوع كالبهائم للشهوات ، أو الانبهار بالعرض البراق ، أو طلب المنافع العاجلة ، أو الوقوع فى أسر الضرورة ، أو الخضوع للقهر الخارجى أو الداخلى ، يعطل قدرة الانسان على الاختيار وبالتالي فهو سالب للحرية .





حق الملوك الإلهي

□ انتهى دانتى من بحثه في نظم الحكم الى أن النظام الملكي القائم على سلطان الحاكم الفرد (المونارخية) هو النظام الأمثل لسياسة الشعوب . ودرجة درجة نكتشف أنه يقصد بالنظام الملكي النظام الامبراطورى ولا سيما كما عرفت الامبراطورية الرومانية . بهذا كان دانتى أول مفكر في عصر النهضة الأوربية يدعو ضمنا ، بل تصريحاً ، الى احياء مجد روما الامبراطورى .

وكانت هذه أيضاً دعوة ثورية في الفكر السياسى أيام حكم البابوات في العالم المسيحى .

فمنذ المؤرخ المسيحى الشهير أورسيوس الذى عاش نحو عام . . ٤ ميلادية وعرفه ابن خلدون باسم هرثيوش ، قرأ الناس في مفارب الأرض ومشارقتها شاهد قبر الامبراطورية الرومانية في موسوعته الشهيرة عن « تاريخ العالم » ، او على الأصح قرأ الناس « التفسير المسيحى » لتصدع الامبراطورية الرومانية وانهارها . وكانت خلاصة كلام أورسيوس هى أن تصدع الامبراطورية الرومانية وانهارها كان نتيجة للغضب الإلهى ، وأن غضب الله حل على الرومان لأنهم ضلوا وحادوا عن طريق الله بفسقهم وجبروتهم وظلمهم وطغيانهم وانغماسهم في الشهوات ، ولذا أرسل الله عليهم البرابرة من كل جانب فحربوا الامبراطورية وعاثوا فيها فسادا .

بقى هذا التفسير هو التفسير المعتمد في العالم المسيحى ألف عام او يزيد لأنه كان التفسير الرسمى الذى اعتمدته الكنيسة الكاثوليكية والبابوات قرنا بعد قرن . . وبهذا التفسير قضت الكنيسة على كل شعور قومى في نفوس الايطاليين فجعلتهم يتنكرون لامجاد أجدادهم الأولين أيام جاهليتهم العظيمة ويتبرعون من حضارتهم الوثنية المجيدة السابقة على انتصار المسيحية في مختلف أرجاء الامبراطورية .

ولا شك أن نهوض آباء الكنيسة وفقهائها بدءا بلاكطانس (٢٦٠ — ٣٢٥)
والقديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) ، الذى تتلمذ عليه المؤرخ أوروسيوس ،
والقديس جيروم (٣٤٧ — ٤٢٠) ، وفولجانس (٤٧٦ — ٥٢٣) ، قد حاولوا
انقاذ تراث الوثنيات اليونانية واللاتينية من الاندثار تماما امام حماس
المسيحيين الأوائل ، وأغلبهم من بسطاء الناس وجهالهم ، فأعطوا تفسيرات
رمزية داخل الاطار المسيحى لاساطير اليونان والرومان وآلهتهم وأبطالهم
وأصنامهم .

ولكن الطابع العام الذى ساد الحضارة المسيحية طوال الف عام
من العصور الوسطى كان محاولة اقتلاع كل ما كان من تراث الجاهلية
اليونانية والرومانية وأمجادها التاريخية بوصفه كفرا فى كفر ومعاديا
لله والمسيح ، ولم يبق من ذلك الفكر الشاهق الا بقايا مبتسرة من
منطق أرسطو لاستخدامه فى السفسطة الدينية ، ومن مثالية أفلاطون
لإستخدامها فى الشطحات الروحانية .

والآن يأتى دانتى ليعلم الناس عكس ما كانت الكنيسة تعلمهم ، وهو
أن عصر الرومان الإمبراطورى الوثنى لم يكن ضلالا فى ضلال ولا فسادا
فى فساد ، بل كان عصرا مجيدا ازدهر فيه الإنسان وحضارة الإنسان
حتى قبل ظهور أديان التوحيد ، وأن هذه الحضارة الدنيوية لم تكن من
عمل الشيطان وإنما صاغتها العناية الإلهية بنور العقل وبنور الإيمان .

ودانتى يعترف فى الباب الثانى من كتابه « فى الحكم الملكى » أنه كان فى
البداية فريسة لهذا الاعتقاد الشائع :

« كان هناك زمن كنت أنا أيضا أقف ذاهلا أمام هذا التصور ، وهو
أن الشعب الرومانى بلغ قمة السؤدد على الكرة الأرضية ، لا يجد من
يقاومه ، وكنت أحسب ، لأنى لم أكن أرى الا سطح الأمور ، أن الرومان بلغوا
كل هذا السؤدد بقوة السلاح وحدها . ولكنى الآن وقد نفذت بعقلي الى
لب الأشياء ، ورايت بدلائل مقنعة كل الاقناع أن العناية الإلهية هى التى
حققت ذلك لم أعد أقف متعجبا أمام هذا المجد الدنيوى ؟؟ » .

والمنطق الذى يستخدمه دانتى لاثبات رأيه بسيط من صميم الدين ومن
صميم العقل معا ، كما يقول . فمن جهة الدين فهو يقول أن كل هذا
المجد الإمبراطورى الذى حققه الرومان ، وهو ملك الدنيا ، ما كان ليكون
لولا أن أراد الله . وبما أن الله لا يريد الا الخير والحق ، فالإمبراطورية
الرومانية إذن قامت لتحقيق الخير والحق . وبمثل ما نقول أن الرومان
انحطوا برذائلهم فدالت دولتهم العظمى ، يجب أيضا أن نقول أن الرومان

ارتقوا بفضائلهم حتى ملكت دولتهم كل العالم القديم . وفي رأى دانتي أن الطبيعة خلقت الشعب الرومانى للسيادة والقيادة ، فتاريخه يدل على أنه لم يكن يطلب السلطان لذاته ولكن لفعل الخير وإشاعة الحضارة . فهم أولى شعب بحكم العالم . وكم من أمم نافستهم فى بناء الامبراطوريات ولكنهم انتصروا على الجميع ، وهذا نطق من الله بأنهم يفضلون سواهم . وهنا تكلم دانتي وكأنه موسولينى !

هذا التطرف فى الشعور القومى وهذه الدعوة لحياء الدولة الامبراطورية كانت بمثابة ثورة على تعاليم الكنيسة التى كانت تزرى من شأن الامبراطورية الرومانية بوصفها تجسيدا للمجد الدينى الذى يتعارض مع طلب ملكوت الله والزهد فى الدنيا انتصارا لمجد الآخرة . قال دانتي منددا بدعاوى الكنيسة : لولا ان الرومان صلبوا المسيح لما كانت هناك مسيحية :

« فكيف اذن من يزعمون أنهم أبناء الكنيسة لا يكونون عن التنديد بالامبراطورية الرومانية .. »

« يا للرومان من شعب مبارك ! يا لاوزونيا من دولة مجيدة ! (واوزونيا هى الاسم الشاعرى لاطاليا . ل . ع) ليت له ما ولد قط من اضعف امبراطوريتك يا روما ، او ليت تقواه لم تقده فى سبيل الضلال ! » .

وهكذا كان دانتي بمثابة الفاصل بين عالمين : عالم وسيط يؤمن بأن الدولة الدينية الجامعة (البابوية) ، هى أساس التنظيم الاجتماعى ، وعالم جديد يؤمن بأن الدولة القومية الجامعة (الامبراطورية) ، هى أساس التنظيم الاجتماعى . وكان دانتي من اسبق دعاة الدولة القومية التى كانت الطابع المميز لعصر النهضة الاوربية . ولم يكن الخيار عند دانتي بين قيصر والله ، فقد كان دانتي مؤمنا ولكنه كان بين قيصر والبابا . فاختار دانتي قيصر واعرض عن البابا ، ولهذا كان انتقام البابا منه انتقاما رهيبا : النفى المؤبد والحرق حيا اذا وطئت قدماه ارض موطنه .



وما دام الخيار بين قيصر والبابا فهذا ما يقوله دانتي فى الموازنة بينهما :

« اذن فالسؤال المطروح هنا ، وهو موضوع بحثنا ، يقع بين نورين عظيمين هما البابا الرومانى والامير الرومانى . فنحن نتساءل : من اين تستمد سلطة الملك الرومانى الذى هو بالحق ملك العالم ، كما اثبتنا فى

الباب الثانى من هذا الكتاب ، أهى تستمد مباشرة من الله أم هى تستمد من خليفة لله أو رسول منه . أقصد خليفة بطرس الرسول الذى يحمل بالحقيقة مفاتيح الفردوس . أى من البابا ؟

« (٤) ان كل من أسوق من الحجج التالية لاقتناعهم ، يؤكدون أن سلطة الامبراطورية مستمدة من سلطة الكنيسة ، وهى تعتمد عليها كما يعتمد الأسطى على المهندس المعمارى . وهم فى هذا الاعتقاد مسوقون بجملة حجج معارضة يستقونها من الكتاب المقدس ، ومن بعض أعمال الرئيس الأعلى للكنيسة والامبراطور نفسه فى وقت واحد . ومع ذلك فهم يحاولون أيضا أن يجدوا بعض السند لرايهم فى منطق العقل .

« فهم أولا يقولون استنادا الى قول الكتاب المقدس فى سفر التكوين ، ان الله خلق جرمين مضيئين عظيمين ، أحدهما كبير والآخر أصغر ، حتى يحكم أولهما النهار والثانى الليل . وقد اعتاد هؤلاء أن يفهموا بالمجاز أن هذين النظامين انما يعنيان العالم الروحى والعالم الزمنى . . ومن هنا نجدهم يحتجون بأنه كما أن القمر . . وهو الجرم المضىء الأصغر . . ليس له نور خلاف النور الذى يتلقاه من الشمس ، كذلك فالنظام الزمنى ليست له أية سلطة الا ما يستمدة من النظام الروحى » .

ويرد دانتى على هذه الحجة بقوله ان هذه حجة زائفة لأن القمر رغم أنه يستمد نوره من الشمس الا أن هذا لا يعنى أنه يستمد من الشمس وجوده ، أو أنه يعتمد فى وجوده على الشمس ، أو أنه يعتمد فى حركته على الشمس ، لأن حركته من محركه الأول .

(المعروف فى الفلك أن القمر قطعة انفصلت من الأرض كما أن الأرض قطعة انفصلت من الشمس ولكن هكذا كانت حال علم الفلك فى زمن دانتى الذى يضيف أن القمر ليس مدينا للشمس بكل نوره اذ أن له بعض النور الذاتى ، وانما الشمس تضيف الى القمر ضياءه الساطع . وما دمنا نتكلم بلغة المجاز فهو يريد أن يقول ان الملك لا يستمد وجوده ولا حركته ولا سلطته من البابا ، وانما الكنيسة تضيف الى سلطته قوة ، ل . ع .) .

يقول دانتى :

« وهم يزعمون أيضا استنادا الى نفس النص ان قول المسيح لبطرس : (وكل ما عقدته على الأرض سوف يعقد فى السماء أيضا ، وكل ما حللته على الأرض سوف يحل فى السماء كذلك) ، وهو ما نجده فى متى وفى يوحنا ، ويستخلصون أن المسيح قال هذا الكلام لكل تلاميذه . ولهذا يستدلون على

أن خليفته بطرس قادر على عقد كل شيء وحله ، ومنه يستخلصون أن البابا يستطيع أن يلغى قوانين الامبراطورية ومراسيمها وأنه يستطيع أن يصدر القوانين والمراسيم للسلطة الزمنية » .

وهذا عند دانتي تزييف لأنه قائم على قياس خاطيء لأنه يجعل الكلام عن الجزئى ينطبق على الكلى :

« فالمسيح يقول لبطرس : (سوف أعطيك مفاتيح الفردوس) (حرفيا ملكوت السماء ل . ع .) . أى أنه سيجعله بواب الجنة . ثم هو يضيف : (وكل ما عقده ، الخ . . وكل ما حلته . . الخ) ، وهذا معناه : (كل ما تعقده وتحله فى نطاق وظيفتك كحارس لباب الجنة) ، وليس معناه كل ما تعقده وتحله على الاطلاق . هذه العمومية المتضمنة فى عبارة (كل ما) ، عمومية مقصورة على حدود اختصاصه كحامل مفاتيح ملكة السماء . فالقضية التى نناقشها اذن قضية صحيحة فى حدودها ، فان هى أخذت على اطلاقها فواضح أنها ليست كذلك . وبناء عليه فانى أقول : ولو أن خليفة بطرس يستطيع أن يحل ويعقد فى نطاق ما اختص به بطرس من مهام وظيفته ، فانه لا يستخلص من ذلك أنه يستطيع أن يحل ويعقد قوانين الامبراطورية وقراراتها بحسب زعمهم ، الا اذا استطاعوا أن يثبتوا أيضا أن ذلك يدخل فى اختصاص المفاتيح . وهذا عكس الحقيقة كما سنوضح فيما يلى » .

وهكذا استطاع دانتي بقوة المنطق الارسطاطاليسى أن يقصر سلطة الكنيسة والبابوات على الأمور الروحية وحدها ، وأن ينفى أية سلطة للكنيسة أو للبابوات على أى أمر من أمور الدنيا ، وهو ما خص دانتي به الدولة وحدها (الأمير ، الملك ، الامبراطور) . كذلك يرد دانتي على حجة أخرى كان يستخدمها دعاة الدولة الدينية ، وهى قولهم ان الامبراطور قسطنطين حين شفى من البرص بشفاعة البسبا سيلفستر ، وهب كرسى الامبراطورية وهو روما للكنيسة . ومن هذا يستخلصون أنه منذ ذلك التاريخ غدا مستحيلا على أى انسان أن يجلس على عرش الامبراطورية الا اذا تلقاه من البابا ، وهذا يجعل سلطة الامبراطور مستمدة من سلطة البابا ويجعل السلطة الزمنية خاضعة للسلطة الروحية . وعلى هذا يرد دانتي بقوله :

« وأنا أقول ان هذه الحجة ضعيفة ، لأن قسطنطين لم يكن يملك أن يتنازل عن الشرف الامبراطورى ، ولا كان من سلطة الكنيسة أن تتلقى هذا الشرف .

« فهذا يناقض الحق الطبيعي أن تدمر الامبراطورية نفسها ،
فالامبراطورية لا تدمر نفسها . وبما أن الامبراطورية متمثلة في وحدة
الملكية الجامعة والتنازل عن جزء منها تمزيق لها ، فمن الواضح أن من يتقلد
سلطة الامبراطورية لا يجوز له أن يمزق الامبراطورية » .

وهنا يقذف دانتي في وجه البابوات والكنيسة قول المسيح لقاضيه
الروماني عندما نسب اليه أنه يدعى الملك : « مملكتي ليست من هذا العالم »
فلو كانت مملكتي من هذا العالم لقاتل خدامي حتى لا أسلم لليهود » .
وبهذا يثبت أن الدين شيء والدولة شيء آخر ، بل أكثر من ذلك ، فإن دانتي
يوضح أن سلطة الدولة على الدين ثابتة من نصوص الكتاب المقدس ذاته
حيث نرى القديس بولس يقبل راضيا أن يقضى قيصر في أمره كما أمره
بذلك « ملاك الرب » .

كلا . ان السلطة الزمنية ليست خاضعة للسلطة الروحية ، بل على
العكس من ذلك ، يرى دانتي أن السلطة الروحية يجب أن تخضع للسلطة
الزمنية ، اقتداء بموقف المسيح أمام بيلاطس ممثل قيصر ، واقتداء بما
قاله وفعله القديس بولس في « أعمال الرسل » في الاحتكام الى قيصر ليقضى
بينه وبين اليهود وليحميه من عدوانهم . أما السلطة الزمنية فيرى دانتي
أنها لا تخضع الا لله مباشرة ، لأنها تستمد من الله مباشرة تفويضها في حكم
البشر . قال دانتي في الباب الثالث من كتابه « في الملكية » :

« أوضحنا كيف أن سلطة الامبراطورية ليست راجعة الى سلطة
البابا ، وهو الرئيس الأعلى للكنيسة . ولكننا لم نثبت تماما أنها تتوقف
مباشرة على الله الا بالاستنتاج الضمني . فالاستنتاج الضمني يقول انها
إذا لم تكن تتوقف على خليفة الله فهي تتوقف على الله . ولذا فلكي نثبت
هذه القضية اثباتا نهائيا فلا مناص من أن نثبت أن الامبراطور أو ملك العالم
لا بد وأن يكون على علاقة مباشرة بملك الملوك أمير الكون « وهو الله » .

»

« فالإنسان اذن بحاجة الى قوة مزدوجة تقوده الى غايته المزدوجة ،
أي أنه بحاجة الى البابا ليقود الجنس البشرى وفقا لتعاليم الوحي الى الحياة
الأبدية ، وإلى الامبراطور ليقود الجنس البشرى الى النعيم الأبدى وفقا
لتعاليم الفلسفة . بدستور تعود أعماله على الناس بتحقيق غايتي الحرية
والسلام » .

فالجديد في فكر دانتي السياسي أنه لأول مرة بعد ألف عام من انقراض الدولة الزمنية أو الدنيوية المتمثلة في الامبراطورية الرومانية ذكر الناس بأن قيصر له غايته وهي إقامة الفردوس الأرضي في هذا العالم ، وأن البابا له غايته وهي قيادة الجنس البشري لدخول الفردوس الأبدى في العالم الآخر . وبذلك فصل دانتي بين الدين والدولة ووضع حداً للدولة الدينية التي تحكم فيها شرائع الدين ورجال الدين أمور الدنيا .

لأول مرة منذ ألف عام من العصور الوسطى يجرؤ مفكر أن يقول للناس في العالم المسيحي أن للإنسان الحق في السعادة والمجد على الأرض وليس قدره أن يجعل من حياته الأولى مجرد معبر للحياة الثانية .

ولأول مرة بعد ألف عام من العصور الوسطى يجرؤ مفكر أن يقول للناس في العالم المسيحي أن الملوك لا يستمدون حقهم الإلهي في الحكم من البابوات ، وإنما يستمدونه من الله مباشرة . وربما كانت هناك في أوروبا رهاسات بذلك الصراع بين الكنيسة والدولة في زمن هنري الثاني ملك إنجلترا الذي انتهى باغتيال القديس توماس بيكيت في كاتدرائية وستمنستر عام ١١٧٠ ، ولكن هذه كانت أول مرة تطرح فيها على المستوى النظري قضية الفصل بين الدين والدولة ومسئولية الملك أمام الله مباشرة وليس أمام خليفة الله على الأرض كما كان البابوات يسمون .

ولا شك أننا في دانتي لا نزال بعيدين كل البعد عن الديمقراطية التي عرفها اليونان ويعرفها العالم الحديث ، فنحن لا نتحدث اليوم عن الله كمصدر للسلطات ولكننا نتحدث عن الأمة كمصدر للسلطات . . ودانتي قد حرر الأمير أو الملك أو الامبراطور من تقلد الحق الإلهي في الحكم بتفويض من الكنيسة ، ولكنه أعطى الأمير أو الملك أو الامبراطور الحق الإلهي في الحكم بالاصالة لا بالنيابة أو من الباطن . وهو ما يقابل في زماننا نظرية رجل الأقدار (نابوليون) أو الزعيم الملهم (الفوهرر) . .

وأخيراً فلأول مرة بعد ألف عام من العصور الوسطى يجرؤ مفكر أن يدعو إلى إقامة الدولة القومية ، بل والامبراطورية ، أي الدولة القومية الجامعة ، على انقاض الدولة الدينية الجامعة وكبديل لها .

لقد وضع دانتي أساس الدولة الحديثة على القومية والعلمانية قبل مكيافيللي بقرنين ، فكان رائد الفكر السياسي الحديث في عصر النهضة الأوروبية . ورغم وضوح دعوته العلمانية ، فقد أعلن دانتي في ختام كتابه

« في الملكية » ، أن الدولة الزمنية (الدنيوية) لا تعنى بتاتا الخروج على الدين ، أو بلغة دانتى : « فليراع قيصر اذن واجب الاحترام لبطرس (مؤسس الكنيسة الكاثوليكية ل . ع .) ، الاحترام الذى يجب أن يحمله الابن البكر نحو أبيه حتى يضيئه نور النعمة الأبوية فيشع ضياؤه بقوة أكبر فى أرجاء العالم الذى اقامه عليه حاكما حاكم كل شىء فى الوجود ، روحيا كان أو زمنيا ، الله » .



بترارك

PETRARCH

١٣٠٤ - ١٣٧٤

□ كان دانتي أبا الشعر الايطالى فى عمومه ، ولاسيما الملقى والفلسفى والدينى منه فى « الكوميديا الالهية » ، ولكن بترارك كان أبا الشعر الايطالى الغنائى بصفة خاصة .

ومن النقاد من يبدأ عصر النهضة الأوربية بأدب بترارك . متجاهلين دانتي الذى يعدونه أقرب الى العصور الوسطى منه الى الرنيسانس . ولقد كان دانتي كذلك فى أكثر أفكاره الفلسفية والدينية .

ومع ذلك فقد كان دانتي أول رائد من رواد عصر النهضة الأوربية بدعوته نظريا وعمليا لاتخاذ اللغة الايطالية الدارجة أداة للإبداع الأدبى ، وبدعوته لاقامة الدولة القومية ، بل والامبراطورية ، مكان الدولة الدينية الجامعة . وبدعوته لتحرير الدولة القومية من هيمنة البابوية ولفصل الدين عن الدولة . فكان بذلك أول من فتح الباب لظهور أوربا الحديثة من ظلام العصور الوسطى .

أما بترارك فهناك من يسميه أول من وضع أساس المذهب الانسانى فى ايطاليا . وهو فى نفس الوقت أعظم شاعر غنائى نظم فى اللغة الايطالية الدارجة فى زمانه وفى كل العصور . وقد كان من أوسع أهل زمانه معرفة بأدب القدماء وعملا على احياء ثقافة الرومان . وكان دائم البحث عن المخطوطات اللاتينية وجمعها ودراستها ، فعاش فى صحبة فرجيل وشيشرون وسنيكا فارتفع بعلمه وذوقه المصفى عن كافة أهل عصره . وكان صاحب أسلوب راق فى اللاتينية . ومع هذا لم يمنعه ذلك من أن يختص اللغة العامية (الايطالية) بأروع إبداعه الأدبى . وابتكر ، أو على الأصح طور . . فى الشعر الايطالى قالباً غنائياً خاصاً هو « السونيتة » خلد به غرامه لصاحبه لورا . ولم يلبث هذا القالب أن اقتبسته كافة الآداب الأوربية الأخرى . ولاسيما الأدب الايطالى والأدب الفرنسى والأدب الانجليزى .

ولد فرانشيسكو بترارك في بلدة اريتزو بايطاليا في ٢٠ يوليو ١٣٠٤ .
وكان أبوه بتراكو دي سر بارينتزو موثق عقود في مدينة فلورنسا . وكان
صديقا لدانتى وزميلا له في المنفى منذ ١٣٠٢ . وقد قضى بترارك شبابه في
مدينة أفنيون في جنوب فرنسا ، حيث كان مقر البابوية بين ١٣٠٩ و ١٣٧٦ ثم
حيث كان مقر بابوات أفنيون بين ١٣٨٧ و ١٤١٧ بعد انشقاق الكنيسة
الغربية (الكاثوليكية) نفسها . وفي أفنيون عرف بترارك محبوبته لورا
التي خلدها في اشعاره .

وفي سن الثانية عشرة أرسله أبوه الى جامعة مونبلييه بجوار أفنيون
في جنوب فرنسا لمدة أربع سنوات ليتعلم القانون المدني . وأكمل دراسته
بثلاث سنوات أخرى في جامعة بولونيا . ثم عاد الى أفنيون التي كان
يمقتها . وفي هذه الفترة استولى عليه شغفه العظيم بالشعر اللاتين ،
كما افقتن بشعر التروبادور ، أى الشعراء الجوالين . . الذى كان ينشئه
وينشده الشعراء الجوالون في اقليم بروفانس بجنوب فرنسا باللهجة العامية
الفرنسية المعروفة بالبروفنسال نسبة الى اقليم بروفانس . . وفي تلك
الفترة ذاتها افقتن بترارك أيضا « بالأسلوب الجديد الحلو » الذى كان ينظم
به دانتى وأبناء جيله في ايطاليا . وليس هذا غير اللغة الايطالية . او اللاتينية
العامية كما كان يتحدث بها مثقفو ايطاليا .

كان بترارك قد فقد أمه . فلما مات أبوه في ١٣٢٦ عاد الى أفنيون . .
وهناك استأنف حياة اللهو والصبوات بل والمجون . وفي ٦ أبريل ١٣٢٧ رأى
لأول مرة في كنيسة سانتا كلارا سيدة فؤاده لورا ، وكان يومئذ في الثالثة
والعشرين من عمره . فكانت لورا محور كل ما نظم من شعر غنائى ، حتى
ذهب شعر بترارك مثلا في الحب « العذرى » كما ذهب من قبل شعر
دانتى في محبوبته بياتريس مثلا في الحب العذرى . وقد ماتت لورا بالطاعون
في ٦ أبريل ١٣٤٨ بعد أن عرفها بترارك باحدى وعشرين سنة . وقد أخفى
بترارك اسم محبوبته عن العالمين . ولكن مؤرخى الادب يعتقدون أنها
كانت بنت أحد نبلاء بروفانس ويدعى أوديرت دي نوفيس . وأنها كانت
زوجة هيوج دي صاد . أحد أشراف أفنيون . . فهجّر بترارك في سن
الثانية والعشرين دراسة القانون ، لا استخفا بال قانون ، ولكن كما
يقول اشمزازا من المشتغلين به المتاجرين فيه .

وفي تلك الفترة ذاتها تعرف بترارك على آل كولونا المشهورين .
وهم من أقطاب روما المشتغلين بالدين والسياسة . فقضى صيفا كاملا مع
الأسقف جياكومو كولونا على سفح جبال البرانس . . ثم خادما للكنيسة
أو قسا غير مرسوم لفترة ما لدى الكاردينال جيوفانى كولونا في المقر

البابوى بافنيون وحصل بذلك على مرتب منتظم . ثم تعددت رحلاته فسافر الى باريس والى ألمانيا وهولندا وطاف بوادى نهر الراين فى ١٣٣٣ .. وفى ١٣٣٧ زار روما لأول مرة فى حياته فبهرتة آثارها .

وفى ١٣٣٧ قرر أن يعتزل حياة المدينة فى أفنيون فاعتكف فى ريفها بوادى فوكلوز الساحر وسط كتبه ، على مبعدة خمسة عشر ميلا شرق المدينة . وهناك أقام حتى ١٣٥٣ متفرغا للقراءة والكتابة واستلهم جمال الطبيعة نحو سبعة عشر عاما .

وفى فوكلوز أيضا بلغ بترارك أقصى مجده الأدبى . وفى يوم واحد تلقى دعوتين لتنصيبه أميرا للشعراء : جاءتة احداهما من رئيس جامعة باريس ، وجاءته الأخرى من مجلس الشيوخ بروما . فقبل دعوة السناتور الرومانى . وهناك توجه فى الثامن من أبريل ١٣٤١ على نل الكابيتول بأكليل الفار ، فصارت اليه امارة الشعر من بعد دانتي اليجيرى الذى رفض من قبل أن يتوج الا فى موطنه فلورنسا .

وهكذا أصبح بترارك أميرا لشعراء ايطاليا وهو لا يزال فى السابعة والثلاثين من عمره . ولكنه كان أيضا فوق هذا زعيما روحيا لدعوة توحيد ايطاليا ولتجديد شبابها ولاعادة مجد روما القديمة . الم تكن هذه من قبل هى نفس احلام دانتي اليجيرى ؟

وبعد تتويج بترارك أميرا للشعراء عاد الى افنيون . وهناك استأنف مرة أخرى حياة المجون التى اتسم بها شبابه .. وفى ١٣٤٣ دخل أخوه جيراردو الدير . أما هو فقد دخل فى أزمة روحية عنيفة .. لقد كان فى بترارك شىء كثير من القديس أوغسطين : ازدواج فى الشخصية جعله ينقلب من النقيض الى النقيض . فيسمو أنا الى سموات الطهر والفضيلة ويتمرغ أنا فى أوحال الشهوات . فلا غرابة إذن أن يتشبه بترارك بأوغسطين ويكتب فى تلك الفترة ما سماه « سرى الخاص » تشبها « باعترافات » القديس أوغسطين . كتبه باللاتينية فى ١٣٤٢ وما تلاها . وفى تلك الفترة أيضا كتب « رسالة الى الأجيال القادمة » جاء فيها : « حين اقتربت من سن الأربعين .. بينما كانت قواى لا يخامرها ضعف وبينما كانت شهواتى لا تزال متأججة . تخليت فجأة عن عاداتى الذميمة . بل وتخليت فوق ذلك عن كل تفكير فى رذائلى . وكأن عيني لم تقع قط على امرأة » . أما كتابه « سرى الخاص » ، فقد اتخذ صورة محاورة وهمية مع القديس أوغسطين ، وكأنه يريد أن يكرر تجربة « الاعترافات » الشهيرة .. اعترافات أوغسطين .

ثم قضى بترارك أكثر من عامين فى ايطاليا سفيرا مبعوثا من البابا الى بلاط نابولى ، بين سبتمبر ١٣٤٣ وأواخر ١٣٤٥ . ثم عاد بترارك مرة أخرى الى

ايطاليا حين أعلن كولا ريبنزو نفسه حاكما على روما في ١٣٤٧ . وقد اجتذب بترارك الى ايطاليا ذلك الحلم العظيم الذي كان لا يفتأ يراود خيال مفكرى عصر النهضة في ايطاليا منذ بدء تكون القوميات الحديثة : وهو أن تتوحد دويلات ايطاليا في دولة مركزية واحدة وأن يعود لروما مجدها الامبراطوري القديم . ورغم أن تجربة ريبنزو لم تعمر ، إلا أن بترارك ظل مقيما في ايطاليا حتى عام ١٣٥١ . . . يقيم آنا في بارما وآنا في فيرونا وآنا في بادوا . وفي بادوا جاءه نبأ وفاة صاحبتة لورا . وفي ١٣٥٠ زار بترارك روما . . وفي طريقه الى روما زار فلورنسا حيث استقبله بوكاشيو العظيم ، ثالث الثلاثة من آباء الادب الايطالى الحديث : دانتي وبترارك وبوكاشيو . كذلك زار بترارك اريتزو ، مسقط رأسه ، فوجد أن الطاعون قد حصد أكثر أصدقائه ومعارفه فعاد الى واديه المنعزل في فوكلوز. يملؤه الحزن والوحشة .

ثم أقام بترارك في ميلانو ثماني سنوات بين ١٣٥٣ و ١٣٦١ حيث نزل ضيفا على آل فيسكونتي وقام في خدمتهم ببعض السفارات الى الملوك . فلما انتشر الطاعون في ميلانو انتقل الى فينيسيا (البندقية) عام ١٣٦٢ فرارا من الطاعون . . ثم أهداه مجلس الشيوخ بفينيسيا دارا يقيم فيها على أساس أن يهب المدينة مكتبته بعد وفاته . . وقد زاره بوكاشيو في هذه الدار في صيف ١٣٦٣ . ثم دعا بترارك ابنته غير الشرعية ، واسمها فرانثيسكا . . مع زوجها لتقيم معه في هذه الدار . ثم انتقل بترارك الى بادوا عام ١٣٦٨ . ثم انتقل أخيرا الى أركوا عام ١٣٧٠ وفيها عاش حتى وجدوه ذات صباح في ١٩ يوليو ١٣٧٤ ميتا منكفئا على كتاب كان يقرأه في مكتبته .

وقد كتب بترارك كثيرا باللاتينية فنظم ملحمة اسمها « أفريقيا » بدأها في ١٣٣٨ تمجد بطولة البطل الروماني شيبو الأفريقي . وله باللاتينية أيضا « سير أعلام الرجال » وقد بدأها في ١٣٣٨ أيضا وهي في تاريخ روما . وله أيضا اعترافاته وعنوانها « سرى الخاص » ، وقد بدأها نحو ١٣٤٢ . و « حياة العزلة » وهي من أعمال ١٣٤٦ . وله « أغاني الرعاة » وهي اثنتا عشرة قصيدة رمزية بدأها في ١٣٤٦ . . وله « سلام الدير » (١٣٤٧) . وله « الواقى من الأقدار » (١٣٥٤) . كما أن له أربعة مجلدات من الرسائل .

كل هذه الأعمال اللاتينية رغم رفعة أسلوبها لا يقرأها الا الأقلون . أما اضافته الخالدة للأدب فهي ديوان « الأغاني » (الكانزونيري) أو « القوافي » (ريمبا) . . وهو عبارة عن ٣٦٦ قصيدة . . منها ٣١٧ سونيتة والباقي أشكال غنائية مختلفة كالمواويل (البلاد) وامثالها . . نظمت كلها بالاطالية . ومثل ديوان « الأغاني » أو « القوافي » ديوان « الانتصارات » . وهو مجموعة من الرمزيات التي بدأها بترارك عام ١٣٥٢ حول موضوعات

الحب والموت والحياة والعفة والشهرة والزمن والحياة الأبدية .. وهى بالاطالية كذلك — وغرام بترارك بلورا هو المحور الذى تدور عليه قصائد « الاغانى » أو « القوافى » و « الانتصارات » . والواقع أن بترارك لم يتوج اميرا للشعراء احتفاء بقصائده العامية ، وانما توج احتفاء بقصائده اللاتينية ولاسيما ملحمة « افريقيا » التى صور فيها بطولات القسائد الرومانى شيبو الأفيقى (٢٣٥ — ١٨٣ ق م) . ففتح اسبانيا وقرطاجة وقاهر هانيبال العظيم . ويلاحظ أنه فى أول طبعة كاملة من أعماله (١٥٥٤) تبلغ كتابات بترارك شعرا ونثرا عشرين مثلا من كتاباته باللغة العامية (الايطالية) ، وهى « القوافى » و « الانتصارات » ، من حيث الحجم . بل ان بترارك نفسه كان أثناء حياته يصف أشعار العامية بأنها « سفاست الشبان » ، حتى أنه لم يعن بأن يختار لقصائده الغرامية فى صاحبه لورا حية وميتة اسما محددا يضعه على ديوانه . فديوانه يسمى تارة « القوافى » (ريم) وتارة أخرى « الاغانى » (كانزونيرى) ، على خلاف ما فعله دانتي من قبل حين أطلق على ديوان غرامياته فى صاحبه بياتريس اسم « الحياة الجديدة » . بل ودافع عن اللغة العامية دفاعا نظريا فى كتابه « فى البلاغة العامية » .

ووجه التناقض فى كل هذا أن الأجيال التالية لبترارك لا تعرف من هذا الشاعر العظيم ولا تقرأ له الا اشعاره العامية فى حب لورا . واكثر الناس فى القرون المتأخرة لم يسموا بأعماله اللاتينية مثل ملحمة « افريقيا » و « اغانى الرعاة » . وقل منهم من سمع بنثر بترارك اللاتينى فى كتابه « سرى الخاص » و « سير اعلام الرجال » . فهو عند الناس أولا وأخيرا أمير شعراء ايطاليا فى القرن الرابع عشر بعد دانتي ، وواضع اساس الشعر الايطالى بعد دانتي بفضل دواوينه الغنائية العامية التى صقل فيها العامية الايطالية الى حد الاعجاز .

وليس من الضرورى أن نصدق كل ما كان يقوله بترارك نفسه عن رايه فى شعره العامى . فربما كان هذا من باب التصالح مع جهابذة عصره من أساتذة الجامعات والكرادلة والمحافظين من رجالات عصره ، الذين كانوا لا يزالون على تقديسهم للاتينية الفصحى ولم يسحروهم فى انتاج بترارك الا سيطرته التامة على البيان اللاتينى الفصيح . والدليل على ذلك أن بترارك نفسه كان فى كل مرحلة من مراحل حياته دائم الصقل والتنقيح لمقطوعاته العامية فى ديوان « القوافى » ليلبغ بها حد الكمال . كما تشهد بذلك مسودة مخطوط هذا الديوان المحفوظة الآن فى مكتبة الفاتيكان . فهذا المخطوط ملئ بالتنقيحات وهوامش صفحاته زاخرة بالملاحظات البلاغية والاسلوبية .

فلو كان بترارك يعتقد صدقا أن شعره العامى بغير قيمة حقيقية . .
أو أنه مجرد « سفاسف تافهة ومن حماقات الشباب » كما كان يقول . .
وانه كان يتمنى ألا يعرف أحد في العالم عنه شيئا . . « بل وأن أنكره أنا
لو كان ذلك ممكنا » . لو كان بترارك صادقا في كل هذا التبرؤ من شعره
العامى كما حدثنا في « رسالة الى الأجيال القادمة » ، لما سهر الليالى ،
كما كتب عام ١٣٦٨ ، وهو في الرابعة والستين من عمره . . في مراجعة
قصيدة كتبها قبل ذلك بربع قرن وتنقيحها بما جعلها في نظره كاملة التكوين .

لقد كان بترارك يعرف ما يفعله وما يقوله . لقد عاش مثل دانتي في
عصر كان الانشاء فيه باللفات العامية يتضمن عند الكنيسة وعند المحافظين
من أهل السطوة درجة واضحة من الزندقة لأنه كان يمثل تحديا للغة المقدسة،
وهى اللاتينية الفصحى أو شبه الفصحى ، التى ترجم اليها الكتاب المقدس
منذ القديس جيروم (٣٤٧ - ٤٢٠ ميلادية) وأصبحت لغة الكنيسة الرسمية
ولغة الشعائر الدينية في أوروبا ألف عام . والفرق الواضح بين دانتي وبترارك
هو الفرق بين التأثير المنفى الأبدى والتأثير المتصالح مع السلطة .

فاذا نحن طرحنا هذا السؤال العام : فيم اذن كان بترارك يمثل عصر
النهضة الأوربية ، كان الجواب كالاتى :

أولا : وقبل كل شيء : لأنه كان بعد دانتي وقبل بوكاشيو أهم من
وضع أساس اللغة الايطالية والأدب الايطالى الحديث باضفاء النبل والصفاء
في المعانى وفى التعبير على اللغة العامية التى كانت من قبل لغة سوقية في
ايطاليا . وبذلك أعطى للايطاليين لغة قومية حية بدلا من اللغة الدولية
الشاحبة التى لا يتكلمها أحد (اللاتينية) ، وأدبا قوميا حيا بدلا من الأدب اللاتينى
المنقرض .

ثانيا : لأنه كان أعظم قطب للدراسات الانسانية والمذهب
الانسانى في عصره . فقد كان عصره لا يعترف بأن الأدب بعامية والشعر على
وجه الخصوص له قيمة فى الوجود . بل كان يعد هذا وذاك من « السفاسف
التافهة » ، بلغة بترارك . كذلك كانت ايطاليا ، بل وأوروبا كلها ، لأكثر من
ألف عام قبله تتنكر لأدب الدنيا ولا تعترف الا بأدب الدين بتأثير الثقافة
الدينية السائدة وبقوة الكنيسة .

وهكذا تنكر الأوروبيون أكثر من ألف عام لحضارة أوروبا الجاهلية ،
أى الوثنية أيام اليونان والرومان ، وتنكر أحفاد الرومان (الايطاليون)
لحضارة أجدادهم أيام الوثنية وتنكروا لثقافتهم ولأدبهم اللاتينى شعرا
ونثرا وفلسفاتهم ولأمجادهم فى السلم والحرب على السواء ، من جهة

لأنها كانت مؤسسة على معتقدات وثنية تتعارض مع العقيدة المسيحية ،
ومن جهة أخرى لأنها كانت تحتفل بالانسان وغاياته الدنيوية أكثر مما
ينبغي .

كان بترارك اذن من رواد عصر النهضة الأوربية الذين اكتشفوا
حضارة الرومان وثقافتهم وأدبهم وتاريخهم ومجدوها وزينوها لمعاصريهم كمثل
أعلى يحتذى ، حتى أصبح أكبر داعية لحياء الآداب القديمة في أوربا وأكبر
داعية لشرف الانسان ولنبيل الانسان ولحكمة الانسان ولبطولة الانسان .
ونحن الآن لا نعرف بترارك الا شاعرا غنائيا من الطبقة الأولى ، أما معاصروه
في القرن الرابع عشر فقد كانوا يعرفونه كأكبر عاشق لتراث القدماء كما
يقول المؤلف بوركهارت . بل لقد كان هو بملحمته اللاتينية « أفريقيا »
وبديوانه اللاتيني « أغاني الرعاة » يتصور نفسه فرجيل صاحب « الانيادة »
و « أغاني الرعاة » ، وكان يحلم بتتويجه في روما بأكليل الغار كما جرى
لفرجيل العظيم .

لقد كان الاهتمام بعلوم الدنيا وآدابها وفنونها في عصر لا يحترم
الا علوم الدين وآدابه وفنونه هو القاعدة الصلبة التي بنى عليها الهيومانزم
او المذهب الانساني وكان البداية الحقيقية لعصر النهضة الأوربية .

ثالثا : لأن بترارك كان من رواد الفكر الذين تأججت قلوبهم بنار
الوطنية ولفحهم لهيب الشعور القومي وكانوا يحلمون ليل نهار بوحدة
ايطاليا ، ويدعون لظهور الأمير المخلص الذي ينقذ ايطاليا من نظام الدويلات
ويقوم فيها دولة قومية مركزية واحدة : حلم راود الايطاليين منذ أيام دانتي
وبترارك ومكيافيلي أيام الرنيسانس ولم يتحقق الا في القرن التاسع
عشر .

ولم يكن بترارك يشتغل بالسياسة ، ومع ذلك فقد اهاب بحكام ايطاليا
أن يذكروا دائما « الدم اللاتيني الشريف » وناشدهم الا يستعينوا بالجنود
المرتزقة من البرابرة او يستجلبوهم من الخارج أو « يحطموا أجمل بلاد
على وجه الأرض » بالاعتماد على الجيوش الأجنبية لحمايتهم أو توطيد
سلطتهم ، فالأمل عنده هو في احياء « الفضيلة الرومانية » القديمة والشرف
الروماني القديم . أما هؤلاء البرابرة الأجانب الذين يتحدث عنهم فهم
« الفرنسيون والالمان والسويسريون والأسبان الذين كانت جيوشهم
تتدخل في السياسة الايطالية بدعوة من هذا الدوق أو ذاك أو بالتحالف
مع البابوات » . وكان بترارك لا يفتأ يناشد البابوات المنفيين أو اللاجئين

الى أفنيون بجنوب فرنسا حيث أقاموا كرسى البابوية والبلاط البابوى ، أن يعودوا الى روما .

وبعد قرنين من الزمان كان مكيافيللى يؤسس دعوته لتوحيد ايطاليا واقامة الدولة القومية بدلا من الدولة المسيحية الجامعة واقامة الدولة القومية فيها على دعوة بترارك ، حتى أن مكيافيللى ختم كتابه « الأمير » بالمناداة بتطهير ايطاليا من « البرابرة » الأجانب كما فعل بترارك . كما ختم الفصل الأخير من هذا الكتاب بأبيات من قصيدة بنرارك الشهيرة « ايطاليا بلادى » ، التى تعد من أروع روائع شعر الوطنية فى تاريخ الآداب العالمية .

بهذه الصفات الثلاث كان بترارك بعد دانتى رائدا عظيما من رواد حركة الرنيسانس : بدوره الخطير فى وضع أساس الشعر الايطالى فى مواجهة الشعر اللاتينى ، وبدوره الخطير فى احياء تراث القدماء الوثنى بكل ما تضمنه ذلك من تمجيد الانسان والحياة فى مواجهة الف عام من ثقافة روحية كانت تبشر بأن الموت باب الحياة .



بوكاشيو

BOCCACCIO

١٣٧٥ - ١٣١٣

□ وهذا ، جيوفانى بوكاشيو ، ثالث الثلاثة الذين وضعوا فى القرن الرابع عشر ، أساس عصر النهضة الأوربية ، لا فى إيطاليا وحدها ولكن فى أوروبا كلها ، إلا وهم دانتي وبتراى وبوكاشيو .

كان دانتي أول من ثار على اللغة اللاتينية فى إيطاليا ووضع أساس التعبير الشعرى فى اللغة العامية الإيطالية بملمته الفلسفية « الكوميديا الإلهية » وبديوانه الغنائى « الحياة الجديدة » الذى خلد به حبه العذرى لصاحبه بيانريس . وكان بترارك أرق وأصفى من نظم الشعر الغنائى فى ديوانه « القوافى » أو « الأغانى » وفى ديوانه « الانتصارات » اللذين خلد فيهما حبه العذرى لصاحبه لورا . وبهذا وضع دانتي وبتراى أساس الشعر الإيطالى الحديث .

أما بوكاشيو فقد فعل أكثر من هذا . وثب الوثبة الكبرى وكتب النثر الأدبى باللغة العامية فى مجموعته القصصية المعروفة باسم «ديكاميون» ، أى القصص العشر ، وبذلك وضع أساس النثر الفنى فى الأدب الإيطالى الحديث .

وقد كان النثر من قبله لا يكتب إلا باللغة اللاتينية . حتى دعاة اللغة العامية (الإيطالية) ، لم يجترئوا على كتابة النثر بالعامية ووقفت ثورتهم عند نظم الشعر بهذه اللغة الشعبية .

وقد ولد جيوفانى بوكاشيو عام ١٣١٣ فى باريس لأب إيطالى يدعى بوكاتشينو أو بوكاشيو من بلدة تشرنالدو من أعمال فلورنسا . وكان جيوفانى ابنا غير شرعى لبوكاتشينو هذا من سيدة فرنسية لا يعرف عنها إلا القليل ، ويقال ان اسمها كان جان دى لاروش وانها كانت تنتمى لأسرة من صغار النبلاء .

كذلك نعرف ان اياه هجر امه وعاد الى ايطاليا ، وان بوكاشيو الابن تلقى تعليمه الاول في فلورنسا حيث اقام ابوه وتزوج ، وان تعليم بوكاشيو الاول كان يعمده للتجارة . فقد كان الاب نفسه يزاول مع اخيه (عم بوكاشيو) التجارة وربما اعمال الصيرفة في فلورنسا ، وكان على صلة ببيت باردى الشهير ، وهو بنك في فلورنسا كانت دائرة نشاطه تمتد الى نابولى ، وباريس . ولم يكن بوكاشيو سعيدا ايام صباه بالعيش في بيت ابيه ، ولكن الحال تغيرت بعد انتقاله الى نابولى نحو عام ١٣٢٨ ، حين كان في نحو الخامسة عشرة من عمره . فقد ارسله ابوه بوكاتشينو الى نابولى ليتدرب هناك عند احد شركائه على الاعمال التجارية والمصرفية ، وبقي بوكاشيو في هذا البيت التجارى ستة اعوام عدها هو ضياعا في ضياع ، ثم وافق ابوه عندئذ على ان يتجه بوكاشيو ستة اعوام اخرى الى دراسة الشريعة المسيحية او القانون الدينى كما يسمى ، الذى كان مطبقا في اوروبا طوال العصور الوسطى بسبب سيطرة الكنيسة على الدولة .

كان بوكاشيو في الحادية والعشرين من عمره حيث بدأ يدرس في نابولى القانون الدينى او القانون الكنسى . وظل يدرسه حتى سن السابعة والعشرين ، اى حتى عام ١٣٤٠ . غير ان تعليمه الحقيقى في فترة شبابه كان في سلاط الملك روبر دانجو الذى كان يحكم نابولى . وكانت نابولى في عهده ازهى مدينة في ايطاليا كلها واكثرها ترفا واشدها اقبالا على الحياة . وكذلك خالط بوكاشيو اهل العلم والادب في جامعة نابولى ، واخذ شيئا من علم الفلك من منجم القصر ، وشيئا من الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية) عن امين مكتبة القصر بعد ان درس مبادئ اليونانية على يد راهب من اقليم كالابريا ، ولكن المعروف عن بوكاشيو انه في الاساس ثقف نفسه بنفسه .

وكما كان لدانتى صاحبه بياتريس ولبترايك صاحبه لورا ، كذلك كان لبوكاشيو صاحبه ماريا ، التى سماها بوكاشيو في اعماله الادبية فياميتا . كانت ماريا غرام شباب بوكاشيو ، وكانت بنتا غير شرعية لروبير دانجو ملك نابولى ، من الكونتيسة داكوينو ، وهى سيدة من نبيلات مقاطعة بروفانس بجنوب فرنسا . وقد زوجت ماريا على كره منها من نبيل من نبلاء البلاط . اما القصة التى يرويها بوكاشيو عنها فهى تجربة حب عنيف وسعادة غامرة وجيزة الابد ، انتهت بغيرة بوكاشيو على محبوبته وفتورها نحوه ثم هجرانها اياه في نهاية الامر عام ١٣٣٨ ، اى وهو في الخامسة والعشرين من عمره . وهنا اعتكف بوكاشيو لدراسة فحول الشعراء في الادب اللاتينى : فرجيل واوفيد وستاتيوس . . وكان ذلك في

دار خارج المدينة بالقرب من قبر فرجيل . وهناك اقسام حتى ١٣٤٠ حين استدعى للعودة الى فلورنسا بسبب افلاس ابيه .

وقد تركت ماريا في ادب بوكاشيو ، شعرا ونثرا ، اثرا عميقا . فهي تظهر في غرام فلوريو وبيانكوفوريين في رواية « فيلوكولو » التي بداها بوكاشيو في نابولي بناء على طلب محبوبته ماريا ، ثم اتمها في فلورنسا وهي بالعامية (الايطالية) . وهي تظهر في القصيدة القصصية العامية « فيلو ستراتو » ، وهي تظهر في حكاية « ترويلوس وكريسيدا » التي كتبها ليحبر عن عذابه عندما تركت ماريا مدينة نابولي ، وهي تظهر في قصيدة « ثيسوس » القصصية التي نظمها بوكاشيو بالعامية في نابولي ليصور فيها غرام ارسيتا وبالامون باميليا . وفيما تلا ذلك من سنوات انشأ بوكاشيو في فلورنسا ثلاثة أعمال متأثرة بغرامه بماريا ، هي « اميتو » ، وهي رواية بالشعر والنثر ، وموضوعها اثر الحب في تهذيب الطباع ، و « رؤيا الغرام » ، وهي قصيدة رمزية تمجد الحب وتمجد ماريا ، ورواية « مرثية المادونا فياميتا » ، وهي رواية تقلب الأوضاع وتصور عذاب ماريا في الحب بدلا من عذابه .

وبعد ان عاد بوكاشيو الى ابيه في فلورنسا قضى نحو عشر سنوات لا نعرف عنها شيئا كثيرا سوى ان ابنته الصغرى فيولانت ماتت محزنة لموتها حزنا شديدا . ولكننا نعرف انه استغرق في دراساته . وفي هذه الفترة كتب بعض هذه الأعمال التي مر ذكرها . وكتب ايضا رواية « نتفالى فييزولانو » .

وفي نهاية ١٣٤٦ نسمع انه كان في مدينة رافينا ، وفي نهاية ١٣٤٧ او بداية ١٣٤٨ نسمع انه كان في فورلى يعمل عند سيدة المدينة . وهذه هي السنة (١٣٤٨) التي حصد فيها الطاعون آلاف الأرواح في فلورنسا وكان يسمى « الموت الأسود » ، وقد ذكر لنا بوكاشيو في كتابه الخالد « ديكاميون » الذي بداه عام ١٣٤٨ ، عام انتشار الوباء ، انه رأى « الموت الأسود » رؤية العين ، وقد ماتت فياميتا بالطاعون في نابولي . وفي ١٣٤٩ مات أبوه فتولى هو تعليم أخيه يعقوب ، وهو أخ غير شقيق .

في هذا الجو القاتم ولدت « القصص العشر » أو « ديكاميون » التي استغرقت كتابتها خمس سنوات ، بين ١٣٤٨ و ١٣٥٣ وهي باللغة العامية أو بالايطالية .

وكانت هذه قمة عمر بوكاشيو وقمة نضوجه الفني ، فاختلفت من ادبه العاطفة الملتهبة وحل محلها التصوير الموضوعى للناس ولسلوكلهم في

عصره في هيئة مجموعة من الحكايات تمثلت فيها مأساة الانسان ومهزلة الانسان وتجلت فيها سخریات الحياة ، فكتب بوكاشيو باللغة العامية أعظم رواية في الأدب الايطالى وهى حكايات « ديكاميون » ، فوضع بها أساس النثر الفنى في اللغة الايطالية ووضع في الأدب العالمى غرة الأدب القصصى في الرواية والقصة القصيرة على حد سواء .

وذاع صيت بوكاشيو فنتقلد عبدة وظائف تشريفية بعد انجلاء الموت الأسود . ففى ١٣٥٠ أوفد سفيرا الى سادة اقليم روماجنا . وفي نفس العام أوفده رؤساء جماعة سان ميكيل الى رافينا ليسلم عشرة فلورينات ذهبية الى الأخت بياتريس بنت الشاعر العظيم دانتي اليجييرى الراهبة في دير سانتا ستيفانو ديل اوليفافى رافينا . وفي ١٣٥١ أوفد لمفاوضة ملكة نابولى ، وفي مناسبة أخرى لمفاوضة لويس دوق بافاريا . وفي ١٣٥٤ أوفد الى البابا انوتشنتو السادس المنفى فى أفنيون .

كان بوكاشيو مفتونا بأشعار بترارك وكتاباته وأفكاره . فما أن عرف انه سيمر بفلورنسا في طريقه الى روما في خريف ١٣٥٠ حتى سعى للقاءه ، وهنا بدأت صداقة بين الرجلين امتدت نحو ربع قرن حتى وفاتها ، بترارك في ١٣٧٤ وبوكاشيو في ١٣٧٥ .

وفي ١٣٥٧ حمل بوكاشيو الى بترارك في بادوا الخطاب الذى دعت فيه سلطات فلورنسا بترارك لشغل منصب الأستاذية في جامعته المنشأة حديثا. وقررت رد أملاك أبيه المصادرة اليه . وفي ١٥٦٣ قضى بوكاشيو الصيف ضيفا على بترارك في فنيسيا ، وكان بوكاشيو قد أزمع أن يهجر الشعر بناء على نصيحة راهب كان يحتضر ولقن بوكاشيو أن الاهتمام بالأدب فسق وتجديف ، وأن كل ما يصرف الانسان عن دراسة الالهيات والتأمل فيها يصرفه عن وجه الله . ولكن بترارك بثقافته الانسانية الواسعة استطاع اقناع بوكاشيو بفساد هذا المنطق الذى يقيم كل هذا التناقض بين الدين والدنيا ويريد أن يسحق الحياة بفلسفة الموت .

وهكذا قضى بوكاشيو الشطر الأخير من عمره بين اليونان والرومان . وفي ١٣٦٠ - ١٣٦٢ اشغل مع أستاذ يونانى بجامعة فلورنسا بترجمة هوميروس من اليونانية الى اللاتينية ، كذلك ألف أربعة مجلدات أكثرها في الدراسات القديمة باللغة اللاتينية هى : « أنساب آلهة الأمم » ، وهو موسوعة في الأساطير القديمة تنتهى بدفاع بوكاشيو عن الشعر والشعراء ، و « سقوط أعلام الرجال » الذى ترجمه ليدجيت الى الانجليزية تحت عنوان « سقوط الأمراء » ، و « مشاهير النساء في العالم القديم وما تلاه » ،

واخيرا قاموس في الجغرافيا بعنوان « في الجبال والغابات والنوافير والبحيرات » .

وكان آخر مؤلف من مؤلفات بوكاشيو كتابه « سيرة دانتي » ، وهي من أهم التراجم التي كتبت عن هذا الشاعر العظيم لأن بوكاشيو تقصى فيها حياة الشاعر من شهادات معاصريه . وفي ١٣٧٣ دعى بوكاشيو ليحاضر عن « الكوميديا الالهية » في جامعة فلورنسا ولكنه لم يكمل محاضراته بسبب اعتلال صحته .

ولم تكن حياة بوكاشيو رحية في اواخر أيام حياته اى بعد ١٣٦٢ . ولذا كثرت تنقلاته بين فلورنسا ونابولى وروما وفنيسيا وكرتالدو في تسكانيا حيث مات في ديسمبر ١٣٧٥ . وكان يقوم بمهمات تدر عليه مالا كافيا للعيش ولكن ليس فيها متسع للترف أو اللادخار . كذلك حاصرته بعد أن فرغ من كتابة « ديكاميون » (١٣٤٨ — ١٣٥٣) ذكريات خيانة معشوقته ماريا (فياميتا) له أيام شبابه فطفحت المرارة في كتابه « آل كورباتشيو » (١٣٥٥) ، وتفاقت هذه المرارة مع الأيام حتى صبغت كل تفكيره عن المرأة في اواخر أيامه . وليس بمستبعد أن تكون تجاربه المتأخرة مع النساء هي التي نكأت جراح تجربته الاولى .



والسؤال الآن هو : لماذا يعد بوكاشيو قطبا من أقطاب عصر الرينيسانس اى عصر النهضة الأوروبية ؟

أولا ، لأن شأنه شأن صنويه دانتي وبتراارك ، كان أسبق من اجترا في ايطاليا في القرن الرابع عشر على استخدام اللغة العامية في التعبير الأدبي ، وبهذا شارك في وضع أساس اللغة الايطالية كلفة قومية يتفرد بها الايطاليون عن سائر الأوربيين ، بدلا عن اللغة اللاتينية الوسطى التي كانت لغة الدين والدولة والرسائل التي كان يتبادلها المثقفون .

غير أن اجتراء بوكاشيو كان أكبر من اجتراء صنويه ، لأن دانتي وبتراارك وقفنا عند حد نظم الشعر بالعامية ، والشعر مادته الوجدان والعواطف التي تصهر حرارتها الكلمات لأنها صادرة من القلب وغايتها القلب ، وحيث ترتفع الحرارة تبدأ حمى الهذيان الجميل الذي يسوغ فيه الخيال كل شيء أو حمى الحماسة التي تؤجج قلوب السامعين . والعامية هي لغة القلب لأنها لغة الأم التي نأخذها مع الرضاعة ، كما يقول دانتي ، وقبل أن تتفتح عقولنا فهي أيضا لغة الحواس والمحسوسات . ولذا كانت

بلاغتها الطبيعية اقوى من البلاغة المكتسبة ، والصدق الفطرى قد يكون اقرب الى الشعر من الصدق المكتسب .

كان اجتراء بوكاشيو اكبر من اجتراء صنويه لأنه استخدم اللغة العامية فى النثر الفنى فكتب بها الرواية والقصة القصيرة واثبت أنها أقدر على التعبير الادبى من لاتينية العصور الوسطى التى لم تكن الا صيغة ضامرة شاحبة من اللاتينية الفصحى ، وكان ضمورها وشحوبها من اقتصارها على التعبير عن الفكرين الدينى والقانونى وعن احتياجات الدواوين ، وبسبب انصرافها عن التعبير الادبى أكثر من ألف عام . وهكذا كان بوكاشيو بحق أبا النثر الايطالى .

ولكن بوكاشيو كان كذلك قطبا من أقطاب حركة الرنيسانس بسبب دفاعه عن الأدب عامة وعن الشعر خاصة فى زمن كانت الكنيسة لا تزال فيه تحرم كل نشاط فكرى أو فنى أو علمى أو أدبى يخدم الدنيا ولا يخدم الدين وتعدده منافيا للإيمان المسيحى القويم . من أجل هذا مات الفكر والفن والعلم والأدب فى أوروبا المسيحية أكثر من ألف عام ، ولم ينج من هذه اللعنة الا فن العمارة بسبب حاجة الكنيسة الى بناء الكاتدرائيات وحاجة أمراء الاقطاع لبناء القلاع والحصون ، كذلك لم ينج من هذه اللعنة الا الفكر الدينى ، لا كما نجده عند الفلاسفة ولكن كما نجده عند فقهاء الدين ومفسريه . لقد وضعت الكنيسة الخيار بين الانسان والله وبين الدنيا والآخرة وبين المادة والروح وبين العالم الطبيعى وما وراء الطبيعة وبين الوجود فى الزمان والوجود فى الأبدية ، وأسست العقيدة المسيحية على قيام التناقض بين الطرفين ، واختارت الله والآخرة والروح وما وراء الطبيعة والوجود فى الأبدية .

أما بوكاشيو فقد شارك بترارك فى الدعوة لحياء آداب القدماء ، وآداب اليونان والرومان فى جاهليتهم الوثنية وأيام أمجادهم الدنيوية ، ولذا كان بوكاشيو مثل بترارك جزءا لا يتجزأ من الدعوة للفلسفة الانسانية أو حركة الهيومانزم كما يسمونها .

بل أكثر من هذا . فقد كتب بوكاشيو دفاعا عن الشعر ليدحض ضمنا تعاليم الكنيسة القائلة بأن الشعر عدو الدين ، وليقول إن القدماء رغم وثنيتهم كانوا مثلنا مؤمنين بالله . وهو فى نهاية كتابه « أنساب الآلهة » ، وفى مقدمة ذلك الكتاب ، حاول أن يثبت أنه لا يغض من مسيحية الشاعر المسيحى أن يستلهم تراث اليونان والرومان . (أنظر مقدمة « أنساب الآلهة » والفصلين الرابع عشر والخامس عشر من ذلك الكتاب) .

وفي الفصل الثانى والعشرين من كتاب بوكاشيو « سيرة دانتي » يقول بوكاشيو :

« (٢) اذا نحن اردنا أن نتخلى عن عواطفنا وننظر الى العقل فاعتقادي أننا سوف نتبين بسهولة كافية أن الشعراء القدماء كانوا فى الحدود المستطاعة للبشر يقتفون آثار الروح القدس ، الذى يقول الكتاب المقدس انه يكشف للأجيال القادمة عن مكنونات أسرارهِ الشامخة من خلال أفواه كتاب عديدين جعلهم يقولون من وراء نقاب ما أراد الروح القدس اظهاره فى الوقت المناسب صراحة بالأعمال وبدون نقاب . وبناء عليه فلو أننا تأملنا كتاباتهم بامعان ، لرأينا هؤلاء الكتاب يصفون ما قد كان أو ما حدث فى زمنهم أو ما كانوا يتمنون حدوثه مستقبلا مسربلا فى رداء القصص . قاصدين الا يختلف المقلد فى وصفه عما يقلده . ومن هنا ، قدون أن نفترض أن كل أنواع الكتابة واحدة فى الهدف . . وانما تأسيسا على منهج الكتابة ، وهو أهم ما يعينى الآن ، فان ما يقال فى مدح الكتاب المقدس يمكن أيضا أن يقال فى مدح الكتابات الدنيوية وفقا لما ذكر القديس جريجوار دى تور (٥٣٨ — ٥٩٤) . . فهو يقول عن الكتاب المقدس ما يمكن أن يقال أيضا عن الشعر ، وهو انه كلما سرد شيئا فهو يطرح فى نفس الألفاظ النص والأسرار المتضمنة فى النص . . وبذلك فهو يشغل الحكماء ويرضى البسطاء فى آن واحد . ففى معناه الظاهر ما يقنع الأطفال ، وفى معناه الخفى هو يخبىء ما يملأ أحكم السامعين بالرهبة والاعجاب . . فهو اذن يبدو — لو جاز لى هذا المجاز — كالنهر الضحل العميق معا . . يعبره الحمل الصغير على أقدامه ويسبح فيه الفيل الجسيم بحرية تامة » .

« (٣) والكتاب المقدس الذى نسميه اللاهوت أو الالهيات يقوم بتعريفنا فى ثوب قصصى — أنا باجتلاء رؤيا ، وأنا بسماع نواح ، وآونة بطرق عديدة مختلفة — سر تجسد الكلمة الالهية وسيرة حياته ووقائع موته وبعثه المنصور وصعوده المعجز وكل ما أتى من أعمال . فلو اتعظنا بهذه الأشياء بلغنا ذلك المجد الذى هياه لنا بموته وقيامته بعد أن أوصد بابه فى وجوهنا زمنا طويلا بخطيئة الانسان الأول . وبالمثل فان الشعراء بأعمالهم التى نسميها الشعر يبينون لنا — من خلال قصص الالهة المختلفة ومن خلال تشكيلات الناس فى هيئات مختلفة وبالاقتناع الجميل — علل الأشياء ونتائج الفضائل والردائل وما ينبغى علينا اجتنابه وما ينبغى علينا اتباعه ، حتى نبلغ بالفضيلة تلك الغاية التى تصورها قمة الرضوان أولئك القوم الذين لم يعرفوا الاله الحق تمام المعرفة . . » .

» (٤) وبالمثل فشعراؤنا عندما زعموا أن الاله ساتيرن (المشتري) كان له أطفال عديدون التهمهم جميعا فيما خلا أربعة ، فانما أرادوا أن نفهم من هذه القصة شيئا ولا شيء سواه : وهو أن الاله ساتيرن هو الزمن الذى فيه يولد كل شيء . . . وانه كما أن كل شيء يولد فى الزمن فالزمن ايضا يدمر كل شيء ويحيله الى عدم . واطفاله الأربعة الذين لم يلتهمهم كان الأول هو جوبيتر ، وهو عنصر النار . . . والثانى هو جونو امرأة جوبيتر واخته ، وهى عنصر الهواء الذى به تشتعل النار فى الدنيا . . . والثالث هو نبتون رب البحر ، وهو عنصر الماء . . . أما الرابع فهو بلوتو رب العالم السفلى ، وهو عنصر التراب . . . وهو أدنى عنصر من هذه العناصر . كذلك زعم شعراؤنا أن هرقل استحال من بشر الى اله . . . وان ليكون استحال الى ذئب ، وقد أرادوا بذلك أن يدللوا على أن التمسك بالفضيلة — على غرار ما فعل هرقل — يجعل من الانسان الها بالمشاركة فى ملكوت السموات . . . وان طريق الرذيلة الذى سلكه ليكون يجعل من الانسان شبيه الذئب رغم هيئته الأدمية . . . ولا شك أنى لو لم أضف شيئا الى هذه الأمثلة لكانت هذه الأمثلة كافية لاثبات أن اللاهوت والشعر يتفقان فى طريقة عملهما . . . أما من حيث الموضوع فانى أقول انهما ليسا مجرد شيئين مختلفين كل الاختلاف وانما هما من بعض الوجوه متناقضان . فموضوع اللاهوت المقدس هو الفضيلة الالهية ، أما الشعراء القدماء فيتناولون قصص آلهة الأميين وقصص البشر . وهما متناقضان من حيث أن اللاهوت لا يقدم من البداية شيئا الا اذا كان صادقا ، أما الشعر فيقدم بعض الأشياء العارية عن الصدق والخاطئة والمضادة للدين المسيحى على أنها أشياء صادقة . ولكن لأن بعض الحمقى يهاجمون الشعراء بقولهم انهم الفوا اساطير مقززة وشريرة ولا تستقيم مع الحق ، وانهم كان ينبغى عليهم أن يظهروا قدرتهم وأن يلقوا بتعاليمهم للناس من طريق آخر غير ابتكار الأساطير . . . فانى أود أن أمضى الى مزيد من مناقشة هذا الموضوع ولكن داخل حدود » .

» (٥) فليتأمل اذن أمثال هؤلاء المهاجمين رؤى دانيال واشعيا وحزقيال وغيرهم فى التوراة . تلك التى خطها القلم الالهى ونزل بها الوحي من عند من لا بداية له ولا نهاية . وليتأملوا ايضا رؤى الرسل فى الانجيل . وهى المليئة بعجائب الحق التى يدهش لها العقل . . . فان وجدوا أن قصص الشعراء أبعد عن الحق وعن مشابهة الواقع من قصص الأنبياء كما تبدو فى الظاهر فى مواطن عديدة ، كان من حقهم القول بان الشعراء وحدهم قد سطوروا الأساطير بسبب عجزهم عن تهذيب الناس بالمتعة أو الفائدة . ودون أن يتعرض لسا يسوقونه من اتهامات للشعراء من حيث لجوء الشعراء

لتقديم تعاليمهم بالأساطير أو تحت قناع أسطوري . أرانى أستطيع أن امضى فى حديثى دون تردد . لأنى أعلم أنهم حين ينتقدون الشعراء فى حماقة على هذا المنهج . فهم فى طيشهم يتورطون فى نقد الوحي نفسه . وما الوحي للإنسان الا الطريق والحق والحياة . ومع ذلك فسوف أسعى لارضائهم » .

« (٦) من الواضح ان كل ما نكتسبه فى عناء يبدو أحلى مذاقا مما نكتسبه بغير جهد . فالحقيقة الواضحة تمتعنا . ولكن سرعان ما ينساها العقل لأنه يفهمها دونما مشقة كبيرة . غير أن الشعراء يخفون الحقيقة تحت غطاء يبدو فى الظاهر على النقيض منها حتى يجعلوها أكثر امتاعا للنفس بحكم أنها مكتسبة بمشقة ولذا فهي أقوى رسوخا فى النفس . ولهذا السبب نجدهم يبدعون الأساطير من دون وسائل التعبير الأخرى . لأن جمال الأساطير يجتذب أولئك الذين يعجز العرض الفلسفى أو الاقناع المنطقى عن اجتذابهم . فماذا يكون اذن حكمنا على الشعراء ؟ أنقول انهم مجانيين كما يتصورهم أعداؤهم الحمقى زاعمين أنهم لا يعرفون شيئا ؟ بالقطع لا . فالشعراء يستخدمون فى انتاجهم أعماق الأفكار . . . وهى أشبه شئ باللباب الخبىء داخل الفاكهة . وهم يستخدمون اللغة الرائعة المثيرة للاعجاب . . . وهى أشبه شئ بالقشرة والأوراق . ولنمضى فى حديثنا » .

« (٧) أقول ان اللاهوت والشعر يمكن أن نسميهما شيئا واحدا على وجه التقريب اذا كان موضوعهما واحدا . بل انى لأقول ان اللاهوت ليس الا الشعر الالهى . وهل يخرج الكتاب المقدس عن الابتكار الشعرى حين يصف المسيح فى موضع ما بأنه أسد . وفى موضع آخر بأنه حمل . وفى موضع غيره يصف ابن الانسان بأنه دودة (سفر أيوب ٦/٢٥) . والمسيح هنا تنين وهو هناك صخرة . وأشياء أخرى كثيرة أغفلها من باب الإيجاز ؟ . وهل كلمات مخلصنا فى الانجيل غير ابتكار شعرى اذا كانت عظاته تقول شيئا فى الظاهر وتضمهر مغزى غير ما بدا ؟ . فلنقل إنها بالتعبير المشهور مجاز . ومن هذا يتجلى بوضوح ليس فقط أن الشعر هو اللاهوت ولكن أيضا أن اللاهوت هو الشعر . وأنا لست انزعج اذا كانت أقوالى فى هذا الأمر الخطير غير أهل لثقة الناس ، لأنى أثق فى قول أرسطو . وهو الحجة الساطعة فى كل امر خطير . انه وجد أن الشعراء كانوا أسبق من كتبوا عن الالهيات » .

(كما ورد فى كتاب « الميتافيزيقا » ٣/٤/١٠٠٠/١/٩) .



كان رأى الكنيسة وأكثر فقهاء الدين المسيحى لأكثر من ألف عام طوال العصور الوسطى ادانة الشعر خاصة والأدب بعمامة بوصف أنهما قائمان على سفاسف الأشياء الدنيوية التى تشغل الانسان عن ذكر الله ويدعوان للفسق بتمجيد خطايا البشر كالحب والحرب وطلب النعيم فى الحياة الدنيا . كذلك أدانوا منهج الشعر والأدب فى التعبير بوصفه كذبا فى كذب فهو يعمد الى المجاز الذى يقول شيئا ويعنى شيئا آخر ويفتن الباب الناس بالأحاجى والألفاظ وترهات الخيال بدلا من أن يخاطبهم بلغة العقل . فهو الطريق الى الفجوة والضلال .

وقد تجلى موقف الكنيسة وفقهاء الدين المسيحى من الأدب شعرا ونثرا فى نظام التعليم طوال العصور الوسطى الذى استبعدت فيه دراسة الأدب اليونانى واللاتينى من برامج الدراسة بحجة حماية الناس من الوثنية والكفر والفجور . . وهكذا مات أيضا الانشاء الأدبى شعرا ونثرا أكثر من ألف عام فى اللغة الرسمية لغة الدين والدولة . وهى اللغة اللاتينية . . ولم يبعث الا فى أواخر العصور الوسطى باللغات الشعبية فى الملاحم والمواويل .

كان دفاع بوكاشيو عن الشعر اذن بداية عصر جديد . هذا الذى نسميه عصر الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية . وقد بنى بوكاشيو دفاعه عن الشعر على حجة خطيرة هى أنه ليس هناك فرق جوهري من حيث الشكل والمنهج بين وحى الشعراء ووحى الأنبياء : كلاهما يتخذ من الخيال سبيلا الى بلوغ الحقيقة بالرؤى والتعبير عنها بالرمز والمجاز ودروبهما التى نسميها التشبيه والاستعارة والكناية وكل ما جعل للكلام ظاهرا وباطنا وسربل الحكمة بالأحاجى .

وانما يدان الشعر عند بوكاشيو اذا شط موضوعه أو جوهرة فدعا الى الرذيلة وزين الضلال . حتى القدماء من الشعراء يكتيهم مجادا اجتهدهم لارتياح مكنون الالهيات والتعبير عنها فى زمن لم يكتمل فيه تصور الانسان لله الواحد السرمدى .



مكيافيللى

MACHIAVELLI

١٤٦٩ - ١٥٢٧



«الأمير»

القومية والاستعمار

□ كنا فى جيلى ، كلما رأينا قصورا فى الحياة المصرية ، ننظر وراءنا فى غضب ونبحث عن الحلول فى التاريخ الأوروبى منذ عصر الثورة الفرنسية، أى منذ عام ١٧٨٩ ، بقصد الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى .

ولكن يبدو أن حركة المجتمع العربى تدفعنا الآن الى التراجع قرونا الى الوراء حتى تجعلنا نقترّب من العصور الوسطى ، تدفعنا الى نحو عام ١٥٠٠ أو ربما قبل ذلك فى بعض الأمور .

وهكذا غدا لزاما علينا أن نرى كيف خرجت أوروبا الحديثة من العصور الوسطى بينما كتب على عالمنا العربى أن يطول مخاضه وأن يتعسر فيه ميلاد الحياة الجديدة ، وكلما تجدد فى أوصاله اكسير الصحة والنماء حاصرته جراثيم المرض والهزال .

أما كيف خرجت أوروبا الحديثة من العصور الوسطى ، فهى قصة عصر النهضة الأوروبية التى يسمونها حركة الرينيسانس أو «الميلاد الجديد». والميلاد الجديد غير « البعث » لأن البعث لا يكون الا للموتى ولا نظنه يتم الا فى الآخرة ، أما الميلاد الجديد فهو ملازم لدورة الأجيال .

تقول : ولماذا نبدا بمكيافيللى ؟ وهو رجل سيء السمعة ؟ والإجابة على هذا بسيطة : وهى أن بداية البدايات فى نشوء الحضارة الحديثة هى ظهور الهيومانزم أو المذهب الانسانى ، وبداية تجلى المذهب الانسانى هى ظهور الدولة القومية وحلولها محل الدولة الدينية أو ما يسمى «بالثيوقراطية» كأساس للتنظيم الاجتماعى ، وقد كان مكيافيللى من أهم فلاسفة السياسة الذين وضعوا أساس الدولة القومية الحديثة أو لعله أهمهم جميعا لأنه كان أول من أرسى الأساس .

ولد نيكولو مكيافيللى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) فى فلورنسا لاب محام فى تلك المدينة رقيق الحال ولكنه كان ينحدر من أسرة نبيلة ، وكذلك كانت أمه من أسرة كريمة افتقرت . ولا تزال داره قائمة الى الآن فيما يسمى الآن ١٦ شارع جيتشياردينى على مقربة من البونتى فيكيو أى الكوبرى القديم بمدينة فلورنسا . وكان أسلافه من نبلاء نوسكانيا الذين بلغوا أعلى المناصب فى جمهورية فلورنسا . ولا يعرف شىء كثير عن تعليمه الا أن كتاباته تدل على أنه درس التراث اللاتينى دراسة متأنية ولا سيما فى التاريخ ، كما أنه كان مفتونا بدانتى وبتراى وبوكاشيو .

وقد قضى مكيافيللى الشطر الأول من حياته يعمل كدبلوماسى توفده جمهوريته فى سفارات متعددة الى بلاط الملوك والأمراء . أما النصف الثانى من حياته فقد قضاه محدد الإقامة فى داره الريفية . . وكان فى الثالثة والعشرين حين مات أمير فلورنسا العظيم لورنزو دى مديتشى (الأول) ، راعى الفنون والآداب المتوفى عام ١٤٩٢ . وفى زمنه عاصر مؤسسة المصلح الدينى الثورى الخطير سافونارولا الذى أعدم حرقا فى فلورنسا عام ١٤٩٨ بتهمة الزندقة لأنه هاجم البابا اسكندر السادس (اسكندر بورجيا) ، وكان يبشر باقامة دستور لفلورنسا ثيوقراطى ديمقراطى . كذلك عاصر مكيافيللى غزو شارل الثامن ملك فرنسا لاطاليا وبداية انهيار ايطاليا نتيجة لذلك الغزو .

كان مكيافيللى عام اعدام سافونارولا فى التاسعة والعشرين من عمره ، وعين سكرتيرا لجمهورية فلورنسا ، وهو شبيه بمنصب أمين فى ديوان الأمير أو فى القصر الجمهورى ، وكانت هذه الفترة هى قمة حياته العامة ، وكان يوفد فى سفارات لا حصر لها الى بلاط الملوك والأمراء خارج ايطاليا وداخلها فى مقاطعات ايطاليا المستقلة . فتعرف بذلك على أقوى رجالات عصره المشتغلين بالحكم والسياسة ، ولاسيما السياسة الدولية ، ودرسهم عن كثب مما مكنه أن يبلور أفكاره ومشاهداته فيما يمكن أن يسمى فن الحكم وعلم السياسة ، وهو محور أكثر كتاباته . وقد دامت فترة بعثاته الدبلوماسية من ١٤٩٨ الى ١٥١٢ وقد تبلورت تجربة هذه الفترة فى كتاب « الأمير » (١٥١٣) .

وفى زمن مكيافيللى تعاظمت قوة فرنسا من جهة وقوة البابوية من جهة أخرى أيام البابا اسكندر السادس (بورجيا) ، واستنزفت امارة فلورنسا حربها مع امارة بيزا . فاضمحلت فلورنسا واخذت تعتمد فى حمايتها على الجيوش الفرنسية . وكان مكيافيللى يرصد كل هذه الدسائس الدولية

في سبيل السيطرة فدعا الى انشاء جيش وطني من ابناء فلورنسا للدفاع عن دولتهم . وكان ملتهب الوطنية ، ولكن سلوك الملوك والأمراء في السياسة الدولية علمه الواقعية الفظيعة التي نلمسها في كتاباته . فقد رأى الدول في عصره لا تتحرك الا بدافع المصلحة ولا تحترم اتفاقاتها الا حين تعود عليها بالنفع ، وكما وجد الدول كذلك وجد الأفراد .

وقد انتهى طرد الجيش الفرنسي من ايطاليا في ١٥١٢ الى بقاء جمهورية فلورنسا بغير حماية لوقوعها تحت رحمة الاسبان . فسقطت الجمهورية في فلورنسا وعاد الى حكمها الأمراء المستبدون من آل مديتشى . وهكذا عزل مكيافيللى من كافة المناصب التي كان يشغلها في ظل الجمهورية ونفى من مدينة فلورنسا وهو في سن الثالثة والأربعين ، ولكنه عاش في ريفها محدد الإقامة في عزبته مع زوجته وأولاده الخمسة سنوات لا عمل له الا القراءة والكتابة واجترار الذكريات في هدوء العلماء .

وهذه هي الفترة التي كتب فيها كتاب « الأمير » وكتاب « أحاديث لتيتوس ليفيوس » ، وهي أهم أعماله في علم السياسة . وواضح منها انها كتبت لترشد لورنزو دي مديتشى الثانى ليكون أميرا قويا ناجحا . لقد خدم مكيافيللى الجمهورية فلما سقطت فقد منصبه ونفى من بلده ، وهو الآن يحاول أن يسترد مكانته في بلاط الأمير المستبد من عائلة مديتشى ، ولم تثمر جهوده الا في ١٥٢٦ حين عاد الى الخدمة العامة في ظل آل مديتشى . ولكن سرعان ما انهارت الامارة المطلقة في فلورنسا وعادت اليها الجمهورية فطرد آل مديتشى من الحكم وفقد مكيافيللى عمله من جديد ، ثم مات في العام التالى (١٥٢٧) ، ولم تعمر بعده الجمهورية طويلا .

وقد ترك مكيافيللى ايضا كوميديا اسمها « ماندراجولا » وأخرى اسمها « كليزيا » ورواية اسمها « بيلفاجور » وأخرى اسمها « سيرة كاستروتشيو كاستراكاني » وكتابا في « تاريخ فلورنسا » وآخر عن « اصلاح حكومة فلورنسا » و « رسائل شخصية منشورة » . . . ولكن أشهر أعماله جميعا هو كتاب « الأمير » ، الذي يعتبر بداية الطريق في الفكر السياسى الحديث بسبب واقعيته الضارية في الوصف والتحليل . وقد اتخذ في هذا الكتاب سيزار بورجيا (١٤٧٥ - ١٥٠٧) مثلا أعلى للأمير .

في اهداء كتاب « الأمير » الى عاهل فلورنسا لورنزو دي مديتشى الثانى ، يقول مكيافيللى انه في علم الخرائط الطبيعية يضع الجغرافى نفسه في السهول الواطئة ليرصد معالم الجبال والمرتفعات ويضع نفسه على الجبال والمرتفعات ليرصد تضاريس السهول الواطئة ، وبالمثل فعالم السياسة

يجب أن يضع نفسه مع الطبقات الشعبية ليفهم طبيعة الحكام ومع الطبقة الحاكمة ليفهم طبيعة الشعب . ومعنى هذا أن الحكام عاجزون عن الحكم على أنفسهم وأن الشعب أيضا عاجز عن الحكم على نفسه . . والقصد من هذا أن علم السياسة أو علم الدولة لا يكون موضوعيا إلا إذا أسس على رأى الشعوب فى حكمها وعلى رأى الحكام فى شعوبهم .

وفى الفصل الثالث من كتاب « الأمير » يحدثنا مكيافيللى عن مشكلة الانقلابات والثورات التى يسميها مكيافيللى « الامارات الجديدة » . وعنده ان أول عقبة تواجهها أية امارة جديدة عقبة طبيعية : « فالناس يتحمسون لتغيير أميرهم (أى حاكمهم أو ملكهم أو رئيس دولتهم أو ولى الأمر فيهم . . ل . ع .) عندما يأملون فى تحسين أحوالهم ، وحين يتسلط عليهم هذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضده . وهم بهذا يخدعون أنفسهم ، لأنهم فيما بعد يكتشفون بالتجربة أن أحوالهم قد ساءت ، وهذا الوضع ناجم عن حتمية أخرى طبيعية ونمطية ألا وهى أن الانسان لابد وأن ينزل الأذى دائما بأولئك الذين يصبح أميرهم الجديد ، ببطش الجنود وبالأضرار الأخرى التى لا حصر لها والتى تعقب الفتح الجديد . وبهذا تكتسب كأعداء لك كل من أنزلت بهم الضرر باستيلائك على تلك الامارة . كما أنك لا تستطيع الاعتماد على من وضعوك فى دست الامارة كأصدقاء لك ، لأنك لن تستطيع ارضاءهم بالدرجة التى كانوا يأملون فيها ، ولأنك لن تستطيع أن تردعهم بناجع الدواء باعتبارك مدينا لهم . فالمرء ، مهما بلغت قوة جيشه ، بحاجة دائما الى ارضاء الأهالى حين يفتح منطقة من المناطق » .

ومن هذا الكلام ومن سياقه التاريخى نفهم أن مكيافيللى كان لا يفرق بين الانقلابات والثورات الداخلية التى تطيح بأمر أو بأسرة أو جماعة حاكمة لتضع مكانها أميرا جديدا وأسرة أو جماعة حاكمة جديدة ، وبين الغزو الخارجى الذى ينقل السيادة على البلاد الى يد جديدة ، وهذا ما سماه مكيافيللى فى الفصل الثالث « الامارات المختلطة » .

فقد كانت ايطاليا فى عصره قبل الوحدة الايطالية مؤسسة سياسيا على نظام المدينة الدولة أو « الدولة المدينة » . كان لكل من فلورنسا والبندقية وفيرارا وبيزا وروما . . الخ كيان سياسى مستقل شبيه بما كان معروفا عند اليونان وعند الرومان قبل نشأة حركات التوحيد والامبراطوريات ، أى قبل فيليب المقدونى ويوليوس قيصر . وكانت فلورنسا بالذات من أقوى هذه المدن ، وكانت تحكمها أسرة مديتشى الشهيرة برعايتها للفنون والآداب ، كما كانت روما من أقوى هذه المدن ، وكانت تحكمها أسرة بورجيا الشهيرة بدسائسها وجرائمها وسيطرتها على الكنيسة لتثبيت طغيانها .

وكانت هذه المدن الإيطالية كثيراً ما تتحارب فيما بينها وتعتقد الصلح والمعاهدات وكأنها دول مستقلة ، وكانت من حين الى حين تقوم الثورات داخل المدينة الواحدة لتنقل الحكم من يد أسرة قوية الى يد أسرة قوية أخرى، كما يحدث في عصرنا الحالي في الصراع بين الأحزاب والتنظيمات السياسية . وفي عصر مكيا فيللي أغارت فلورنسا على بعض جيرانها مثل مدينة بيزا ، كما تعرضت مدينة ميلانو لغزو الجيوش الفرنسية ، فحكمتها فترة وجيزة أيام لويس الثاني عشر . أما فلورنسا فكانت تحمي استقلالها بالتحالف مع فرنسا وبالاغتماد على الجيوش الفرنسية ، فلما هزم الأسبان الفرنسيين أيام الامبراطور شرلكان أصبحت فلورنسا تحت رحمة الأسبان .

وكانت إيطاليا في زمن مكيا فيللي ، كبقية أوروبا ، تخرج من العصور الوسطى وتدخل عصر النهضة ، وتخرج من النظام الاقطاعي ، الشبيه بعصر الممالك ، حيث كل امارة أو دوقية أو مملكة صغيرة تتمتع بشخصيتها المستقلة وباستقلالها تحت السلطان البابوي والكنيسة الكاثوليكية الجامعة، وتدخل عصر تكون القوميات الحديثة التي تميزت بحركات التوحيد القومي في ظل ملكيات مطلقة تخضع ارادة الأمراء والدوقات والكونتات واللوردات وتجمعها لبناء الدولة العلمانية الحديثة المؤسسة على العلوم والفنون والآداب والنظم والشرائع والقوانين والقيم والمقاييس والأحكام الدنيوية الوضعية المستمدة من منطق الأرض واللازمة لصالح الدنيا وليس مجرد التمهيد للآخرة . وليس معنى هذا أن الصراع بين الدولة والكنيسة أفضى الى تخلي الدولة عن الدين ، وإنما أفضى الى صيغة جديدة للعلاقة بينهما وهي فصل الدين عن الدولة .

ولعل أقرب شيء نعرفه لذلك في بلادنا هو بناء الدولة الحديثة الموحدة على يد محمد علي ، والقضاء على سنجقيات الممالك ، وتأسيس قيم الدولة ونظمها وقوانينها على الأساس الدنيوي الوضعي ، بما تضمنه ذلك من صراع بين محمد علي ورجال الدين الرافضين لبدا الدولة القومية الحديثة .

وتاريخ نشأة القوميات الحديثة مقترن بأربع ظواهر سياسية هامة هي :

١ — الصراع على السيادة بين الدين والدولة .

٢ — حروب التحرير .

٣ — التوسع الاستعماري .

٤ — الصراع الاجتماعى من أجل الديمقراطية السياسية والاقتصادية وحقوق الانسان .

وفى الفصل الثالث من كتاب « الأمير » يحدثنا مكيافيللى عن التوسع الاستعمارى وعن حروب التحرير فيضرب لنا مثلا : استيلاء لويس الثانى عشر ملك فرنسا على مدينة ميلانو وضمها إلى أملاكه بجهد ضئيل أو بمجرد استعراض العضلات ، لأن أهالى ميلانو الساخطين على أميرهم فتحووا لهذا الأمير الجديد أبواب مدينتهم . ولكن حين تبين لهم أن أحوالهم لم تتحسن تحت حكم لويس الثانى عشر أفاقوا من وهمهم وتخلصوا من الحكم الفرنسى الأجنبى فى يسر شديد . فلما أعاد لويس الثانى عشر الاستيلاء على ميلانو استدعى طرده منها تضحيات جسيمة ، لأنه اتخذ للاحتلال حيطته وأباد كل جيوب المقاومة لفتحه الأول ودعم قواته فى كل مكان ، فاحتاج الأمر إلى حرب تحرير ضروس دمرت جيوشه نهاما وإلى تأليب العالم عليه فى كل مكان حتى جلا عن ايطاليا جملة .

وهذا مصداق للقانون الذى استخلصه مكيافيللى فى علم السياسة ، وهو أن الشعوب تثور لاستبدال حاكم بحاكم ، وطنيا كان أو أجنبيا ، إذا أنت من المظالم وتوهمت أن حالها سوف تتحسن فى ظل الأمير الجديد ، ولكنها لا تلبث أن تفيق من وهمها حين تكتشف أنها تسير من سيئ إلى أسوأ فتثور من جديد لطرد الحاكم الجديد .

وهنا يضع مكيافيللى بعض القوانين السياسية التى يراها لازمة لنجاح الفتوحات وحركات التوسع القومى بأسلوب أفضل من التوسع الفرنسى فى ايطاليا . وهذه القوانين هى بعبارة مكيافيللى :

(١) « أقول إذن أن تلك الدول عند فتحها لو وحدت مع دولة سبق أن امتلكتها الدولة الفاتحة ، فهى إما أن تكون من نفس الاقليم وتتكلم نفس اللغة أو لا تكون . فان كانت من نفس الاقليم واللغة كان الاحتفاظ بها أمرا يسيرا جدا ، ولاسيما إذا كانت لم تنعود على الحياة الحرة . وهنا يكفى لتأمين الاحتفاظ بها تدمير نسل الأمير الذى كان يحكمها ، ذلك لأن أهلها، فيما يخرج عن البيت المالك ، يعيشون فى هدوء طالما أبقى الأمير الجديد على أسلوب حياتهم القديم ، وطالما لم يكن هناك عدم تجانس فى العادات . ومثال ذلك ما نراه من أحوال بورغونيا وبريتانيا وجاسكونيا ونورمانديا التى بقيت متحدة مع فرنسا منذ مدة طويلة جدا . ورغم وجود عدم تجانس فى اللغة إلا أن العادات متشابهة بحيث تستطيع هذه الامارات أن تعيش فى يسر بعضها مع البعض الآخر ، ومن يستولى على هذه الامارات عليه

أن يراعى الحيلة في أمرين : الأول هو إبادة نسل الأمير السابق ، والآخر هو عدم إجراء تعديل في القوانين أو في الضرائب المفروضة على الأهالي ، وبهذا يندمجون خلال فترة وجيزة جدا في جسم دولة الأمير الفاتح .

« أما إذا جرى فتح الدول في منطقة غير متجانسة مع الدولة الفاتحة في اللغة أو في العادات أو في القوانين فهنا تنشأ الصعوبات ، وهنا يحتاج الأمير الى الكثير من حسن الحظ ومن الحكمة ليحتفظ بالدول المفتوحة . ومن أهم سبل العلاج الجوهرى لهذه الحالة أن ينتقل الأمير الفاتح الى الإمارة المفتوحة ليقوم فيها ، وهذا كفيل بأن يجعل امتلاكه لها أكثر أمنا وأكثر دواما ، وهذا ما فعله الترك في اليونان ، فقد كان يستحيل عليهم الاحتفاظ بها ، رغم كل ما مارسوه من وسائل أخرى ، لولا أنهم انتقلوا اليها ليقوموا فيها . ذلك لأنه بالحضور المباشر يمكن اكتشاف القلاقل بمجرد نشأتها ويمكن علاجها على وجه السرعة ، أما بغير الحضور المباشر فهي لا تكتشف الا حين تستفحل وتمتدح على العلاج . وبالإضافة الى هذا فالحضور المباشر يمنع موظفى الأمير من نهب البلاد الخاضعة له ، والرعية تفتبط بقدرتها على مخاطبة الأمير مباشرة ودون وساطة . وبهذا الحضور يزداد حبهم له ان كان في نيتهم حسن السلوك ويزداد خوفهم منه ان كانوا يضمرون شرا . ثم أن القوى الأجنبية بتردد كثيرا قبل أن تغزو الدولة المفتوحة اذا كان الأمير مقيما فيها . وبوجه عام فان إقامة الأمير في الدولة المفتوحة تجعل ضياعها أمرا عسيرا .

« كذلك من وسائل الاحتفاظ بالدولة المفتوحة ارسال مستوطنين في بقعة أو بقعتين منها لكي تكون بمثابة أغلال تقيد بها تلك الدولة . هذا أمر لازم فبغيره لا مناص من احتلالها بقوات كبيرة من الفرسان والمشاة أما المستعمرات فهي لا تكلف كثيرا ، ويمكن للأمير ارسالها لتستوطن هناك دون أن يتكبد شيئا من جيبه الخاص أو قد لا يتكبد الا قليلا . . وهو بهذا الاستعمار الاستيطاني لا يضر أناسا الا من يستولى على حقوقهم وعلى دورهم ليعطيها لسكانها الجدد ، وهم أقلية ضئيلة في الدولة المفتوحة ، أما من ينزل بهم الضرر ، فلأنهم يبقون مشتتين وفقراء ، فهم عاجزون عن ائذاء الأمير . ومن جهة أخرى فان سائر الباقين الذين لا يمسهم الضرر في حياتهم فمن الأرجح أن يعيشوا في هدوء ، بل وفي رعب من ارتكاب أى خطأ خشية أن يصيبهم ما أصاب المنهوبين . وخلاصة القول هي أن هذه المستعمرات غير مكلفة وهي أشد ولاء واثق ائذاء للأهالي من جنود الحامية . أما الغاضبون من الأهالي فلا يملكون ضرا لأنهم مشتتون وفقراء كما سبق أن قلت .

« وفي هذا الصدد يجب أن نلاحظ أن الناس ينبغي إما تذليلهم أو سحقهم ، فهم يثأرون لما ينزل بهم من أضرار تافهة ، أما الأضرار الجسيمة فهم عاجزون عن الانتقام لها . ولذا فالتنكيل بالناس يجب أن يكون من نوع لا يخشى معه من الانتقام . فإذا احتفظ الأمير بقوات مسلحة في الدولة التي يحتلها بدلا من إقامة المستعمرات فيها ، ازدادت نفقاته زيادة عظيمة لأنه سيستنزف كل موارد الدولة المفتوحة على حراسها وبهذا يتحول غنمه الى غرم ، كما أنه سيثير غضبا أشد لأنه سيؤذى كل من في الدولة المفتوحة بنقل جيشه وأركانها اليها . وسوف يتأذى من كل ذلك كل الناس ويتحول الكل الى أعداء له ، أعداء قادرين على ايذائه ، لأنهم رغم اخضاعهم باقون في بلادهم . فمن جميع الوجوه نجد إذن أن قوات الاحتلال لا جدوى منها في حين أن المستعمرات مجدية » .

وهكذا نجد أن مكيا فيلي قد وضع في ١٥١٣ في كتاب « الأمير » في مبادئ علم السياسة مبادئ « علم الاستعمار » إذا جاز هذا التعبير . فقد كانت أوروبا منذ فجر عصر النهضة تدخل تجربتها الكبرى في استعمار العالم منذ نشأة القوميات الحديثة فيها ، تدخلها هذه المرة على أساس « علمي » بعد تجربتها الساذجة الفاشلة أيام الحروب الصليبية .

ولكن ربما كان من الظلم لمكيا فيلي أن نكتفى بتوصيفه على هذا النحو ، فهو حين كتب هذا الكلام لم يكن قد مر على اكتشاف كولبس (١٤٥١ — ١٥٠٦) لأمريكا إلا نحو عشرين عاما (١٤٩٢) ، وأمريجو فزبوتشي (١٤٥٤ — ١٥١٢) الذي أطلق اسمه على أمريكا في ١٥٠٧ ، وماجلان (١٤٨٠ — ١٥٢١) الذي اكتشف مضيق ماجلان في ١٥٢٠ وكان أول من قام برحلة حول العالم وقتل في الفلبين ، وبارثولوميو دياز (١٤٥٠ — ١٥٠٠) وفاسكو دي جاما (١٤٦٩ — ١٥٢٤) اللذان اكتشفا رأس الرجاء الصالح في ١٤٨٧ وفي ١٤٩٧ على التتابع .

وبالتالي فهو لم يضع هذه القوانين في مبادئ الفتح أو مبادئ الاغتصاب ليقنن للاستعمار الأوروبي في أفريقيا وآسيا وأستراليا والأمريكتين ، وإنما وضعها ليقنن بها حركات الوحدة القومية التي كانت تجتاح مختلف دول أوروبا ذاتها لتنشئ في كل أمة دولة مركزية واحدة ، أو إمارة واحدة بلغة مكيا فيلي ، على أنقاض إمارات الاقطاع المتعذدة التي كانت تتكون منها كل قومية . كذلك وضع مكيا فيلي هذه القوانين لكي يفسر بها نجاح أو فشل غزو الدول الأوروبية بعضها لبعض الآخر ، ونجاحها أو فشلها في استمرار هيمنتها .

قانون آخر يضعه مكيافيللى : الضعفاء دائما ينضمون الى الفاتح القوى . واذا اراد الفاتح القوى أن يديم سيطرته فعليه أن يحابى هؤلاء الضعفاء اللائذين به خوفا منه أو طلبا لحمايتهم من أعدائهم أو من ساداتهم القدامى ونفاقا ومداهنة من أجل المنافع ، ولكن حذار له من أن يسمح لأحدهم بأن يشتد عوده حتى يصبح خطرا عليه سواء في القوة العسكرية أو في السلطة . فبقوته الخاصة وبمعونة من هم أقل منه قوة يستطيع هذا الأمير الفاتح أن يديم سيطرته على ما فتحه . كذلك حذار أن يتخذ له شركاء أو حلفاء أقوياء ليثبت قدمه أو ليوسع ملكا . هؤلاء الشركاء أو الحلفاء الأقوياء كفيلون بأن ينتزعوا منه كل شيء .

كل هذه المحاذير أفضلت خطط لويس الثاني عشر ملك فرنسا حين غزا إيطاليا . . فطمع أهل البندقية في الاستيلاء على مقاطعة لومبارديا جعلتهم يهيئون له دخول إيطاليا . وحين استولى لويس الثاني عشر بقوته على لومبارديا ، استسلمت له جنوة وصادقه أهل فلورنسا ودوق فيرارا وماركيز مانتوا وسادة بيزا وسينا وريميني وغيرهم . . وهكذا لكى يكسب أهل البندقية مدينتين في لومبارديا جعلوا هذا الملك الأجنبي سيدا على ثلث إيطاليا . ولكن لويس الثاني عشر ما لبث أن فقد كل هذا السلطان . . لماذا ؟ لأن سياسته كسرت قواعد السلطة . فما أن دخل ميلانو حتى ساعد البابا اسكندر السادس على الاستيلاء على روماجنا ، دون أن يدرك أنه بذلك قد أضعف نفسه بالتخلي عن أصدقائه واللائذين به وبتقوية الكنيسة بإضافة السلطة الزمنية (الدنيوية) الى سلطتها الروحية الرهيبية ، ولأنه أراد أن يستولى على نابولي تحالف مع ملك قوى هو ملك أسبانيا ، الذي نازعه سلطانه في إيطاليا . وهكذا فقد لويس الثاني عشر كل شيء في إيطاليا لأنه تخلى عن أصدقائه الضعفاء وتحالف مع منافسيه الأقوياء . قال مكيافيللى في كتاب « الأمير » :

« وقد تحدثت في هذا الأمر مع كاردينال روان في مدينة نانت بفرنسا عندما استولى فالنتينو على روماجنا ، (وفالنتينو هو اسم الشهرة لسيزار بورجيا بن البابا اسكندر السادس) . . وحين قال لى كاردينال روان ان الإيطاليين لا يفهمون في الحرب ، أجبتة بأن الفرنسيين لا يفهمون في السياسة أى في الدولة . فلو أنهم فهموا ما الدولة لما سمحوا للكنيسة أن تتعاضد الى هذا الحد . وقد دلت التجربة على أن فرنسا هي سبب قوة الكنيسة في إيطاليا وأسبانيا ، وأن سبب خراب ملك فرنسا هما إيطاليا وأسبانيا » .



«الأمير» في الوطنيه

□ في الفصلين السابع والثامن يحدثنا مكيافيللي عن ثلاثة نماذج من « الأمراء » الذين يصلون الى اماره دولهم بطرق مختلفه :

١ — بقوة الغير .

٢ — بطريق الحظ .

٣ — بطريق الاجرام أو الغدر .

وهذه النماذج الثلاثة ذات صفة خاصة لانها لا تراث السلطة .

فرد من أبناء الشعب يصبح أميراً دون جهد يذكر له ، مثل هذا الشخص لا يجد متاعب في بلوغ السلطة ولكن متاعبه تبدأ حين يبلغها ويستوى في دست الحكم . ومن الأمراء من يشتري الرياسة بماله أو بالرشوة أو ليكون صنيعاً من يهبها إياه . ومثل هؤلاء الأمراء كمثال الأمراء الذين عينهم دارا ملك الفرس عندما غزا اليونان فولاهم على أيونيا وعلى جزر بحر إيجه . ومثل هؤلاء أيضاً مثل الأمراء الذين اشتروا جنودهم بالرشا ليضعوهم على رأس الدولة .

ومن كان مصدر سيادته من غيره عاش مقلداً في دست السلطان . ومثله لا يعرف كيف يحكم لأنه عاطل من الكفاءة الذاتية الفذة والقوة الشخصية المسيطرة ، ولأنه عاش كآحاد الناس فهو عاجز عن القيادة ثم أنه لا يملك القوات التي تدين له بالولاء . وكل ما جاء على عجل انقضى على عجل ، إلا إذا ساندته القوة والموهبة الذاتية العظمى فهو عندئذ يستطيع أن يضرب جذوره في التربة بعد أن يستولى على الحكم .

مثلاً يسوقهما مكيافيللي : فرانشيسكو سفورزا « ١٤٠١ — ١٤٦٦ »
وسيزار بورجيا « ١٤٧٥ — ١٥٠٧ » .

الأول ارتفع من بين آحاد الناس بجهد الفذ وبتابع الأساليب اللازمة حتى غدا دوق ميلانو ، وما اكتسب بمشقة فائقة حافظ عليه بجهد يسير .

أما الثانى ، وهو سيزار بورجيا ، فقد ارتفع بمساعدة أبيه اسكندر بورجيا « البابا اسكندر السادس » حتى أصبح دوق روماجنا . ولأن الدوقية جاءت من غيره فقد ضاعت منه ، رغم أنه بذل جهدا جبارا وأبدى موهبة فذة لتأسيس اماره له فى روماجنا ، فما جاءه بجيوش الغير وبنفوذ الغير لم يمكنه الاحتفاظ به .

أراد البابا اسكندر السادس « ١٤٣١ — ١٥٠٣ » أن يجعل من ابنه سيزار علما من الأعلام ، ولكنه واجه صعوبات بلا عدد ذلها واحدة بواحدة . فأولا لم تكن هناك دوقية خالية خارج اقطاعيات الكنيسة يمكنه أن يجعله أميرا عليها . وكان يعلم أنه لو نصب ابنه دوقا على قسم من املاك الكنيسة لثار عليه دوق ميلانو ولثار عليه أهل البندقية لأنهم المتكفلون بحماية هذه الاملاك . كما أن القوات الايطالية التى كان يمكنه الاعتماد عليها كانت تابعة لامارة أورسينى وامارة كولونا ، وهؤلاء بالذات كانوا يخشون ازدياد سطوة البابا ولذا لم يمكنه الاعتماد عليهم .

وهكذا خطط اسكندر السادس لاشاعة الاضطراب فى حزب أورسينى وفى حزب كولونا لكى يستولى على قسم منهما . وسهل له الأمر أن أهل البندقية دعوا لويس الثانى عشر ملك فرنسا الى غزو ايطاليا ليفوزوا بجزء من لومبارديا ، فوجد اسكندر السادس فى هذا فرصته فوافق على هذا الغزو ، بل واسترضى لويس الثانى عشر بالغاء زواجه الباكر الذى كان الملك راغبا فى نسخه ، ومقابل هذا ساعد الملك الدوق سيزار بورجيا على اقتحام اقليم روماجنا وتنظيم قوة كولونا بقوات من أورسينى وهكذا أصبح سيزار بورجيا دوقا أى أميرا على أوربينو ، وأراد بعدها أن يفتح اقليم توسكانيا ويستولى على عاصمته فلورنسا ولكن لويس الثانى عشر نصحه بأن يحجم عن ذلك كما أن قوات أورسينى لم تكن متحمسة لذلك .

وهنا قرر سيزار بورجيا عدم الاعتماد فى فتوحاته على جنود الغير او على ظروف الغير . وكان أول ما فعله هو اضعاف حزب أورسينى وحزب كولونا فى روما ، وجردهما من كل أعوانهما الاقوياء بشراء ولاء هؤلاء النبلاء أنا بالمال وأنا بالوظائف العامة وأنا بالتكريم والتشريف حتى انحاز أكثرهم الى الدوق فالنتينو « سيزار بورجيا » . وبعد أن شئت زعماء آل كولونا تفرغ للقضاء على زعماء آل أورسينى الذين أدركوا بعد فوات الآوان أن قوة الكنيسة وقوة الدوق تعنى نهايتهم ، فآثاروا على سيزار بورجيا

فتنة في أوربينو وفتنة في روماجنا وأقاموا في طريقه عددا لا يحصى من المتاعب ، ولكنه تغلب على كل ذلك بمعونة الفرنسيين .

ولكنه كان شديد الشك في مطامع فرنسا أو أية قوة أجنبية . وبعد أن استرد هيبنة لجأ الى الخداع فأظهر السود آل أورسينى وأتقن الختل حتى آمنوا له فاستدرج رؤساءهم الى سينيغاليا وفتك بهم ثم تقرب الى أنصارهم ، فاستتب له الأمر ووضع أساس دوقية مزدهرة في أوربينو وأساس إمارة مزدهرة في روماجنا . وحين شاع الرخاء هنا وهناك تعلقت به قلوب الناس ، بعد أن كانت كل منهما مباءة ينهب فيها النبلاء الرعية ولا تعرف الأمن من السلب وأعمال اللصوصية ولا تنقطع فيها حوادث الشغب . فأقام سيزار بارجيا حكومة مستبدة قاسية حازمة نشرت الأمن والنظام في كل مكان .

ولكن سيزار بارجيا أدرك أن الاستقرار وحده غير كاف إذ لابد من العدل بعد البطش ، فأنشأ محكمة للمقاطعة اشتهرت بنزاهتها وفقهاها ، وكان لكل مدينة محاميها في هذه المحكمة . وكان بطش عامله قد ترك جراحا غائرة في نفوس الناس . فأنذر سيزار بارجيا عامله بأن يكف عن بطشه ، فلما لم يستجب أعدمه وألقى بجثته ذات صباح في الميدان العام مشطورة الى شطرين . قال مكيا فيللي : « وقد جعلت وحشية هذا المشهد أولئك الناس ذاهلين وراضين في وقت واحد » .

وبعد أن استتب له الأمر في الداخل لم يبق من قيد على حركته الا فرنسا فأخذ يتهاى للانتفاض عليها . ولكن وفاة أبيه ، البابا اسكندر السادس عطلت توسعته وجعلته يعيد النظر في موقفه . فالخطر الأكبر الآن هو أن يتولى بابا جديد قد يكون مُعاديا له فيجرده من كل ما حصل عليه . فأخذ سيزار بارجيا يؤمن نفسه بأربع وسائل : الأولى هي اجتثاث كل الأسر التي نهب ممتلكاتها حتى لا يجد البابا الجديد من يعاونه على عدائه ، وثانيا ، استمالة كل نبلاء روما حتى يستعين بهم على درء خطر البابا الجديد . وثالثا استمالة الكرادلة الى صفه ما أمكن ذلك . رابعا جمع أكبر قدر من السلطة في يده قبل وفاة أبيه المريض .

وبالفعل نفذ سيزار بارجيا أكثر مخططه . فقد فتك بأكثر الذين صادر أملكهم أو نهبها ولم ينج منهم الا الأقلون ، وكسب صداقة أكثر أشراف روما ، وكان له بين الكرادلة أنصار كثيرون .

وكان في نية سيزار بارجيا أن يتجاهل الفرنسيين المشغولين مع الأسبان في نابولي وأن يغزو فلورنسا فتستسلم له بيزا و لوكا وسينا على

الفور ، وبهذا يصبح سيد إيطاليا بغير منازع ودون الاعتماد على قوة غير قوته . ولكن وفاة البابا اسكندر السادس أحبطت مخططه ، فلم يكن لديه ثابت في ملكه الا اماره روماجنا اما بقية أحلامه فكانت معلقة في الهواء ، كما أن صحته كانت معتلة الى أقصى درجة ، بل كان نفسه بين الحياة والموت .

ومع ذلك فقد ظل أصدقائه أوفياء له وظل أعداؤه يرهبونه . وإذا لم تكن لديه القدرة أن يختار بابا خلفا لأبيه فقد كان يستطيع أن يمنع اختيار البابا الذي لا يريده . وبالفعل فقد اختار الكاردينال يوليوس خلفا لأبيه، وكان اختيارا سيئا جلب على سيزار بورجيا الكوارث . . يقول مكيافيللي : « فالناس تؤذى اما بدافع الخوف أو بدافع الكراهية » و « من يحسب أن الكبراء ينسون الأذى القديم بفضل المنافع الجديدة فهو يخدع نفسه . » لم يكن بين الكرادلة الإيطاليين من لم يكن يرهب سيزار بورجيا أو يحقد عليه لأذى سابق . فكان عليه إما أن يختار الكاردينال روان الفرنسي أو أحد الكرادلة الأسبان ، ولكنه لم يفعل ذلك .



كل هذا السجل الحافل في حياة سيزار بورجيا جعل مكيافيللي ينظر اليه على أنه نموذج للأمير الذي ينبغي أن يحتذيه كل من ارتفع الى دست الحكم في عصر الرنيسانس بقوة غيره أو بالحظ ، وهذه هي الخلال التي وجدها مكيافيللي في قصر بورجيا :

« فمن وجد اذن من اللازم أن يؤمن نفسه ضد أعدائه في امارته الجديدة ، وأن يكسب الأصدقاء ، وأن يفتح البلاد بالقوة أو الخداع ، وأن يجعل الشعب يحبه ويرهبه ، ويجعل جنوده يتبعونه ويحترمونه ، وأن يبيد كل القادرين على ايدائه أو من يحتمل أن يؤذوه ، وأن يقيم القوانين الجديدة مكان العادات القديمة ، وأن يجمع بين الصرامة واللفظ ، وبين الرفعة والسخاء ، وأن يمحق جنده العصاة ويجند محلهم جنودا جددا ، وأن يتواصل مع الملوك والأمراء بحيث يعملون على استرضائه أو يترددون في ايدائه ، مثل هذا الأمير لن يجد امثلة أوضح من انجازات هذا الرجل » .

ونحن نسأل أنفسنا ونحن نستعرض تاريخ الفكر السياسي : ولماذا كل هذا الاعجاب الذي يظهره مكيافيللي بشخصية كشخصية سيزار بورجيا وما قام به من اغتصاب دولة جديدة كادت أن تنتهي بتوحيد إيطاليا في هذا التاريخ الباكر لولا تدخل القوى الأجنبية « فرنسا وأسبانيا والنمسا » ، والاعيب البابوية التي أجلت توحيد إيطاليا الى عصر غاريبالدي « ١٨٠٧ — ١٨٨٢ » في القرن التاسع عشر ؟

ويأتينا الجواب واضحاً في كلمات مكيافيللى نفسه الذى كذب يقول : « كلما استطعت أن أحرز مجداً لمدينتى وهى وطنى ، كنت أسعد بذلك ولو تعرض شخصى للخطر . فليس فى حياة الإنسان واجب أكبر من واجبه نحو وطنه . . ذلك لأن الإنسان مدين لوطنه أولاً بوجوده ثم بكل خير يأتيه به القدر والطبيعة ، وكلما عظم وطنه فى النبل ازداد دينه له » . وهو القائل : « ان فقرى هو الشاهد على اخلاصى وسلامة طويتى » .

الوطنية : كلمة جديدة لم نسمعها أوروبا بعد أكثر من ألف عام من العصور الوسطى فى ظل « الاكليزيا » « الكنيسة » الدينية والأخوة فى الدين بدلا من الأخوة فى الوطن .

هذه الروح الجديدة التى انطلقت فى كل أمة من أمم أوروبا هى جوهر عصر النهضة الأوروبية الذى شقق العالم المسيحى الواحد الراض للحياة الدنيا الساعى — نظريا طبعاً — فى طلب الحياة الأخرى ، الى دول وطنية قومية متية تعمل لدنياها كأنها تعيش أبداً .

وفى عصر النهضة الأوروبية بدأ الأوروبيون يرددون ما كانوا يرددونه فى « جاهليتهم » اليونانية-الرومانية أيام كاتو وشيشرون الخطيب ويوليوس قيصر وأغسطس :

« ما أحلى الموت فى سبيل الوطن » ، بدلا من القرصنة باسم الصليب . الوطنية والروح القومية أعطتا لأوروبا فى أول الأمر هدفاً راقياً واضحاً ملموساً مفهوماً يعيش الأوروبيون من أجله ويموتون من أجله ، هو الاستقلال عن الدولة المسيحية الجامعة أو الخلافة الرسولية أو مدينة الله على الأرض أو « الامبراطوريات المقدسة » ، سمها ما تشاء من الأسماء . ثم أعطتها هدفاً عدوانياً هو الاستعمار والامبريالية . أو على الأصح أن الوطنية أعطت أوروبا الهدف الرافى أما القومية فأعطتها الهدف العدوانى ، كما كان يمكن أن يقول الفيلسوف كروتشى .

والتهمة الأولى الموجهة الى مكيافيللى هى أنه فصل السياسة عن الأخلاق . وهذا الاتهام بعضه صادق وبعضه مبالغ فيه ، فمكيافيللى هو واضع نظرية ان « الغاية تبرر الوسيلة » .

ومع ذلك فنماذج « الامارة » الأخرى التى يقدمها تلقى بصيصاً من النور على عقلية ومنطقه المتجرد البارد فى النظر الى الأمور .

هو يعطينا مثل اجاثوكليس الصقلى الذى ارتفع فى الماضى البعيد الى دست الامارة فى صقلية ، لا بفضل مساعدة الغير أو بتدخل الحظ مثل

سيزار بورجيا ، ولكن بمحض قوته الذاتية ومواهبه الشخصية . فقد كان اجاثوكليس أصلاً رجلاً وضع المنشأ في سيراكيوز ، فكان أبوه فخرانيا وكان هو شريراً ولكنه مع خلقه الشرير الذى تجلى في كل مراحل حياته كان قوى العقل والجسد ، فدخل الجيش وارتقى فيه حتى اختير محافظاً لسيراكيوز . ولكنه كان قد اعتزم أن يتولى الإمارة وأن يحتفظ بالبطش بما ناله برضا الناس . فتواطأ مع هاميلكار القرطاجى الذى كانت جيوشه تحارب في صقلية ، وذات يوم دعا أعضاء السناتور « مجلس الشيوخ » في سيراكيوز وأجبر الأعيان فيها الى اجتماع للنظر في أمور الدولة ، وبإشارة متفق عليها وثب عليهم بجنوده وأجهزوا عليهم جميعاً . وبهذا صار ملكاً على سيراكيوز بغير حرب أهلية .

وما أن صار أميراً حتى التفت الى جيش قرطاجة الذى كان يحاصر سيراكيوز واستطاع أن يحررها من القرطاجيين الذين انسحبوا الى أفريقيا بعد صراع مرير معهم ذاق فيه الأهوال وتعرض لأشد الأخطار . وهذا نموذج لأمير اغتصب الحكم ولكن بجهد وجهاده ، وهو يستحق الثناء لأنه حرر وطنه ، « ولكننا مع ذلك لا نصف بالفضيلة من يقتل أخوته في الوطن ويعيش بلا اخلاص ولا رحمة ولا دين » ، هكذا يقول مكيافيللى . كل بطولاته تزكية لأن يعد بين القادة العظام : « ومع ذلك فإن قسوته وافتقاره الى الانسانية والعدد الذى لا يحصى من أعماله الشريرة تحول دون اشتهاره باعتباره واحداً من افضل الرجال » .

ويضرب مكيافيللى مثلاً آخر من عصره على هذا النوع من الأمراء الذى يغتصب الإمارة بقوته الذاتية وبخسة طبعه وغدره وقسوته ، فيحدثنا عن رجل آخر في زمن البابا اسكندر السادس وسيزار بورجيا اسمه ليفروتو الذى أصبح أمير فيرمو بالوحشية والخديعة . كان ليفروتو يتيماً في فيرمو فكفله خاله واسمه فوليانى ، ثم أرسله ليتعلم الجندية تحت قائد في مكان آخر . كان قويا وموهوباً وطموحاً فترقى في سلك الجندية الى منصب عال . وهنا رتب ليقوم بانقلاب في فيرمو ، موطنه الأصلى ، فأرسل الى خاله فوليانى قائلاً انه أزمع زيارة مدينته ، ولا أمل له في الحياة الا أن يرى أبناء مدينته ما أصاب من هيبة ومجد ، فيسمحوا له أن يدخل المدينة على رأس مائة من فرسانه وأن يستقبلوه بالتكريم . وبالفعل أعد فوليانى كل شيء لاستقبال ربيبه ليفروتو الذى نزل ضيفاً عليه برجاله . ثم أقام ليفروتو مأدبة دعا اليها فوليانى وصفوة الأعيان في فيرمو ، وبعد المأدبة استدرجهم الى قاعة ما أن استقروا فيها حتى انقض عليهم رجاله وفتكوا بهم . ومن بعدها خرج ليفروتو على جواده بين فرسانه المائة وحاصر قصر الحاكم واستولى على الحكم . ولكن

قبل أن ينقضى العام لقي مصرعه ، فقد كان بين النبلاء الذين استدرجهم سيزار بوجيا الى سينجاليا واجهز عليهم .

والسؤال الذى يطرحه مكيافيللى هو : اجاثوكليس وليفروتو حالتان متشابهتان لأمير قوى موهوب شرير اجرامى مخاتل يصل الى الامارة بجهدہ الذاتى . احدهما ، وهو اجاثوكليس ، يبقى فى دست الحكم زمنا طويلا آمننا على حياته لا يتآمر به أحد حتى فى أيام شدته رغم جرائمه الكثيرة . والآخر ، وهو ليفروتو ، لا يدوم له الملك حتى فى زمن السلم فما السبب ؟

يقول مكيافيللى : « أعتقد أن هذا ناشئ من سوء استعمال أعمال القسوة أو حسن استعمالها ، اذا جاز لنا أن نتحدث عن الحسن فى سىء الأشياء . فأعمال القسوة التى تستعمل بطريقة عاجلة كضرورة لتأمين النفس ثم لا يستمر الأمير فيها بل يحولها ما أمكن الى أعظم المنافع لشعبه ، هذه يمكن أن نصفها بحسن استعمال القسوة . أما أعمال القسوة التى قد تبدأ قليلة ولكنها تزداد مع الأيام ولا تتضاءل فهى اساءة لاستعمال القسوة . فالحكام الذين يتبعون الطريق الأول يمكن أن يجدوا مع الله ومع الناس صلاحا لحالهم ، على غرار ما فعل اجاثوكليس ، أما الآخرون فيستحيل عليهم أن يحافظوا على كيانهم » .

هناك إذن مقياس موضوعى يضعه مكيافيللى للتمييز بين أمير مفتصب وأمير مفتصب . فالأمير المفتصب الذى ينجز كل ما يحتاج اليه من جرائم فى أجل قصير وبطريقة ناجحة يمكنه أن يجمل رعيته تعيش فى أمن بعد ذلك . هذا الأمير يمكن أن يكتب له البقاء ، وأن يتحول شره الى خير . أما الأمير الذى يبتتر فى تردد بسبب خوفه أو لسوء المشورة ، فهو يحمل دائما السكين فى يده وهو يجدد دائما جرائمه فلا يعرف طعم الأمان ، وهو معرض للاطاحة به فى أى وقت .

ويختتم مكيافيللى الفصل الثامن من كتاب الأمير بقوله :

« وكما أن كل أعمال التنكيل يجب أن تتم دفعة واحدة حتى يقل غضب الناس منها لأن احساسهم بمذاقها يكون أقل ، فكذلك يجب أن تمنح المنافع مقسطة ، قليلا قليلا ، حتى يحس الناس بمذاقها احساسا اكبر . وفوق هذا وذاك يجب أن يعيش الأمير بين رعيته بحيث لا تغير أسلوبه الأحداث السعيدة أو الأحداث السيئة . فعندما تستدعى الضرورة بسبب الشدائد وتعجز عن رد المحن ، فان ما تفعله من خير لا يحسب لك ، لأن الناس سوف تعتقد أنك مجبر عليه ولا يشعرون نحوك بعرفان الجميل » .

هناك اذن غاية لكل أمير مفتصب يمكن له بتحقيقها أن يقبل الناس جرائمه في بداية عهده بشرط أن يحسوا بالأمان طوال سنوات حكمه ، وهذه الغاية عند مكيافيللى غاية دنيوية ، وهى أن يحس الناس بالأمن والرخاء .

وفصل السياسة عن الأخلاق في تشريح مكيافيللى للسلطة شيء مألوف في كل العصور يعرفه بالفطرة كل طامع في الملك أو الرياسة دون حاجة الى تقنين أو تلقين ، ولاسيما اذا كان الساعى الى السلطة من عامة الناس لم يرث منها شيئا يقربه منها غير مواهبه واستعداداته الشخصية . وفي التاريخ الحديث نذكر محمد على و نابوليون ولينين وستالين وموسوليني وهتلر وجمال عبد الناصر وأنسور السادات ممن استكملوا دورتهم التاريخية ويمكن الحكم عليهم بالنجاح أو الفشل ، بالنفع أو العقم ، حكما تقريبا . ولا اظن أن في تشريح مكيافيللى لعلم الحكم اضافة الى ممارساتهم التاريخية .

ولا اظن أن بالمرستون « ١٧٨٤ — ١٨٦٣ » ، رئيس وزارة إنجلترا ووزير خارجيتها الشهير في القرن التاسع عشر كان بحاجة الى نظريات مكيافيللى ليدرك أنه « ليس لإنجلترا أصدقاء دائمون أو أعداء دائمون ، وإنما لإنجلترا مصالح دائمة » ، بحسب قولته الشهيرة .

كذلك لا اظن أن تاريخ البابوات والكرادلة في العصور الوسطى المسيحية كان يختلف كثيرا عن هذه الممارسات العملية التى تفصل بين الدين والدولة وبين الأخلاق والسياسة . ولكن ينبغي دائما أن نتذكر أن مكيافيللى كان أول من قنن هذا الفصل نظريا في العالم الحديث .

كان توركويمادا « ١٤٢٠ — ١٤٩٨ » ، رئيس محاكم التفتيش في أسبانيا ، يبرر احراق مئات « الزنادقة » و « السحرة » على الخازوق — وتعريف الزنادقة والسحرة كان كل منشق على الكنيسة الكاثوليكية أو رافض لها في العقيدة أو السلوك أو المصالح — بقوله « نحن نحرقك في الدنيا رحمة بك حتى ننقذك من النار الأبدية في الآخرة » . هنا تتحول الأخلاق ، بل والدين نفسه ، الى أداة جهنمية لا تقل فظاعة عن دنيوية أسكندر السادس وسيزار بورجيس ونيكولو مكيافيللى .

• • •



«الأمير» الأسد والتغلب

□ في الفصل الرابع عشر من كتاب « الأمير » لكيافيللي يقول مكيافيللي إن « الأمن » يجب أن يكون الشغل الشاغل للأمة وهو يسمى ذلك « الحرب » ولكن سياق الكلام يدل على أنه إنما يتحدث عن الأمن الداخلي وعن الأمن القومي ، ففي تلك الأيام لم تكن هناك تفرقة واضحة بين الجيش والبوليس كما نعرفهما اليوم .

يقول مكيافيللي :

« ينبغي على الأمير اذن ألا يكون له هم غير الحرب ، والا يشغل تفكيره شيء غيرها والا يتخصص في شيء غير الحرب وقوانينها ونظامها ، لأن الحرب هي الفن الوحيد الذي ينتظره الناس من الأمر فيهم . وفن الحرب فن ناجح لا يقف نفعه عند حماية من يرثون الامارة ، بل يتجاوز ذلك ، فهو الذي يرفع الناس العاديين الى مصاف الأمراء . ونجد على نقيض ذلك فقد لوحظ أن الأمراء الذين انشغلوا بالملذات أكثر من انشغالهم بفن الحرب فقدوا مناصبهم ، وأول ما يجعلهم يفتقدون مناصبهم هو اهمالهم لفن الحرب كما أن أول ما يجعلهم يصلون اليها هو خبرتهم فيه .

« كان فرانثيسكو سفورزا مواطنا عاديا ولكن لأنه كان مسلحا فقد أصبح دوق ميلانو . أما أبناؤه فقد فقدوا الدوقية وارتدوا مواطنين عاديين لأنهم تجنبوا مشاق القتال . فمن بين المضار التي يجلبها التجرد من السلاح على المرء أنه يصبح محتقرا ، وهي وصمة ينبغي على الأمير أن يتجنبها » .

باختصار ، الناس تخاف من الأقوياء وتزدري الضعفاء . هذا هو القانون الذي أوضحه مكيافيللي وبنى عليه فلسفته في فن الحكم وفي علم الاجتماع وفي علم السياسة .

ومن الناس من يقول : واى جديد فى هذا ؟ ان اى رجل على يستطيع ان يدلك على هذا القانون دون عناء كبير ، فهو بديهية لا تحتاج الى عبقرية لاكتشافها . ولكن المشكلة الحقيقية ليست فى اكتشاف هذا القانون وانما فى الاعتراف به وقبوله أساسا للحياة الفردية والجماعية ، ثم فى اشهاره على الملأ دون حرج كما فعل مكيافيللى ، فقد كان الاعتراف بهذا القانون الطبيعى مناقضا على خط مستقيم للمسيحية التى كانت تبشر بقول المسيح فى موعظة الجبل : « طوبى للمساكين بالروح ، اى البسطاء بمعنى السذج ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاشى الى البر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لانقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات »

« متى ٥ - ٣ - ١٠ » .

هذه الروح الجديدة التى تمجد القوة وتزدري الضعف ، أو على الأقل تقبل قانون القوة وتحذر من الضعف ، هى دين الفطرة الجديد الذى استشرى فى أوروبا فى عصر النهضة الأوروبية ، وهو فى أوروبا فى عصر يمثل قمة الفصل بين السياسة والأخلاق بل وبين السياسة والدين جملة . فلن نستطيع أن نقول ان مكيافيللى كان من صناع السلام أو من الودعاء أو من الرحماء أو من الجياع أو العطاشى الى البر .

ومع ذلك فقد أجبت هذه العودة الى الأخلاق الواقعية أو أخلاق الفطرة حب الحرية والاستقلال وروح الوطنية والقومية وحب السيادة على النفس والتسيد على الدنيا فى أكثر دول أوروبا ودويلاتها فى عصر النهضة الأوروبية ، بدلا من التركيز على طلب الآخرة بالأخلاق الدينية ، كما أجبت هذه الفلسفة الدنيوية ، أو « العلمانية » « العلمانية » ، أو الزمنية كما يقولون ، الشوق الى حقوق الانسان بدلا من طلب الفناء فى حقوق الله . وقد جسد الأوروبيون هذه الروح الجديدة فى الروح الفايوستية التى بدأت فى وجهها البناء بتحرير الانسان وانتهت فى وجهها المدمر بتأله الانسان .

من أجل هذا يضع مكيافيللى أمام « الأمير » هذا الخيار الأخلاقى الصعب فى الفصل السابع عشر من كتابه ، وعنوانه « فى القسوة والرحمة » . وهو يطرح علينا هذا السؤال المخرج : أيهما أفضل للانسان بصفة عامة وللأمير بصفة خاصة ، ان يكون محبوبا أو ان يكون مرهوبا ؟ وهو لا يتردد فى الاجابة على الوجه التالى :

« أقول ان كل أمير ينبغي عليه ان ينشد اعتقاد الناس فيه بأنه رحيم وليس قاسيا ومع ذلك فمن الواجب عليه أن يحذر سوء استعمال الرحمة . فقد كان الراى فى سيزار بورجيا أنه قاس ، ومع ذلك فقسوته هذه هى التى أعادت تنظيم روماجنا ووحدها وأقامت عليها بالسلم والولاء . فلماذا كنا نرى هذه مزايا حميدة ؟ لأننا وجدنا أنه كان أكثر رحمة من أهل فلورنسا الذين تركوا بيستو تتعرض للتدمير حتى لا يقال عنهم انهم قساة ، لهذا فالأمير لا ينبغي ان يحفل بأن يدمغ بالقسوة فى سبيل الاحتفاظ بوحدة شعبه وولائه . فباستثناء حالات قليلة جدا . . نجد أنه بهذه الشدة يكون أكثر رحمة من أولئك الذين يبالغون فى الرحمة فيتركون الشرور تستمر مما ينجم عنه المذابح والنهب . فالمذابح والنهب تبليان عادة طائفة كاملة ، أما الاعدام الذى يأمر به الأمير فهو يبتلى رجلا واحدا . ومن الصعب على الأمير الجديد ، من دون سائر الأمراء ، أن يتجنب أن يوصف بأنه قاس ، لأن الامارات الجديدة محفوفة بالمخاطر . فكما يقول فرجيل على لسان ديدو : « ان ظروفى الصعبة ومملكتى الجديدة تجبراننى على فعل هذه الامور ، وعلى اقامة الحراس على حدودى فى مشارق الأرض ومغاربها » .

« ومع ذلك فالأمير يجب أن يلزم الحذر فى الراى والحركة ، وأن يتجنب توليد الخوف فى نفسه ، وأن يسلك سبيل الاعتدال بالحكمة والعطف بحيث لا يقلل من حذره الاسراف فى الثقة ولا يجعله الاسراف فى الريبة رجلا لا يحتمل .

« ومن هنا ينشأ التساؤل : أيهما أفضل : أن تكون محبوبا أكثر من أن تكون مرهوبا ، أو العكس ؟ والجواب هو أن المرء ليحب أن يكون محبوبا ومرهوبا معا . ولكن نظرا لصعوبة التوفيق بين هذا وذاك ، فإنه أدعى للأمان بمراحل ، ان كان لا مناص من الاختيار ، أن تكون مرهوبا من أن تكون محبوبا ، اذ أنه يمكن أن يقال عن الناس بوجه عام : انهم جاحدون ، متقلبون ، مراعون ، ملثمون ، هاربون من الأخطار سابقون الى المنافع، فان أقبلت عليك الدنيا فهم معك قلبا وقالبا يهبونك دمهم ومالهم وأرواحهم وأولادهم كما ذكرنا حين لا تكون بحاجة ماسة اليها فاذا اقتربت حاجتك أزوروا عنك . .

« ورغم كل هذا فينبغى على الأمير أن يجعل نفسه مرهوبا بطريقة تجنبه أن يكون مكروها اذا لم يظفر بحب الناس . فمن الممكن أن يجتمع فى قلوب الناس الخوف مع عدم الكراهية ، والآن يستطيع أن يحقق ذلك اذا تجنب أخذ أملاك مواطنيه ونسائهم . فاذا كان من اللازم حقا أن يقدم أحدا للمحاكمة والاعدام فيجب أن يفعل ذلك حين يكون لديه مبرر كاف وقضية واضحة » .

المهم عند مكيافيللى الا يكون الأمير « مكروها » من شعبه . أما الخوف فلا بأس منه بشرط الا يقترن بالكراهية أو يتحول اليها . بل ان الخوف من الأمير ضرورة في الدولة ، فكما يقول مكيافيللى في الفصل السابع عشر، لولا خوف الجند من الأمير لكثير شغبهم وكثرت فتنهم في السراء والضراء معا ولما أمكنت حماية المواطنين من أذاهم . نعم ، لا بأس بتاتا من أن يشتهر الأمير بالقسوة أو أن يكون مرهوبا . . المهم الا يكون مكروها .

وفي الفصل الثامن عشر يحدثنا مكيافيللى عن صفة الصدق أو الاخلاص أو الوفاء في « الأمير » فينفى أنها لازمة لزوما مطلقا . وفي ذلك يقول :

« كل الناس تعرف ان قيام حياة الأمير على الاخلاص والصدق وليس على المكر والختل أمر محمود الى أقصى الحدود ، ومع ذلك فنحن نرى من التجربة في زماننا أن أولئك الأمراء الذين لم يراعوا الاخلاص كثيرا وعرفوا كيف يستهون عقول الناس بالمكر قد انجزوا انجازات عظيمة ، واستطاعوا في النهاية أن ينتصروا على الأمراء الذين أسسوا حياتهم على النزاهة .

« لهذا ينبغي أن تعرف أن هناك طريقتين للقتال ، هما القتال بالقوانين والقتال بالعنف . والأولى أولى بالإنسان أما الثانية فهي أولى بالحيوان . ولكن نظرا لأن الأولى ليست كافية في كثير من الأحيان ، فلا مناص من الاستعانة بالثانية . وهذا ما يجعل من اللازم للأمير أن يعرف معرفة جيدة كيف يتصرف كإنسان وكيف يتصرف كحيوان . .

« وبالتالي ، فما دام من اللازم للأمير أن يعرف باتقان كيف يتصرف كحيوان ، فمن الواجب عليه أن يختار من مملكة الحيوان نموذجين هما الثعلب والأسد . فالأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ ، والثعلب لا يستطيع أن يحمي نفسه من الذئاب . فمن اللازم له إذن أن يكون ثعلبا حتى يميز الفخاخ ، وأن يكون أسدا حتى يخيف الذئاب . ومن يعتمدون فقط على قوة السباع لا يفهمون الأشياء ، بل أن الحاكم الحكيم لا يستطيع ولا ينبغي له أن يراعى الوفاء بعهوده — إذا كان الوفاء ضد مصلحته وإذا كانت دواعي العهود قد نقضت . فلو أن كل الناس كانوا أحيارا كان هذا المبدأ خاطئا ، ولكن بما أنهم أشرار ولا يحفظون عهودهم نحوك فليس هناك ما يلزمك بحفظ عهودك نحوهم . ولن تنقص الأمير أبدا المبررات المشروعة لتسويغ هذا الاخلال بالتعهدات . ففي الامكان أن نسوق أمثلة حديثة لا حصر لها من هذا الاخلال ، وأن نوضح كم من المعاهدات الغيت وكم من الوعود نقضت بسبب نقص الأمراء في الاخلاص ومن استطاع أن يقوم بدور

الثعلب خرج منتصرا . ولكن لابد للمرء من اخفاء هذه الطبيعة وأن يكون استاذا في الادعاء الكاذب واستاذا في اخفاء ما يضره . فالناس شديدي السذاجة ويقبلون الضرورات الطارئة أحسن قبول حتى أن المخادع يجد دائما من يصدقون خداعه .

» ...

« فليس اذن من الضروري للأمير أن يتصف بكل هذه الصفات المذكورة، ولكن من الضروري له أن يبدو وكأنه يملكها . بل انى اجترىء وأقول ان المرء لو انصف بها وعمل بها دائما فهي تضره . أما اذا بدا للناس أنه يملكها فهي نافعة : أى أن يبدو للناس رحيما ، أهلا للثقة ، عطوفا ، خاليا من الرذائل ، متدينا وأن يكون كذلك بالفعل ، بشرط أن يكون عقله مركبا بطريقة خاصة تجعله قادرا ، اذا ما دعت الضرورة لذلك ، على التغير الى النقيض وعارفا بأساليب التغير . ويجب أن ندرك أن الأمير ، ولاسيما الأمير الجديد ، عاجز عن مراعاة كل هذه الفضائل التي ترى الناس بسببها اختيارا، ذلك لأنه كثيرا ما يضطر ، لكى يحافظ على مركزه ، الى التصرف بما يجافى الاخلاص ويجافى الخير ويجافى الانسانية ويجافى الدين . ومن أجل ذلك فهو بحاجة الى نفس مستعدة لأن تغير ذاتها بحسب ما تجرى به رياح القدر وتحولات الأشياء المسيطرة عليه . وكما قلت آنفا ، ألا يبتعد الأمير عن الخير كلما أمكنه ذلك ، ولكن أن يعرف كيف يتحول الى الشر اذا لزم الأمر .

« فليحذر الأمير اذن ، أشد الحذر من أن يتفوه بشيء لا تشيع فيه الصفات الخمس المذكورة فيما سلف ، وليعن عناية فائقة بأن يبدو لناظريه وكأنه الرحمة مجسدة ، والاخلاص مجسدا ، والنزاهة مجسدة ، والانسانية مجسدة ، والدين مجسدا » .

ليس المهم أن يكون الأمير على هذه الصفات ، ولكن المهم أن يبدو كذلك أمام الناظرين . هذا رأى مكيافيللى . . ولكى يدلل عليه نجده يسوق مثل البابا اسكندر السادس الذى كان أعظم أستاذ في الكذب وأعظم فاسق عرفه التاريخ ، ومع ذلك فقد كان يوهم الناس بأنه ينبوع الفضيلة كما قال مكيافيللى .

ومن أهم المشاكل التي يواجهها الأمير في بلاطه مشكلة المتملقين الذين تجدهم بغزارة في بلاط الملوك والأمراء . هؤلاء المتملقون هم الوباء الحقيقي في كل امارة في رأى مكيافيللى ، وما أكثر من جلبوا من الكوارث على سادتهم

الأمراء ، ومشكلتهم مشكلة عويصة ولكن لها حلا بيد الأمير . وهذا ما يقوله مكيافيللى فى موضوع المتملقين فى الفصل الثالث والعشرين من كتاب « الأمير » :

« لست أريد أن أغفل موضوعا هاما وخلاا يجد الأمراء صعوبة فى وقاية أنفسهم منه اذا لم يتصفوا بالحصافة فى حسن الاختيار ، هؤلاء هم المتملقون الذين يغص بهم كل بلاط . فالناس الى حد كبير مغترون بشئونهم المتعلقة بهم ويخدعون أنفسهم بشأنها بحيث يصعب عليهم وقاية أنفسهم من هذا الوباء ، ومن حاول منهم وقاية نفسه منه جازف بامتهان نفسه . فلا سبيل الى اتقاء شر المتملقين الا اذا أدرك الناس انهم لا يغضبونك اذا هم صارحوك بالحقيقة . غير انه اذا جاز لكل انسان أن يصارحك بالحقيقة ضاعت هيبتك . ومن هنا فقد وجب على الأمير الحصيف أن يلجأ الى طريق ثالث فيختار لدولته حكماء الرجال ولهؤلاء وحدهم يعطى حرية التقدير فى مصارحته بالحقائق ، ولكن بحيث لا يتجاوزون الموضوعات التى يسألهم عنها ولا يتناولون أى موضوع آخر . ولكن يجب عليه أن يسألهم فى كل شئ وأن يستمع الى أقوالهم ثم يقرر بنفسه بطريقته الخاصة . يجب عليه فى تصرفه مع هؤلاء المستشارين أن يجعل كلا منهم على حدة يعرف أنه كلما ازدادت صراحته ازداد قربه من الأمير ، وفيما خلا هؤلاء لا ينبغى للأمير أن يسمع لأحد ، بل يجب عليه أن يلتزم بما اتخذ من قرارات ينفذها فى ثبات . فمن خالف هذه القاعدة إما أن يسقط بسبب المتملقين أو تكثر ذبذبته بين مختلف الآراء ، وهو ما يحط من قدره أمام الناس . »

هذه بعض القواعد الهامة فى الحكم وفى علم السياسة وفى تشريح السلطة كما وردت فى كتاب « الأمير » لمكيافيللى ، ويبقى سؤال واحد اعتقد أن الإجابة عليه تلقى ضوءا كشافا على فكر مكيافيللى وعلى روح عصره ، عصر النهضة الأوروبية ، وتفسر لنا لماذا يحتل فكر مكيافيللى السياسى هذا الموقع المركزى من الموقف الفلسفى الحديث الذى تميز به الفكر الأوروبى فى عصر الرينيسانس .

هذا السؤال هو : لماذا كتب مكيافيللى هذا الكتاب الفظيع الخالى من الأحلام وهو يخطط لسياسة المجتمع التى لم تخل من أحلام الفلاسفة فى يوم من الأيام ، منذ اخناتون حتى أنبياء اليهود ، ومن أنبياء اليهود حتى أفلاطون ، ومن أفلاطون حتى كارل ماركس ، عبر القديس أوغسطين والقديس توماس مور وكيمبائيللا وفرانسيس بيكون وفلاسفة التنوير وفلاسفة الثورة الفرنسية . . لماذا ؟

وهو يجيب بنفسه على هذا السؤال بذلك الحلم الوحيد العظيم الذى استسلم له فى كل كتابه فى الفصل السادس والعشرين من كتاب « الأمير » ، وهو حلم تحرير وطنه ، ايطاليا ، وتوحيده بقوة « أمير ، ملك ، قائد ، رئيس الخ » . . جديد قوى يغتصب السلطة فى البلاد بقوة الأسد ودهاء الثعلب ، ويطرد الأعداء الأجانب من ايطاليا التى كانت ترسف فى أغلال الاحتلال الأجنبى الفرنسى والاسبانى والألمانى ، بسبب تفككها الى اقطاعيات مستقلة أمراؤها فى شقاق مستمر ويعتمدون على حماية الدول الأجنبية وعلى الجنود المرتزقة محترفى الجندية من كل بلد الا ايطاليا .

وقد وصف مكيافيللى حال ايطاليا فى عصره أنها « بلا رأس ولا نظام مدحورة منهوبة ممزقة مخربة » حالها كحال فارس قبل قورش وأثينا قبل ثيسسيوس وبنى اسرائيل قبل موسى ، وهو يحلم بظهور قورش أو ثيسسيوس أو موسى فى ايطاليا ليجمع كلمة أبنائها ويقودهم الى الوحدة والحرية :

« وقد لاح حتى الآن بصيص من الأمل فى أمير من الأمراء أمكن معه أن نحسب أنه مبعوث الله لخلاصها ، ومع ذلك فقد تبين أن القدر قد رماه بسهمه وهو فى أوج جهاده (يقصد سيزار بورجيا) . فايطاليا الآن ، وكأنها فاقدة الحياة ، تنتظر من يطب جراحها ، ويضع حدا للنهب الذى يجرى فى لومبارديا ، وللجزية التى تدفعها الملكة وتدفعها توسكانيا ، ويبرؤها من عللها النى تنخر الآن فى جسدها منذ زمن طويل . ونحن نرى كيف أنها تصلى الى الله أن يبعث اليها مخلصا ينقذها من هذه القسوة البربرية ومن هذه الفطرسية ، ونراها على استعداد تام ورضا كامل أن تمشى تحت راية واحدة لو وجد فيها من يحمل العلم » .

ان كل شئ فى ايطاليا ينتظر ظهور هذا المخلص : « فالبحر قد انشقق للعبور ، والغمامة فوق رأسك تقودك فى الطريق ، والصخرة قد تفجرت منها المياه ، والسماء قد امطرت هنا المن والسلوى ، وكل شئ قد اتحد لمجدك أيها الأمير . . وما عليك الا أن تفعل الباقي . فالله لا يحب أن يفعل كل شئ ، حتى لا يجرDNA من حرية الارادة ومن بعض ذلك المجد الذى هو حق لنا » .

وهكذا علق مكيافيللى آماله على أمير فلورنسا ، لورنزو دى مديتشى الثانى وآله ، لتحرير ايطاليا وتوحيدها بعد أن ضاعت آماله بموت سيزار بورجيا .

والوسيلة ؟ الوسيلة هي الحرب ، فهي تحقق العدالة العظمى :
« فالحرب عادلة عند من يحتاجون اليها ، والسلاح مقدس حين تفقد كل
أمل الا في السلاح » . الله يبارك حروب التحرير وهي في رعاية الله .

والسبيل ؟ السبيل هو بناء جيش وطنى من أبناء البلاد بدلا من الاعتماد
على الجنود المرتزقة ومحترفي القتال من الأجانب : « فاذا كان آلك الصيد
يزمعون اذن ، الاحتذاء بأولئك الرجال الأفذاذ الذين حرروا أوطانهم ، فمن
اللازم قبل أى شىء آخر أن توفر لها قواتها المسلحة الخاصة بها ،
بوصفها الأساس الوطني لكل عمل حربى ، فلن يجد المرء من يتجاوزها في
الاخلاص والوفاء والكفاءة » .

وليكن قوام هذا الجيش الوطنى من الايطاليين : « انظر اليهم في
مبارزاتهم وفي معاركهم الجماعية ، تجد الايطاليين متفوقين على غيرهم في
القوة وفي المهارة وفي الذكاء . فاذا نظرنا اليهم في الجيوش نجدهم لا يظهرون
هذه الصفات ، ففى الجيوش ينبع كل ضعف في الجنود من ضعف الرؤوس .
العارفون بفن الحرب لا يجدون من يطيعهم ، وكل من هناك يخيل اليه أنه
خبير بشئون القتال . فحتى يومنا هذا لم يظهر فينا رجل عرف كيف يرتفع
بمكانته عن طريق القوة والاستفادة من الظروف بحيث يخضع له كل
الآخرين »

ان أبناء ايطاليا كما يقول مكيافيللى جنود شجعان اكفاء ولكن تنقصهم
القيادة الفذة التى يمكن أن تقودهم الى النصر والمجد في معركة الحرية
والكرامة . وهذا هو الأمير المنتظر .

وبعد ؟ أليست هذه نظرية الدوتشى والفوهرر في منابعها الأولى .



« أحاديث عن ليفيوس »

في النهضة والانحطاط

□ كتاب آخر لمكيافيللي لا يقل أهمية عن كتاب « الأمير » ، وإن لم يشتهر شهرة كتاب « الأمير » ، هو « أحاديث عن ليفيوس » ، وهو عبارة عن تعليقات حول السنوات العشر الأولى في المدونة التاريخية التي وضعها المؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس . وأهمية هذا الكتاب في أنه يشرح لنا تصور مكيافيللي لنهضة الأمم وانحطاطها ، كما يشرح لنا دور الدين ودور المؤسسة الدينية ودور القواد ودور العلوم والفنون والآداب في رقى المجتمع وانهياره . وهو في الفصل العاشر من الكتاب الأول يبوب طبقات المواطنين فيقول :

« من بين أجدر الناس بالثناء نجد أن الناس تختص بالحمد مؤسسي الأديان قبل سواهم ، ويليهم مؤسسو الجمهوريات والممالك ، ويليهم في الشهرة قواد الجيوش الذين وسعوا أملاكهم أو رقعة وطنهم ، ويلي هؤلاء الأدباء . ولأن هؤلاء الناس من أصناف مختلفة ، فكل منهم يشتهر بحسب مرتبته . أما بقية الناس ، وهم الآحاد بلا عدد ، فكل منهم نصيب من الثناء بقدر فضله في فنه ومهنته . وعلى العكس من ذلك نجد أن العار والكراهية هما جزاء محطى الأديان ومحطى الممالك والجمهوريات وأعداء الفضائل وأعداء الآداب وأعداء كل فن آخر ينفع الجنس البشرى ويعلى من شرفه ، ومثل هؤلاء أعداء الدين والطغاة والجهال والتافهون والكسالى والجبناء . ولا أحد من الناس سفيها كان أو حكيما ، صالحا كان أو طالحا ، لا يمدح من يستحقون المدح ويذم من يستحقون الذم ، لو ترك له الخيار في هذا وذاك . ومع ذلك ، فكل الناس تقريبا يخدعهم الخير الزائف والمجد الزائف وينحازون باختيارهم أو بجهلهم لصف من يستحقون القدح لا المدح ، ورغم أن الناس قادرون على تأسيس الجمهوريات والممالك فيعلو بذلك شرفهم ، إلا أنهم ينحازون إلى حكومات الطغيان . »

« فلا يجب أن يخدع أحد بمجد يوليوس قيصر ، ولا سيما حينما نرى المؤرخين يمتدحونه ، فمن يمتدحونه انما ارتشوا من سعد طالعه وارتعبوا من طول امد الامبراطورية التي اقترن تاريخها باسمه فلم تسمح لأحد من الأدباء أن يتكلم عنه بحرية . أما من أراد أن يعرف ماذا قال الكتاب الأحرار في يوليوس قيصر فليقرأ ما قالوه عن كاتيلينا . فقيصر أحق باللوم بمثل ما أن فاعل الشر أحق باللوم ممن دبر لفعل الشر . ولينظر أيضا الى ما يسبغونه من تكريم عظيم على اسم بروتوس . فبما أنهم عاجزون عن هجاء قيصر بسبب سطوته ، نجدهم يكرمون غريمه . »

كل هذا الكلام يسوقه مكيافيللى للتدليل على أن احترام الجمهورية والعمل على سعادة مواطنيها بالعدل والحرية والأمان هو سكة السلامة ، بينما اقامة الطغيان ونهب العباد واشاعة الجاسوسية وارهاب الناس بالنفى والمصادرات وسفك الدماء هو سكة الندامة بالنسبة لاي حاكم .

وفي الفصل الثانى عشر من الكتاب الأول من « أحاديث عن ليفيوس » ، يضع لنا مكيافيللى المبادئ التى تحفظ الدولة من الفساد .

وأول مبدأ فى نظره هو المحافظة على شعائر الدين . ويبدو من كلامه أنه لا يقصد ديناً معيناً بالذات ، وإنما الدين بصفة عامة . كذلك لا يبدو من كلامه أنه يتحدث عن الشعائر كمجرد مجموعة من الطقوس ، وإنما يقصد البنية الأساسية فى كل دين . فهو يقول :

« الأمراء والحكومات الجمهورية الذين يريدون أن يحافظوا على أنفسهم من الفساد ينبغى عليهم قبل كل شيء آخر أن يحافظوا على شعائر دينهم مبراة من الفساد ، وأن يحترموها على الدوام ، فليست هناك دلالة على خراب دولة أوضح من الاستهانة بقدر العبادات الالهية . ومن اليسير ادراك ذلك اذا عرف المرء على أية قواعد يقوم الدين الذى يولد به هذا الانسان . فكل دين تقوم أركانه على بنية أساسية هامة خاصة به . فحياة الديانة الوثنية كانت مؤسسة على اشارات العرافة ، وعلى جماعة المتنبئين وقارئى الغيب ، فكل شعائرهم واضاحيهم وطقوسهم الأخرى كانت تتوقف على هذه الاشارات ، فقد كان من السهل عليهم أن يعتقدوا أن الله القادر على التنبؤ بالخير أو الشر فى المستقبل قادر أيضا على تحقيقه . ومن هنا كانت القرابين والصلوات وكل طقس أقيم فى اجلال الآلهة . كان هذا أساس عرافة ديلوس ، وكهانة معبد جوبيتر آمون ، وغيرهما من أماكن الوحي الشهيرة التى ملأت العالم بالاعجاب والتمسك بالدين ، فلما بدأت هذه العرافات تتنبأ بما يوافق رغبات الأقوياء ، واكتشف الناس هذا

الزيف ، فقد الناس ايمانهم وظهر استعدادهم لنقض كل العادات الصالحة . فواجب من يحكمون الجمهورية أو المملكة اذن هو أن يحافظوا على أسس الدين الذى يتبعونه . فان وفقوا الى ذلك فى أنفسهم أمكنهم فى يسر أن يحافظوا على التدين فى بلادهم ، وأن يحفظوا بلادهم فى خير واتحاد . وينبغى عليهم أن يهتموا بكل الأحداث التى يبدو أنها تقوى الدين وأن يضخموا من شأنها ، ولو كانوا يعتقدون أنها كاذبة . وكلما ازداد حرصهم وازداد فهمهم للعلوم الطبيعية ، ازداد التزامهم بالاهتمام بالأحداث التى تدعم الدين . ونظرا لأن هذا كان النهج الذى سلكه الحكماء ، فقد نشأ الاعتقاد فى المعجزات التى تشتهر بها الأديان ، لأن أهل الفطنة يضخمون من شأنها أيا كان مصدرها .

وهكذا تضى حجتهم على المعجزات مصداقية عند كل الناس .

هنا يجب أن نكون فى منتهى الحذر فى فهم مكيافيللى حين يتكلم عن الدين . . فظاهر كلامه فى بادىء الأمر يوحى بأنه رجل مؤمن ومتدين بالمعنى المألوف . وهذا التأكيد الشديد على دور الدين فى المجتمع ، وعلى أن خراب الأمم نتيجة الاستهانة بالدين أو فساد الدين يوحى أيضا بأنه رجل مؤمن شديد التدين . ومع ذلك فمن يتأمل كلام مكيافيللى يجد أنه يقول بوضوح ان قضية الدين ليست فى صحته أو زيفه ولكن فى وجوب التمسك به نظرا لوظيفته الهامة فى ضبط المجتمع . وليس من الضرورى أن تكون المعجزات أو الكرامات مثلا صحيحة ، وإنما المهم أن يعاملها الحكام على أنها صحيحة ، بل وأن يقووا اعتقاد الناس فيها ، وأن يدعموا فيهم الايمان بالغيبات ما استطاعوا الى ذلك سبيلا بنقض النظر عن صدقها أو كذبها . فدين زائف خير من لا دين على الاطلاق ، كما يقول بعض المفكرين .

هذه النظرة نجدها فيما بعد عند بعض دعاة حق الملوك الالهى من العقلانيين مثل توماس هوبز الذى كان ينظر الى الكنيسة نظره الى مانعة صواعق وظيفتها تفريغ شحنات الغضب واليأس والبؤس والاحباط ، الخ . . فى المجتمع ، أى أنها باختصار مانعة ثورات وضمن للسلام الاجتماعى ، وهى نقيم داخل كل مواطن شرطيا غير مرئى يحفظ الأمن العام دون قهر من الخارج . ومع ذلك فمكيافيللى يحذر رئيس الدولة فى كتاب « الأمير » من استفحال قوة الكنيسة والسلطة الروحية بعامة بما يجعلها قادرة على تحدى السلطة الزمنية « الدنيوية » ، وهو يقول ان هذا مجلبة لخراب الأمم .

متى تنحرف الأمم اذن عن الدين ؟ حين ينحرف عنه رجال الدين ويتحولون الى مجرد أدوات تسوغ للناس ما يفعله الأقوياء وتبرر رغباتهم

بالباطل طبعا . والمهم اذن هو المحافظة على « أسس » الدين الذى تدين به الجماعة ، ايا كان هذا الدين ، والعبث بهذه الأسس من جانب الحاكم ينتهى بالعبث بها من جانب المحكوم . وخير دليل على هذا هو ما نزل بالعالم المسيحى من تفكك فى أواخر العصور الوسطى :

« فلو أن حكام العالم المسيحى حافظوا على دينهم فى صورته التى وضعها مؤسسو هذا الدين لكانت الدول والجمهوريات المسيحية أشد اتحادا وأوفر رخاء مما هى الآن بمراحل . وليس هناك معيار لانهايار المسيحية أصدق من مشاهدتنا أن أقرب الناس للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وهى رأس الديانة ، هم أضعف الناس دينا . وكل من يتأمل أسسها ويرى مدى اختلاف ممارساتها فى الوقت الحاضر عما كانت عليه ، يستطيع أن يجزم دون أدنى شك بأن الاطاحة بها وشيكة أو أن نزول القصاص بها وشيك » .

ونحن حين نتحدث عن عصر النهضة الأوروبية ونقول ان من أهم مقوماته تلك الثورة على الكهنوت Anticlericalism والبابوية ، لن نجد أوضح من تحليل مكيافيللى لفساد القيادة الروحية للعالم المسيحى ممثلة فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى نهاية العصور الوسطى . والواقع ان هذا النقد للكنيسة جاءها من كل اتجاه : من معسكر المؤمنين الصادقين ومن معسكر المنشقين المحتجين ومن معسكر المؤمنين بالدين ، لا فى ذاته ، ولكن من حيث هو ضرورة أخلاقية للعامة ومؤسسة اجتماعية . . وهنا يقترب مكيافيللى من منطق « التكفير » ، أى تكفير المجتمع :

« ولأن الكثيرين يرون أن سعادة مدن ايطاليا آتية من الكنيسة الرومانية ، فانى أحب أن أسوق ما أراه من منطق فى الاتجاه الآخر : سأذكر حجتين غاية فى الصلابة أتصور أنه لا سبيل الى دحضهما . الحجة الأولى هى أن هذه البلاد فقدت كل تقوى وكل دين بسبب المثل السيئ الذى يقدمه البلاط البابوى . وقد نجمت عن ذلك اضطرابات وفتن عديدة ، ذلك لان الناس تسلم بأن كل شيء يقوم على الخير حيثما توفر الدين ، وحين يكون الدين ناقصا انتظر الناس العكس . فنحن — الايطاليين — اذن مدينون فى المقام الأول للكنيسة وللكهنة بأننا أصبحنا مجردين من الدين وأشرارا .

« ولكننا مدينون لهما أيضا بما هو أكثر من ذلك ، وهو السبب الثانى فى خرابنا . وهو أن الكنيسة قد جعلت هذه البلاد مقسمة ولا تزال تجعلها كذلك . ولا شك أنه ما من بلد يكون متحدا أو ينعم بالرخاء اذا لم يكن كله خاضعا لحكم حكومة جمهورية واحدة أو أمير واحد . . كما حدث

لفرنسا ولإسبانيا . والعلة في أن إيطاليا لم تبلغ هذا الوضع فلا هي تحت حكومة جمهورية واحدة تحكمها ولا هي تحت أمر واحد يحكمها ، العلة في ذلك هي الكنيسة لا سواها . ذلك لأن الكنيسة رغم أنها متركزة هنا ورغم أنها تباشر السلطة الزمنية « الدنيوية » ، لم تكن تتمتع بالقوة أو الحيوية الكافية بحيث تستولى على السلطة كاملة في إيطاليا وتصبح بنفسها حاكمة البلاد ، ومع ذلك فهي من الناحية الأخرى لم تكن ضعيفة إلى الحد الذي يجعلها تستعين برجل قوى يحميها من كل من تستفحل قوته في إيطاليا ، خشية أن تفقد أملاكها الدنيوية . وقد حدث ذلك في الماضي مرارا ، حين أعان شارلمان الكنيسة على طرد اللومبارديين الذين كانوا شبه ملوك على إيطاليا . وفي زمننا جردت الكنيسة أهل البندقية من قوتهم بمعونة فرنسا ، ومن بعد ذلك ظردت الفرنسيين بمعونة السويسريين » .

بعبارة أخرى ، المهم عند مكيافيللي هو وحدة الدولة ووحدة الأمة ، واستئراء السلطة الروحية كقيل بأن يضعف قوة الدولة .

وهنا نصل إلى جوهر الرئيسانيس وهو الدعوة إلى الهيومانيزم أو المذهب الانساني الذي تضمن الثورة على المسيحية ذاتها كدين وليس على مجرد البابوية والكهنوت . ففي الفصل الثاني من الكتاب الثاني من « أحاديث عن ليفيوس » يقول لنا مكيافيللي إن القدماء كانوا أكثر حبا للحرية من معاصريه ، ويسوق الأدلة التاريخية لاثبات رأيه ثم يفسر ذلك بقوله :

« وحين أتدبر كيف حدث أنه في تلك الأيام الخالية ، كانت الشعوب أكثر حبا للحرية منها في هذه الأيام ، فاني أعتقد أن سبب ذلك هو عين السبب الذي يجعل الناس اليوم أقل حيوية ، وهو في اعتقادي الاختلاف بين تعليمنا وتعليم القدماء ، وهو نتيجة للفرق بين ديانتنا وديانة القدماء . فديننا قد كشف لنا عن الحق وهدانا إلى طريق الصواب ، وتأسيسا على ذلك جعلنا أقل تقديرا لشرف الدنيا ، بينما نجد أن الوثنيين ، بفضل تقسديرهم العظيم للدنيا واعطائهم فيها خير ما عندهم ، كانوا أكثر حيوية في أعمالهم . وهذا يمكن استخلاصه من العديد من عاداتهم ، بدءا بفخامة قرابينهم إذا هي قورنت بقرابيننا المتواضعة التي تتصف ببعض الجلال ، ولكن دقتها أشد من جلالها ، ولا يداخلها عمل وحشي عنيف . أما قرابين القدماء فلم يكن ينقصها جلال الشعائر ولا فخامة الطقوس ، وإنما كان يضاف إليها عملية الأضحى الطافحة بالدم والوحشية ، فقد كانوا يذبحون عددا عظيما من الحيوانات في هذه الأضاحي . وهذا المشهد الرهيب جعل الناس في

مثل رهبته . وبالإضافة الى هذا ، فان ديانة القدماء لم تسبغ شرف الالهة على أحد من البشر الا من جللهم مجد الدنيا ، كقواد الجيوش وأمراء الدول . أما ديننا فقد مجد بسطاء الناس وأصحاب العقول المتأملة من دون رجال العمل . وديننا اذن قد عظم التواضع والزهد واحتقار الحياة الانسانية ، أما دين القدماء فكان يمجّد عظمة العقل وقوة البدن وكان في كل ما عدا ذلك خليقا بتأجيج حيوية الناس . وحين يطلب منا ديننا أن نتصف بالقدرة الداخلية على الاحتمال فهو يؤثر أن تكون هذه القدرة على احتمال العذاب وليس في القيام بعمل شيء ايجابى .

« ويبدو أن هذا المنهج في الحياة اذن قد أضعف العالم وسلمه للأشرار الذين تمكنوا من السيطرة عليه آمنين ، ذلك لأن أكثر الناس يختارون الصبر على ما يحقق بهم من أذى وليس الانتقام له لكي يدخلوا الجنة . ومع ذلك فرغم أن العالم قد غدا مخنثا والسماء لا تحارب دفاعا عن الضعفاء ، فقد وصلنا الى هذه الحالة نتيجة لتفاهة الرجال الذين فسرنا ديننا وفقا لروح الخمول وليس وفقا لروح القوة . فلو أنهم فكروا في أن ديننا يسمح لنا بالدفاع عن الوطن وبتوسيع رقعته ، لقدروا أنه يحضنا على حب الوطن واجلاله وأن نعد أنفسنا للدفاع عنه ما استطعنا الى ذلك سبيلا . »

هذا الكلام الهام فيه لبس ينبغي أن يزيله الباحثون :

فبعضه يدل على أن مكيافيللى كان يقف موقف الناقد من الدين المسيحى في صميمه وينعته بأنه دين الضعفاء ويحمل المسيحية مسؤولية انهيار الرومان أمام قبائل البرابرة الذين كانوا لا يزالون يعيشون في عنفوان البداوة الوثنية الأولى ، بل ويحمل المسيحية مسؤولية الرخاوة التي أصابت الأوروبيين نحو ألف عام من العصور الوسطى حتى عصره فجعلتهم يرضخون لحكم الطغاة والأشرار والظلمة انتظارا لما وعد به الودعاء في الجنة .

وبعضه الآخر يدل على أن مكيافيللى لا يقف موقف الناقد من الأخلاق المسيحية نفسها ، وإنما يقف موقف الناقد من « المفسرين » والذين شرحوا المسيحية للعالم المسيحى على أنها دين الضعف والزهد وانكار الحياة . وما هؤلاء المفسرون الا القديسون والبابوات والكهنة وآباء الكنيسة بوجه عام .

وفي تقديرى أن مكيافيللى كان يقصد الأمرين معا ، على غير ما كان يذهب اليه دعاة « الإصلاح الدينى » الذين سددوا سهامهم للكنيسة الكاثوليكية وحدها ونددوا بتعاليمها ومزقوا شرف رجالاتها وأعادوا فتح

باب الاجتهاد فى اللاهوت المسيحى وفى الأخلاق المسيحية جميعا بمختلف المذاهب الاحتجاجية والبروتستانتية التى تحاول التوفيق بين الدين والدنيا مثل لوثر « ١٤٨٣ — ١٥٤٦ » ، وكالفن « ١٥٠٩ — ١٥٦٤ » ، وزوينجلى « ١٤٨٤ — ١٥٣١ » ، وسرفيتوس « ١٥١١ — ١٥٥٣ » ، وسافونارولا « ١٤٥٢ — ١٤٩٨ » ، والسير توماس مور « ١٤٧٨ — ١٥٣٥ » ، وكلهم كانوا معاصرين لمكيافيللى .

فالروح الجديدة التى اجتاحت أوروبا فى عصر النهضة الأوروبية كانت روح الثورة على الروحانيات المسيحية . . اما فى ذاتها واما فى تفسيراتها الكاثوليكية . وكانت قضية القضايا هى محاولة التوفيق بين الدين والدنيا أو على الأصح بين الدنيا والآخرة . ولما كان الدين قد التهم الدنيا والآخرة قد التهمت الأولى نحو ألف عام من العصور الوسطى ، فقد جاء هذا الصلح أنا بتقليص سلطان الدين على الدنيا بحيث يصبح رياضة شخصية بحتة ، وأنا بالاجتهاد فى تفسير الدين بما يجعله مسائرا للدنيا أو على الأقل غير متعارض معها . وحيث تعذرت إقامة هذا الصلح كثرت الزندقة وكثر الاتهام بالزندقة .

وكان أول مظهر لهذا الصراع بين الدين والدنيا هو ظهور القوميات الحديثة فى أوروبا كما شرح لنا مكيافيللى ، فقد أصبح الخيار المطروح أمام الأوروبي العادى هو خيار بين الأخوة فى الدين كما كانت تبشر الكنيسة الكاثوليكية أو الأخوة فى الوطن كما كان يبشر أكثر مفكرى الرينيسانس .

غير أن الفصل بين السياسة والأخلاق ، هذا الفصل الذى تجلى فى أكثر ما كتب مكيافيللى ، انما كان فصلا ظاهريا فقط ، فقد حلت محل نظرية حقوق الله وواجبات الانسان فى الدنيا ، وهى جوهر الأخلاق المسيحية ، نظرية أخرى تنادى بحقوق الانسان فى الدنيا . فما كلام مكيافيللى عن « مجد الانسان » و « شرف الانسان » و « كرامة الانسان » وحرية الشعوب والعدالة الاجتماعية وحراسة الحرية والعدالة والكرامة والأمن والحقوق بالقانون وبالقوة المسلحة اذا لزم الأمر ، الا اللبنة الأولى فى أخلاقيات جديدة هى الأخلاقيات الاجتماعية التى حلت محل الأخلاقيات الدينية ، كالأحسان والتقوى ومخافة الله والزهد فى نعيم الدنيا طلبا لنعيم الآخرة ، الخ ...

فى سبيل بناء الدولة القومية وتحرير الشعوب من الحكم الأجنبى ومن الطفافة فى الداخل وتوحيد أبناء الأمة الواحدة حتى تسوسهم حكومة

وأحدة أو أمير واحد ، برر مكيافيللى سفك الدماء والفدر والكذب والخذاع
وتقليل اظافر السلطة الروحية ، ووضع للناس كتابا معتما فى الواقعية
السياسية هو كتاب « الأمير » . . ولا أظنه كان يقصد أن يمتد تطبيق
تعاليمه اللاأخلاقية الى المعاملات اليومية بين الأفراد . ومع ذلك فينبغى
أن نذكر له أنه جعل من القومية ومن الوطنية ينبوع الأخلاق الجديدة .



لورنزو دى مديتشى LORENZO DE MEDICI

١٤٤٩ - ١٤٩٢

□ لعل أشهر أسرتين فى تاريخ إيطاليا كله منذ قياصرة روما العظام هما أسرة مديتشى وأسرة بورجيا . وقد تعاصرت هاتان الأسرتان فى حقبة واحدة نحو عام ١٥٠٠ : آل مديتشى فى فلورنسا ، وكانوا يشتغلون بالمال والفن والسياسة ، وآل بورجيا فى روما ، وكانوا يشتغلون بالدين والحرب والدسائس .

وكان أشهر آل مديتشى هو لورنزو دى مديتشى الشهير « بلورنزو الرائع » أو « لورنزو الباهر » أو « لورنزو الماجد » (١٤٤٩ - ١٤٩٢) ، وكان أشهر آل بورجيا هو سيزار بورجيا الأمير الدساس السفاح (١٤٧٥ - ١٥٠٧) ومعه أبوه رودريجو بورجيا (١٤٣١ - ١٥٠٣) (البابا اسكندر السادس) ، ومعه أيضا أخته بياتريس بورجيا (١٤٨٠ - ١٥١٩) التى جرت فى ذكرها حكايات تشبه الأساطير .

أما أسرة مديتشى ، أو مدسيس كما يسميها الفرنسيون ، فقد أنجبت غير لورنزو عاهل فلورنسا اثنتين من أشهر ملكات فرنسا هما :

كاترين دى مدسيس (١٥١٩ - ١٥٨٩) ، بنت لورنزو الثانى عاهل فلورنسا وزوجة هنرى الثانى ملك فرنسا وأم ثلاثة من ملوك فرنسا هم : فرنسوا الثانى وشارل التاسع وهنرى الرابع ، وقد كانت بعد وفاة زوجها وصية على عرش فرنسا أيام شارل التاسع ، وهى التى دبرت مذبحه سان بارثولوميو التى هلك فيها كثير من البروتستانت .

ثم ماري دى مدسيس (١٥٧٣ - ١٦٤٢) ملكة فرنسا بزواجها من هنرى الرابع (١٥٥٣ - ١٦١٠) ، ثم أصبحت بعد وفاة زوجها وصية على عرش فرنسا أيام حكم ابنها لويس الثالث عشر . وهى التى عينت الكاردينال ريشليو ، رجل الدولة الخطير ، رئيسا للوزراء ثم تصارعت معه وماتت فى المنفى .

وتاريخ أسرة مديتشي في ايطاليا هو تاريخ جمهورية التجار في فلورنسا في الانتقال من العصور الوسطى الى عصر النهضة وفي الانتقال من النظام الاقطاعى وحكم الارستقراطية الى النظام الراسمالى وحكم البورجوازية ، وقد استغرق هذا الانتقال أكثر من قرنين ، منذ نحو ١٣٠٠ حتى ما بعد ١٥٠٠ . قرنان تكونت فيهما أسرة مديتشي واشتغلت بالمسال والسياسة حتى آلت اليها مقاليد الحكم في هذه الدولة الايطالية .

فليس من سبيل اذن الى فهم الانتقال من العصور الوسطى الى الرينيسانس الا بدراسة ما كان يجرى من تغيرات داخل المدن الكبرى خلال هذين القرنين وما بعدهما ، وحلول البورجوازية محل الارستقراطية في الحكم حلولا تدريجيا أو حلولا عنيفا تصاحبه الثورات . كذلك ليس من سبيل الى فهم ما يمثله لورنزو دى مديتشي الا بدراسة تاريخ أسرة مديتشي وارتفاعها وانهارها عبر قرنين ، ولم وكيف كان ذلك الارتفاع وذلك الانهيار؟ .

فلنقل إن تاريخ فلورنسا هو تاريخ النظام المصرفى ونشأة البنوك فيها . ولنقل ان تاريخ النظام المصرفى ونشأة البنوك بدءا مع بداية أول هجمة للاستعمار الأوروبى فى العصر الحديث ، ألا وهى الحروب الصليبية فى ثمانى حملات (١٠٩٦ — ١٢٧٠) . وما ينطبق على فلورنسا ينطبق أيضا على البندقية وميلانو وجنوا ونابولى وغيرها من مدن ايطاليا الكبرى التى تحولت الى مراكز ضخمة للتجارة والصيرفة نتيجة للحروب الصليبية .

كانت ايطاليا بسبب طول شواطئها وكثرة موانئها وبسبب موقعها الممتاز فى حوض البحر المتوسط وتوسطها بين أوروبا وأفريقيا والمشرق القريب أشد دول أوروبا تفتحا للعالم الخارجى وأوسعها اشتغالا بالتجارة الدولية .

وبينما ظلت أكثر دول أوروبا قائمة فى اقتصادها ونظامها السياسى على العلاقات الاقطاعية : ملوك وأمراء ودوقات وكونتات ومركيزات وبارونات يملكون الأرض ويلتزمون بالدفاع عنها بالجيوش المرتزقة من جهة ، ورقيق يفلحون الأرض من جهة أخرى ، وليس بين السادة النبلاء والرقيق ، وهم سواد الشعب ، الا طبقة رقيقة جدا من أهل المهن والحرف والتجار ، كانت ايطاليا بسبب كثرة مداخلها من أسبق دول أوروبا الى تنمية تلك الطبقة الثالثة الوسطى ، وهى طبقة الرأسمالية التجارية ثم الرأسمالية الصناعية .

وهكذا تبلورت فى ايطاليا قبل غيرها تلك الطبقة الثالثة الوسطى التى تسمى بالطبقة البورجوازية ، وقوامها التجار وأرباب الصناعات وأرباب

المهن والحرف الفنية وكل من يعيش من غير عمله اليدوى . وهم عادة سكان المدن والبنادر . . . وهى تسمى « البورجوازية » نسبة الى « البورج » . و « البورج » هو « البندر » أو القرية الكبيرة المحصنة أو المدينة .

فالبورجوازية اذن هى الطبقة الوسطى ساكنة المدن أو التى تعيش على الاقتصاد المدنى . وينمو المدينة على حساب الريف . . حل الاقتصاد الرأسمالى محل الاقتصاد الاقطاعى ، وسيطرت القيم والنظم والأفكار المدنية على القيم والنظم والأفكار الريفية .

والحق أن البورجوازية ليست طبقة واحدة وسطى بل طبقات متوسطة متعددة ، منها الطبقة المتوسطة العليا أو الكبيرة ، والطبقة المتوسطة المتوسطة ، والطبقة المتوسطة الصغيرة . والحق أيضا أن تعبير « المتوسطة » تعبير مضلل ، لأن هذه الطبقة تضم من روتشيلد وهنرى فورد ، وهما أغنى من الملوك والأمراء ، الى بائعة الفجل وبائع البليلة . وانما تسمى بالطبقة الوسطى لوقوعها بين الارستقراطية بنبالة الأرض والسدم ، والبروليتاريا ، الطبقة العاملة بالأجر أو التى لا تملك الا قدرتها على العمل .

بسبب الحروب الصليبية اذن أصبحت ايطاليا معبرا طبيعيا بين أوروبا والشرق الأدنى ، وكثرت تحركات الجنود والحجاج فى الحملات الصليبية المتعاقبة عبر قرنين . . ومن وراء الجنود والحجاج كثر التجار وكثرت عمليات التبادل التجارى ونشط النقل البحرى للناس والسلع من أوروبا الى الشرق الأدنى وبالعكس . وكانت فلورنسا والبندقية وناپولى وجنوا من أنشط مدن ايطاليا فى تنظيم هذه التجارة الخارجية . . فكان تجارها يحملون اليها كل أنواع العملات الأجنبية الحاصلة لهم من مبيعاتهم فى الخارج أو التى يجمعونها لمواجهة مشترياتهم من الخارج . . وكانت كلها عملات معدنية ، غالبا ذهبية وفضية ، بطبيعة الحال لأن العملة الورقية لم تكن معروفة يومئذ .

ونتيجة لكل هذه التحركات البشرية الكثيفة من الجنود والحجاج فى البحر والبر ، امتلأت ايطاليا بالقراصنة الذين كانوا يعترضون طريق السفن لنهب ما فيها من بضائع التجار ولنهب ما يحمله المسافرون عليها من أموال ، وامتلأت طرق ايطاليا بقطاع الطرق البارونات أو الفرسان اللصوص والنهابين من كل نوع وصنف لقطع الطرق على الحجاج والتجار والمسافرين وتجريدتهم من أموالهم . . بل ولخطف الرجال والنساء والأطفال طلبا للقدية .

وقد نجم عن كل هذه الأوضاع شيئان : أولهما أن التعامل بالنقد حل محل التعامل بالمقايضة . وثانيهما أن تجار فلورنسا أصبحوا خبراء

فى العملات الأجنبية المعدنية ، وامتلات فلورنسا بالصيارفة لتبديل العملات للتجار والحجاج والمسافرين مقابل عمولات طبعاً — فكانت هذه بدايات ظهور النظام المصرفى ، اى البنوك .

كذلك ادى اختلال الأمن فى الطرق ووسائل النقل الى ظهور بيوت مالية فى المدن الكبرى يودع فيها المسافرين أموالهم بدلا من حملها معهم وتعريضها للضياع ، مقابل صكوك يصدرها البيت المالى ويقدمها المودع لمراسلى هذا البيت المالى ، اى وكلائه ، فى المدن الأخرى داخل ايطاليا أو خارجها فيتقاضى القيمة التى أودعها ، وبهذا يأمن شر اللصوص وحوادث الطريق مقابل عمولة يدفعها للبيت المالى الذى قدم له هذه الخدمة . وهكذا نشأت خطابات الاعتماد والشيكات السياحية التى نعرفها اليوم ، بل وظهرت الاعتمادات المستندية التى تقوم عليها التجارة الدولية فى عالمنا اليوم .

واقضى كل هذا انشاء شبكة من « المراسلين » أو الوكلاء الكفاء فى أوروبا وخارج أوروبا لمواجهة المدفوعات فى حينها لكل بيت مالى ، كذلك ظهر نظام التأمين على نقل البضائع . باختصار : ظهر البنكر والصراف ، وحل رجل الأعمال محل البائع المتنقل . . وحل التعامل بالصكوك أو الشيكات محل التعامل بالنقد .

وفى الموانى ، ولا سيما فى جنوا والبندقية وناپولى ، أضيفت عملية ثالثة الى عملية تبديل العملة وعملية قبول الودائع مقابل خطابات الاعتماد . وهذه هى عملية التسليف على الرهونات أو بالضمان والاقرض بالربا المحدد ، اى مقابل سعر فائدة ثابت ومضمون ، وعملية الاقرض بالمضاربة اى على أساس المشاركة فى الربح والخسارة وهى تحتل المجازفة . نشأت مجموعات مالية تقوم بتمويل الصادرات والواردات ، فتشارك فى تمويل كل عملية أو شحنة من البضائع على حدة ثم تنقسم الربح والخسارة مع التجار ، وفى التجارة الداخلية ظهرت « الشركات التجارية » . وكانت هذه البيوت المالية تستورد المواد الخام للصناعات التحويلية : السلاح والدروع فى ميلانو والمنسوجات الصوفية والحريرية فى فلورنسا ، مقابل تصدير سلع الترف ، فكانت تجارة رابحة كدست الأموال فى مدن ايطاليا من فائض ميزانها التجارى مع الدول الأخرى . وقد تفوقت فلورنسا بالذات فى هذا المضمار بسبب يقظة نقاباتها المالية والحرفية لضمان جودة مصنوعاتا .

كذلك ظهر نظام قيام المواطنين العاديين من صغار المدخرين بإيداع الودائع فى البيوت المالية والشركات التجارية للمشاركة فى هذه المضاربات

التجارية مقابل نصيب نسبي من الربح والخسارة أو من الربح فقط . فكانت هذه بداية نظام الأسهم والسندات . غير أن هذا التمويل بالأسهم والسندات كان في بداياته قبل ظهور البورصة مقصورا على كل عملية تجارية على حدة ، ولم يكن مساهمة في رأس مال البيت المالي أو الشركة التجارية بصفة مطلقة .

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تحرم على المسيحيين الربا ، وهو الاقراض بالفائدة المحددة المضمونة (الفايز) ، ولكنها كانت تبيع التجارة . ولذا تركزت أعمال الصرافة والأعمال المصرفية ، ولا سيما التمويل بالفائدة ، في أيدي اليهود نحو ألف عام طوال العصور الوسطى . وكان سعر الفائدة حتى عام ١٥٠٠ قانونيا ٥٪ سنويا ، وكذلك كان العقار الثابت يدر ٥٪ سنويا . أما الشركات المالية فكانت تدر على صفار المدخرين بين ٦٪ و ١٠٪ سنويا . أما الشركاء في الشركات المالية فكان نصيبهم في الأرباح في الربع الأول من القرن ١٤ (١٣٠٠ - ١٣٢٤) ، يتراوح بين ١٥٪ و ٤٠٪ سنويا . وقد استطاع بيت استروترزي في فلورنسا أن يحقق لشركائه بهذه المضاربات أرباحا تتراوح بين ٣٠٠٪ و ١٠٠٠٪ بين ١٣٣٠ و ١٣٤٠ . وبسبب هذه الأرباح الطائلة توسعت الشركات المالية (البنوك أو البيوت المالية) في جمهورية فلورنسا في الاعتماد على الاكتتاب العام .

واسكرت هذه المكاسب الطائلة كبار البنوك فانسوا الحيلة وأخذوا يقرضون الملوك والأمراء بسعر فائدة مرتفع يصل أحيانا الى (٣٣٣٪) . ومقابل بعض المنافع كالحصول على تراخيص الاستيراد والتصدير وعلى الإعفاءات الجمركية . . وقد أدى هذا الى إفلاس بعض الشركات المالية مثل بيت بيروترزي وغيره عام ١٣٤٣ حين عجز ادوارد الثالث ملك إنجلترا عن سداد ديونه التي اقترضها لتمويل حروبه مع فرنسا ، كما عجز روبير دوق أنجو ، ملك صقلية عن سداد ديونه ، لهذه البيوت المالية ، فانتهى الأمر بإفلاسها . وافلست معها جموع من صفار المدخرين .

وقد حدثت ثورة حقيقية في الفكر الديني المسيحي في الانتقال من العصور الوسطى الى عصر النهضة الأوروبية . . وكانت الثورة على مستويين :

كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلم الناس أن المسال من عرض الدنيا الذي ينبغي على المؤمن الصادق أن يعرض عنه بالزهد والتقشف واحتقار لذات الحياة ومباهجها طلبا للنعيم في الحياة الآخرة .

فأخذ دعاة المذهب الانساني من جهة ودعاة الاصلاح الدينى من جهة أخرى يعلمون الناس أن طلب المال والجمال والمجد والقوة ليس خطيئة ، بل هو عنوان على كرامة الانسان وشرف الانسان . أما دعاة الاصلاح الدينى فقد ذهبوا يجتهدون في تفسير المسيحية ، ليثبتوا خطأ تعاليم الكنيسة الكاثوليكية بتحريم الاقتراض والاقتراض بالفائدة بوصفه قائما على الربا الذى حرمة الانجيل على المسيحيين ، ويدعون العالم المسيحى ليشارك في استثمارات التمويل بالاقتراض والاقتراض ، حتى لا ينفرد يهود العالم بالنظام المصرفى . . فكانت هذه هى البداية الحقيقية لنشأة النظام الرأسمالى داخل اوروبا الاقطاعية .

ومن اراد ان يفهم هذا الوضع على حقيقته فما عليه الا أن يقرأ أو يعيد قراءة مسرحية « تاجر البندقية » (١٥٩٦) لشكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) ومسرحية « يهودى مالطة » (١٥٨٨) لمارلو (١٥٦٤ - ١٥٩٣) .

ففى « تاجر البندقية » ، القى اقتبس شكسبير موضوعها عن رواية قصيرة لكاتب ايطالى اسمه جيوفانى فيورنتينو كتبها في القرن الرابع عشر ولكنها نشرت في ١٥٦٥ ، ترى تاجرا مسيحيا يقترض من مرابى يهودى مبلغا ضخما من المال لتمويل تجارته مع موانى العالم الخارجى ولكن سفنه تفرق في البحر فيفلس ويعجز عن السداد في الموعد المحدد ، وقد كان القرض مشروطا بشرط جزائى جهنمى ، وهو اقتطاع رطل من لحم المدين اذا تخلف عن السداد . فلما احيل الامر لدوق البندقية أمر بتنفيذ العقد بحذافيره ، ولكن محامى المدين انقذ الموقف في اللحظة الأخيرة لانه اشترط أن يقطع اليهودى الدائن من جسد المسيحى المدين رطلا من اللحم دون أن يسفك قطرة واحدة من الدماء ، لأن العقد لم يعطه الحق الا في رطل من اللحم ولم يشر الى حقه في الدماء . وهكذا انقذ الموقف .

ولضمان انتظام هذه الحركة المالية والتجارية النشطة كان لابد من انشاء نظام قانونى مدنى محكم وصارم ومستقر في فلورنسا وغيرها من المدن الايطالية المشتغلة بالتجارة لحماية الحقوق ولتحديد الواجبات بين المولدين والتجار ، ونظام دقيق لتوثيق الملكية وعقود التمويل والتبادل التجارى ، كما نجد في حكاية الممول شيلوك والتاجر أنطونيو في « تاجر البندقية » .

كذلك كان هناك نظام سياسى اقتصادى اجتماعى يرتب توزيع السلطة ومصادرها .

ففى القرن ١٢ كانت هناك ست نقابات حرفية كبرى فى فلورنسا هى :

- ١ — نقابة القضاة والموثقين .
- ٢ — نقابة البنكرات والصيارفة .
- ٣ — نقابة الأطباء والصيادلة والعطارين .
- ٤ — نقابة صناع المنسوجات الصوفية .
- ٥ — نقابة صناع المنسوجات الحريرية .
- ٦ — نقابة الفرائين وصناع الجلود .

وفى القرن ١٣ ظهرت خمس نقابات أخرى للفنون والصناعات :

- ١ — نقابة الجزارين .
- ٢ — نقابة صناع الأحذية .
- ٣ — نقابة الخدم .
- ٤ — نقابة البنائين ونجارى الأبواب .
- ٥ — نقابة تجار الملابس .

ثم ظهرت تسع أو عشر نقابات للمهن الصغرى ، وهى تشمل :

- ١ — نقابة أصحاب الخمرات وتجار النبيذ .
- ٢ — نقابة أصحاب الفنادق .
- ٣ — نقابة تجار الملح والزيت والجبن .
- ٤ — نقابة الدباغين .
- ٥ — نقابة صناع السلاح .
- ٦ — نقابة صناع الأقفال .
- ٧ — نقابة الحوزية .
- ٨ — نقابة نجارى الأثاث .
- ٩ — نقابة الخبازين .

وبهذا بلغ مجموع النقابات ٢١ نقابة .

وكان يحكم فلورنسا نقباء هذه المهن والحرف وقيادات النقابات ، أما الحرف الصغرى فكان لا يمثلها الا رؤساؤها . وكان من حق كل هؤلاء الاشراف على تطبيق القوانين ومراقبة الغش التجارى والصناعى ومراقبة الكيف والأسعار ومقاييس الانتاج . . . الخ . وفرض الغرامات على المخالفين ، بل ومقاضاتهم ومقاضاة أصحاب النشاط غير المشروع كالربا الذى كانت تحرمه الكنيسة . ومنهم كان ينتخب قناصل المدينة أو مستشاروها وقضااتها ، كما كان ينتخب منهم المجلس الحاكم الذى يسمى « السنيورية » . وكان أصحاب البيوت المالية مقيدون عادة فى أكثر من نقابة فوق قيدهم فى نقابة البنكيات والصارفة ، وكانوا بقوة المال هم حكام فلورنسا الحقيقيون .

أما من الناحية السياسية فقد كان تمزق المدينة الى حزبين منذ القرن ١٣ : حزب « البيض » المعروف « بالجيليين » وهو الموالى للألمان ، وحزب السود المعروف « بالجويلف » الموالى للفرنسيين . وكان بابوات روما يعادون أباطرة الجرمان ويطلبون القروض من البيوت المالية فى فلورنسا لمحاربتهم ، كذلك كان شارل دوق أنجو (أخو لويس التاسع ملك فرنسا) يطلب من فلورنسا القروض لكى يمول حروبه لانتزاع نابولى وصقلية من ايدى الأباطرة الجرمان . وفى ١٢٦٦ إنتصر حزب « الجويلف » (السود) . ثم تجددت الحرب الاهلية فى ١٣٠٠ ، فانتصر السود مرة أخرى ، وانتهت بنفى العائلات المصرفية الكبرى الموالية للبيض كأسرة بورتينارى ، وهى أسرة بياتريس صاحبة دانتي ، وسيطرت على فلورنسا البيوت المالية الموالية للسود .

وفى نهاية القرن ١٣ استفاد تجار فلورنسا من افلاس تجار المدن المجاورة ولاسيما البندقية ، وبعد أن استولت شركات السود المالية على فلورنسا نشأت فيما بينها منافسات ضارية أدت الى افلاسها الواحدة بعد الأخرى ، وكان أبرز انهيار هو انهيار أسرة سكالا عام ١٣٢٦ . ودرءا لهذا الخطر لجأت البيوت المالية الكبرى مثل بيت باردى وبيت بيروتزى الى التفاهم بدلاً من التنافس فتكدست فى أيديها الثروات ، وانتفع من هذا صفار المدخرين الذين كانوا يودعون مدخراتهم عند هذه الشركات المالية لاستثمارها فى التجارة الدولية . وقد أفلس بيت بيروتزى وبيت باردى فى ١٣٤٣ لعجز ادوارد الثالث وروبير دوق أنجو عن سداد ديونهما لهما .

وبعد هذه الافلاسات ، كان الطاعون الرهيب الذى حصد ثلثى سكان فلورنسا بين ١٣٤٨ و ١٣٥٠ فانخفض عددهم من ١٢٠.٠٠٠ نسمة الى ٤٠.٠٠٠ نسمة .

ورغم هذه الكوارث عاد النشاط المصرفي الى سابق عهده ، فظهرت بيوت مالية جديدة كان أهمها بيت البرتي وريتشي واستروتزي والبيتزي وسودرين وجواردي ومديتشي . واخذ هؤلاء يدمر بعضهم بعضا بالمنافسة وبلعبة السياسة . وبرز بينها بيت البرتي لأنه أصبح بنك البابا ، وسبب افلاس بيت جواردي في ١٣٧٠ - ١٣٧١ ، كما حاول تدمير بيت ريتشي وبيت البيتزي . ولكن هزيمة آل البرتي سياسيا انتهت بنفيهم من فلورنسا .

كان في فلورنسا عام ١٣٧٠ بين ١٥٠ و ٢٠٠ أسرة من بيوت المال والأعمال يبلغ أفرادها بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ رجل يشتغل فعلا بالتمويل والتجارة على نطاق واسع ، وبعد نحو خمسين سنة أي في ١٤٢٧ كانت في فلورنسا ١٠٠ أسرة تملك ربع ثروة المدينة ، وهو سدس ثروة اقليم توسكانيا كله (وعاصمته فلورنسا) .

كانت أقدم أسر في فلورنسا هي باتزي ودوناتى وباردى . ثم استجذبت أسر مديتشي والبرتي ولاندو في النصف الثاني من القرن ١٤ ، وكذا أسرتا روندينيللى وكابونى . وكان المجلس الحاكم (السنيورية) هو مسرح الصراع على السلطة في فلورنسا . وكان البنكية الجدد يشجعون ثورات الفقراء وصغار الحرفيين لانتزاع حق تكوين النقابات من السنيورية للمشاركة فيها بممثلين ، وبهذا تبلور في فلورنسا حزب جديد يسمى « البوبولانى » ، أي « الشعبى » . ولكن كبار البنكية ورجال الأعمال استطاعوا اول الامر ان يخضعوا هذا التيار الشعبى . وبين ١٣٤٣ و ١٣٦٠ حكم بالاعدام على خمسة من آل مديتشي كما نفى الكثيرون .

ثم نجحت ثورة صغار الحرفيين أول الامر في ١٣٧٨ ، ولكن ممثلى البورجوازية بطشوا بالثورة في ١٣٨٢ ونفوا زعماءها الثلاثة ومنهم سلفسترو مديتشي وأعدموا زعيمها جورجو سكالى .

وكان آل مديتشي أصلا من أبناء البورجوازية المتوسطة ، فقد كانت الحصة المفروضة عليهم في القرض الوطنى لا تتجاوز ٣٠٤ فلورينات في عام ١٣٦٤ بينما كانت الحصة المفروضة على آل استروتزي ، وهم من كبار البنكية ، ٢٠٦٢ فلورين .

أما مؤسس الثروة الحقيقي في أسرة مديتشي فهو جيوفانى مديتشي (١٣٦٠ - ١٤٢٩) الذى اشتهر مثل أبيه اميراردو مديتشي ، المتوفى عام

١٣٦٣ ، باسم « بيتشى » ، وهو اسم يهودى معروف فى فلورنسا ، ربما كناية عن بخله الشديد . وعندما مات فى ١٤٢٩ ترك ثروة قدرها ١٨٠.٠٠٠ فلورين ، بحسب تقدير لورنزو دى مديتشى لقرعة والد جده ، وكانت لمصرفه فروع فى فلورنسا وروما وفينيسيا (البندقية) ونابولى وجايتا . وكان قد بدأ أعماله بمبلغ ١٥٠٠ فلورين هى دوة زوجته .

وقد عثر على ثلاثة دفاتر حسابات لأسرة مديتشى عن الفترة من ١٣٩٧ الى ١٤٥١ ، وبفحصها تبين منها أن جيوفانى مديتشى كانت لديه حسابات تحمل أرقاما سرية ، على طريقة الحسابات السويسرية ، ترمز الى ودائع الكرادلة وكبار رجال الكنيسة وكبار الضباط وكبار الموظفين والأعيان .

وكان هناك حظر على أفراد أسرة مديتشى بشأن تقلد المناصب العامة منذ قلائل القرن الرابع عشر . ولكن جيوفانى « بيتشى » أصبح منذ ١٤٠٢ عضوا فى الهيئة الحاكمة ، فانتخب عضوا فى السنيورية وسائر سياسة كبار الرأسماليين التوسعية التى كانت تعمل على مد تخوم جمهورية فلورنسا وضم ميناء بيزا اليها لى يكون لفلورنسا ثغر تتاجر منه مع العالم الخارجى بدلا من اعتمادها على موانئ ايطاليا المستقلة أو التابعة للغير مثل فينيسيا وجنوا ونابولى . وبهذا أصبحت جمهورية فلورنسا فى مثل قوة فينيسيا وميلان ونابولى ، وأصبحت قادرة على التصدى للخطر الفرنسى ، خطر دوقات أنجو الطامعين فى نابولى ، وخطر دوقات أورليان الطامعين فى ميلان .

هذه كانت بدايات أسرة مديتشى التى سرعان ما أصبحت أغنى أسرة فى أوروبا ، على الأقل من حيث المال السائل ، بفضل مواهب كوسيمو « بيتشى » جد لورنزو دى مديتشى . وحين ولد لورنزو دى مديتشى عام ١٤٥٠ كانت أوروبا كلها ، من لندن الى استانبول ، تتحدث عن ثراء آل مديتشى الخرافى .

وهكذا ورث لورنزو دى مديتشى المال عن أسلافه ، ولكنه أضاف اليه شيئا لا يشترى بالمال خلد اسمه وجعله علما من أعلام عصر النهضة الأوروبية ، ألا وهو رعاية الفنون والآداب والفكر الفلسفى بوجه عام .

إذا كان جيوفانى مديتشى (١٣٦٠ — ١٤٢٩) ، وكنيته بيتشى ، أول من وضع أساس ثروة آل مديتشى وأول من أسس بنك مديتشى عام ١٣٩٧ ، فان ابنه كوسيمو مديتشى (١٣٨٩ — ١٤٦٤) ، وكنيته أيضا بيتشى ، هو البانى الحقيقى لامبراطورية مديتشى المسالية ولهيتها الاجتماعية ولنفوذها السياسى الخطير فى فلورنسا .

وقد ظل بنك مديتشي في عهده ينمو وينمو باطراد بين ١٣٩٧ و ١٤٥٥ حتى بلغ قمة مجده وأوسع مداه ، وكان مركزه الرئيسي في فلورنسا ، وكانت له فروع في ميلان وبيزا والبندقية ونابولي وروما داخل ايطاليا وفروع اوروبية في جنيف وليون وافنيون وبروج ولندن ، وكان له مراسلون منتشرون في حوض البحر المتوسط من اسبانيا الى الشام ، رغم أنه لم تكن له فروع خارج أوروبا . كذلك كان بنك مديتشي يملك مصنعين كبيرين ، أحدهما للمنسوجات الصوفية والآخر للمنسوجات الحريرية .

وبعد ١٤٥٥ بدأ بنك مديتشي يضم درجة درجة في عهد بيرو بن كوسيمو (١٤١٦ — ١٤٦٩) ثم بدأ يواجه متاعب مالية رهيبة في عهد حفيد كوسيمو ، وهو لورنزو دي مديتشي (١٤٥٠ — ١٤٩٢) ، الشهير « بلورنزو الماجد » (« إل ماجنفيكو » وهو لقب كان يطلق على أعيان المدن الايطالية في ذلك الزمان ، كما نقول نحن مثلا « الوجيه » فلان أو « معالى » فلان ، ولكن اللقب لازم لورنزو بالذات حيا وميتا) . ولم يكن لورنزو يهتم بالبنك الا كارها ، بل كان ينظر الى بنك مديتشي على أنه مجرد أداة سياسية لتوطيد سلطانه في فلورنسا وخارج فلورنسا . وبالفعل أخذ البنك يضم بعد ١٤٧٨ .

ولم بين الجد كوسيمو امبراطورية المديتشي المالية فحسب ، بل بنى أيضا سطوتها السياسية داخل فلورنسا . ورغم أنه لم يتقلد سلطة رسمية خاصة فقد كان يسيطر بقوة المال وبشبكة اتصالاته وبمناوراته السياسية على كل صغيرة وكبيرة في جهاز الحكم . وجعل أسرة مديتشي هي الأسرة الاولى وأقوى أسرة في فلورنسا رغم أنها كانت أسرة محدثة النعمة تفتقر الى الحسب والأعراق .

وحتى موت جيوفاني في ١٤٢٩ ، بل وحتى أصبح كوسيمو الشخصية الاولى في فلورنسا ، كان آل مديتشي يحسون بأن شيئاً ما ينقصهم وهو شرف المحتد ، ولذا فقد اهتموا لقرن كامل بتشجيع المؤرخين وكتاب السير والمشتغلين بالأنساب ليبتكروا لهم أنساباً محترمة ، ودأبوا على رعاية الفنانين والأدباء والمفكرين ليذيع صيتهم في الآفاق ، واشتغلوا بالسياسة اشتغالا عنيفا ليعوضوا بالسلطة السياسية عن اهتزاز مركزهم الذي لم يكن يستند أولا لغير المال .

كل هذا بدأه كوسيمو دي مديتشي ، جد لورنزو ، فهو قد بسط رعايته على الفنان المصور العظيم فرا انجيليكو وعلى الفنان المصور العظيم فرا ليبوليبي وعلى الفيلسوف الأفلاطوني مارشيليو فيتشينو وعينه مؤدبا لحفيده لورنزو .

كانت فلورنسا في زمن جيوفاني وكوسيمو جمهورية تحكم مساحة واسعة من شمال اقليم توسكانيا (١١٠٠٠ كيلو متر مربع) ، ولكن هذه الدولة الجمهورية كانت تحكمها اوليجاركية صغيرة العدد من المولدين والتجار بقيادة عائلة البنكر البيتزي التي احتكرت السلطة السياسية في فلورنسا . وقد حاول جيوفاني كسر هذا الاحتكار ، فلم ينجح الا جزئيا ، وأتم عمله كوسيمو مديتشي بمناوراته فنفي آل البيتزي ، وبذلك سيطر آل مديتشي على الحكم في فلورنسا تماما طوال قرن كامل .

كان نظام الحكم يقوم على ركنين :

الديمقراطية المباشرة ، حيث كان كل المواطنين يجتمعون في السوق في هيئة « برلنتو » اي برلمان شعبي . وهيئة الاوليجاركية الحاكمة ، وهي مكونة من البنكية وكبار التجار وتسمى « رجيمنتو » ، متمثلة في مجلس المائة والمجلس الحاكم أو « السنيورية » ، وكان هذا المجلس يتكون من ثمانية اعضاء ينتخبون بالقرعة ويتجدد انتخابهم كل شهرين منعا لاستمرار السلطة في أسرة بعينها ، وكأنها الحكم تقاسم اسلاب أو استعراض وجاهة . فأنشأ كوسيمو مجلس المائة من اعضاء موالين لأسرة مديتشي وجعل هذا المجلس يختار مجلس السنيورية بالانتخاب لا بالقرعة ، وبهذا ضمن استقرار الحكم في أيدي أنصار آل مديتشي ، لأن القرعة تفتح باب التغيير وانتقال السلطة الى الأسر المنافسة ، وقد اتهمه أعداؤه باقامة دكتاتورية في البلاد .

وكانت سياسة آل مديتشي الدائمة تقوم على تدعيم الحلف الايطالي الذي يضم فلورنسا وميلان ونابولي ، وكانوا يعتمدون على جنود ميلان لتحمي فلورنسا من جنود البندقية وفيرارا . فلما سقطت القسطنطينية في يد محمد الثاني في ٢٩ مايو ١٤٥٣ دعا البابا نقولا الخامس فلورنسا وميلان والبندقية وروما ونابولي الى توقيع معاهدة عدم اعتداء في لودي عام ١٤٥٥ مدتها ٢٥ سنة . وكان ذلك في عهد كوسيمو مديتشي .

وقد تسلم كوسيمو بنك مديتشي بعد وفاة أبيه جيوفاني في ١٤٢٩ فجعل فرع روما هو بنك البابا والكرادلة والحجاج من زائري الفاتيكان ، فكان يتلقى ودائعهم كما كان يتلقى الاموال التي يدفعها المؤمنون للبابا مقابل صكوك الغفران والتبرعات التي كان يدفعها بعض المؤمنين لاشغال الحروب الصليبية من جديد ! وكان كوسيمو دائم الحرص على توطيد صلاته بالكنيسة . وقد زاد من هيئته في فلورنسا انه استضاف يوحنا الثالث الباليولوجي امبراطور بيزنطة وجوزيف بطريرك القسطنطينية ويوجين الرابع بابا روما مع مئات من أتباعهم عندما التقوا في فلورنسا لعقد مجمع مسكوني عام ١٤٣٩

للتقريب بين الأرثوذكسية والكاثوليكية استعدادا لمواجهة زحف الأتراك العثمانيين .

وكانت أسرة مديتشى منذ البداية أسرة مثقفة رغم اهتمامها بالمال ، أحسن تعليمها في الأديرة ، فكان أبنائها يعرفون اليونانية واللاتينية ، بل والعربية والعبرية . أما لورنزو دى مديتشى فقد بدأ يتعلم اليونانية في ١٤٦١ وهو في الحادية عشرة من عمره ، ثم تولى تعليمه الفيلسوف فيتشينو داعية الأنطاطونية الحديثة . وكان فيتشينو (١٤٣٣ — ١٤٩٩) يومئذ في الحادية والثلاثين من عمره ، ويعمل في خدمة كوسيمو مديتشى . وقد تأثر لورنزو بتعاليم فيتشينو تأثرا بالغا حتى ظهر ذلك في كتاباته الأدبية من شعر ونثر ، فاتبع تقاليد الحب الأنطاطونى الشائعة في أوروبا منذ الشاعر بترارك وصاحبته لورا ، بل وربما منذ الشاعر دانتي اليجيرى وصاحبته بياتريس . ومن هذه التقاليد الاشتهال بالحب العذرى المثالى الرومانسى نحو ملهمة واحدة تكون محور شعر الشاعر في كل قصائده وطوال حياته ، صدقا أو كذبا ، في الحقيقة أو في الخيال .

وحيث مات الجد كوسيمو عام ١٤٦٤ تجمع أعداء آل مديتشى ليحطموا احتكارهم للسلطة في فلورنسا . وكان سبيلهم الى ذلك هو إلغاء دستور ١٤٣٤ الذى وضعه كوسيمو للسيطرة على الحكم بإلغاء نظام القرعة في اختيار أعضاء السنيورية ، أى المجلس الحاكم . وبالفعل ألغوا دستور ١٤٣٤ في عام ١٤٦٦ ، فأعادوا الدستور الأسمى ، ظنا منهم أن آل مديتشى قد دالت دولتهم بوقاة عميدهم . وكانت الدعوة الى « برلفتو » من جميع المواطنين في ميدان السنيورية بسوق المدينة في ٢ سبتمبر ١٤٦٦ ، ففوجئ زعماء المعارضة بأن وجدوا ٣٠٠٠ جندي كامل السلاح في ميدان السنيورية يتقدمهم لورنزو دى مديتشى في دروعه ممطيا جواده ، وكان لورنزو يومئذ فتى في السادسة عشرة من عمره حين دخل أول امتحان للقوة في فلورنسا وخرج منه منتصرا بإعادة دستور ١٤٣٤ الذى صاغه آل مديتشى ليسيظروا على الجمهورية من خلال مجلس المائة المكون من صنائعهم وأعوانهم .

ولم يحكم بيرو دى مديتشى ، أبو لورنزو (١٤١٦ — ١٤٦٩) غير ثلاث سنوات بعد موت أبيه كوسيمو . لقد انتهت الجمهورية في فلورنسا وحلت محلها « الإمارة » ، لأن لورنزو دى مديتشى ظل سيد فلورنسا ثلاثا وعشرين سنة ، بين ١٤٦٩ — ١٤٩٢ . وعند موت بيرو ترك مديتشى وكميهاات قيمتها ٢٥٧٩ فلورين ، وفازات فنية قيمتها ٨٠٠ فلورين ، وفضيات قيمتها ٦٧٠٢ فلورين ، وتحف نادرة مثل قرن وحيد القرن الذى قدرت قيمته بمبلغ ٣٠٠٠ فلورين .

هذا ما ورثه لورنزو دي مديتشى وقد أضاف إليه شيئا كثيرا .
كذلك ورث لورنزو عددا هائلا من القصور في المدينة وفي الريف ، داخل امارة
فلورنسا وخارجها ، بما في هذه القصور من سجاجيد وطاقوس فاخرة وتحف
للزينة مشغولة بالذهب والفضة ، وفضيات وأثاث قل نظيره في قصور الأمراء ،
واسطبلات عامرة بكرائم الخيل . أما اللوحات الفنية والتماثيل والتحف
الأثرية فهي لا تقدر بثمن . كان هناك قصره في فيا لارجا ، وقصره في كاريجي
وقصره في فيزولا وقصره في كافا جيولو وقصره في تريبيو وقصره في بوجيو ،
وهذا الأخير بناه وفقا لذوقه في المعمار .

كذلك كان ما ورثه لورنزو وما اقتناه من العزب يبلغ عددا مهولا .
ففي كاريجي وحدها كان يملك ٢٧ حقلا ومعصرة عام وفاته . وكان نموذجا
للأمير الذى تخيله مكيافيللى في شخص سيزار بورجيا مع بعض الفوارق
الهامة وهي انه كان يستعمل ذهب المعز أكثر مما كان يستعمل سيفه ،
ومع ذلك فقد كان لا يتردد في البطش بأعدائه كلما استدعى الأمر ذلك .

ورغم اضمحلال بنك مديتشى تدريجيا في أواخر عهد جده كوسيمو ،
كان لورنزو لا يزال من أغنى أغنياء أوروبا . ولم تكن ثروته في بنك مديتشى
وحده ، وإنما كانت ثروته الحقيقية التى ورثها واقتناها تتمثل في مجموعات
لا تقدر بثمن من اللوحات الفنية ومن التحف الأثرية والمخطوطات النادرة
والكتب المخطوطة ، وغير ذلك من أدوات الزينة والترفيه والخيول الكريمة
التي تعمر بها قصور الكبراء .

وفي ١٤٦٥ قدر أبوه بيرو جواهر نساء الأسرة ، من فرع بيرو دي
مديتشى وحده ، بمبلغ ١٢٢٠٥ فلورين ، ومعها خواتم قيمتها ١٩٧٢ فلورين
والآلىء قيمتها ٣٥١٢ فلورين ، وزيت وغابات للصيد وأراضى بسور .
وكانت له عزبة في زمام بيزا . فقد كان لورنزو مهتما بشراء العزب خارج
فلورنسا وفي كل مكان من ريف توسكانيا ليدعم نفوذه السياسى .

ومن أراد أن يكون فكرة تقريبية عن ثروة لورنزو « الشخصية » المنقولة
خارج مصرفه وقصوره وأطيانه ولوحاته وتماثيله وخيوله . . الخ . فيكفى أن
يعرف أن « الفلورين » كان عملة من ذهب عيار ٢٤ قيراطا ، سكنت لأول مرة
في فلورنسا عام ١٢٥٢ وكانت زنتها ٣ جرامات و ٥٣٦٨ من ١٠٠٠٠ من
الجرام . وقد سكنت البندقية على غرارها في ١٢٨٤ « الدوقية » وكانت لها
نفس مواصفات الفلورين في الزنة والعيار . ومن قبل كان هناك الصولدى
الذهبي الرومانى الذى سكه الامبراطور قسطنطين عام ٣١٢ وكانت زنته
٥٥٠ من الجرام من عيار ٢٤ ، وقد استمر إصداره في بيزنطة حتى سقوط

القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وكان يسمى « البيزنطى » ، ولكنه اختفى نهائيا من أوروبا الغربية بعد شرلمان . أما خلفاء بنى أمية فقد سکوا نظيرا للصولدى الرومانى فى دمشق وبغداد سموه « الدينار » وكانت زنته ٢٥ ر٤ من الجرام الذهب الخالص أى عيار ٢٤ . (وقد اختفت العملة الذهبية من غرب أوروبا بعد شرلمان وحلت محلها العملة الفضية المسماة « دنيير » denier وزنته ١٠ ر١ من جرام الفضة الخالصة . والجنيه أو الليرة أى الرطل كان وحدة نقدية تعادل ٢٠ صولدى أو ٢٤٠ دنيير ، على أساس ١٢ دنيير فى كل صولدى . وكلمة « دنيير » مشتقة من كلمة « ديناريوس » اللاتينية بمعنى « دينار » . وقد جرت تخفيضات مستمرة على قيمة الدنيير . وفى توسكانيا فى القرن ١٣ أصبح الجنيه يساوى ٩٢٩٢ جرام من الفضة الخالصة) . وبطبيعة الحال كل هذه الأرقام لا معنى لها الا منسوبة الى القوة الشرائية ، وهى فى تغير دائم .

لم يكن لورنزو دى مديتشى يستخدم بنك مديتشى لتنمية ثروته فقد كان لديه منها الكثير ، وانما كان يستخدمها لتدعيم قوته السياسية فى الداخل والخارج . فمثلا لم يكن لبنك مديتشى فرع فى نابولى منذ اغلاق ذلك الفرع فى ١٤٢٦ ، تأسس لورنزو فى نابولى فرعا فى ١٤٧١ ، لا لأسباب تجارية ، ولكن لتدعيم التحالف بين فلورنسا ونابولى . وكانت مهمة هذا الفرع الاولى اقراض ملك نابولى ونبلائه رغم سوء سمعتهم فى أوروبا كلها بأنهم لا يسددون ديونهم .

وكان بنكيرات فلورنسا جميعا يعرفون منذ افلاس بيت باردى وبيت بيروتزى الحكمة القائلة بأن بداية الخراب المالى هى اقراض الملوك والأمراء ، ومع ذلك فقد اقترض بنك مديتشى ، فرع بروج ، دوق بورجونيا الذى امتنع عن السداد . كذلك اقترض بنك مديتشى ، فرع لندن ، ادوارد الرابع ملك إنجلترا لتمويل حرب الوردتين (بين أسرة يورك وأسرة لانكاستر) ، فلما خلع ادوارد الرابع عن عرشه عام ١٤٧٠ . ضاعت الديون . وبالمثل فان فرع ميلان اقترض دوق ميلان أموالا ضخمة . ولكن دوق ميلان ماطل فى السداد ، قيل ليفرض تحالف فلورنسا — ميلان على لورنزو دى مديتشى . ورغم كل ذلك لم يمنع هذا لورنزو من اعادة تأسيس فرع نابولى ، لأنه كان يرى فى هذه المجازفات المالية استثمارات سياسية محسوبة .

وبالفعل فقد أثرت هذه السياسة . . فحين تأمرت عائلة باتزى على اغتيال لورنزو دى مديتشى وأخيه جوليانو فى كاتدرائية فلورنسا عام ١٤٧٨ ، بالتواطؤ مع البابا سكستوس الرابع الذى طوقت قواته فلورنسا لتنقل

السلطة من آل مديتشي الى آل باتزى بمجرد اتمام الاغتيال ، قتل جوليانو ونجا لورنزو بجرح فى عنقه ، وتحرك انصار لورنزو فأحبطوا المؤامرة بقوة السلاح ، وأعدم عشرات من الأعيان والأساقفة والقواد وأكثر من مائة من أتباع عائلة باتزى وأعتقل الكاردينال رياريو المبعوث البابوى ثم أعيد الى روما .

ولم ينجل الخطر تماما رغم التقاف الشعب حول لورنزو لأن البابا أصدر عليه قرار الحرمان . وكان هناك خطر الغزو الخارجى ، فانضم جيش نابولى الى جيش البابا سكستوس الرابع ، وانضمت جيوش البندقية وميلان وفرارا الى جيش فلورنسا .

وما أن بلغ نبأ محاولة الاغتيال حتى أرسلت ميلان ثلاثة آلاف فارس لنجدة لورنزو . ولم يكن هذا التضامن الصادق الا نتيجة لدأب لورنزو على توطيد صلاته بالأمراء فى الخارج بالتراسل والهدايا والمجاملات فى المناسبات وبتوفير القروض لطلاب القروض . وكان يتراسل مع سلطان تركيا وسلطان مصر .

كان آل مديتشي أشبه شىء بقبيلة صغيرة داخل فلورنسا ، وفى تعداد ١٤٢٧ كانت تضم ٣٢ فرعا أو أسرة مستقلة أى نحو ١٤٠٠ شخص مترابطين ترابطا قويا بالاضافة الى الانسباء والأقرباء والأصدقاء والأتباع وعملاء البنك ، مما جعل آل مديتشي أقوىاء عددا . كذلك كان لورنزو يأسر الناس بخدماته فيوظف المستوظفين ويرفع النفى عن المنفيين ويتوسط لتخفيف عقوبات القانون العام ويحاول أن يتودد الى الكنيسة . وكان لورنزو يدرك قيمة التأييد الجماهيرى ، فكان دائما يدافع عن الطبقات الشعبية وعن الفقراء ببيعهم القمح من مخازنه فى أيام القحط بأقل من سعر السوق . ولذا فقد كان طاغية شعبيا ، طغيانه من نظامه السياسى الذى ركز سلطة الحكم فى يديه وشعبيته من التقاف الجماهير من حوله .

وقد زاد من قوة لورنزو دى مديتشي زواجه من كلاريس أورسينى عام ١٤٦٨ وهو فى سن الثامنة أو التاسعة عشرة . وقد كانت كلاريس سليلة بيت أورسينى الشهير فى دولة البابوية الغنى بالكرادلة والقواد العسكريين وصاحب الصولة فى ايطاليا كلها من البندقية الى نابولى بجيوشه المرتزقة . فكان هذا الزواج السياسى ، بعد انقلاب ١٤٦٦ المجهض ، وسيلة لدعم سيطرة لورنزو دى مديتشي على فلورنسا .

عرف عن لورنزو دى مديتشي أنه كان ، على غير عادة معاصريه وأبناء جنسه ودينه ، متسامحا مع اليهود بما جعلهم يعيشون فى أمان فى فلورنسا .

بل وعرف عنه انه كان حامى اليهود فى ايطاليا كلها . وكان دائما يحتكم الى العقل وضبط النفس ويتوخى الاعتدال الا حيث يتعلق الأمر بأمن الدولة .

وقد ترك لورنزو دى مديتشى بعض الآثار الأدبية شعرا ونثرا ، بالعامية الايطالية ، وهى آثار لها مكانتها المعروفة فى تاريخ الأدب الايطالى والفكر الايطالى . غير أن شهرته الأولى جاءت من أنه كان راعى الفنون والآداب والفكر الحر ودعوة الهيومانزم فى عصر الرنيسانس ومن المؤرخين من يقول إنه ليس هناك اثر فنى واحد من نحت أو تصوير أو عمارة فى عصره الا وكان لورنزو دى مديتشى وراءه .

ونحن حين نتحدث عن فنانى الكواتروتشينو ، أى القرن الرابع عشر فى ايطاليا ، من مصورين ومثالين ومعماريين ، انما نتحدث عن معاصري لورنزو دى مديتشى الذين أحاطهم برعايته المباشرة وغير المباشرة وكان له فضل اكتشافهم وتشجيعهم : نتحدث عن المصور المثل فيروكيو (١٤٣٥ — ١٤٨٨) ، الذى كان اقرب الفنانين الى لورنزو ، والمصور ساندرو بوتيتشيللى (١٤٤٤ — ١٥١٠) ، والمصور المثل بولايولو (١٤٣٢ — ١٤٩٨) ، والمصور المثل المعماري ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) الذى كان يكبر لورنزو بعامين ، وميكلانجلو (١٤٧٥ — ١٥٦٤) الذى جمع بين الفنون التشكيلية الثلاثة ، ويقال ان لورنزو اكتشف موهبته وهو فى حدائته (كان فى سن ١٧ حين مات لورنزو) . ومثل هؤلاء المصور جورجوني (١٤٧٧ — ١٥١٠) ، والمصور فلبينو لىبي (١٤٥٧ — ١٥٠٤) بن فرا فيليبو لىبي (١٤٠٦ — ١٤٦٧) ، وهو مصور أقدر فنا من ولده ، كان يرعاه كوسيمو دى مديتشى مع المصور فرا انجيليكو (١٤٠٠ — ١٤٥٥) . كل هؤلاء كانوا من فلورنسا .

أما رفايل (١٤٨٣ — ١٥٢٠) ، فقد كان من أوربينو وكان معاصرا للورنزو الثانى ، وفرونز (١٥٢٨ — ١٥٨٨) ، كان من فيرونا ، والمصور كرافاجيو (١٥٧٣ — ١٦١٦) ، وهو من كرافاجيو ، والمثل تشللىنى (١٥٠٠ — ١٥٧١) ، كذلك كان المصور أندريا ديل سارتو (١٤٨٦ — ١٥٣٠) ، وهو من فلورنسا ، فقد كان طفلا فى عهد لورنزو دى مديتشى وعاش وأنتج فى عهد لورنزو الثانى .

كذلك قيل ان لورنزو كان أول من خطط شوارع فلورنسا على أساس الخطوط المستقيمة . وقد استخدم فيروكيو وبوتيتشيللى وبولايولو لتصميم الاعلام والدروع والشارات وأقواس النصر، وفى انشاء القبور وتجميل القصور والكنائس ، وهو الذى أوصى بأن يدعى بوتيتشيللى الى روما لتجميل محراب السستين فى الفاتيكان . كذلك أوصى ملك المجر وملك البرتغال وملك نابولى

والبابا اينوتشنتو الثامن والكاردينال كارافا وغيرهم كثيرون بدعوة فناني فلورنسا العظام لتجميل الكنائس والقصور ، ولاسيما بولايولو وفيلبينو ليبي .

نجم عن كل ذلك ازدهار عظيم في كافة الفنون التشكيلية التصوير والنحت والعمارة ، بعد ان مات التصوير والنحت نحو ألف عام طوال العصور الوسطى ، ولم يبق من الفنون التشكيلية الا فن العمارة لبناء الحصون والكاتدرائيات . (الواقع ان احياء فن التصوير بدأ منذ الفنان الايطالى جيوتو ، (١٢٦٦ — ١٣٣٧)) .

شيئان جديداً بعثا الحياة في فن التصوير وفي النحت بعد ألف عام من موتهما في العالم المسيحى .

الشيء الأول هو ان الفنان المسيحى نتيجة لانتشار الهيومانزم وتمجيد الانسان ، ونتيجة لحياء ثقافة الجاهلية اليونانية والرومانية ، بدأ يصور انبياء الكتاب المقدس ومشاهده كما كان اليونانى أو الرومانى يصور آلهته وأعمالها بالخط واللون والحجر ، وقد غزت روح الهيومانزم الكنيسة الكاثوليكية نفسها فقبلت أن يكون الدين موضوعا للفن لتزيين الكاتدرائيات والكنائس والأديرة والقصور بالصور والفريسكات والرسوم الحائطية الفييجوراتيف (أى التجسيدية أو التشخيصية) ، دون تخوف من عودة الوثنية وعبادة الأصنام . . ولا شك أن هذا ما كان ليتم لولا تأثير المستنيرين من دعاة المذهب الانسانى والعلوم الانسانية من أمثال لورنزو دى مديتشى .

أما الشيء الثانى فهو أن فنان عصر النهضة الأوروبية أصبح لا يجد حرجا في أن يستوحى الأساطير الوثنية ذاتها كما كان يستوحى القصص الدينى باعتبار أن الأساطير الوثنية جزءا لا يتجزء من تراثه الثقافى .

خذ مثلا بوتيتشيللى ، كان وسط كل رسومه الدينية وصور أعلام عصره يجد مجدا في أن يرسم لوحة « مولد فينوس » ولوحة « مارس وفينوس » ولوحة « الربيع » ولوحة « بالاس أثينا والقنطور (الانسان الحصان) » . . الخ . . ومثله فيلبينو ليبي ، الى جانب ما ترك من لوحات دينية ، ترك أيضا « القنطور الجريح » و « أبولو وبان » و « تضحية اللاوكون » و « لغز الحب » و « لغز الموسيقى » . . الخ . . وفي فيروكيو نجد « حاملة الباقة » .

وقد ورث لورنزو دى مديتشى عن أبيه مائة كتاب فأضاف اليها ألفا كان من بينها كثير من المخطوطات النادرة . وكان له وكلاء ، مثل لاسكاريس ، يشترون له المخطوطات من شرق أوروبا . وقد جمع له لاسكاريس أكثر من

٢٠٠ مخطوط منها ٨٠ مخطوطا لم تكن معروفة من قبل . وكان لورنزو يكلف الخطاطين المشهورين في البندقية ونابولي وفيرارا وبادوا وروما بنسخ المخطوطات النادرة .

وكان جوتنبرج (١٣٩٤ — ١٤٦٨) قد اخترع المطبعة حديثا في ١٤٤٠ وكان أول ما طبعه هو الكتاب المقدس في ١٤٤٨ ، ولكن أوروبا كانت لا تزال في عصر المخطوطات وبدايات الطباعة أيام لورنزو دي مديتشي .

وقد شارك كوسيمو دي مديتشي جد لورنزو ، في حركة جمع المخطوطات اليونانية واللاتينية لأحياء تراث أوروبا الجاهلي . وكانت في فلورنسا جامعة تسمى « الاستوديوم » أنشئت منذ أيام دانتي اليجيري ، وكانت تعلم فيها اليونانيات . وكان بترارك لا يحسن قراءة هوميروس ، ولكن الاهتمام باليونانيات شاع بين المثقفين حتى صار جزءا لا يتجزأ من ثقافة الصفوة نحو ١٤٠٠ .

وحتى حين دخل كوسيمو دي مديتشي في صراع مع أساتذة الاستوديوم من دعاة المذهب الانساني ونفاهم وأغلق جامعة فلورنسا ، استمر تعليم اليونانية عند المدرسين الخصوصيين طوال القرن الخامس عشر ، واستمر جمع المخطوطات اليونانية ونسخها . وقد استطاع كوسيمو أن يجمع من هذه المخطوطات ٢٠٠ مخطوط أشرف الوراق (السكتبي) فسبازيانو على نسخها في أقل من عامين نحو ١٤٥٠ بمعاونة ٤٥ خطاطا . وبسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٤ في أيدي الأتراك العثمانيين فر علماء بيزنطة الى غرب أوروبا ، ولا سيما ايطاليا حاملين معهم كنوز الثقافة اليونانية القديمة .

بل أن البيزنطيين منذ انعقاد المجمع المسكوني في فلورنسا عام ١٤٣٩ ، جاءوا الى فلورنسا بخلافاتهم الفكرية العميقة ، فكانت منهم شيعتان : شيعة تتبع أرسطو وتضع الله خارج الكون ، وتفترض أن الانسان خلق عاقلا وقادرا على التمييز والاختيار ولذا يمكن حسابه وثوابه وعقابه ، وشيعة تتبع أفلاطون وتضع الله داخل الكون وتفترض أن في العالم المادى أو الطبيعة روحانية تكسر بحضورها الدائم قوانين المادة وتعطلها .

وقد كان زعيم الأفلاطونية معلما يدعى فليثون تجاوز الأفلاطونية الى الأفلاطونية الجديدة ، أى فلسفة أفلوطين ، بل وتجاوز أفلاطون فدعا الى فلسفة الهرامزة ونبيها هرمز « المثلث العظمت » ، كما يسمونه . فاستدعى الى القسطنطينية واتهم بالزندقة ، وبعد موته في ١٤٥١ أحرقت بعض كتبه .

واستأنف دعوة فليثون في فلورنسا المفكر الايطالى مارسيلو فييتشينو (١٤٣٣ — ١٤٩٩) وهو من فلورنسا . وكان فييتشينو ابن طبيب كوسيمو دى مديتشى ، وقد جعله كوسيمو مؤدبا لحفيده لورنزو دى مديتشى منذ صباه . وكان أصلا من شيعة أرسطو ولكنه تحول الى الأفلاطونية وترجم أفلاطون الى الايطالية . وأعاد فييتشينو افتتاح « أكاديمية » أفلاطون في قصر كوسيمو دى مديتشى ، مع آخرين من مفكرى عصره ، وكان يحتفلون كل ٧ نوفمبر بذكرى ميلاد أفلاطون وذكرى وفاته ، تماما كما كان يفعل أفلوطين وبورفير (فرغوريوس) وتلاميذة أفلاطون العظام ، فكانوا يجلسون حول مائدة عليها مصباح . وكان لورنزو الصبى يشارك في هذه الاحتفالات والطقوس . وبتشجيع من كوسيمو أصبحت الأفلاطونية الحديثة هى الفلسفة الرسمية لآل مديتشى . ولا غرابة في ذلك ، فقد اقترن ظهور البورجوازية الأوروبية بالثورة على العقل وبالقلق الوجودى ورفض المنطق الصورى وكل فلسفة تنادى باستقرار قوانين الوجود واستقرار العلاقات بين البشر على غرار ما كانت تفعل الارستقراطية .

ولما بلغ لورنزو دى مديتشى مبلغ الشباب ، أصدر قرارا في ٢٢ ديسمبر ١٤٧٢ بنقل جامعة فلورنسا القديمة (الاستوديوم) الى بيزا ، ثانى مدن إقليم توسكانيا ، وعين نفسه أحد خمسة أعضاء في مجلس الجامعة لتصرف شئونها ، كل ذلك مع اتصال رعايته لأكاديمية فلورنسا التى كان يرأسها فييتشينو . وقد أنفق لورنزو على الجامعة وعلى الأكاديمية الكثير من ماله الخاص .

أما أعمال لورنزو دى مديتشى فهى بالايطالية ، فهو لم يكتب شيئا باللاتينية ، وهى ديوان « أمبرا » ، وديوان « غابات الحب » ، وديوان « أغاني الرعاة » . وقد استوحى في هذه الدواوين أساطير اليونان والرومان ، وأشعار أوفيد وستاتيوس . وله أيضا ديوان « المجادلات » (١٤٧٣) ، الذى يسمى أحيانا ديوان « الملك الصالح » .

وديوان « المجادلات : أو الملك الصالح » قصيدة مطولة من ستة أقسام ، حيث يسمى الشاعر نفسه « لورو » أى صاحب الغار ، ونجده يفر من مضايقات المدينة ويعتزل في الريف ، حيث يلتقى بالراعى الفيو . وفي الحوار نسمع حديثا عن مباهاج المدينة ومساوئها ، وعن مباهاج الريف ومساوئها ، دون أن نخرج بنتيجة محددة . وفي القسم الثانى الى الخامس من هذه القصيدة نجد الفيلسوف فييتشينو ينضم الى الشاعر والراعى ، ويشترك الثلاثة في حوار فلسفى حول معنى السعادة الحقيقية في الحياة .

وفي هذا الحوار نسمع فيتشينو يقول ان السعادة المادية زائلة ، لأن القوة والصحة والجمال كلها اشياء زائلة . أما السعادة الروحية فهي نوعان : سعادة مستمدة من الحواس ، وهذه زائلة . وسعادة مستمدة من العقل ، وهذه دائمة . والسعادة العقلية نوعان : فطرى ومكتسب . والفطرى أرقى من المكتسب . والفضائل المكتسبة نوعان : عملى وتأملى ، والتأملى أرقى من العملى . الفضائل التأملية هي التى تؤدى الى السعادة الحقيقية ولبلوغها يجب فصل الروح عن المادة ، والسعادة الحقيقية هي فى تأمل الله ، وهذا التأمل يحتاج الى الارادة والى الحب . فالموازنة بين الريف والمدينة عبث فى عبث ، لأن سلام النفس يأتى من السمو الذاتى سواء اكنا فى الريف أو فى المدينة . وقد كان هذا الديوان مجرد أصداء لرسالة كتبها فيتشينو « فى السعادة » ، ولكن بلغة غنائية تعطيه طعما خاصا وقيمة خاصة .

كذلك اكتشفت حديثا (فى ١٨٦٤) فى أرشيف دولة فلورنسا مخطوط روايتين قصيرتين يظن أن لورنزو دى مديتشى كتبهما عام ١٤٧٠ ، وهما رواية « يعقوب » ورواية « جينرفا » . والروايتان من نوع « ديكاميون » بوكاشيو .

وموضوع « يعقوب » هو أن شابا من فلورنسا اسمه فرانشيسكو كان يدرس فى سينا عشق فتاة اسمها كاساندرا (٢٥ سنة) متزوجة من تاجر مسن ثرى عمره ٨٠ سنة . وابتكر فرانشيسكو حيلة تجعله يعاشر كاساندرا بموافقة زوجها ، فاتفق مع غانية أن تعيش معه على أنها زوجته ثم تغوى الغانية التاجر العجوز ، وبعد ذلك تتظاهر بالندم وبرغبتها فى التكفير ، وتقنع الغانية العجوز بنفس الشيء ، ويعترفان أمام قس فرانسيسكانى متواطؤ فيدل القس الناجر على طريق التكفير ، وهو أن يسمح التاجر للشاب فرانشيسكو أن يضاجع زوجته ، وهكذا ينتقل الشاب الى منزل التاجر العجوز ليقيم معه ! .

أما رواية « جينرفا » فيسيطر عليها أسلوب بترارك فى الحب العذرى: جينرفا فتاة عمرها ١٥ سنة تعيش فى قصر أبيها فى بيزا ، واسم أبيها جريفى . ويعشقها شاب اسمه لويجى من أسرة لانفرانكى العريقة ويدخل لويجى بيت الفتاة عن طريق صديق له اسمه مافيو جريمالدى . ويتوقف المخطوط بعد أن يقتحم الشاب غرفة محبوبته الجميلة ، وهنا تبدأ التهديدات والعبرات الساخنة وعهود الحب الملتهب بالأسلوب الشاعرى الذى استقر فى أدب فلورنسا منذ دانتي فى ديوان « الحياة الجديدة » وبترارك

فى « الأغانى » ، وهو « الأسلوب الحسلو الجدىء » كما كانوا يسمونه فى انئقال التعبير الأءبى من اللالئىة الى عامئها الاىطالية .

وربما كان أءب لورنزو ءى مءىئشى أءبا من الءرءئىن الالئىة أو الالئة؁ ولكن الءى لا شك فىه أن لورنزو كان حلقة هامة فى الالرخ حركة الرئىسانس بفصل رعاىئه للفنون والآءاب فى عصوره ولتراث اللىونان والرومان القءماء وكافة ما يسمى العلوم والءراساا الانسانىة ، وكذلك بفصل رعاىئه لجامعة بىزا وءماىئه لحرىة الفكر ، فهو الءى فئح قصره للمفكر بىكو ءىلا مىراندولا وءماه من غضب البابا ، كما فئح قصره للمفكر فىئئشىنو ومرىءىه من مءءءى مءرسة الانلاطونىة الءىئة فى عصر النهضة الأوروبىة .

لقد كان لورنزو ءى مءىئشى رغم كل ءعاواه بزوال المساءة وبءءاع الءواس عاشقا للحىاة وللءمال ولءء الانسان .



سافونارولا

SAVONAROLA

١٤٥٢ - ١٤٩٨



الشيوقراطى الأول

□ اقترن عصر النهضة الأوروبية بحركة متميزة فيه تعرف بحركة الإصلاح الدينى . وكانت حركة الإصلاح الدينى حركة احتجاج على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وممارسات باباواتها وكرادلها ورجالها من جهة وحركة احتجاج على الدعوة الانسانية أو المذهب الانسانى (الهيومانزم) من جهة أخرى .

وكان أول من بدأ حركة الإصلاح الدينى فى ايطاليا راهب اسمه سافونارولا من مدينة فيرارا ، وكان من نقائص الأمور أن هذا الراهب الذى كان يبشر « نظريا » بنفس التعاليم التى تبشر بها الكنيسة الكاثوليكية كان أكبر مندد بفساد هذه المؤسسة الدينية فى زمانه وباقبالها على الدنيا بدلا من تجردها لعبادة الله وتفرغها للعمل الصالح . بل ولقد اتهم سافونارولا الكنيسة الكاثوليكية بالجاهلية والوثنية لاهتمامها بالطقوس والشعائر أكثر من اهتمامها بالروحانيات ، ولاهتمامها بعلوم القدماء وآدابهم وفنونهم أكثر من اهتمامها بالانجيل .

وبمثل هذه الضراوة هاجم سافونارولا العلوم والآداب والفنون الدنيوية ، وهاجم الفلاسفة والشعراء والناثرين القدماء منهم والمحدثين ، من أفلاطون وأرسطو الى شبشرون وفرجيل وهوراس الى بترارك وبوكاشيو . . هاجم كل هؤلاء لأنهم يلهون الناس عن ذكر الله . وبمثل هذه الضراوة هاجم سافونارولا رجال الدولة وأعيانها ومن يجمعون كنوز الدنيا واتهمهم بالطغيان والفساد وبتزيين الترف والرذيلة للرعية .

ومن فيرارا نزل سافونارولا على فلورنسا . نزل عليها كالاعصار فى أواخر عهد لورنزو دى مديتشى . وما أن مات لورنزو حتى حكم سافونارولا

فلورنسا ، حكمها ملكا غير متوج ، حكمها من منابر السكنايس ، حكمها من صومعته في دير سان مارك ، حكمها سبع سنوات من ١٤٩٢ الى ١٤٩٨ ، حين تكاثر عليه اعداؤه فصدر عليه قرار الحرمان وحاكموه ، وحكموا باعدامه شنقا وحرقا .

ولد جيروم سافونارولا في ٢١ سبتمبر ١٤٥٢ ، فهو بذلك كان يصغر لورنزو دي مديتشى (١٤٤٩ — ١٤٩٢) بسنتين أو بثلاث سنوات ، ونشأ وتعلم في موطنه فيرارا . وكان جده ميشيل سافونارولا طبيبا نابها وعالما معروفا يعمل استاذا بجامعة فيرارا ، وكان الطبيب الخاص لدوق إستا ومؤدب ولى عهد فيرارا . أما أبوه نيكولو سافونارولا فقد كان رجلا حامل الذكر له ثلاثة اولاد ، اشتغل أكبرهم بالجندية ، وكان أوسطهم حاملا كأبيه ، أما أصغرهم وهو جيروم فقد ظهرت عليه علامات النجابة فكفله جده الطبيب حتى سن السادسة عشرة .

وكان الجد يريد لحفيده أن يكون طبيبا مثله ، ولكن الفتى جيروم كان محبا للعزلة مقبلا على الأدب الدينى ، شديد التقوى ، وقد أخذ تقواه عن جده ولكنه بالغ فيها . فبدأ عليه الضيق من اقبال شباب جيله الطائش على الترف والملذات .

وذات يوم اختفى الشاب جيروم سافونارولا من فيرارا في ٢٦ أبريل ١٤٧٥ ، وكان عمره يومئذ اثنتين وعشرين سنة ، ودخل دير سان دومنيك في مدينة بولونيا ، بعد أن ترك لوالده خطابا يفسر فيه تصرفه بأنه فرار من « شقاء العالم ومن فساد البشر » ، كما أرسل لوالده كتابا كان قد ألفه بعنوان « احتقار الدنيا » . قال سافونارولا في رسالة الوداع التى تركها لأبيه أن عصره قد هبط الى الحضيض بحيث لم يجد فيه شيخصا واحدا قادرا على فعل الخير . لقد كان يصغى كالمسحور لكلام جده التقى وهو ينمى على شباب العصر خفته وطيشه ، فالشباب يبادرون الى اغاني الفرام بدلا من أن يقصدوا الى الكنيسة ليرتلوا المزامير فى صلاة المغرب . لقد تركت تقوى الجد أثرا عميقا فى نفس الحفيد ، فلم يعد يرى عاصما من شرور الدنيا الا الارتواء فى أحضان الدين .

وقبل أن يدخل سافونارولا الدير توفى جده ، فانتقل الاشراف على تعليمه الى أبيه وأدخله أبوه الجامعة وهو فى الثامنة عشرة من عمره . وثار سافونارولا على أساتذته لكثرة ما رآه من منافسات وشحان ، وللطاعة العمياء التى كانوا يفرضونها على تلاميذهم ليرددوا آراءهم ، ولأنهم كانوا

لا يتقنون الا البلاغة الجوفاء واساليب الجدل الأجوف . فقطع سافونارولا
دراسته الجامعية وعاد الى دار أبيه في فيرارا .

وكانت أسرة سافونارولا اسرة معلقة بين الارستقراطية والبورجوازية .
فقد كان جده مؤدب ولى عهد دوقية استا . وكان سافونارولا الشاب
يخالط أقرانه من الشباب الماجن في بلاط كورسو دوق استا ، ولكنه لم
يكن يجد متعة في لهوهم وسهرهم ومجونهم . وقد زاد من عقده انه لم يكن
وسيمًا ولا نبيلًا بالمولد ولا مثقفًا واسع الثقافة . فانسحب من البلاط كما
انسحب من قبل من الأكاديمية أو من الجامعة .

وزاد الأمر تعقيدا أنه ذات يوم سكنت بجوار دار سافونارولا في فيرارا
أسرة البنكير الشهير أستروتزى التى جاءت منفية من فلورنسا في عهد
لورنزو دى مديتشى . وكانت لأستروتزى بنت شابة غير شرعية تقيم معه ،
نفاذة العطر فائقة الثياب ، ويبدو أنها استطاعت أن توقع سافونارولا
الشاب في حبائلها ، فقد كانت نافذتها قبالة نافذته في حارة ضيقة من تلك
الحارات التى اشتهرت بها المدن في العصور الوسطى . ويقيم سافونارولا
بحبها . وذات يوم عرض عليها الزواج من النافذة ، فأشاحت بوجهها في
اعراض واستكبار ، وغضب سافونارولا غضبا أعمى وصاح فيها :
« يا ابنة الزنا » ! ثم أغلق نافذته بحدة شديدة .

ثم تدهورت أحوال الأسرة المادية ، فأخذ أبوه يشكو من الضائقة
المالية . وكانت له أختان لا تملكان بئنة (دوطة) للزواج . أما أمه فكانت
تحتفظ بكبرياء المال الذى كان ولم يعد . وبعد عام كامل من المداولات
النفسية اتخذ جيروم سافونارولا ذلك القرار الذى كان يعلم أنه لا رجعة
فيه : قرار دخول الدير .

ومع ذلك فمنذ ذلك الخطاب الأول الذى تركه سافونارولا لوالده
معتذرا عن اختفائه الفجائى ومفسرا قراره بدخول الدير ، نلاحظ بعض
العبارات غير المألوفة التى توحى بأننا بازاء شخصية غير مألوفة .

فهو في مكان ما من الخطاب يقول لوالده : « من أجل هذا أناشدك
يا أبى العزيز أن تضع حدا لأحزائك والا تسبب لى مزيدا من الأحزان
والأشجان فوق ما أعانى منه الآن . وليس ذلك لندمى على ما فعلت ، فأنا
لن أغير مما فعلت شيئا ، ولو اعتقدت أنى سأكون أعظم من قيصر ، ولكن
لأنى مثلك مخلوق من لحم ودم » . والفكرة هنا غريبة ، أن يتصور سافونارولا
الشاب في هذا السياق أنه كان يمكن أن يتجاوز قيصر في عظمتة لو أنه

عدل عن تخصيص حياته لخدمة الله . ومن يعرف شيئا عن المسيحية يعرف أن المقابلة تجرى دائما بين ملك قيصر في الأرضين وملك الله في الأعلى . هناك إذن ما يوحى بأن هذا الفتى الغريب الأطوار إنما كان منذ البداية يحلم بامبراطورية في الأرض أو في السماء ، بل هناك ما يوحى بأن حلمه بامبراطوريته الروحانية ليس الا بديلا عن حلمه بامبراطوريته المادية ، وهذه درجة متقدمة من الاحساس بالعظمة الذي يسميه علماء النفس « الميجالومانيا » أو جنون العظمة ، وهو ملازم لأكثر العباقرة وقادة البشر مهما استخفى نحت أقتعة التواضع والزهد في الحياة ومجدها .

وفي هذا الخطاب نفسه يقول الفتى سافونارولا :

« أهدنى يا الله الى الطريق الذى ينبغى على أن أسلكه حتى استطيع أن ارتفع بروحى اليك » .

« عندئذ هدانى الله وقت أن أذنت مشيئته الى الطريق برحمته اللانهائية ، وتلقيت الوحي رغم أنى لم أكن أهلا له » .

ما هذا الكلام ؟ أهو حقيقة أم مجاز ؟ ثم كيف يتاح لبشر — داخل الاطار الدينى التقليدى الذى كان يتحرك فيه سافونارولا — أن يرتفع بروحه الى مقام عرش الله الا أن تكون به درجة من درجات التأله ؟ ثم ما هذا الحديث عن وحي يوحى لجرد دخول رجل صومعة الدير ؟ أم ترى سافونارولا يتوهم نفسه نبيا جديدا ؟ لو أنه شاعر أو صوفى لقبلنا منه كل هذه الرموز . ثم ما هذه الفكرة الملحة في هذا الخطاب ، فكرة الاستشهاد في سبيل المسيح . « ان المسيح قد تنازل واختاره ليجعل منه أحد فرسانه المجاهدين » . و « هو يؤثر أن يموت ألف مرة قبل أن يخله » و « هو سيقدم جسده قربانا للمسيح » وهكذا .

ويعلن سافونارولا لأبيه « أولا : ان الدافع الذى يدفعه للاعتصام بالدين هو : الشقاء العظيم في الدنيا وظلم الناس للناس والشهوانية وجرائم الزنا واللصوصية والكبرياء والوثنية والتجديف الفظيع من كل ما لوث العصر وجعل من المحال أن نجد فيه رجلا قادرا على فعل الخير » و « لذا فأنا كثيرا ما أردد كل يوم وسط عبراتى بيت فرجيل القائل : اهرب من الدنيا الخ . . ومن أجل هذا لم أعد أحتمل عدوان شعوب ايطاليا العمياء القلوب ، ولا سيما حين أبصرت كل الفضائل تداس وكل الرذائل تعظم » .

وهكذا دخل جيروم سافونارولا دير سان دومنيك في بولونيا بايطاليا وأصبح واحدا من الرهبان الدومنيكان بعد سنتين من دخوله (١٤٧٧) . وهناك عرف عنه أنه كان يعتمد اذلال نفسه لسحق كل مظهر من مظاهر الكبرياء ، فكان يختار من الواجبات أقساها على النفس مثل خدمة الرهبان على المائدة وغسل الصحون والكنس وتنظيف المراحيض وغسل أقدام الرهبان المسنين . وكان سلك الرهبان الدومنيكان معروفا في أوروبا كلها بأنهم من أوسع فرق الرهبان علما ومعرفة بالعلوم الفلسفية كالميتافيزيقيا والمنطق واللاهوت وأصول الدين ، بل ومن أوسعهم علما بالعلوم الطبيعية . فكان يقول : أنا لم أدخل الدير لكي استبدل بأرسطو الصومعة أرسطو الجامعة .

ولأنه كان متعلما فقد كانت له صومعته الخاصة به ، ومع ذلك فقد كان لا يقرأ الا الكتاب المقدس وسير القديسين وكان يستنكر في أخوانه الرهبان اقبالهم على دراسة علوم الدنيا أو تبحرهم في الفلسفة . وصدمة أن وجد رؤساءه في الدير لا هم لهم الا توسيع سلطات الدير وزيادة ثروته والارتقاء بالعلم فتيه ، وكان دائم المقارنة بين حالهم هذا وحال حوارى المسيح البسطاء وآباء الكنيسة الأولين .

لقد كان يعد نفسه ليكون واعظا يهذى الناس من المنبر الى طريق الله والفضيلة والحياة الأخرى . ولذا فمن أكبر الخطأ أن نتصور أن سافونارولا كان رائدا من رواد حركة الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية ، فقد كان على العكس من ذلك قمة العصور الوسطى الأوروبية بما كانت تمثله من انصراف كامل عن الحياة الدنيا واعداد كامل للحياة الآخرة وسحق كامل للانسان ومجد الانسان . وإذا كان سافونارولا قد دخل في تناقض ثم في صراع مع بابا روما والكنيسة الكاثوليكية ، فما ذلك الا لما رآه من انحراف الكنيسة عن طريقها القويم ومن تنكر الكنيسة لمبادئها الأساسية ، وما ثورته الا ثورة الأصولية الدينية على « المؤسسة » الدينية أو ثورة السلفية الفتية على السلفية الهرمة .

وبعد ست سنوات من الحياة في الدير بين بولونيا وفيرارا بدأ سافونارولا حياة الواعظ . وكانت بداياته فاشلة ، فقد كان صوته ضعيفا وعباراته متلعثمة من فرط الخجل ، ولكنه في النهاية سيطر على فن الخطابة بعد تجارب مريرة . وقد كان أمامه طريقان : أن يعتمد الى فن الممثل ليسيطر على جمهوره ، وأن يختار من الموضوعات لمواعظه ما يجعله يلتهب روحا وجسدا كما كان يفعل الأنبياء الوعاظ كلما تحدثوا عن يوم القيامة ، فاختار هذا الطريق الأخير . فكان دائم النظر في « سفر الرؤيا » وفي أسفار العهد القديم التي تنذر بالغضب الالهى .

كان في التاسعة والعشرين من عمره حين أغلق دير الدومنيكان في
ميرارا بسبب تعرض المدينة للغزو ، فنقل من فيه من الرهبان الى أديرة
شتى . وكان من نصيب سافونارولا أن ينقل الى دير سان مارك في
فلورنسا عام ١٤٨١ .

وكان وعاظ فلورنسا أساتذة مثقفين في علم البلاغة ، وكان زعيمهم
راهبا يدعى الفرير (الأخ) ماريانو طبقت شهرته الآفاق ، يأسر الباب
الناس بالبلاغة والمنطق وكان سافونارولا ظاهر العجز أمامه لأنه كان
لا يتقن الا لغة البساطة والصدق فأكب على سفر « الرؤيا » يدرسه
ويتمثله ويقلب معانيه . وما أدراك ما سفر « الرؤيا » فهو ذلك السفر
الذى ينذر البشر باقتراب علامات الساعة بسبب كثرة ذنوبهم وأوزارهم ،
ويتوعد الخطاة بنهاية العالم بالكوارث الكونية الرمزية ويفتح أمامهم
هاوية الجحيم بعد أن يرفع الله الأبرار الى الملكوت مع المسيح القادم
في آخر الزمان كما جاء في العقيدة المسيحية .

ووجد سافونارولا في هذا الموضوع المثير حلا لجميع مشاكله .
وهكذا بدأ في فلورنسا تلك السلسلة العاصفة من المواعظ التي خبا أمام
وهجها ضياء الفرير (الأخ) ماريانو ، وانتهت به الى أن أصبح ملكا غير
متوج على فلورنسا يكاد يعبد الكثيرون من دون الله ، يقيم من الحكام
من يشاء ويسن من الشرائع ما يشاء ويحكم فلورنسا بقوانين حديدية
استمدتها من الكتاب المقدس أو استوحاها من روحه بوصفها قوانين
الهيبة . فكان سافونارولا أول مؤسس للثيوقراطية في العالم المسيحي ،
ومعناها الحرفي « حكومة الله » ، حتى دالت دولته بعد ست سنوات
وأعدم وأحرقت جثته مع راهبين من أتباعه المخلصين في ١٤٩٨ .

نعم هذا ما دعا له سافونارولا : لقد فسد العصر وسبب فسادة هو
فساد الكنيسة التي نخر السوس في عظامها فلم يعد يرجى لها علاج .
فما الذي كان يجذب الناس الى الكنيسة ؟ الطقوس والبلاغة والموسيقى
والمناظر الشبيهة بمناظر التياترو . ولماذا يهتم الناس بالدين ؟ من أجل
المنافع والرخاء والنفوذ السياسية — لقد مات الايمان وقاتله هو الكنيسة
نفسها . وكيف كان ذلك ؟ لأن مادية العصر سممت كل شيء فيها . من
الجذور حتى أطراف فروعها .

كانت الفضائح في روما مركز البابوية تزكم الأنوف . الأصل في العقيدة
الكاثوليكية أن رجال الدين لا يتزوجون ، وأن الرهبان ومنهم الكرادلة
والبابوات ، ينفرون لله ثلاثة نذور يوم يدخلون باب الدير : نذر العفة

ونذر الفقر ونذر الطاعة . وها نحن نرى البابا اسكندر السادس (١٤٣١ — ١٥٠٣) جهارا نهارا له ثلاثة اولاد غير شرعيين هم : سيزار بورجيا دوق أوربينو (١٤٧٥ — ١٥٠٧) ولوكريس بورجيا (١٤٨٠ — ١٥١٩) ودوق كانديا ، وها نحن نرى البابوات يبيعون صكوك الغفران ، وها نحن نرى البابوات يرهبون مخالفيتهم بقرارات الحرمان ، وها نحن نرى رجال الدين من رأس الكنيسة الى أصغر كاهن يكنزون المال ويقتنون الضياع .

لقد ساءت سمعة الكنيسة في عصر سافونارولا حتى غدا الناس يتندرون بقولهم عن قسيس « إن سمعنه الطيبة تتنافى مع انتسابه للكنيسة » . وكان اسم رجال الدين مرادفا للطفيلية والكسل . وكانت العامة تقلد صوت أجراس الأديرة قائلة « داندو ! داندو ! » ، أى هات ! هات !



وبدا سافونارولا يرى الرؤى في نوبات من البخران وفي المنام . وذات يوم خيل اليه أنه يرى السماء تنشق فوقه وتوهم أنه سمع صوتا يأمره بأن يعلن في الناس أن الله سوف يرسل ضرباته على العالم ليقتص من فساد الكنيسة . وروى هذه الرؤيا على تلميذ من تلاميذه في الدير يدعى الفرير سلفستر ماروفي كان هو نفسه مصابا بمرض السير في النوم ، فارتاع لهذه الرؤيا وحذره من مغبتها . ولكن تجاوبا قويا حدث بين هذين الرجلين المصابين بمرض الهلوسة أو انكشاف الحجاب .

وقبل أن يعود سافونارولا الى الاستقرار في فلورنسا نجده يجوب أرجاء لومبارديا سنوات واعظ أرياف لأنه لم يكن بعد مهيا لفلورنسا المثقفة العقل والقلب أو لم تكن فلورنسا بعد مهية للقاء هذا المتنبي النذير بعظائم الأمور .

في ١٤٨٢ أوفده دير سان مارك الى ما يشبه مؤتمر الدومنيكان في ريجيا اميليا حيث استلقت سافونارولا الأنظار بكلامه العنيف عن فساد الكنيسة . وكان الفيلسوف الشاب الكونت بيكو ديلا ميراندولا ، صديق لورنزو دي مديتشى ، عاقل فلورنسا حاضرا هذا الاجتماع فلاحظ شدة الحماسة وقوة اليقين التي كان يتحدث بهما سافونارولا . وقد كان هذا اللقاء هو بداية سيرة سافونارولا في فلورنسا بعد طوافه سنوات في لومبارديا ، لأن بيكو ديلا ميراندولا توسط عند لورنزو دي مديتشى لدعوة سافونارولا الى دير سان مارك من جديد بسبب شدة افتتانه به .

سبع سنوات قضاها سافونارولا يجوب قرى توسكانيا لومبارديا واعظا ومنهددا بفساد الكنيسة ، وكأنه زعيم من زعماء التكفير والهجرة . في ١٤٨٤ و ١٤٨٥ نراه في سان جيمينيانو يتنبأ بأن الغضب الالهي سوف يحقق بالكنيسة وثيكا ويأن الكنيسة سوف تتجدد وتعود اليها نضارتها . وفي ١٤٨٦ نجده في بريشيا يتنبأ بتدمير هذه المدينة ونزول القصاص الالهي على ايطاليا كلها ، فلما احتل الفرنسيون بريشيا وخربوها تذكر الناس نبوءة سافونارولا .

ووصل سافونارولا من لومبارديا الى دير سان مارك في فلورنسا بدعوة من عاهل فلورنسا لورنزو دي مديتشي ، بناء على تركيبة من بيكو ديللا ميراندولا . . وصل الدير سيرا على الاقدام مئات الالمال وفي حالة اعياء تام بسبب كثرة الصوم واجهاد الطريق . ومرض بضربة الشمس فقادوه الى خان في الطريق واسعفوه حتى استطاع أن يواصل سفره الى فلورنسا .

وفي دير سان مارك وجد كل شيء على حاله ، ووجد الأخ (الفير) سيفلستر الذي كان يشاركه رؤاه وتنبؤاته . وبدأ موعظته الاولى بعد غيبته الطويلة ، فكان موضوعها : ضياع الايمان وظلم العالم وفساد الكنيسة . وكان سافونارولا في فترة غيبته قد اكتسب شهرة واسعة ، فتجهر الناس ليسمعوه حتى ملأوا كنيسة سان مارك وملأوا معها حديقة الدير . واخذ آية من سفر الرؤيا وبنى عليها موعظته : أن القصاص سينزل بالكنيسة ، وأن الكنيسة سوف ترد اليها روحها ويتجدد شبابها ، وأن كان ذلك سوف يتم في أجل وثيك .

وتدفق سافونارولا في الارتجال مشتعلا عنيها هائجا متوعدا كأنما استولت عليه روح شيطانية . لم يعد ذلك الراهب الشاب الخجول المتلعثم الذي سبق أن سمعه أهل فلورنسا قبل ذلك بسنوات في كنيسة سان مارك وانفضوا من حوله مللا . لقد تحول سافونارولا الى مبشر جماهيري اشبه شيء بخطباء الرعاع الذين يسيطرون باللا عقل على العامة والبسطاء بقوة مغناطيسية لا تقاوم : يزفرون لها منتقد القلوب في الصدور ويندبون مصير البشرية الاليم فتنهمر من العيون العبرات ويذكرون الناس بيوم الحشر فتتخلع الأفئدة هلعا . وبنفس هذه الدورة المغناطيسية دخل هو أيضا نفس المجال ، فسيطرت عليه الجماهير كما سيطر هو على الجماهير .

وكانت هذه بداية مجده الحقيقي .

وكان ذلك في أول أغسطس ١٤٨٩ .



تكفير المجتمع

□ كان لورنزو دي مديتشي ، عاهل فلورنسا ، لا يزال حيا حين عاد سافونارولا الى دير سان مارك بفلورنسا وبدأ « جهاده » المسيحى ، « بطريقة الرسل أو حوارى المسيح ، وبلا تنميق ، وبلا ايفيهات مسرحية ، وبلا طرح للقضايا » ، ومع ذلك فقد كان يكهرب جمهوره بعاطفته الجياشة الصادقة وبتنبؤاته .

وضاقت كنيسة سان مارك ومعها الدير عن استيعاب جمهوره فكان يعظ أهل فلورنسا فى « الدوم » أى « القبة » فيخاطب جمهورا من عشرة آلاف شخص ، ومهما كان فى هذا التقدير من المغالاة فهو يعطينا فكرة عامة عما كان يجرى فى فلورنسا فى تلك الايام . . فقد كان الناس يتجمعون منذ الفجر ليحظوا بمكان قريب من المنبر ، أما العقلاء فقد كانوا يرون فيه مجرد دجال وخطيب رعاع وشحاذ للعواطف . وهذا نموذج من موعظة له فى اسبوع الآلام :

« ابك يا قلبى ، ابك يا روحى ، واذرفى يا عينى دموعا من دموع الروح والقلب — ابكوا معى كبارا وصغارا ، نساء ورجالا ، خطاة وصالحين ، اغنياء وفقراء ، كهنة ومدنيين ، ابكوا جميعا على هذا الموت الفاجع ، انتحى أيتها النجوم ، وأنتى أيتها الأرض انتحى ، ولتنتحب كل عناصر الطبيعة وكل مخلوقات العالم لموت نادينا ومخلصنا المسيح » .

ومثل هذا كثير ، حتى سماه أعداؤه « البكاء » . وكان مكيافيللى الشاب (١٤٦٩ — ١٥٢٧) يستمع اليه فى استخفاف ويسميه «قربة من الكلام» . ومع ذلك فقد كان كلما خطب يجعل الناس يتحسرون وينشجون ندما على ذنوبهم وخطاياهم ويرتعدون خوفا من مواجهة ربهم يوم القيامة . وكان كلما صعد المنبر يتقمصه روح هائج يسميه « روح الله » يحل عقدة لسانه ويجعله يصب حمم الغضب الالهى على آثام البشر . فان نضب ما لديه من حمم عمد

الى التنبؤ وأحاديث الرؤى ليسيطر تماما على جمهوره . وكان جمهوره يؤم مواعظه كما يؤم المسرح طلبا للانفعال . وبعد أن يجهدهم الانفعال يتفرقون ليجددوا حيويتهم في الحانات والخمارات .

كان سافونارولا يندد باستمرار بنقائص الرجال التي تهدم الأسرة : يندد بالسكر والميسر والانحلال الجنسي وما شاكل ذلك ، فوجد في نساء فلورنسا عضدا قويا . كذلك كان دائم التنديد بالربا وبالجشع للمال وبالاتكال على ملذات الحياة وعلى حياة الترف بين المواطنين ، ودائم التنديد بانحلال رجال الدين بل وإباحيتهم وطمعهم في مغنم الدنيا واتجارهم بالدين واهتمامهم بالطقوس أكثر من اهتمامهم بجوهر الايمان . ثم دخل سافونارولا منطقة المحظورات ، فكان يندد باستمرار في مواعظه بطغيان الحكام وبفساد الطبقة الحاكمة وبلاستبداد السياسى وبالمظالم الواقعة على الفقراء . وهنا دخل في تناقض مع « لورنزو دي مديتشى » والحزب الكبير الموالى له الذى اتهم سافونارولا بأنه تحول من واعظ أخلاقى الى مهييج سياسى ديماجوجى يؤلب الرعاع على النظام القائم فى فلورنسا باسم الديمقراطية .

ولكى يزيد سافونارولا فى سيطرته على الناس أخذ يتسوهم أو يوهم الناس بأنه موحى اليه وأن الكلام الذى يجرى على لسانه من عند الله . قال لصاحبه الفرير « سيلفستر » إنه يشعر بأن الصليب واسم الله منقوشان على صدره . وكذبه الأخ سيلفستر أول الأمر رغم أنه كان من السائرين نياما ، ولكنه لم يلبث أن صدقه حين توهم أنه رأى فى الرؤيا الملائكة تقول له ان سافونارولا « حبيب الله » فهو صادق فى كلامه . وكان هناك راهب آخر من تلاميذ سافونارولا اسمه الأخ « دومنيك » ، وكان يؤمن به ايمانا أعمى فى كل ما يقول . أما أهل فلورنسا فقد انقسموا فى أمره : البسطاء آمنوا بملكاته الخارقة والعقلاء رأوا فيه دجالا خطيرا .

مثلا ، قال سافونارولا فى إحدى مواعظه التى هاجم فيها رجال الدين : « أنا لم أكن أريد أن أتكلم باسمك يا الهى ، ولكنك كنت أقوى منى فسيطرت على وصارت كلمتك مثل لهب يحرق نخاع عظامى ، ولهذا أصبحت موضع احتقار الناس وبغضهم . ولكننى رغم هذا أنادى الله ليلا ونهارا وأقول لكم ان الفجر الجديد وشيك البزوغ » .

ويبدو أن سافونارولا كان يدرك خطورة ادعائه بأنه شبه نبي يوحى اليه ، فقد كتب قائلا : « أذكر أنى كنت أعظ فى القبة عام ١٤٩١ وكانت موعظتى قد بنيت على هذه الرؤى ، وفكرت فى العدول عنها وفى الامتناع نهائيا فى المستقبل عن استخدام هذا الموضوع . والله شهيد على انى صليت

وصليت طوال النهار وطوال الليل حتى مطلع الفجر من أجل ذلك ، ولكن كل المسالك وكل الأفكار سدت أمامي . ونحو الفجر كنت مكدودا ضيق النفس بسبب طوال السهاد ، وسمعت صوتا يجيب على صلاتي بقوله : يا مجنون ! ألا ترى أن الله يأمرك بأن تواصل السير في نفس الطريق « .. وفي ذلك اليوم القيت موعظة رهيبة » .

وحين كثر تنديد سافونارولا بالطغيان دعوه ليلقى موعظه في قصر الحكومة في فلورنسا على أعضاء السنيورية . وكانت موعظته حول واجبات الحاكم وواجبات المحكومين ، ولكنها سرعان ما تحولت الى تنديد بالطغاة والطغيان ، وكان سافونارولا محمداً في كلامه فكان واضحاً أنه يتحدث عن لورنزو دي مديتشي .

ولم يغضب لورنزو ، فقد كان سياسياً متمرساً ، فتجاهل الاهانات المسددة اليه بالإيحاء ، وحين نبهه أعوانه الى خطورة سافونارولا والى وقاحته لم يزد تعليقه عن قوله أنه على استعداد لأن يغفر له سوء أدبه إذا استطاع أن يصلح من أخلاق أهل فلورنسا وأنه يتمنى له التوفيق في عمله . لقد كان واضحاً له أن سافونارولا كان يخالط أعداء آل مديتشي السياسيين ويستقى منهم فكرته عن البيت الحاكم في فلورنسا . لقد كان أجنبياً من غيراراً ولا يعرف الكثير عن سراديب الحياة السياسية في فلورنسا ، ولم يكن هناك من داع للاشتباه في تواطؤه مع أعداء لورنزو دي مديتشي .

وفي يوليو ١٤٩١ انتخب سافونارولا رئيساً لدير سان مارك . ولما كان سان مارك قد بنى بأموال آل مديتشي ويعيش على دعمهم المادي المستمر ، فقد جرت العادة أن يقوم كل رئيس جديد للدير بزيارة مجاملة لرئيس الدولة . ولكن سافونارولا رفض أن يخضع لهذا التقليد قائلاً : « أنا مدين بانتخابي ولن أقدم فروض الاحترام لغير الله . ولم يغضب لورنزو دي مديتشي لذلك وإنما عده مجرد نقص في التربية . وكان دائماً يشير الى سافونارولا بقوله « هذا الأجنبي » الوافد من غيراراً .

كان هناك صراع صامت بين الرجلين لم يظهر على السطح أبداً . كان لورنزو رجلاً متواضعاً في رفعة لا افتعال ، لطيف المعشر يصعب على أي إنسان أن يقاوم سحره ورقته . وكان يريد أن ينعرف الى سافونارولا لسبر غوره ولكن دون حرج ، غير أن عناد الراهب وقف دائماً حائلاً بينهما . كان لورنزو يذهب الى دير سان مارك ليتنزه في حديقته آملاً أن يخرج سافونارولا للقاءه ، ولكن سافونارولا كان يقبع في صومعته لا يريم . وكان لورنزو يملك أن يرسل اليه من يستدعيه ، ولكنه كان يتحرج من أي مظهر

من مظاهر الاكراه . وكان سافونارولا يراه ويسأل « هل أرسل في طلبى ؟ »
فيقال : « لا » . فيقول : « فليتنزه كما يشاء » . المشكلة كانت : من منهما
يسمى الى الآخر قبل صاحبه .

ولم يكرر لورنزو هذه التجربة ، وانما جرب شيئا آخر . وضع لورنزو
في صندوق نذور الفقراء الخاص بالدير خمسمائة من الفلورينات الذهبية ،
وكان مستشار لورنزو قد انتحى جانبا ليشهد الموقف ، وفوجئ الرهبان
بسافونارولا يفرز النقود الذهبية من النقود الفضية والنحاسية ويرسل
بالقطع الذهبية الى جمعية خيرية لتوزيعها على الفقراء . وبعد فترة
وجيزة اهدى بيكو ديللا ميراندولا مبلغا سخيا لدير سان مارك فقبله
سافونارولا . وهنا فقط امتعض لورنزو دى مديتشى وبدأ يتحدث علنا عن
عجرفة الراهب وعما يشيعه من الفضائح عنه وسط العامة . لقد كان
سافونارولا يتصور أن لورنزو دى مديتشى كان يحاول أن يرشوه ليست
عنه .

وكان الموضوع الذى لا يفتأ سافونارولا يردده فى خطبه هو طغيان
لورنزو دى مديتشى . ولم يكن لورنزو طاغية بالمعنى المألوف . كانت
فلورنسا جمهورية محافظ على هذا الاطار الشكلى اسوة بما فعله اسلافه
من آل مديتشى ، ولم يعلن نفسه اميرا او دوقا ليجعل الملك وراثيا فى بيته
بقوة القانون مكتفيا بأنه كان كذلك بقوة الواقع بحكم امبراطورية المال
التي ورثها عن اجداده . كان لورنزو مجرد المواطن الاول فى جمهورية
فلورنسا كما كان جده كوسيمو دى مديتشى ، ولكن سلطاته فى هذه الدولة
كانت بالفعل مطلقة لأن آل مديتشى كانوا بالفعل يسيطرون بنفسوذ مالهم
وحزبهم على انتخاب مجلس المسائة والمجلس الحاكم ، فكانت السنيورية
اداة طيعة فى ايديهم . ولكن لورنزو شخصا لم يكن له حجاب وكان يمكن
لاى مواطن أن يجذبه فى الشارع من رداءه ليستوقفه ويناقشه .

اما ان آل مديتشى قد جمعوا ثروتهم الطائلة من الربا فهذا لم يكن
وقفا عليهم وانما من طبيعة النظام المصرفى الذى استقر فى المدن الايطالية
منذ الحروب الصليبية ، وبغيره ما كان يمكن لتجارة او صناعة أن تقوم
فى ايطاليا بأى معنى جاد . وكل التغيير الذى حدث هو أن البيوتات
المسيحية بدأت تشارك فى عمليات التمويل بالربا وانشاء المصارف رغم
التحريم الكنسى بعد أن كان ذلك وقفا على اليهود .

لهذا بدت حملة سافونارولا على آل مديتشى حملة ظالمة . وربما
كان هناك وجه حق فى اشتباه البعض فى أن خصوم لورنزو السياسيين
والماليين قد استغلوا سذاجة هذا الراهب « الأجنبى » وحماسه الأهوج

لتطبيق شريعة الدين المسيحى فى فلورنسا لاقامة مدينة الله على الارض .

وأوفد لورنزو الى سافونارولا وفدا من خمسة أشخاص لتحذيره من اقحام الدين فى السياسة ، وأشاروا له من طرف خفى أن نفيه من فلورنسا أمر وارد اذا دأب على مهاجمة «الطاغية»، فكان جواب سافونارولا أن اعلام القديسين : القديس دومنيك والقديس انطونيوس والقديسة كاترين وغيرهم كانوا جميعا يتدخلون فى الحياة الدنيوية ، ثم أضاف : « قولوا للورنزو أن يتوب عن ذنوبه لأن الله لا يخشى احدا ولن يستثنى من عقابه الحاكمين فى الأرض .. أما النفى فأنا لا أرهبه أبدا فمدينتكم هى مجرد « حبة عدس » على وجه الأرض ، وسوف تنقصر الدعوة الجديدة وتندثر الدعوة القديمة .. وأما كونى أجنبيا وكونه مواطنا ، بل والمواطن الأول فى المدينة ، فأنا باق هنا وهو راحل . نعم ، أنا باق وهو راحل » . وبعد ذلك بأيام أعلن سافونارولا نبوءته بموت لورنزو والبابا وملك نابولى فى أجل قريب وقد كان .

ولم يلتق الرجلان الا ولورنزو على فراش الموت . كان لورنزو بالفعل مريضا فلما دنت منيته تناول الأسرار المقدسة ثم أرسل فى طلب الراهب الرهيب فى ٨ أبريل ١٤٩٢ بأمل أن يصلحه ، ولكن سافونارولا أجاب بأن كلامه سوف يسوء لورنزو ولن يجدى شيئا . وأرسل لورنزو مرة أخرى فى طلب « الراهب الوحيد الأمين الذى عرفه » وهنا وافق سافونارولا على زيارته . وكان المفكر بوليتيانو صديق لورنزو ، حاضرا فى هذا اللقاء وقال ان لورنزو أبدى رغبته فى الاعتراف فثجعه سافونارولا وصلى معه . وفى تلك الليلة مات لورنزو .

كان هذا المشهد الأخير فى حياة لورنزو دى مديتشى بمثابة انتصار أدبى لسافونارولا ، زاد من قوته وشهرته وأسبغ عليه نوعا من الاعتراف من جانب الدولة . أما من ناحية سافونارولا فقد أخذ يشهد بعظمة لورنزو دى مديتشى قائلا انه أكثر من عرف من الحكام تمرسا بالأمور الدنيوية . فلما مات البابا اينوتشنتو الثامن (١٤٣٢ — ١٤٩٢) الذى اعتلى الكرسي البابوى منذ ١٤٨٤ ، لما مات البابا بعد ثلاثة شهور من موت لورنزو ثبت فى روع العامة أن سافونارولا مكشوف عنه الحجاب وانه قادر على التنبؤ بالغيب .

وكانت خلافة البابا اينوتشنتو الثامن فاقعة الفساد كولاية خلفه زير النساء البابا اسكندر السادس أو روديريجو بورجيا (١٤٣١ — ١٥٠٣) . فقد اشتهر اينوتشنتو الثامن بأنه كان رجل المحسوبية وخراب الذمة ، كما

انه كان أول بابا يعترف علنا بأبنائه غير الشرعيين ، وكان دأبه توسيع أملاك أسرته . وقد جرت كل هذه الرذائل مجرى التقاليد في البلاط البابوي حتى أن تغير أسماء البابوات لم يعد يعنى شيئا فكلهم كان سواسية في شهوة السلطة والتملك والاقبال على الملذات .

وهذا ما ركز سافونارولا على مهاجمته ، وكان يفسر انحطاط الكنيسة الكاثوليكية بأنه نتيجة لانتقال السلطة الزمنية (الدنيوية) اليها منذ أن قيل ان الامبراطور قسطنطين تنازل لبابوية روما ، وهى كرسى القديس بطرس ، عن السلطة الدنيوية في الامبراطورية الرومانية الى جانب سلطتها الدينية . قال سافونارولا ان السلطة السياسية هى التى سممت الكنيسة بالأطماع والمصالح الدنيوية فأضاعته منها سلطتها الأخلاقية التى هى سر قوتها .

والحل ؟ الحل عند سافونارولا هو العودة الى فجر المسيحية أيام الرسل أو حوارىي المسيح حين كانت الكنيسة خالصة فى بساطتها وحين كان المؤمنون يعيشون بالايمان فى المدينة الفاضلة المؤسسة على القوانين الالهية . وفى ١٤٩٢ أعلن سافونارولا على أهل فلورنسا انه رأى فى الرؤيا علامة فى وجه السماء الغاضبة فيها سيف معلق فوق روما وصوت يهدير وسط هزيم الرعد قائلا : « انظروا ، فهذا سيف الله العاجل ينزل على الأرض فجأة » ، وفى سماء روما طاف سيف أسود نقشته عليه بحروف من كبريت عبارة لاتينية هى : « هذا صليب غضب الله » ، والصوت المنادى بين الرعود يدعو الناس للتوبة . ثم رأى سافونارولا الرؤيا الثانية ، وهى صليب أبيض معلق فوق سماء القدس كتب عليه باللاتينية : « هذا صليب رحمة الله » . نعم . . المجتمع كله يعيش فى الجاهلية ولا خلاص له إلا بالتوبة والعودة الى القوانين الإلهية .

وبدا اصلاحه الدينى بدير سان مارك فأبطل بعض ما كان يجرى فيه من طقوس الرهبان التى تدخل فى باب البدع لحفلات استقبال الرهبان الجدد التى كان يقوم فيها راهب جديد بدور مريم العذراء ويناديه الرهبان المجتمعون من حوله باسم « ماما » . وقاطع سافونارولا اللحم تماما وكان لا يأكل من الخبز إلا الكسر ، ويقتصر فى نومه على أربع ساعات . وفرض على نفسه أدنا أعمال العمل اليدوى كالكنس ومسح البلاط وتنظيف المراحيض ليعطى القدوة لغيره من الرهبان . ويبدو انه بمقدار ما كان غضوبا حين يعتلى المنابر كان وديعا وحليما فى حياته الخاصة . كذلك نجح سافونارولا فى اقناع الفاتيكان بضرورة انهاء تبعية دير سان مارك للومبارديا وحصوله على استقلاله الذاتى بالتبعية لفلورنسا .

وما ان استقل سافونارولا بديره حتى بدأ اصلاحاته الأساسية وفي مقدمتها تحريم حيازة المال أو الاملاك على الدير ورهبانه ، فقد كان القديس دومنيك مؤسس فرقة الرهبان الدومنيكان متشددا في نذر الفقر لله وكان يلعن كل من يدخل المال في فرقته . فبدأ سافونارولا حربه ضد التملك وباع املاك الدير وحرم قبول الرهبان العطايا وفرض على الرهبان ان يعملوا ليكسبوا قوتهم على ان تكون مكاسبهم على المشاع لاطعام الجميع ، فكانوا يزاولون الأعمال اليدوية كنسخ المخطوطات أو زخرفتها أو الرسم أو النحت ، وكان القادر يعمل العاجز والكثرة العاملة تعمل قلة من الموهوبين انقطعت للوعظ أو لدراسة اللاهوت وعلم الأخلاق والفلسفة واللغات كاليونانية والعبرية والتركية والكلدانية . وكان الرهبان الناشئون يقومون بالأعمال الكريهة . وهكذا تحول دير سان مارك في فلورنسا من مجتمع رهبان شحاذين الى ما يشبه الكومون الشيوعي حيث كل يعطى حسب قدرته وكل يأخذ حسب حاجته .

ومع ذلك أو بسبب ذلك ، كانت دعوة سافونارولا دعوة معادية للثقافة وللمذهب الانساني لأنه كان يرى أن كل شيء ينبغى أن يبدأ بالالهيات وينتهي بالالهيات ، والالهيات عنده كانت الايمان والتقوى والعمل الصالح دون تفلسف كبير ولا مجال عنده للنظر في أى علم أو فن أو فكر دنيوى . انظر اليه يقول في احدى مواعظه :

« امض اذن الى روما وستفاجئهم هناك يقرعون كتبهم القائمة على المذهب الانساني ، جالبين على انفسهم اللعنة بتوجيه ارواحهم الى فرجيل وهوراس وشيشرون . وهم ينادون مع افلاطون وارسطو وفرجيل وبتراىك بأهمية الكلمات ويهملون صحة الروح . لماذا لا يكتفون بشرح ذلك الكتاب الذى يشتمل وحده على قانون الحياة وجوهرها ، الا وهو الانجيل ، بدلا من شرح كل هذه الكتب الكثيرة ، ايها المسيحيون ! يجب علينا أن نحمل معنا الانجيل باستمرار ، لا الكتاب نفسه ولكن روح الكتاب . ان العمل الصالح ليس فى الورق . ومؤلفات المسيح الحقيقية هم الرسل والقديسون ، والعلم الحقيقى يتمثل فى تقليد حياتهم » .

« ان الكنيسة الاولى لم تعرف تيجان البابوات ولا طيالس الكرادلة والاباقفة ولا الصوالج النفيسة ولا الأوعية المقدسة الذهبية . فقد كان اكثر حوارىي المسيح من الصيادين ومن بسطاء الناس وكل مظاهر الابهة والفن هذه من آثار الوثنيات الاولى . والى أن تعود الكنيسة الى بساطتها الاولى ويتوب الناس عن المعاصى مغضب الله تادم لا ريب فيه » .

وكثر اتباع سافونارولا في فلورنسا ولاسيما من النساء الناضجات اللواتي كثر تردهن على كنيسة سان مارك . وكانت في فلورنسا موجة من التضخم الخائق بعد الازدهار الكبير في عهد لورنزو دي مديتشي . وشاع الرعب في المدينة من اقتراب غزو شارل الثامن ملك فرنسا لاطاليا بجيش جرار كان يعد يومئذ أكبر قوة ضاربة في أوروبا ، لضم نابولي ، وعلان سيادته على « الصقليتين » . فلما تحققت نبوءة سافونارولا الثالثة ومات فيراني ملك نابولي في يناير ١٤٩٤ شاع الذعر في فلورنسا من الاقتحام الفرنسي الوشيك .

واستغل سافونارولا هذا الذعر العام ليعود الى نبوءاته القديمة ووعيده بالويل والثبور . وفي عيد القيامة من عام ١٤٩٢ كان قد أعلن في الناس أن طوفانا دونه طوفان نوح سوف يغرق فلورنسا . قال : « فليسرع كل الى فلك الله ، فنوح اليوم يدعو كل العالم اليه ، وباب الفلك سيبقى مفتوحا على مصراعيه ، ولكن سوف يأتي يوم يغلق فيه الباب فلا ينفع ندم ولا توبة » . وبالفعل كان شارل الثامن على أبواب فلورنسا في نوفمبر ١٤٩٤ . قال الفيلسوف بيكوديللا ميراندولا ان سافونارولا خطب في ١٧ نوفمبر في الدوم (القبة) فوقف شعر رأسه . أما الجموع التي كانت تستمع الى سافونارولا فقد تفرقوا شاحبة وجوههم « اقرب الى الموتى منهم الى الاحياء » كما جاء في وصف أحد المعاصرين . وساد في المدينة الصاخبة صمت رهيب وتردد في أجوائها صوت ينادي « توبوا الى الله ! » .





المطوعون

□ كانت سياسة فلورنسا التقليدية منذ لورنزو دي مديتشى وأسلافه الحفاظ على صداقة فرنسا وعلى صداقة دوقية ميلان في ايطاليا صيانة لتوازنها مع نابولي من جهة ومع البندقية من جهة أخرى . فلما مات لورنزو وخلفه ولده بييرو دي مديتشى في مكان الصدارة في فلورنسا تخاصم مع شارل الثامن ملك فرنسا ومع لودوفيكو سغوزا دوق ميلان ، الملقب بالمغربي .

وكان لويس الحادي عشر (١٤٢٣ — ١٤٨٣) ، والد شارل الثامن (١٤٧٠ — ١٤٩٨) ، أول من وضع حدا لفوضى أمراء الاقطاع في فرنسا ووجد بلاده في ظل ملكية قوية مطلقة ، فترك لولده قوة عسكرية ضاربة يخشاهم جيرانه الأوروبيون . وكانت للملك الشاب شارل الثامن أحلام توسعية محورها الاستيلاء على نابولي ، واستخدامها قاعدة لتوسيع استعماري جديد باسم تجديد الحروب الصليبية .

غير أن الشعور القومي الذي كان يتبلور في ايطاليا أدى الى تجمع الدويلات الايطالية فيما يسمى « الرابطة الايطالية » ، وهي عبارة عن حلف عسكري دفاعي يضم البندقية وميلان وفيرارا وجنوا ونابولي والكرسي البابوي أي دولة الفاتيكان ، ولم يبق الا أن تنضم فلورنسا الى هذا الحلف لتبدأ الوحدة القومية الايطالية . وحين ظهر تعاطف بييرو دي مديتشى مع نابولي ، زحف شارل الثامن على فلورنسا وخربها بعد أن سلخ منها بيزا ولوكا ، وفقد بييرو دي مديتشى مكانه ففر الى روما .

كانت هذه لعبة ايطالية مألوفة في العصور الوسطى ، أن يتحالف أمراء الاقطاع في دويلات ايطاليا مع دولة اجنبية أو أخرى لرد عدوان جاراتها أو للعدوان على جاراتها ، فلما نما الشعور القومي في ايطاليا ونما معه شعور الوحدة ، ازداد احساس الايطاليين بخطر وجود الجيوش

الأجنبية على الأراضى ، مما نجد صداه فى كتابات مفكرى عصر الرئيساسن الايطالية من بترارك وبوكاشيو الى مكيافيللى . حتى البابوية التى كانت تقليديا تشجع استقلالية أمراء الاقطاع لتستفيد من لعبة التوازنات بينهم فى توسيع دائرة نفوذها على حساب تناقضاتهم، وكانت تعرقل الوحدة القومية فى كل دولة خشية ظهور الملكية المركزية القوية التى تفرض سلطانها على الكنيسة وتقلص من نفوذها . . حتى البابوية كانت فى عهد اسكندر السادس (بورجيا) تتبنى فكرة الدولة القومية وتتخوف من تدخلات الجيوش الأجنبية . وهذا ما جعل أكثر المؤرخين يصفون البابا اسكندر بورجيا بأنه كان أقرب الى روح الرئيساسن منه الى بابوات العصور المظلمة .



طلب شارل الثامن حق المرور البرى لجيوشه فى اراضى فلورنسا ليزحف على نابولى . . فرفض بيرو دى مديتشى أن يمنحه ما أراد . وهكذا احتل شارل الثامن فلورنسا « ليحررها » من طغيان آل مديتشى . وفر بيرو دى مديتشى الى روما ومعه أخوه الكاردينال . وكان طغيان آل مديتشى حقيقة موضوعية ، فقد سيطروا على أداة الحكم فى فلورنسا بأموالهم وحكمتهم نحو قرن كامل ، مما جعل كل خصومهم السياسيين يتألبون عليهم من عهد بيرو دى مديتشى الذى لم يكن طاغية ولا حكيما كأسلافه ، بل كان مجرد حاكم تافه ورث السلطة عن أسلافه الأقوياء .

ووجد هؤلاء فى سافونارولا حليفا نافعا . ووجد سافونارولا فى شارل الثامن حليفا نافعا لتخليص فلورنسا من آل مديتشى فكان يخطب فى الناس لتهدئة الخواطر قائلا : « يا قوم . ان الله قد استجاب لصلواتكم فحققت ثورة عظمى لم تسفك فيها دماء . فيا أهل فلورنسا ثابروا على العمل الصالح ، وثابروا على السلام . فلو أردتم أن يثابر الله فى رحمته ، فكونوا أنتم رحماء باخوتكم . . رحماء بأصدقائكم . . رحماء بأعدائكم ! . فان فقدمت الرحمة فسوف تنزل عليكم الضربات التى أعدها الله لاطاليا كلها » .

بعبارة أخرى كان سافونارولا يحض أهل فلورنسا على أن يقبلوا شارل الثامن وجيشه الفرنسى الغازى بوصفه محرر جهـوريتهم من الطغيان . فلم تحدث الا قلائل بسيطة . وأوفدت حكومة فلورنسا سافونارولا ليفاوض شارل الثامن فى الجلاء عن فلورنسا فنجح ومعه المجلس الحاكم فى هذه المهمة . . وجلا شارل الثامن عن المدينة حاملا لقب « حامى حريات فلورنسا » مع وعد بأن يرد بيزا الى فلورنسا بعد انجاز مهمته فى ايطاليا وعودته الى فرنسا .

والسؤال هو : لماذا اتخذ سافونارولا هذا الموقف الغريب من شارل الثامن والغزو الفرنسي لاطاليا ؟ والجواب المعقد هو أنه وجد في شخصية شارل الثامن ومشروعاته ما يحقق أحلامه هو ومخططاته .

كان بين الرجلين حلم مشترك وهو حلم تجديد الحروب الصليبية التي كانت قد انتهت بعد ١٧٤ عاما بفشل الحملة الثامنة في ١٢٧٠ . . حملة لويس التاسع . . وقد أعلن شارل الثامن أن هدفه من ضم نابولي وصقلية . . هو استخدامهما كقواعد لحملته الصليبية المزمعة . ورغم فتور الفرنسيين أنفسهم نحو هذا المشروع فقد تحمس له سافونارولا . وأخذ ينظر الى شارل الثامن على أنه مبعوث العناية الالهية لحياء المسيحية المتأكلة حتى في العالم المسيحي نفسه .

كذلك حين عرف شارل الثامن بتضامن البابا اسكندر السادس مع ملك نابولي والرابطة الايطالية لمواجهة كل غزو لاطاليا ، أعلن أنه بمجرد دخوله روما سوف يعمل على اصلاح الكنيسة وتطهيرها من الفساد . وكان هذا بمثابة انذار بفتح ملفات البابوات والكرادلة والأساقفة بل وكل رجال الدين المنحرفين الذين كان همهم الاول ارضاء شهواتهم وتوسيع أملاكهم . وهكذا وجد سافونارولا الذي لم يكن يكف عن التنديد بمفاسد الكنيسة وتحذير رجالها من الغضب الالهى الوشيك . . وجد في شارل الثامن أداة العناية الالهية لتطهير الكنيسة وتقويم أعوجاجها . وأخيرا فلأن سافونارولا كان أجنبيا في فلورنسا . . قادما من فيرارا . فهو رغم نفوذه الروحي الواسع لم يكن يملك السلطة المادية الكافية لبسط سلطانه الفعلى على المدينة أو خارج المدينة . ولذا فهو قد رأى في هذا الملك الغازى الأجنبى سيف الله المسلول لتمكينه من بث التقوى في قلوب العباد واعادة الايطاليين الى حظيرة الدين .

وهذا يدل على أن سافونارولا لم يكن في حقيقته يكتفى بدور المصلح الدينى الداعى الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . . وانما كان يبتغى السلطة الدنيوية ليضع القوانين الالهية موضع التنفيذ . وهذه هي « الثيوقراطية » التى يتحدثون عنها . . أو « حكومة الله » . . فهى ليست بالضرورة حكومة دينية أو حكومة من رجال الدين . . ولكن حكومة القانون فيها هو الشريعة الإلهية . حكومة تضع الشريعة الإلهية موضع التنفيذ .

هذه الثيوقراطية تبدو بجوارها سلطة الكنيسة فى أوج العصور الوسطى سلطة باهتة شاحبة لأن الخلافة البابوية كانت تكتفى بسيادة

السلطة الروحية على السلطة الزمنية (الدنيوية) واعطائها التفسويض في الحكم الدنيوى ، وتعترف بقوانين قيصر الى جوار قوانين الله .

كل هذا يجعل من سافونارولا . . رغم دعوته الى الاصلاح الدينى والتقائه في بعض المبادئ بدعاة الاصلاح الدينى في عصره وبعد عصره . . اقرب الى العصور الوسطى منه الى عصر النهضة الأوربية . فالروح القومية التى بدأت تجتاح شعوب أوروبا وتجعل منها أمما مستقلة قائمة على وحدة الوطن (التاريخ والجغرافيا) والجنس واللغة والثقافة والمصالح الإقليمية . . كانت من أهم خصائص عصر النهضة الأوربية ، وهى التى جعلت الانجليزى يحس بانجليزيتة والفرنسى يحس بفرنسيتة والامسانى يحس بألمانيته والايطالى يحس بايطاليته . . الخ . . بعد أن كان كل هؤلاء يعيشون فيما كان يسمى « بالعالم المسيحى » الخالى من كل « هوية قومية » بالمعنى المفهوم لدينا الآن ، بل حيث الدين هو القومية والقومية هى الدين .

هذا الاحساس بالانتماء الدينى من دون الانتماء القومى أو الوطنى هو الذى سوغ لسافونارولا الايطالى أن يحل مشاكل ايطاليا والكنيسة الايطالية بالاستعانة بملك اجنبى غاز لبلاده . ويقاوم الى آخر رمق في حياته انضمام فلورنسا الى « الرابطة الايطالية » التى كانت نواة القومية الايطالية والوحدة الايطالية . . وقد كان هذا الموقف معاديا لحركة التاريخ في زمانه . وفى اعتقادى أنه كان من الدوافع الهامة التى دفعت بسافونارولا الى الهاوية ولم يتم خمس سنوات في حكم فلورنسا .



ودعى سافونارولا عام ١٤٩٤ الى المشاركة في اعادة صياغة نظام الحكم في فلورنسا بعد رحيل بيرو دى مدينشى . . وهكذا دخل الراهب الواعظ عالم السياسة الملئ بالأخطار والمحاذير . وكان هدفه تسخير سلطة الدولة في فرض الفضيلة وعقاب الرذيلة بالقانون . قال سافونارولا في احدى خطبه إن الله أراد أن يعطى فلورنسا سيذا جديدا « وهذا السيد هو يسوع المسيح ، فهو الذى سيكون ملكهم » .

كانت فلورنسا قد اعتادت لقرون خلت أن تقيم كرنفالا سنويا حافظ على كثير من العادات الوثنية الصارخة . وبتوجيه من سافونارولا تحول هذا الموكب الوثنى الى موكب مسيحى . فتوقف الرقص في الشوارع والأعمال البهلوانية والملابس المزخرفة والأقنعة واحتساء الخمر والبذاءات الجنسية . وتحت اشراف الأخ دومنيك سار آلاف الأيفاع يرتلون الترانيم الدينية ويهتفون « عاش المسيح ملكنا » . ومشى الرجال صفا واحدا

والنساء صفا واحدا في موكب دينى يطوف بالمدينة ويحج الى دير سان مارك .
استغل سافونارولا حيوية صبية المدينة وشبابها فحولهم الى قوة
اخلاقية ضاربة . فجعلهم يترددون بانتظام على الكنيسة ويمتنعون عن
الرقص ويقاطعون الموسيقى ويتركون مدارس الشيشس ويقصون شعرهم
قصيرا وينصرفون عن سباق الخيل وعن الحفلات العامة . وقسمهم الى
خمس فرق هى : فرقة « المصلحين » الذين يفضون المشاجرات ، وفرقة
« المصلحين » الذين يعاقبون الرذيلة كالمطوعين ، وفرقة « المفتشين »
الذين يبحثون عن رذائل الناس وعوراتهم ، وفرقة « جامعى الصدقات » ،
وفرقة « المنظفين » الذين يبيضون بالجير الأماكن القذرة .

وبعد تنظيمهم تحول هؤلاء الصبية والشبان الى قوة مخيفة ، ولاسيما
بعد أن رخصت لهم الحكومة مزاولة هذا الارهاب المقدس . فكانوا يلاحقون
النساء فى الشوارع وينزعون عنهن حليهن بالرضا أو بالاكراه . وكانوا
يجدون متعة فى « اصلاح » الكبار . وفى مواسم الصيام كانوا يهاجمون
محلات الحلوى ويحطمون المعروضات . وبالمثل تخصصوا فى مهاجمة الحانات
ومطاردة لاعبى الميسر . ولم يقف امامهم اى عائق فكانوا ينتهكون حرمة
المساكن ، ويجعلون الخدم يتجسسون على رذائل سادتهم ويبلغون عنها . .
بل لقد كان هؤلاء الصغار يجدون تشجيعا على التجسس على آبائهم
وأمهاتهم . كل هذا بموافقة الحكومة وتحت جناحها بأمر من الفرير
سافونارولا . ولم يجد احتجاج المواطنين على هذا العدوان على الحرية
الشخصية . فان وجد بين المواطنين من يرد عدوانهم أرسلت الحكومة مندوبا
لحماية هؤلاء المطوعين والمفتشين .

فسافونارولا كان من أسبق من اكتشفوا ما فى الصبية والمراهقين
والشباب الغض من حيوية مدمرة وعدوانية يمكن تسخيرها فى الدين
والسياسة . وكان يقول لهم انه يبدأ بهم لأنهم الجيل الجديد الذى لم يفسده
بعد ضلال الآباء والأمهات . اكتشف ذلك أكثر من أربعة قرون قبل أن
ينظم الفاشيست الطليان « الباليللا » من تلاميذ المدارس وصغار الحرفيين
ويلبسوهم القمصان، السوداء ويخرجوا بهم فى استعراضات الشوارع .
وهم النموذج الذى بنى عليه « الشباب الهتلري » فى ألمانيا أيام النازى ،
وكل الجماعات شبه العسكرية كالكتشافة والجوالة والقمصان الخضر
والزرق ومحطى الحانات والكاباريهات ونوادر الأعداء العقائديين .

علم سافونارولا « غلمان الفرير » . . كما كانوا يسمونهم فى فلورنسا . .
أن كل مظهر من مظاهر الترف خروج على الدين . . فكانوا يغزون بيوت

المواطنين دوريا ويجردونها من التحف وأدوات الترف والشعر المستعار . .
وغالى الثياب وأدوات التجميل واللوحات الفنية والمؤلفات الأدبية والفلسفية
التي لم تستلهم الدين موضوعا لها . كما كانوا يجمعون روايات بوكاشيو
وأمثالها كأعمال بترارك ودواوين الشعر الذى يتحدث عن الغرام والهيّام
وكتب الدعوة الانسانية . وبعد أن يجمعوا كل هذه الأشياء الثمينة فى اكوام
فى ميادين فلورنسا كانوا يضرمون فيها النار . وكانوا يجلدون النساء المتبرجات .
وهكذا اكتسب حكم سافونارولا منذ البداية طابع الوندالية والبربرية رغم
ما كان فيه من بعض الميادين الاصلاحية .

وتطبيقا لمبادئ الشريعة المسيحية حرم سافونارولا الربا الذى كان
يرادف عنده الاقتراض والايداع بالفائدة ، فمضى بذلك على النظام المصرفى .
ولكنه أحل محله « بنك التسليف على الرهونات » أو ما يسمى « بنك التقوى »
الذى كان يقرض على الرهون بسعر ٦ ٪ سنويا بدلا من البيوت المالية التى
كانت تبلغ الفائدة فيها ٣٢ ٪ سنويا . وكان الأصل فى بنك التقوى أن التسليف
فيه على أساس الاحسان أو القرض الحسن ، أى بلا فوائد ، والنسبة
الصغيرة المذكورة للمصرفيات .

واعترض يهود فلورنسا على هذا النظام الجديد الذى أبطل حرفتهم . .
وكانت سلطات فلورنسا من قبل ترى أن اليهود حشرات سامة ولكن
لا غناء عنها لاقتصاد المدينة . أما سافونارولا فقد أصدر قانونا يوجب نفى
كل يهودى يقرض المال بالربا بمجرد انشائه بنك التسليف على الرهونات
الذى كانت تموله حكومة المدينة . ولكن ما لم يحسب سافونارولا حسابه
هو أن البيوت المالية العتيدة فى فلورنسا التى كانت تمول التجارة والصناعة
بالفائدة كان أكثرها فى يد العائلات المسيحية التى تجمعت لتواجه هذا
الاعصار الدينى الذى كاد يعصف بالحياة المدنية .

وأصدر سافونارولا . . أو على الأصح صدر بوحيه . . عددا
من القوانين الأخلاقية مثل تعليق الزانى للمرة الأولى فى الميادين واحراق
الزانى اذا تكررت الجريمة . . ونفس الأمر بالنسبة للشذوذ الجنسى . .
كذلك صدر قانون باغلاق الحانات وتحريم الرق . . وهذه قوانين أقرب الى
نصوص التوراة منها الى نصوص الإنجيل . . وربما كانت هذه من دواعى
تلقينه « باليهودى » من جانب أعدائه .

ولم يكن لسافونارولا مركز رسمى فى الدولة ولكنه كان فى الواقع
يحكم فلورنسا من دير سان مارك بقوة سيطرته على الشارع وعلى
السياسية معا ، فقد جعل من نفسه همزة الوصل بين الحكومة والشعب . .

وقد أجرى من التعديلات في نظام الحكم ما حطم به احتكار الاوليغاركية (القلة) للسلطة السياسية في فلورنسا ، اتقاء لدكتاتورية الرأسماليين . ولكن تنظيمه فتح الباب أمام دكتاتورية الرعاع ، رغم أنه كان دائم التمجيد للديمقراطية ، دائم التنديد بحكم الصفوة .

وكانت نساء فلورنسا تساهم في الحياة العامة . فتشارك في الاجتماعات السياسية وتشارك في المواكب وجمع التبرعات . . ولكن سافونارولا أمرهن أن يقرن في بيوتهن ولا يشاركن في اهتمامات الرجال ولاسيما السياسة .

وفي عهد سافونارولا كانت عقوبة من يكنز الذهب أن يشنق في ميدان عام . . وبالفعل نفذت هذه العقوبة في بعض الناس ومنهم من ظلت جثته معلقة نحو أسبوعين ثم القيت في النهر . . وكاد سافونارولا أن يهلك شخصيا بتهمة اكتناز الذهب . . فقد أخفى الكاردينال دي مديتشي أو أودع كنزا من الذهب في دير سان مارك قبل فراره من فلورنسا . . فلما اكتشفت الحكومة الكنز إتهم البعض سافونارولا باخفائه فاضطر للتنصل من هذه التهمة علنا في موعظته من فوق المنبر .



كان سافونارولا اذن يرى في شارل الثامن وجيشه الفرنسي الغازي أداة ربانية لتجديد الحروب الصليبية . . ولاصلاح البابوية الفاسدة . . ولعقاب شعب فلورنسا والشعب الايطالى على فسقه وانصرافه عن الدين . ولتثبيت سلطته في المدينة وحمايته من بطش الكنيسة . . فوقف وحده مستميتا في الدفاع عن الفرنسيين وفي ابعاد فلورنسا عن الرابطة الايطالية .

وهكذا وقف أعضاء الحلف الايطالى . . وهم ميلانو والبندقية وجنوا ونابولى وروما والدويلات البابوية ومعهم اسبانيا وامبراطور النمسا في جانب مقاومة الفرنسيين . ووقفت فلورنسا وحدها بتأثير سافونارولا في جانب الفرنسيين . وكان سافونارولا لا يفتأ يكرر أن الغزو الفرنسى هو عقاب الله لايطاليا وللكنيسة على فسادهما . ورغم أنه نجح سنوات في عزل فلورنسا عن بقية دويلات ايطاليا ، الا أن تمسكه بحياد فلورنسا الب عليه أعداءه في الداخل والخارج .





الحبل والمحرقة

□ وتحرك في فلورنسا أعداء الراهب الرهيب : حزب آل مديتشي وحزب « الارابيياتي » أي « المسعورين » .. وهم حزب (الأقلية) من كبار الأثرياء .. الرافضين لحكم الشعب ولحكم الفرد معا .. وأنصار الحلف الايطالي .. وفرق الرهبان المنافسة للدومنيكان مثل الرهبان الفرنسيين .. الخ . بل وبعض الدومنيكان المعارضين لسافونارولا في دعوته ومنهجه .

وبدعوا مهاجمته في المجلس الحاكم بتهمة خلط الدين بالسياسة .. فأجابهم بأن عديدا من القديسين ورجال الدين خلطوا الدين بالسياسة .. وبأن الدين لا يناقش في مجلس الوزراء . بدعوا يستجوبونه : « أجبننا صراحة . هل كلامك من عند الله ؟ أجب بلا أو نعم » . فرفض الإجابة قائلا انه قال ما قاله علنا وعلى رعوس الأشهاد وليس لديه ما يضيفه وخرج من الاجتماع .. ثم أخذوا يعيرونه بأن الزحف الفرنسي قد أضاع بيزا من فلورنسا وطالبوا بالانضمام الى الرابطة الإيطالية . واعتدى عليه في الشارع فصار لا يسير من غير حرس .

ولم يقو من سلطة سافونارولا الا أن أعداءه كانوا متباغضين .. فالمسعودون يمتقنون حزب آل مديتشي ويخشونهم . كما أن الخائفين من جيوش شارل الثامن كانوا أكثر من الوطنيين المقاتلين في سبيل الوحدة القومية .. بعبارة أخرى أقل كياسة ، كان سافونارولا يحكم فلورنسا بذراع الرعاع وتحت ظل شارل الثامن .

وكان الثعلب الأسباني ، البابا اسكندر السادس ، في روما يراقب نشاط سافونارولا في فلورنسا عن كثب ويمتعش من عدائه للرابطة الإيطالية ، فكتب اليه يقول في دبلوماسية شديدة :

« ولدى الحبيب ، السلام عليك وعليك البركات الرسولية . لقد جاءنا أنك بين العاملين في حديقة كروم الرب من أخلصهم جهدا ، وهو ما يبتهج له

قلوبنا ونشكر عليه الله العلى القدير . كذلك جاءنا أنك تزعم أن تنبؤاتك بالمستقبل لا تأتى منك وإنما تأتى من الله . ولهذا السبب نرغب ، بما تمليه علينا رسالة الراعى نحو رعيته ، فى الالتقاء بك حتى نستنير عن طريقك بمشيئة الله فنتمكن من تحقيقها . ونحن نرجو أن تبادر على وجه السرعة بالحضور إلينا بما يمليه عليك واجب الطاعة المقدسة ، وسوف نستقبلك بكل محبة واحسان .

ودخل سافونارولا فى ورطة ، فقد كان يخشى الطساعة ويخشى العصيان . وحل مشكلته مؤقتا بأن رد ردا مهذبا يعتذر فيه عن الحضور لأنه لا يزال يمر بفترة نقاهة بعد مرض شديد ، وبأنه جنب فلورنسا سفك دماء غزيرة ، فأعداء الحرية فيها كثيرون فى الداخل والخارج ، وبأن القوانين المقدسة التى سنها للمدينة جعلت أعداءه يطلبون دمه فهو لا يستطيع أن يغادر المدينة أو يقيم فيها الا تحت حراسة مشددة ولو أنه ترك فلورنسا لانهارت كل اصلاحاته لأنها لا تزال هشة الجذور .

وكان هذا الاعتذار رغم سلامة عبارته بمثابة عصيان للأمر البابوى . فأصدر البابا أمرا بالغاء القرار الذى كان سافونارولا قد حصل عليه من حكومة فلورنسا بفصل دير سان مارك عن ولاية الكنيسة فى إقليم لومبارديا حتى يستقل فى فلورنسا عن كل تدخل أو توجيه خارجى وحتى تنتهى تبعيته لكاردينال لومبارديا . ومع هذا الأمر جاء الانذار بقرار الحرمان لكل من يعصى تنفيذ أمر الغاء الفصل . وهكذا أطاح البابا باستقلال سافونارولا بدير سان مارك فى فلورنسا .

وللمرة الثانية عصى سافونارولا الأمر البابوى ، محتجا بأنه سيجعل من رئيس لومبارديا الروحى « خصما وحكما » بالنسبة لرهبان سان مارك وما يدعون اليه . وهو « لم يزعم بالضبط أنه نبى » ، كما يتهمه خصومه ، و « مع ذلك فحتى هذا ليس فيه ما يشكل الزندقة » ، فبحسب القانون الكنسى لابد أن يثبت من يدعى الوحى من الله ادعاءه بأتيان المعجزات وبديل من الكتب المقدس ، وأعداؤه يريدون أن يثبتوا عليه هذه التهمة . غير أن سافونا رولا حتى هذه المرحلة كتب للبابا مانورا : « وأنا أكرر ما سبق أن قلته دائما ، انى أخضع بشخصى وبكتاباتى للتصحيح من كنيسة روما » .

ولم يصدر البابا اسكندر السادس قرار الحرمان غورا على سافونارولا، بل أظهر الأناسة لأن سمعة سافونارولا الدينية والأخلاقية كانت بلا شائبة مهما اختلف الناس حول أفكاره السياسية وقطره الاجتماعى . . واتخاذ سمته الكهان الملهمين فى كثير من الأحيان . ولذا اكتفى البابا بمنعه

من الوعظ اتقاء لبلبلة الخواطر : « فنحن ايماننا منا بأنك قد أخطأت لا عن تجديف مقصود ولكن عن اسراف في السذاجة ، نرد مرة أخرى على خطاياتك ونأمرك بحق الطاعة المقدسة أن تكف عن الوعظ ، ليس فقط أمام الجماهير ولكن أيضا في مجالسك الخاصة » . كذلك أمر البابا أن يلتزم سافونارولا بهذا المسلك حتى يتاح له المثل أمامه ووعد بأن يستقبله استقبالا أبويا .

وكان رد سافونارولا على ذلك خطبة نارية عن فساد الفاتيكان ورذائل البابوات وضرورة اصلاح الكنيسة .

ورد في هذه الخطبة : « ان البابا لا يستطيع أن يأمرنى بعكس ما يقول به الانجيل أو بعكس ما يأمر به الخير . ولا أظن أن البابا فاعل هذا في يوم من الأيام ، ولكن لوأنه فعله لقلت له : أنت لم تعد راعى المؤمنين ، أنت لم تعد كنيسة روما ، أنت تضل » .

وجاء فيها : « لو ظهر لى بوضوح أن ترك مدينة سيفضى الى خراب أهلها روحيا وماديا فلن أطيع من يأمرنى بمغادرتها ، لأن هذا سيكون مخالفا لأمر الله » .

وجاء فيها : « أى روما ! استعدى لأن عقابك سيكون عظيما . سوف يطوقك الحديد ، سوف تخترقك السيوف ، سوف تلتهمك النار واللهب . . . أى روما : لقد أصابك سهم المنون . لقد اعتلت صحتك . لقد انصرفت عن سبيل الله . لقد أفسدتك الذنوب والشدائد . فاذا شئت أن تبرئى من أسقامك فغيرى من نظامك : كفى غرورا ، كفى طمعا ، كفى زنا وكفى جشعا ، فهذا هو النهج الذى أسقمك وقادك الى الهلاك . . . قال الرب : مادامت ايطاليا مليئة بالمظالم وبالبغياء وبقطاع الطرق وبالنصابين فسوف أمحق أمراءها وأحطم كبرياءها وأقود اليها أحط شعوب لتحكمها فتستولى على محاريبها وتدنس كنائسها التى غدت مرعيا للبغياء . . . أى ايطاليا ! سوف تتعاقب عليك الكوارث : الحروب بعد المجاعات ، والأوبئة بعد الحروب » .

كل هذا وصبيته وفتيته يجوبون شوارع فلورنسا جماعات هاتفين : « عاش المسيح ملكنا » . ونقشوا هذا الشعار على قصر الحكومة .

لقد بلغ سافونارولا بهذه الثورة الدينية نقطة اللاعودة مع الكنيسة . منذ أن شبت الثورة فى فلورنسا بقيادة سافونارولا عام ١٤٩٤ على بيرو دى مديتشى وانتهت بخلعه وفراره ، تدهورت أحوال فلورنسا اقتصاديا وسياسيا . فاقتصاديا شلت التجارة والصناعة وانتشر الفقر والبطالة

وانكشيت موارد الدولة حتى بلغت عشر قيمتها الأصلية وشاع الجوع وأطل الطاعون برأسه من جديد . أما سياسيا فقد أدى ضياع بيزا من فلورنسا بسبب التدخل الفرنسي . . الى زعزعة مركز سافونارولا ، وأرسلت حكومة فلورنسا حملة فاشلة لاسترداد بيزا .

وفي خريف ١٤٩٦ تجمهرت على جيش فلورنسا المهلهل قوات أعضاء الرابطة الإيطالية لمساعدة أهل بيزا في رد جيش فلورنسا : مولت البندقية جيوش الحلف الإيطالي ، وأرسل لودوفيكو سفورزا دوق ميلان مددا لنجدة بيزا ، وأرسل البابا اسكندر السادس اليها ابنه الأكبر ، دوق كانديا ، على رأس قوات وفي صحبته بيرو دي مديتشي . فاستنجدت فلورنسا بشارل الثامن ملك فرنسا مرة أخرى ، وحين فشا النبأ بأن الفرنسيين عائدون ، عبر مكسيميليان ، امبراطور النمسا ، جبال الالب قاصدا الاستيلاء على فلورنسا ليحول دون التوسع الفرنسي ، ودخل بيزا وحاصر ليفورنو .

ودعيت حكومة فلورنسا مرة أخرى للانضمام الى الرابطة الإيطالية ، ولكنها رفضت من جديد بضغوط من سافونارولا وأنصاره . ولم يبق أمام أهل فلورنسا الا الصلاة والضراعة في الكنائس أن يرفع الله عنهم هذا البلاء . أما سافونارولا فمضى يفسر للناس كل هذه الشدائد كعادته بأنها القصاص الالهى يحل على المدينة لأن أهل فلورنسا لم يغيروا ما بأنفسهم ، وأنه لا سبيل للنجاة الا سبيل التوبة عن المعاصي . وكان ينظم المظاهرات الدينية ويفرض الفضيحة بالارهاب . فحرم الرقص والغناء حتى في الريف قائلا : « لأن هذا ليس أوان الرقص والغناء ، بل أوان التوبة والدموع » . وتشدد في فرض الصيام على الناس ، وكان صياما بلا نهاية ، وأغلق الحانات وحرم سباق الخيل وعلق المقامرين على عجلة التعذيب . وحدد أقصى دوة لبنات العائلات بمبلغ خمسمائة دوقية ، وأغلق كل المحلات يوم الأحد باستثناء صيدلية أو صيدليتين وأخذ يجلد كل امرأة تتبرج أو تلبس غالى الثياب ، أو يسجنها في حالة العودة . وجمع بغيا فلورنسا أمام قصر الحكومة ثم أصدر أمرا بنفيهن من المدينة .

كل هذا لم يحل مشاكل فلورنسا فبقيت المشاكل بغير حل . . وربما ساعدت الدعوة الى التقشف والزهد على قبول الوضع الاقتصادي المتردى بين أنصار سافونارولا ، ولكن الاضطراب الاجتماعي والفليان الاجتماعي بقيا على حالهما ، وكان هناك نوع من التهكم الباطني في قرار البابا الجديد بضم أديرة توسكانيا ، وعاصمتها فلورنسا ، الى أديرة روما وضم رهبانها في سلك واحد يتلقى أوامره من الرئاسة الروحية في نابولي . وكان القصد طبعا اجراء تجربة جديدة في القضاء على استقلال دير سان مارك وسافونارولا

بعد أن فشل في توحيد توسكانيا ولومبارديا . والمعنى المتضمن في هذا القرار الأخير هو تشديد الرقابة على سافونارولا ، أما المعنى الظاهر فهو الآتى : ما دمت تزعم أنك نجحت في اصلاح اخلاق أهل فلورنسا والتقريب بينهم وبين الله ، فتعال هنا الى روما لتزيد من تقوى أهلها الفاسدين وتملاً قلوبهم بالايمان . ففخ جديد نصبه البابا لسافونارولا . وأعلن سافونارولا عصيانه لهذا القرار البابوى . انه لن يفرط في استقلاله ولو صدر ضده قرار الحرمان .

زاد الاضطراب في المدينة ، وحاول بيرو دى مديتشى محاولة أخيرة في ٢٢ أبريل ١٤٩٧ لاقتحام فلورنسا ، ولكن حزب « المسعورين » انضم الى حزب سافونارولا لدرء خطر المديتشى . ثم انقلب « المسعورون » على سافونارولا ، وبدعوا يناوئونه بعدوانية ، فلطخ له شبابهم منبر الكنيسة بالبراز ودقوا له المسامير في درابزين المنبر ، ولكن أنصاره أصلحوا ما أفسده « المسعورون » . وكثر الشغب في المدينة ، فأغلق المجلس الحاكم الكنائس بحجة انتشار الطاعون ليمنع تجدد الصدام . وكان هناك اقتراح بنفى سافونارولا ولكن الاقتراح رفض . وكتب زعماء المسعورين الى روما يطالبون بصدور قرار الحرمان على الراهب الرهيب .

وفي ١٨ مارس ١٤٩٧ أصدر البابا اسكندر السادس قرار الحرمان على سافونا رولا وجاء فيه :

« لقد جاعنا من عدة أشخاص جديرين بالثقة أن راهبا يدعى جيروم سافونارولا ، يبدو أنه يشغل الآن منصب رئيس دير سان مارك ، قد نشر دعوة ضارة تؤذى أرواح البسطاء وتضلّهم . . ورغم تسامحنا معه تسامحا عظيما الا أنه أصر على عناده ، وبالتالي فهو قد استحق العقاب . . لذلك فنحن نأمركم بأن تعلنوا في حضور الشعب أن الأخ جيروم المذكور قد صدر عليه قرارنا بالحرمان ويجب عليكم معاملته كمحروم لأنه خرج على تنبيهاتنا وأوامرنا الرسولية . وبموجب هذا القرار نفسه ، فإن كل من يحاول أن يساعد أو أن يخالطه أو أن يمتدحه سواء بالقول أو بالفعل سوف يحرم وتوجه اليه شبهة الزندقة » .

واذيع قرار الحرمان في الكنائس الست الرئيسية في فلورنسا شهرا بعد صدوره أى في ١٨ يونيو ١٤٩٧ وسط كل طقوس الموت الروحية . فدقبت أجراس الكنائس ، وأوقدت الشموع . ولما أعلن القرار أطفئ لهيبها وحل الظلام وساد الصمت الرهيب كأنما روح سافونارولا وقفت على حافة الهلاك الأبدى .

وعاد كل شيء في فلورنسا سيرته الأولى ، ففتحت الحانات أبوابها وعاد الناس الى الرقص والموسيقى وسباق الخيل وانتشرت في المدينة الأغاني البذيئة للسخرية من الراهب المتزمت . ولم يبق لسافونارولا غير دير سان مارك يقيم فيه قداسه . وأطلق سافونارولا شائعة تقول انه سيدعو لعقد مجلس مسكوني للنظر في أوضاع الكنيسة ومفاسدها ، كما أنه كتب « رسالة احتجاج على قرار الحرمان » .

وكتب رهبان دير سان مارك عريضة للبابا يتشفعون فيها للأخ سافونارولا ويشهدون له بالاستقامة ويعلنون ولاءهم له بالاجماع « رغم أنه أجنبي » عن فلورنسا وينسبون الحملة عليه أنها من دسائس بعض احزاب فلورنسا . وكانت هناك نسخة أخرى من هذه العريضة جمعت عليها توقيعات ثلاثمائة مواطن في فلورنسا من أصحاب النفوذ . وهنا ثارت ثائرة المعارضة وتجدد الشغب في المدينة واتهموا دير سان مارك بأنه لم يعد ديرا وانما تحول الى ناد سياسي وطالبوا بتطبيق عقوبة الخيانة العظمى على أنصار سافونارولا ، ولكن المعتدلين هداوا الأمور ، ووضع انتشار وباء الطاعون نهاية مؤقتة لهذا الاضطراب .

واعتكف سافونارولا في الدير أكثر من ستة شهور لا يخالط المدنيين أو يشتغل بالسياسة وساعده على ذلك أن أنصاره من المدنيين كانوا لا يزالون يسيطرون على المجلس الحاكم بفضل تحالفهم مع حزب المديتشي . وكانوا يبعثون بالرسائل والرسائل الى روما باستمرار طالبين العفو عن سافونارولا والغاء قرار الحرمان ، وكانت هناك محاولات أخيرة . قالت روما : الحرمان كان للعصيان ، فاذا جاء سافونارولا الى روما وخضع لنظام توحيد رهبان توسكانيا مع رهبان روما ، اعتبر هذا اعلانا بالخضوع . لا خضوع لا غفران . وكتب سافونارولا للبابا اعتذارا ذليلا ، ولكن البابا تمسك بحضوره .

ورفض سافونارولا الامتثال ، فكان ذلك بداية مأساته . ربما كان خائفا على حياته من روما ودسائسها الكثيرة . ربما كان مشفقا من التراجع عن مبادئه أو مشفقا على أتباعه أن تتزعزع عقيدتهم اذا ما خضع هو وتصلح مع الشر ، أو ما كان هو ينادى دائما بأنه يمثل الشر . ربما كان سبب عناده هو مجرد الكبرياء أو الامتلاء بالنفس أو جنون العظمة . أو ربما كان في سافونارولا شوق عارم دفن لأن يموت ميتة الشهداء . ايا كانت أسباب رفض سافونارولا المثول أمام البابا فقد كانت هذه بداية النهاية .

ولكن الذي عجل بالنهاية كان تحرك الفرنسيين الذي جدد الآمال في نفس سافونارولا . قيل ان شارل الثامن سيحضر في سبتمبر .

وتجدد أمل سافونارولا في عقد مجلس مسكوني يعرض عليه قضيته ليحكم بينه وبين البابا . كان شارل الثامن من قبل ذلك قد أعلن أنه سيتولى تطهير كنيسة روما من الفساد المتأصل فيها ، وهو الآن قد قدم الى جامعة السوربون ثلاثة أسئلة وطلب الاجابة عليها :

١ — هل البابا ملزم بموجب قرارات مجمع بازل ومجمع كونستانس أن يدعو للانعقاد مجمعا عاما مرة كل عشر سنوات ، وهل تجوز مطالبته أن يدعو الآن للانعقاد مجمعا عاما نظرا للاضطرابات الخطيرة التي تسود الكنيسة ؟

٢ — هل يجوز لأقطاب الكنيسة في حالة رفض الكرسي البابوي ، أن يعتقدوا مثل هذا المجمع بمعونة أمراء العالم المسيحي ؟

٣ — اذا رفض بقية الأمراء أن يتدخلوا ، فهل يجوز لملك فرنسا أن يتدخل وحده ؟

٩

وأجابت السوربون بالاجاب ، أما الفاتيكان فقد قابل هذه التساؤلات بامتنعاض . وبدأ سافونارولا يحلم مرة أخرى بشبح جيش فرنسي يفرض الإصلاح الديني على كنيسة روما بحد السيف . ونشط أنصاره فبدءوا يعدون المدة لعودته ، وسكوا لتكريمه ميدالية برونزية تحمل صورته في وجه منها ، وفي الوجه الآخر نقشت باللاتينية عبارة : « سيف الله فوق الأرض قاطعا وعاجلا » . وفي عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) من عام ١٤٩٧ أقام سافونارولا القداس في دير سان مارك وناول ثلثمائة شخص . وفي ٦ يناير ١٤٩٨ (عيد التجلي) حضر أعضاء « السنيورية » القداس جماعة وقبلوا يده عند الهيكل . لقد بدأ جهاد فلورنسا ضد روما .

وذهل الأصدقاء قبل الأعداء من هذا الاجترار . وابتعد المعتدلون وسقط حزب سافونارولا في أيدي المتطرفين . وكانت شجاعتهم من شجاعة اليائسين فبدأوا يكثرون من الأخطاء : استأجروا على مسئوليتهم ميليشيا من الجنود المرتزقة الذين رفضت المدينة أن تستأجرهم ، بل ومولوا أجور هذا الجيش من بنك القرض الحسن أو « بنك التقوى » بدون إذن من الحكومة ولكن بضمان بعض سرائرهم . وتوالت العرائض والمواكب طالبة عودة « الأخ » سافونارولا الى منبر الوعظ فحددت الحكومة يوم ١١ فبراير موعدا لعودته حتى يؤثر ذلك في نتائج الانتخابات . . وكانت كل الكنائس مغلقة باستثناء « القبة » . وهنا تدخل كبير أساقفة فلورنسا وأوصد المنبر وحرم على رجال الدين الحضور الى الكنيسة ولوح للمدنيين بتطبيق قرار الحرمان عليهم .

فتحدثته السنيورية أن يسحب انذاره في خلال ساعتين والا صدر الأمر بنفيه من فلورنسا .

هذا هو الجو العاصف الذى عاد فيه سافونارولا الى القاء اول خطبة بعد صدور قرار الحرمان عليه . وفي الواقع كان هناك حزبان كبيران في المدينة ، كما كان الحال أيام صراع « البيض » (انصار التحالف مع الجرمان) و (السود) (انصار التحالف مع الفرنسيين) في زمان دانتى اليجيرى . او فلنقل : كان هناك في فلورنسا حزبان كبيران : حزب يدعو للوحدة القومية في ايطاليا ، وحزب يدعو لوحدة العالم المسيحى ووحدة الكنيسة الجامعة . والغريب في الأمر أن البابا اسكندر السادس بالذات كان يبارك حزب الوحدة الايطالية ، ربما خوفا من التوسع الفرنسى وربما خوفا من فتح دفساتر الفاتيكان العطنة اذا انتصر الفرنسيون وربما تمهيدا لتنصيب ابنه سيزار بورجيا اميرا او ملكا على ايطاليا الموحدة كلها ، وربما لكل هذه العوامل مجتمعة .

والمؤرخ الذى لا يكتفى بسطح الأمور يجد مجالا خصبا للبحث فيما اذا كان سافونارولا مخلص قط استخدمته بعض شرائح الطبقة المتوسطة ذات المصلحة في التعاون مع فرنسا ولو على حساب الوطن الايطالى ، أم أنه كان فاعلا أصليا في الثورة على فساد الكنيسة الرومانية وداعية مثاليا لتجديد شباب المسيحية بالعودة الى بساطة الكنيسة الأولى أيام حوارى المسيح والى الطهر والنقاء والاعراض التام عن زخرف الدنيا الى حد اعتبار الحياة الدنيا مجرد معبر للآخرة .

وكانت أول خطبة لسافونارولا في قاعة « القبة » أو « الدوم » . ولم يتطرق في هذه الخطبة الراحدة الى السياسة ولكنه ركز على موضوعه الدائم وهو فساد كنيسة روما : أن روما هى مصدر كل الفجور ، فمنذ أن أصدرت عليه قرار الحرمان عاد كل شيء سيرته الأولى : عادت الحانات وعادت الرذيلة وعادت كل الموبقات . اذا كانت روما قد لعنته فهو ايضا يلعن روما . انها تطلب منه الاستغفار ، أما هو فيجيب أن قاضيه هو المسيح : « ويارب ! لو أنى طلبت الغفران لرفع هذا الحرمان فلتحل على اللعنة » .

ثم يعود سافونارولا الى ما داب عليه في الماضى من مفاجأة سامعية بالصدمات الكهربائية : أن الله يرسل الاشارات الالهية لعقاب المعتدين ، فهناك في روما من فقد ابنه وهنا في فلورنسا من فقدوا حياتهم (هو يشير الى أن البابا اسكندر السادس كان قد فقد ابنه الأكبر دوق كانديا في اليوم التالى

لصدور قرار الحرمان ، وقد انتشلت جثته من نهر التيبر في الموقع الذي تلقى فيه قمامة المدينة ، وحامت الشبهات تباعا حول أسرة أورسيني ثم الكاردينال سفورزا وجيوفاني سفوزا وهو من أنسباء البابا ، ثم حول ابنه الثاني سيزار بورجيا الذي قيل إنه كان ينافس أخاه دوق كانديا على عشق أختهما بياتريس بورجيا) . نعم اذا احتاج الأمر لحدوث معجزة لنصرة الحق فان الله سوف يحقق معجزة .

وانتظر البسطاء حدوث معجزة ، ولكن لم تحدث معجزة . وفتر حماس الناس ثم أصيبوا بالسلبية ، فلما كانت انتخابات السنيورية لمارس وابريل فاز « المسعورون » بالأغلبية . كذلك كانت لهم الأغلبية الساحقة في مجلس العشرة وفي مجلس الثمانين .

وكان لعودة سافونارولا للحياة العامة رغم اعلان « موته الروحي » أسوا الأثر في الفاتيكان . فأرسل البابا الى حكومة فلورنسا يطلب تسليم سافونارولا للفاتيكان « لهدية لا لقتله » . وحاولت حكومة فلورنسا مرة أخرى أن تتوسط لدى البابا لسافونارولا ، وهنا هدد البابا بحسم ان يصدر على مدينة فلورنسا كلها قرار « التحريم » ، أي تحريم اقامة الشعائر الدينية فيها وتحريم التعامل معها ، حتى تكف عن الايمان بهذا الراهب العصاى « ابن الضلال » ، لأنه يعتبرها مسئولة عن تشجيعه على تحدى الكرسي البابوى . وهنا فقط أحست فلورنسا بالخطر .

وعقد اجتماع في السنيورية في ١٤ مارس ١٤٩٨ طرحت فيه مشكلة سافونارولا وحظر قيامه بالوعظ والشعائر الدينية ، وأسفر الاجتماع عن ثمانية أصوات في جانب سافونارولا وسبعة عشر صوتا ضده وسبعة أصوات حائرة . وأراد أعداء سافونارولا أن يطرحوا الأمر على الاستفتاء العام في المدينة ، ولكن أنصاره خافوا من هزيمة ساحقة تقضى على مستقبلهم نهائيا فتدخلوا لسحب الاقتراح . وكان هناك اقتراح باغلاق دير سان مارك جملة لتجريد سافونارولا حتى من هذا النطاق الضيق ، ولكنه أجل للابقاء على الدير . وفوتح سافونارولا في أن يعلن باختياره التوقف عن الوعظ واقامة الشعائر الدينية حتى تمر الأزمة بسلام ، ولكنه رفض . ثم تعقدت الأمور حين أبلغ رسميا بقرار الحظر . قال سافونارولا لمستشار السنيورية الذى حمل اليه القرار « أنت قادم من عند أسياذك . طبعاً . وأنا أيضا يجب أن استشير سيدي » (يقصد الله) . وأرجأ الرد لليوم التالى ، واعتكف سافونارولا في صومعته طوال الليل يقلب النظر في سيرة النبی أرميا الذى تخلى عنه الله وقذفه الناس بالحجارة .

وفي ١٨ مارس ١٤٩٨ ألقى سافونارولا خطبته الأخيرة : نعم أنه سيكفى عن الوعظ لأنه لا يستطيع انقاذ الناس ضد ارادتهم . ولكنه يحذر كل من أراد به سوءا أنه سيهلك بالسيف أو سيهلك بالطاعون . ان الله معه « وكلمة الرب قد صارت في هذا المكان مثل لسان من لهب آكل » . وهكذا عاد سافونارولا الى تنبؤاته والى نبرته النبوية التي توحى بأنه يتلقى الوحي : « ان الله معي ! ... يا الهى ! اليس من حقى أن أقول هذا ؟ نعم ، بغير شك . لهذا أقولها .. بكل ثقة : لو اننى كنت مخطئا فالأنك يا يسوع المسيح قدتنى الى الخطأ ! .. لو اننى كنت مخطئا فالأنك أيها الثالوث المقدس قدتنى الى الخطأ ! وأنتم أيها القديسون في الفردوس ، لو اننى كنت مخطئا فأنتم الذين قدتمونى الى الخطأ » . وبهذا ختم سافونارولا موعظته الأخيرة .

وباعتزال سافونارولا هدأت الأمور نسبيا في روما لفترة وجيزة . ولكن سافونارولا لم يهدأ . أرسل رسالة الى البابا اسكندر السادس في الظاهر « لاثبات صحة مبدأى وبراعتى وخضوعى » ، ولكن وراء أدبها الظاهري تهديد باطنى بأن الله نصير الضعفاء سوف يقتص من كل من انزلوا به الاضطهاد : « أما أنا فلا أبغى أى مجد دنيوى بل انتظر الموت انتظار المشتاق . وأنى أرجو لقداستك الا تهمل العناية بصحتك أكثر من ذلك » . وغهم البابا منا وراء هذه الدعوات الصالحات من تهديد خفى بقرب حلول ضربة من الله تترك البابا حطاما .

وكتب سافونارولا خطابا الى كل من ملوك فرنسا وانجلترا وأسبانيا والنمسا والمجر يطلب فيه عقد مجمع مسكونى فوري للنظر في أحوال الكنيسة . ولم يكن هذا الخطاب في الواقع الا دعوة لمحاكمة البابا اسكندر السادس وخلعه من كرسى الخلافة الرسولية . كذلك أرسل خمسة من أصدقاء سافونارولا الى أصدقائهم في بلاطات هؤلاء الملوك لتهيئة الجو .

وكانت الدعوة الى عقد هذا المجمع المسكونى تستند الى قرارات مجمع كونستانس (١٤١٤ — ١٤١٨) التي نصت على أنه في حالة اضطراب أحوال الكنيسة اضطرابا صارخا أو عند سوء سلوك رئيسها يجوز عقد مجمع مسكونى بغير موافقة البابا . والمطلوب بحثه الآن هو هل يجوز عزل « خليفة المسيح » من كرسى الخلافة بقوة سلطة أخرى غير سلطته . هذا الاحتمال لم يكن واردا عند أى مؤمن خاضع لكنيسة روما ولكن كان يشتب منه رائحة السياسة الفرنسية التي شقت الكنيسة الكاثوليكية الى شقين حين تبنت بابوية موازية بأفنيون في بروفانس بجنوب فرنسا نحو سبعين عاما بين ١٣٠٩ و ١٣٧٨ . فالقضية المراد طرحها على المجمع المسكونى اذن هى قضية سيادة

البابا على العالم المسيحى ، وهل يجوز عزله أم لا يجوز . ويدخل فى هذا طبعا موضوع عصمة البابوات .

فالقضية اذن منذ البداية قضية متفجرة وكفيلة بتبادل اتهامات الكفر والزندقة ، ولا سيما لأن سافونارولا وأنصاره كان لهم رأى معروف فى البابا اسكندر السادس . كان لابد من اقناع ملوك أوروبا وأمرائها أولا بأن هناك فعلا ما يدعو لعقد هذا المجمع ، ثم كان لابد ثانيا من اقناع المجمع بحجج لا تقبل المناقشة بضرورة عزل البابا . لم تكن سيرة البابا الشخصية الفاضحة ولا أطماعه الدنيوية ولا دسائسه . الخ بكافية كأسباب توجب العزل ، لأن البابا كان « رمزا » للإيمان المسيحى وللعقيدة المسيحية . وهذا الرمز يبقى دائما محصنا ما لم توجه اليه تهمة « الالحاد » . وهذا ما بنى عليه سافونارولا وحزبه الأمل فى معركته الضارية مع البابا اسكندر السادس .

وفى أحد خطباته للوك أوروبا كتب سافونارولا يقول :

« أشهد باسم الله أن اسكندر هذا ليس البابا ولا يمكن اعتباره كذلك ، فحتى لو طرحنا جانبا خطيئته الكبرى وهى الاتجار بالمقدسات ، فهو قد اشترى الكرسى البابوى ويبيع يوميا المنافع الكنسية لمن يعرض أعلى ثمن ، وبالإضافة الى رذائله الواضحة ، فأنى أوكد أنه ليس مسيحيا وأنه لا يؤمن بالله ، وهذا ما يتجاوز كل حدود الكفر » .

كذلك كتب سافونارولا الى مكسيمليان امبراطور النمسا يذكره بواجباته المقدسة نحو حماية المسيحية . وكتب الى فرديناند وايزابيلا ملكى اسبانيا يناشدهما أن يكفيا عن اضاءة وقتلهم فى قتال المغاربة وطردهم من اسبانيا « بينما أسس الكنيسة خربة فى الداخل » . وهذا الخطاب الأخير لم يقدر له أن يصل الى ملكى اسبانيا لأن جواسيس لودوفيكو دوق ميلانو استوقفوا الرسول وجردوه من رسالته الخطيرة التى أرسلت للتو الى البابا فى روما .

وقبل أن يتحرك البابا اشتعلت النار فى فلورنسا لتعجل بنهاية سافونارولا . فقد تحولت فلورنسا فجأة الى مستشفى مجاذيب . تقدم راهب فرانسيسكانى اسمه فرانشيسكو دا بوليا يتحدى سافونارولا — بعد أن انتهى عصر المعجزات — أن يجرب معه امتحان النار لاثبات صحة دعاواه ومبادئه ، وهو أن يدخل الرجلان معا محرقة من الفيران ، فمن كان منهما صحيح العقيدة خرج من النار سليما ، غالبا أسوة بسيدنا ابراهيم الذى كانت النار بردا وسلاما عليه لأنه كان صحيح الايمان ، أما الفاسد العقيدة فهو حتما سيهلك فى النار . وكان الراهب الفرانسيسكانى على استعداد فعلا

لأن يضحى بحياته ليخلص الناس من الدجال سافونارولا . وكان « المسعورون » يلهبون حماس هذا الراهب المتهوس حتى يتخلصوا من سافونارولا .

ولكن سافونارولا اكتفى بتجاهل هذا التحدى . وإذا بالأخ دومنيك ، وهو أخلص أتباعه ، يقبل التحدى . ويزجره سافونارولا على هذا الطيش ، ولكنه لا يتراجع ، فقد سرى الخبر في المدينة واشتعلت النفوس شوقا الى معجزة من السماء لتفصل لهم في أمرهم بعد أن حرك الراهب الرهيب فيهم لسنوات طويلة النزوع الى الخرافات بكثرة كلامه عن الرؤى والنبوءات، فارتدوا كما انسان الغاب يلتمسون العلامات في خوارق الأمور . . أم تراها كانت شهوة الاستشهاد اختلطت بشهوة سفك الدماء ؟

وحين عجز سافونارولا عن احتواء الأمر وأحس بالفرانسييسكان ومحركيهم من الارستقراط يتراجعون ويتلاعبون شدد عليهم النكير فاشتراط أن تكون المحرقة بلا مخرج . فلا تراجع ولا فرار . واستولت الهستيريا على المدينة فتطوع ثلاثمائة من رهبان سافونارولا لكى يخوضوا هذا التحدى مع الرهبان الفرنسييسكان ، أسوة بالأخ دومنيك ، وفي الكنيسة برز للتحدى بامتحان النار الكثيرون من الرجال والنساء ، كأنما كانت في المدينة رغبة جماعية في الانتحار .

وكانت الحكومة قد وافقت في بداية الأمر على هذه المبارزة الانتحارية ، ولكن حين رأت انتشار الهوس الى حد الانتحار الجماعى أدركت أن ما بدأ أشبه باللعبة أو شك أن يفضى الى مأساة . وفي ٧ أبريل ١٤٩٨ ، اليوم المحدد للمواجهة ، اجتمع في الميدان الكبير أمام قصر السنيورية آلاف من المشاهدين وجند كثير للمحافظة على النظام . وفي العصر جاء الفرنسييسكان في جماعات صغيرة ، ثم جاء الدومنيكان ، ثلاثمائة راهب في مسوحهم يسيرون في طابور حاملين الشموع يرتلون التراتيل يقودهم سافونارولا ، وفي مقدمتهم الأخ دومنيك لابسا مسوحا حمراء . واحتج الأخوة الفرنسييسكان على لون مسوحه قائلين انها رداء مسحور . فدخل القصر واستبدل ثيابه ثم خرج . وكانت رابية الخشب معدة وسط الميدان . والكل ينتظر الأمر باشعال الراكية وبدء امتحان النار . وحين اقترب المساء جاء أمر الحكومة بايقاف هذه المهزلة الفاجعة وحظر الوعظ على كل الرهبان الدومنيكان .

هذا ما انتهت اليه فلورنسا باستماعها لكلام الرهبان أكثر مما ينبغى .

وبعد أربع وعشرين ساعة كان أحد السعف ، وحاول أحد الرهبان الدومنيكان الوعظ في قاعة الدوم أو القبة في المساء ، ولكن الحرس الفرسان

اقتحموا الكنيسة وشتتوا المصلين . ثم اتجه الفرسان الى دير سان مارك في مهبط الليل ومعهم جمع غاضب غفير وحاصروا الدير . وكان الاخ سيلفستر ومعه خمسة عشر راهبا وثلاثون من المدنيين قد كدسوا الاسلحة ووزعوا على الرهبان القوس والنشاب . ومن الخارج علا صوت المنادى يأمر سافونارولا بقرار الحكومة أن يغادر أراضى فلورنسا خلال اثنتى عشرة ساعة . . . وبدأ اشتباك مسلح فأحرق المحاصرون أبواب الدير واقتحموه وجرت معركة على ضوء المشاعل بين الرهبان والحراس . واستمر الحصار والقتال أكثر الليل .

وفي الثالثة صباحا استسلم سافونارولا بعد سبع ساعات من الحصار . فجره الجمع في الشارع وفي الحواري وأوسعوه لكما واهانة . وانقذه الحراس من الجمهور حتى لا يفتك به أو يشنقه دون محاكمة ، وقادوه الى قصر السنيورية ووجد المحققين في انتظاره ، لجنة من ستة عشر محققا أكثرهم من أعدائه . وبدأت المحاكمة قبل أن تستأذن الحكومة البابا في محاكمة رجل من رجال الدين . هكذا كان هياج الرأي العام على سافونارولا شديدا . وأخيرا ورد أن البابا مشترط أن يكون في لجنة التحقيق قسيسان لتمثيل الكنيسة وأن يسلم الى ممثلى الكرسي البابوى بعد انتهاء التحقيق الجنائى .

واستمرت محاكمة سافونارولا أربعين يوما استخدمت فيها كل أنواع التعذيب ، وخصصت الأيام الثلاثة الأخيرة للمحاكمة الدينية ، وكانت هناك تهمة عديدة بعضها يخص الدولة وبعضها يخص الدين . وكان التركيز على ادعائه النبوة أو تلقى الوحي من الله . وبعد عشرة أيام من التعذيب انهار سافونارولا « فاعترف » بأنه كان نبيا كذابا ، وأنه كان يدعى ما يدعيه من أجل المجد والشهرة . بعد هذا صار كل شيء يسيرا . لم تكن فلورنسا تحاكم رجلا من رجال الله ، وإنما كانت تحاكم دجالا .

ووقع سافونارولا أمام خمسة من رهبان دير سان مارك على اعترافه رغم اعتراضه على ما جاء به من اضافات ، وقرىء الاعتراف أمام المجلس الكبير ، وصدر الحكم بالاعدام شنقا في الميدان الكبير . وكان مع سافونارولا أوفى تابعين من أتباعه وهما الاخ سيلفستر والاخ دومنيك . أما الاخ سيلفستر فذهب يردد أنه برىء . وأما الاخ دومنيك فقد طلب — أن يحرق بدلا من أن يشنق . وقد استجابت فلورنسا لطلبه فأقامت تحت المشانق الثلاث رابية كبيرة من الخشب والحطب ، كأنها الاعدام مرتين : الحبل من الدولة والمحرق من الكنيسة .

وهكذا انتهى الراهب الذى قتلته الفضيلة لأنه جعل من الصليب
هراوة يضرب بها أعداء الله ، أو على الأصح يضرب بها أعداءه ، ففى
الكلام عن عظماء التاريخ كثيرا ما يصعب أن نميز بين همس الله وهمس
الشيطان ، ولكن نهايته لم تكن نهاية دعوته بحال من الأحوال ، بل على
العكس من ذلك ، كانت فى بعض وجوهها بداية حركة الإصلاح الدينى التى
اجتاحت أوروبا منذ القرن الخامس عشر .





انجيل الموت

□ كان سافونارولا نصف مثقف ، ولكنه مع ذلك كان عدوا للثقافة . وكان خطيبا من خطباء الرعاع ، لا يخاطب عقول الناس ولكن يخاطب عواطفهم وميلهم الفطري الى الخرافات . كان عدوا للثقافة لأنه كان قادرا على أن يقول للعلماء والجهلاء معا سخيف الأقوال ، مثل : « وما نفع أرسطو اذا كان لا يستطيع أن يثبت حتى وجود الروح ؟ » أو مثل : « ان امرأة عجوزا ساذجة تعرف عن الايمان أكثر مما يعرف أفلاطون ! » .

ولا شك أن في أفلاطون وأرسطو كما في كل فيلسوف في تاريخ الفكر البشرى مواطن قصور تستوجب التنديد والتصويب .

وكل من درس تاريخ الفكر المسيحي في العصور الوسطى يعرف كيف كان فقهاء المسيحية يستخدمون منطق أرسطو في السفسطة اللاهوتية ، حتى قبل مدرسة القديس توماس الاكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) وجماعة « الاسكولائيين » أو « المدرسين » التى كانت تؤسس كل شئ في الدين والحياة على أن « الله عرفوه بالعقل » وبلغت مبلغ السفسطة في الكلام عن الروح والملائكة والمعجزات وكافة الغيبيات ، وبلغت مبلغ السفسطة في تشريح الفضائل والرذائل والصلة بين الدين والحياة .

كذلك انتهى الاحتجاج على العقل منذ القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) حتى القديس برنارد (١٠٩٠ — ١١٥٣) ، غالبا بتأثير أفلاطون وأفلوطين ، الى ظهور ألوان متطرفة من الفكر الصوفى جعلت من الدين مسرحا للشطحات التى لا يقرها العقل .

ولكن في الحالين ما بهذه البسطة تهدر الأفلاطونية أو الأرسطاطاليسية كما فعل سافونارولا .

والسؤال الآن هو : الى اى مدى يمكن اعتبار سافونارولا من رواد حركة الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية ؟ والاجابة على هذا هى انه بجميع المقاييس الا مقياسا واحدا كان سافونارولا عدوا لاكثر المبادئ التى تجسدت فى عصر النهضة الأوروبية .

كان سافونارولا أكبر عدو لمذهب « الهيومانزم » أو المذهب الانسانى الذى كان يدعو الى تمجيد الانسان والحياة الانسانية بما فيها من علوم وفنون وآداب ونشاط حيوى وطلب للقوة والمجد والسعادة الدنيوية، ولا يرى ان فى كل هذا تعارضا مع طلب الآخرة ، كما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلم الناس فى العالم المسيحى طوال العصور الوسطى . وقد بدأ حياته وهو لايزال فى العشرين من عمره بكتاب « احتقار الدنيا » وختمه بكتابه المسمى « النتائج » ، واسسها فى كل مواعظه-الراعدة بالدعوة التى لا تعرف المهادنة الى سحق الجسد والاعراض عن كل القيم الدنيوية واعداد الروح فى كل لحظة للانتقال الى العالم الآخر ، وكان شعاره الدائم : « هيا ! هيا ! اهرب من ارض الظلمات ، ارض الشهوات » ، تشبها ببيت فرجيل : « هيا اهرب من الارض الوحشية ، اهرب من تلطيخ الشهوات » .

فهو من هذه الناحية لم يغير شيئا فى موقف الكنيسة الكاثوليكية التى كانت تعلم أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطى ان الحياة الدنيا مجرد عرض زائل وان كل وجود فى الزمن ، اى كل وجود مادى ، وهم زائف زائل وان الموت باب الحياة ، وملأت أوروبا بالأديرة والرهبان . بل على العكس من ذلك ، فقد اجتذب سافونارولا الى دير سان مارك بالذات والى غيره من الأديرة مئات من الرهبان والراهبات وحاول تحويل فلورنسا كلها الى دير كبير ، ولو أتيح له لجعل من ايطاليا كلها معبدا للصوم والصلاة .

حمل سافونارولا حملة شعواء على احياء آداب اليونان والرومان وفنونهم وفلسفاتهم وعلى الاهتمام بالشعر والفنون ، لما فيها من وثنية ومن صرف للناس عن عبادة الله الى عبادة الجمال ، وكانت حملته هذه حديث الأوساط الأدبية فى فلورنسا فاتهمه المثقفون بالجهل والبربرية ، فكتب بحثا سماه « اعتذار عن الشعر » يشرح فيه آراءه ، وجاء فيه :

« لم يكن فى نيتى مطلقا ادانة فن الشعر ، وانما ادانة اساءة استعماله التى نلمسها فى أعمال الكثيرين . . . فالبعض يزعم ان الشكل هو الأساس الوحيد للشعر ، وهذا خطأ جسيم ، فجوهر الشعر هو فكر الشعراء وفلسفتهم ، حيث أنه لا وجود لشاعر أصيل بدونهما . . . ولأن روح الانسان تكمل تماما بالأغاني وبالموسيقى فقد اخترع القدماء وزن الشعر ليقودوا الناس

الى الفضيلة بمزيد من اليسر . ففى الحقيقة ما نفع هذا الاسلوب فى البلاغة اذا لم يحقق الغرض المنشود منه ؟ ما نفع السفينة الملونة المزينة اذا لم تمخر من أعالي البحار لتصل الى الميناء ؟ ما نفعها اذا كانت تبعد الناس أكثر وأكثر عن بر الأمان ؟ الحق أن الروح لفى خسر اذا وقف الأمر عند طرب الأذن ، واحساس المرء غرورا بأنه مجيد كالآلهة ، والتشدد بملء الفم بكلام الفلاسفة ، والترنم عبثا بشعر الشعراء ونسيان انجيل المسيح أو تذكره فى لحظات نادرة .

فالشعر الذى يستحق الإبقاء عليه عند سافونارولا هو الشعر الدينى فحسب ، أما الشعر الذى يتناول أغراضا دنيوية فهو مرفوض . وهو يحمل على حركة أحياء آداب اليونان والرومان بقوله :

« ولدينا فصيلة زائفة من الشعراء المزعومين الذين لا هم لهم الا ان يلهثوا وراء اليونان والرومان وأن يكرروا أفكارهم وأن يقلدوا قوالبهم وأوزانهم ، وأن يناجوا الآلهة ، كأنما القدماء لم يكونوا بشرا مثلنا ولهم عقول تشبه عقولنا ، وهذا ليس مجرد تصور خاطئ للشعر وإنما هو سم زعاف يدس للشباب .. فما قولنا اذا كان القدماء انفسهم قد أدانوا الشعراء ؟ ألم يكن أفلاطون نفسه ، الذى يرفعه اليوم كل الناس الى أعلى مقام ، هو الذى سن قانونا لنفى الشعراء من المدينة (الفاضلة) ، لأن الشعراء بوحى من الآلهة الفاسدة وتشبها بها ، وبسحر الشعر الفاسد ، يملئون الناس بالرغبات المخجلة ويقودونهم الى دمارهم الخلقى . وماذا يفعل أمراؤنا المسيحيون اليوم : لماذا يهملون هذه الشرور ؟ لماذا لا يسنون قانونا للنفى يطبق ، لا على الشعراء المزيفين وحدهم ، ولكن على دواوينهم وكذلك على كتب القدماء التى تعالج الموضوعات المضللة وتمجد الآلهة المزيفة ؟ ما أعظم سعادتنا لو أن كل هذه الكتب دمرت ولم يبق من الكتب الا ما يدعو الناس للفضيلة » .

ونحن لسنا بحاجة الى أن نقول ان معارف سافونارولا عن أفلاطون كانت معارف سطحية ، لأن أفلاطون لم ينف الشعراء من جمهوريته لمجرد تزيينهم للرديلة ولكن لأسباب فلسفية مدارها بعد الشعر عن « الحقيقة » بدرجتين . ومن السهل أن نرى أن سافونارولا كان لا يقل ضراوة عن الكنيسة الكاثوليكية فى تحريم العلوم والآداب والفنون الانسانية وفى احياء آثار اليونان والرومان ، بل لقد كان أكثر منها ضراوة فى التحريم . وكلامه لا يقل بشاعة عما نقرؤه عن مطاردة محاكم التفتيش لكل ما هو خارج عن اطار الفكر والسلوك فى مسيحية العصور الوسطى على أنه من عمل السحر

ومن التعامل مع الشيطان ولذا وجب تدميره واحرقه . فبهذا المعنى كان سافونارولا أكثر سلفية وأشد رجعية من الكنيسة الكاثوليكية .

قال سافونارولا في إحدى مواعظه :

« اذهب اذن الى روما والى كل العالم المسيحى ، فلن تسمع فى دور أقطاب رجال الدين وأقطاب رجال الدولة الا الشعر والفن ونثر الخطباء . أقول اذهب هناك لترى بنفسك وسوف تفاجئهم وهم يقرعون نصوص أدبائهم الانسانيين محاولين توجيه عقول الناس وفقا لأقوال فرجيل وهوراس وشيشرون . وهم يفرضون على أسماع الناس أفلاطون وأرسطو وفرجيل وبترارك ، ويهملون صحة النفوس . الخ » .

فهو اذن يندد بالكنيسة الكاثوليكية لأنها انجرفت فى تيار عصر النهضة وشاركت فى الاحتفال بآداب اليونان والرومان .

وقد كان لسافونارولا تأثير قوى فى بعض أعلام الفنانين فى عصره وبعد عصره ، مثل ميكلانجلو (١٤٧٥ — ١٥٦٤) وبوتيتشيللى (١٤٤٤ — ١٥١٠) وكرانك (١٤٧٢ — ١٥٥٣) وفاسارى (١٥١١ — ١٥٧٤) . ومنهم من تبعه الى الدير مثل الفنان أندريا ديللا روبيا (١٤٣٥ — ١٥٢٨) والفنان ديللا بورتا الذى عزف عن الرسم أربع سنوات حزنا على موت سافونارولا . وكان ميكلانجلو فى شيخوخته الكئيبة دائم القراءة فى مواعظ سافونارولا باحثا عن سلام نفسه .

كان كل هؤلاء الفنانين يدعون لمبادئ سافونارولا ، او على الأصح يدعون لانجيل الموت الذى كان يبشر به ، وقد تجلى أثره العميق فى أعمالهم الفنية . . قال ميكلانجلو لفاسارى : « أنا لا تمر بخلقى فكرة واحدة إلا وكانت مدموغة بطابع الموت » . وكان يجهز نفسه دائما للموت ، لذا كثر فى فنه وفن معاصريه تصوير عذابات « يوم القيامة » . وهذا كله بتأثير سافونارولا الذى كان لا يكف عن تذكير الناس بيوم الحساب . وآية ذلك « يوم القيامة » لميكلانجلو التى دخلت الفاتيكان فكانت نوعا من الانتصار لسافونارولا .

كان الفنانون المصورون يرسمون صورة العذراء فى أزهى ألوان وفى أحسن هندام . . فكان سافونارولا يقول لهم : « انكم تدخلون فى الكنيسة كل مظاهر الزينة والغرور . اتحسبون أن العذراء كانت تكتسى برداء شبيه بما تصورون ؟ أنا أقول لكم إنها كانت ترتدى أسمال شحاذة » . ترى هل كان سافونارولا يخلط بين الفن والحياة ولا يفهم أن الفن « اختيار » كما

كان أرسطو يقول ، أم انه كان فاقد الحساسية الفنية تماما عديم الادراك
لمعنى « الشكل » فى التشكيل ؟

كذلك كان سافونارولا يلوم الفنانين لانهم كانوا يستخدمون الموديلات
لرسم موضوعاتهم الدينية وأشخاصهم الدينيون .. فكان يقول : « ويمضى
الشبان يقولون عن هذه المرأة أو تلك : هذه هى مريم المجدلية ! هذه هى
العذراء ! هذا هو يوحنا المعمدان ! ذلك لانكم رسمتم صورهم فى لوحاتكم وفى
الكنائس فأفسدتم الأمور الالهية فسادا عظيما . ان فنانيكم المصورين
يسيئون اساءات بالغة ، ولو عرفتم ما أعرفه أنا من الفصائح التى تخلقونها
لتوقفتن عن اتيانها » .

وختام هذه الفقرة يوحى بصدق الشائعة التى راجت عن سافونارولا
ورهبانه من أنهم كانوا يستغلون أسرار الاعتراف التى يأتهمهم الناس
عليها بحكم وظيفتهم الدينية لارهاب أهل فلورنسا وارغامهم على
الخنوع لهم .

ويمضى سافونارولا فيقول : « ما سر الجمال ؟ أهو فى الألوان ؟ كلا ..
أهو فى الملامح ؟ كلا .. الجمال صفة تنتج من الانسجام والتوافق بين كل
أعضاء الجسم وأجزائه .. وما مصدر الجمال ؟ لو بحثتم جيدا لوجدتم ان
هذا الجمال ينبع من الروح .. خذوا إمرأتين على مستوى واحد من الجمال ،
احدهما طيبة وطاهرة ومحترمة ، أما الأخرى فغانية .

« نفى الأولى ترون اشعاع جمال يوشك أن يكون ملائكيا ، بينما الثانية
فهى لا تقارن بالأولى مهما تكن متقنة التكوين . وسوف ترون ان المرأة
الشريفة أشد اثارة للحب وللأعجاب حتى عند الرجال الشهوانيين .. فهل
ترى هذا راجع الى أن الخير يشارك فى جمال الله ويشيع جمال الله فى
الجسد .. ؟ فيا أيتها النساء المتباهيات بشعركن وبجمال أيديكن ، ها أنذا
أقول لكن : أنتن جميعا دميما . تأملوا امرأة تقية وهى تصى ، تأملوها
كيف تشتعل بحرارة الجمال الالهى . تأملوها وهى عائدة من صلاتها تروا
جمال الله يتلأل فى ملامحها وتروا وجهها شبيها بوجوه الملائكة » .

كل هذا الكلام الساذج لا يصلح لأن يكون نظرية فى علم الجمال ،
وانما يفسر كيف سيطر سافونارولا على فلورنسا باقناع السذج والنساء
المتدينات . وهو ان دل على شىء فهو يدل على ذوق سافونارولا الخاص
فى النساء . ومع ذلك فقد تركت تعاليم سافونارولا أثرا عميقا فى بعض
فنانى عصره . ويكفى أن نذكر ما فعله بوتيتشيللى بربة الحب والجمال فى

لوحته « مولد فينوس » ، فقد جعل بوتيتشيللى من فينوس وهى خارجة من محاربتها نموذجاً لصبية فلورنسية تفيض بالبراءة رغم عريها ، خالية تماماً من ايحاءات الشبق الجسدى والخصوبة الحيوانية التى اقترنت دائماً بصورة فينوس فى الفن والأساطير عبر العصور : انها فينوس أورانيا أو فينوس السماوية .

فسافونارولا اذن كان عدوا للثقافة الانسانية ، عدوا للفنون والآداب والعلوم الدنيوية ، عدوا لكل فكر أو فلسفة لا تلتهب بالشعور الدينى وذكر الموت والبعث فى الأصباح والامساء . فاذا تذكرنا أن الفنون التشكيلية (التصوير والنحت والعمارة والزخرفة) كانت من أعظم ما ازدهر خلال عصر الرنيسانس ، كان موقف سافونارولا من كل هذه الأشياء مضاداً لحركة التاريخ معادياً للحضارة . بل ان موقف الكنيسة الكاثوليكية كان أكثر تقدماً من موقفه فى هذا الصدد بالذات لأنها حاولت أن تتعايش مع الفنون التشكيلية والموسيقية وترعاها لتخدم الكنيسة ، بل ان من رجال الكنيسة من حاول أن يتعايش مع المذهب الانسانى .

كذلك كان سافونارولا معادياً لحركة التاريخ لأنه كان معادياً لتبلور الروح القومية ، معادياً لاتجاه الوحدة القومية الذى كان من أهم سمات عصر النهضة الأوروبية . فبأنحيازه الكامل الى شارل الثامن ملك فرنسا وقف وحده يناجز كل دويلات ايطاليا فى سعيها للتحالف والاستغناء نهائياً عن الجيوش الأجنبية لحفظ التوازن بين دويلات ايطاليا . ان فكرة الدولة القومية فكرة دنيوية . . والمسيحى لا يعرف الا الأخوة فى المسيح رابطاً بين الانسان والانسان ورابطاً بين الانسان والله . هذا ما قامت عليه بشارة حوارى المسيح وابعاء الكنيسة الاولين فى عصرها الذهبى . وسافونارولا حافظ لرسالتهم أكثر من البابا الداهية الفاسق اسكندر السادس الذى كان يجنح الى تغذية الروح القومية فى ايطاليا رغم أنه كان رمز المسيحية الجامعة فى كل العالم المسيحى .

بعد كل هذا ، ماذا يربط سافونارولا بعصر الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية اذا كان الأساس فى دعوة سافونارولا هو العودة الى المسيحية فى نقائها الأول أو الى المدينة الفاضلة والله فيها ملك ، ولا حواجز هنالك بين الله والانسان .

هذا بالذات ما يربط سافونارولا بعصر النهضة الأوروبية ، أنه كان رائداً من رواد حركة الاصلاح الدينى التى كانت ، بخيرها وشرها جزءاً لا يتجزأ من عصر النهضة الأوروبية . وقد كان الركن الركين لحركة

الإصلاح الدينى ثورتها على المؤسسة الدينية الكاثوليكية الفاسدة والدعوة الى العودة الى المسيحية فى نقائها الاول او الى المدينة الفاضلة حيث لا ملك الا الله ولا حواجز بين الله والانسان . كان سافونارولا يرى أن الكنيسة الرسولية الجامعة (الكاثوليكية) فاسدة من قمة الرأس الى أخمص القدم وأنه لا أمل هناك فى اصلاحها لأنها انحرفت بكليتها الى الدنيوية . . فرجال الدين فاسدون والعلمانيون شبكاكون وحرية التفكير قد قوضت كل شئ .

حتى الكنيسة نفسها بنت نفسها على فلسفة دينية تنتهى الى تدعيم هذا الفساد أو تبريره . الأساس فى العقيدة الدينية هو الايمان ، هكذا يقول فقهاء الكنيسة الكاثوليكية : جوهر العقيدة هو الايمان . وليس العمل الصالح ، ومهما حاول الانسان بلوغ الخلاص الروحى (أى دخول الجنة) بالعمل الصالح وحده فجهده ضائع لأن الخلاص لا يكون الا بنعمة الايمان . . ونعمة الايمان لا تحل على الانسان الا اذا أحس على الدوام بأنه مخلوق ضعيف خطاء ، وبالتواضع لله تأتى نعمة الايمان ، وبهذا الاحساس بالضعف والاستعداد للسقوط يتعلق الانسان بالله الغفور الرحيم تعلق الفقير بقارب النجاة . ويأتى العمل الصالح فى المقام الثانى ، وهو ليس جوهرى لخلاص الانسان ، مهما كان العمل الصالح من ثمار الايمان الصادق . بل ان اعتماد المرء على قوة الاخلاق قد يكون عقبة فى طريق الانسان اذا أحله المرء محل التسليم بالنقص الأصل فى جبلة الانسان ، أو ما يسمى فى المسيحية بالخطيئة الاولى .

فلذى أضافه سافونارولا هو ان الايمان وحده لا يغنى عن الفضيلة . أما البابا اسكندر السادس فكان لا يخلط بين الايمان والأخلاق الفاضلة ، وربما كان ينتقل من فراش الرذيلة الى ابتهالاته المخلصة للسيدة العذراء دونما حرج ، وهو صادق الشعور فى الحالين . كان عميق الاحساس بضعف الانسان عميق الايمان بأن الله غفور رحيم . لقد كانت هذه « التطهيرة » والتزمت الأخلاقى فى سافونارولا واشياعه شيئاً جديداً فى أوروبا فى نهاية العصور الوسطى ، ولم يلبث الرجل ، حتى بعد هزيمته ، أن تحول الى حركة أو تيار دينى اهتزت له المسيحية الأوروبية . بدأ الناس يتجادلون فى طبيعة العلاقة بين الايمان والعمل الصالح وكان هذا من بدايات حركات الإصلاح الدينى .

كان سوء سلوك رجال الدين يززع ايمان الناس بالكنيسة الكاثوليكية، بل ويززع ايمانهم الدينى جملة ، فكانت الحجة التى تستخدمها الكنيسة لابقاء الناس فى حظيرتها هى التالية : لا تنظر الى ما يفعله رجل الدين وإنما انصت الى أقواله . فطالما أنه يدعو الى سبيل الله فاتبعه ولو قبحت أعماله .

العصمة لله وحده فكلنا خطاءون . . البابا من حيث هو رمز للمسيحية
وللعالم المسيحي معصوم من الخطأ ، أما من حيث هو بشر فهو قابل للزلل .

ورغم هذا المنطق المتناسك في مظهره ، كانت أصوات الاحتجاج على
تجاوزات الكنيسة الكاثوليكية تتصاعد في كل مكان لتدين قرارات الحرمان
الجهنمية التي كان يجردها البابوات على نقادهم ونقاد أعوانهم من الأمراء ،
وتدين اقبال رجال الدين على عرض الدنيا من مال وملذات جسدية ، وتدين
الآبهة التي ترفل فيها الكاتدرائيات ومن فيها من الكرادلة والأساقفة ، وتدين
انحياز الكنيسة الدائم الى الأقوياء والأغنياء وانحيازها الدائم ضد
المستضعفين في الأرض ، وتسخيرها للدين لترويض الجماهير على
الخضوع للطغاة وللظالمين .

كذلك ارتفعت أصوات الاحتجاج في كل مكان على اتجار البابوات
بفاسدين وسماسرتهم من رجال الدين في صكوك الغفران وبيعها للموسرين
من الزناة والقتلة ومرتكبي الموبقات من الرجال والنساء .

ولم تمر عشرون عاما حتى اندلعت فتن الانشقاق البروتستانتى في
كل مكان .

ولكن سافونارولا ، رغم انه كان يسمى حركته في فلورنسا « ثورة
دينية » ، لم يكن داعية انشقاق في المذهب والعقيدة ، بل ظل الى آخر
لحظة يحاول أن يعمل داخل اطار الكنيسة الكاثوليكية ، مع تحفظ واحد
وهو انه كسر عهد الطاعة الذي يرتبط به الرهبان عند ارتدائهم المسوح ،
وأسس ذلك على المبدأ القائل انه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ،
كما نقول نحن في لغتنا .



بيكو ديلا ميراندولا

PICO DELLA MIRANDOLA

١٤٦٣ - ١٤٩٤

□ كان بيكو ديلا ميراندولا يسمى في زمانه « العقل المعجزة » أو بالتعبير الحرفي « عنقاء العقول » . وكان بعض المحدثين مثل والتر باتر يسميه « أمير الرنيسانس الساحر » . وفي الحالين نجد أنفسنا بين أوصاف مستمدة من عالم الأساطير . ومن تاريخ ميلاده ووفاته نستطيع أن نرى بسهولة أنه مات في شرح شبابه ، فهو لم يعيش إلا إحدى وثلاثين سنة .

وفي هذه الحياة القصيرة استطاع بيكو أن يكتسب صيتا واسعا في ايطاليا كلها بل وفي أوروبا كلها ، بأنه كان من أوسع أهل عصره ثقافة وأعظمهم تأملا . وكان وسيم الهيئة واسع الثراء عريق الحسب بالإضافة الى علمه الغزير فحق له أن يسمى مجازا « الأمير الساحر » .

وقد ولد جيوفانى بيكو كونت ميراندولا في ميراندولا من أعمال فرارا ، لأسرة مبتوتة الصلة تماما بالثقافة . فقد كان آله لأجيال طويلة سادة ميراندولا ، يتوارثون مهنة الحرب ، فكانوا قادة فرقة من الجنود المرتزقة يبيعون خدماتهم العسكرية للملوك والأمراء ، وقد ظلوا أجيالا في خدمة الأباطرة الألمان من أسرة هوهنشتاوفن (١١٣٨ - ١٢٥٤) ومن أسرة هابسبورج بوصفهم قواد فرق من الجنود المرتزقة ، وهم القواد الذين يسمون بالايطالية « كوندونيري » . وكان أبوه يمتن أيضا مهنة القتال التي ورثها عنه أخوا بيكو ، جاليوتو وانطونيو . ورغم أن بيكو نشأ في حضن الأسرة وسط السلاح والخيول والدروع إلا أنه لم يظهر أى اهتمام بمهنة أسرته المتوارثة ، وبينما كان أخواه يتشاحنان على خلافة أبيهما في مهنته بعد وفاته كان جيوفانى بيكو يدرس في هدوء اليونانية واللاتينية والموسيقى .

وكانت أمه تريد له أن يكون قسيسا ، فدخل جامعة بولونيا وهو في سن الرابعة عشرة حيث درس القانون الكنسى أى « الشريعة المسيحية » .

فلما ماتت أمه أهمل هذه الدراسة واقبل على العلوم والآداب الدنيوية يلتهمها التهاما . وفي ١٤٧٩ دخل جامعة فيرارا وهو في سن السادسة عشرة ليدرس الآداب والفلسفة . وقد حدث لبيكو ديلا ميراندولا عكس ما حدث لجيرون سافونارولا تماما ، فقد كان سافونارولا قبل دخول بيكو جامعة فيرارا بأربع سنوات يدرس الآداب والفلسفة ثم انصرف عنهما ليتفرغ للدين كراهب دومنيكاني .

ولم يبق بيكو في جامعة فيرارا غير عام واحد ، ثم انتقل الى جامعة بادوا (١٤٨٠ — ١٤٨٢) ليتبحر في اليونانية ، وفي جامعة بادوا درس ايضا العبرية والعربية والآرامية والكلدانية . . وقد درس الشعر العربي على راموزيو ، مترجم ابن سينا ، واشترك في المعركة الفلسفية التي ثارت في جامعة بادوا بين أنصار ابن رشد وخصوم ابن رشد . وقد اجتذبت فلسفة ابن رشد بفضل حماس ايليا ديل مديجو ، أستاذه اليهودي في العبرية لهذه الفلسفة . وكان هناك من أعلام الأساتذة من أمثال باربارو من يتحمس للتوفيق بين الأفلاطونية والأرسطاطاليسية . أما ملكة بيكو ديلا ميراندولا على الاستيعاب فقد كانت مذهلة سواء بالنسبة للغات وآدابها وللمدارس الفلسفية ، حتى شهد له جهاذة العلماء بأنه يضاهيهم علما وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ، وهكذا لقبوه « بعنقاء العقول » ، لأن العنقاء لا تتجدد من رمادها إلا مرة كل مائة عام .

ولم يكن بيكو ديلا ميراندولا شابا مدفونا بين أكداس الكتب يعيش عيشة جافة معزولة عن الحياة ، بل كان يحيا حياته وحياة عصره كاملة ، يلهو ويسمر مع الشبان والفتيات ، وكان رجل مجتمع ورجل بلاط يتقن آداب السلوك بين أبناء الطبقة الراقية ، وكان غاية في الأناقة . . ومع حياة المجتمع وحياة الفكر الفلسفي وحياة الوجدان العاطفي كانت فيه أيضا ميول روحية دينية من رواسب تلقين أمه المتدينة أيام صباه الباكر . وبسبب تعدد هذه الاتجاهات في نفسه وتضاربها أحيانا ، كان به نازع دائم الى بناء سلامه النفسي على التوفيق بين هذه المتناقضات وإيجاد التجانس فيما بينها داخل نظام فلسفي واحد .

كان هناك أولا التناقض بين المسيحية ووثنية اليونان والرومان ، وكان بيكو محبا للمسيح ومحبا لأفلاطون في وقت واحد . فما الحل ؟ الحل هو رفض هذه المواجهات المستمرة بين المسيحية والوثنية ومحاولة التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية . . نفس الأمر بين أرسطو وأفلاطون .

بدأ بيكو ديللا ميراندولا حياته الفكرية أرسطاطاليسيا متحمسا وكتب ينتقد أفلاطونية فيثشينو . فلما انتقل الى فلورنسا عام ١٤٨٤ في سن الحادية والعشرين التقى بفيثشينو وبدأ يعيد النظر في موقفه من الأفلاطونية وانضم الى حلقة فيثشينو في بلاط لورنزو دي مديتشي التي كانت تسمى « اللواء » بمعنى الفرقة العسكرية ، وهنا بدأت محاولاته للتوفيق بين أرسطو وأفلاطون .

وفي ١٤٨٥ دعى بيكو الى جامعة باريس ، وفي هذه الفترة دخل في مغامرة عاطفية فهرب عام ١٤٨٧ مع سيدة متزوجة من سيدات آل مديتشي ، وكاد الأمر أن ينتهي الى مأساة لولا أن تدخل لورنزو وحل الموضوع بسلام . وفي هذه الفترة أيضا تعلم بيكو « الكابالاه » ، وهو علم الاتصال بالأرواح والتعامل مع الجن ، وهو أصلا نوع من السحر عند اليهود يقوم على تفسير التوراة تفسيرا باطنيا . . . و « كابالاه » في العبرية كلمة تعنى أصلا « التقاليد » . . .

وفي نهاية ١٤٨٦ وضع بيكو ديللا ميراندولا كتابا سماه « النتائج التسعمائة » ويشتمل على ٩٠٠ قضية فلسفية يحاول فيها بيكو أن يفسر المسيحية تفسيرا فلسفيا ، وأرسل مؤلفه الى البابا أنوتشنتو الثامن الذي كان جالسا على الكرسي البابوي من ١٤٨٤ حتى ١٤٩٢ . وأعلن استعداداه للدفاع عن قضاياها في روما في مناظرة عامة . ودرس البابا هذه القضايا فوجد سبعا منها تنطوي على زندقة وستا منها يداخلها الشك . . وبالفعل عرض بيكو قضاياها ودافع عنها في روما فأدانها البابا بتهمة الزندقة وأمر بايقاف المناظرة في ١٤٨٧ . . وصدر أمر بالقبض عليه ففر الى فرنسا . وهناك تعقبه رسل البابا فقبض عليه وسجن في فانسين خارج باريس . ثم أفرج عنه بعد تدخل عديد من أمراء ايطاليا ، وتوسط له لورنزو دي مديتشي فقبل البابا أن يعيش بيكو في فلورنسا ، وأحله لورنزو دي مديتشي في قصره بفيزولا مع بقية أعضاء « اللواء » أو الأكاديمية الأفلاطونية تحت حمايته مع الفيلسوف فيثشينو والمفكر بوليتزيانو وغيرهما كثيرين من الشعراء والأدباء والفنانين . وبهذا أنقذ لورنزو بيكو ديللا ميراندولا من محاكم التفتيش .

ثم كتب بيكو كتابه المسمى « هبتايكوس » أو « أيام الخليقة السبعة » (١٤٨٩) . . وأهداه الى لورنزو دي مديتشي . وفي هذا الكتاب حاول أن يجد توافقا بين ما ورد في سفر التكوين في التوراة وما ورد في محاوره « تيمائوس » لأفلاطون عن خلق العالم . وفي هذه الرسالة ينتفع بيكو من تفقّحه في اليونانية وفي العبرية ليعقد المقارنات ويحلل الاشارات ويفك الرموز الخبيثة في كل من النصين . وليس المهم في كل هذا أن يكون بيكو قد أصاب

أو خطأ في تصوراته . وإنما المهم هو هذا الحماس الذى تجلى فى بعض دعاة الهيومانزم أو المذهب الانسانى فى عصر الرنيسانس للتوفيق بين الدين والفلسفة حفاظا على الايمان أو حتى لا يفقدوا الايمان . وقد كان بيكو ديللا ميراندولا واحدا من هؤلاء المفكرين المؤمنين بالانسان .

وفى ١٤٩١ كتب بيكو ديللا ميراندولا كتابه « فى الجوهر الواحد » الذى حاول فيه التوفيق بين أرسطو وأفلاطون . . وكان آخر كتاب كتبه ونشر بعد وفاته كتاب اسمه « تسفيه التنجيم » يهاجم فيه التنجيم والمنجمين ويرد على مزاعم القائلين بأن قدر كل انسان محدد منذ مولده بالأفلاك ومسارها وبروجها ، وإن الانسان مجرد من الإرادة ، أو مسير لا مخير كما يقولون ، بسبب سيطرة النجوم على حياته وعلى مصيره . وقد كان هذا الكتاب سببا فى اقسام البابا اسكندر السادس على رد اعتبار بيكو ديللا ميراندولا اليه فى ١٤٩٣ ، عاما واحدا قبل وفاته فى ١٧ نوفمبر ١٤٩٤ ، عام اقتحام شارل الثامن مدينة فلورنسا .

لماذا يعد بيكو ديللا ميراندولا قطبا من أقطاب عصر النهضة الأوربية وقطبا من أقطاب حركة الهيومانزم ؟

هو يعد كذلك لأن جوهر فلسفته يقوم على ثلاثة مبادئ :

١ — الايمان بكرامة الانسان وعززه الانسان ونبل الانسان وبأن للانسان قيمة فى ذاته وبأن للحياة الانسانية قيمة فى ذاتها ويجب اثراؤها بكل ما فى الطبيعة والعالم المادى من فكر ونشاط وعلوم وفنون وآداب .

٢ — بأن الانسان سيد مصيره فى هذا العالم وأن انسانيته مقترنة بقدرته على الاختيار .

٣ — ان الحضارات الوثنية الأولى كانت تنطوى على حكمة عميقة أهدرها العالم المسيحى . ولذا فكل نهضة يجب أن تقوم على استيعاب التراث الوثنى عند اليونان والرومان وغيرهما من شعوب العالم القديم .

وقد كان من المفارقات الغريبة ان صاحب هذه الدعوة للاحتفال بالحياة الدنيا يؤخذ كالمسحور حين سمع موعظة لسافونارولا عام ١٤٨٢ فى الحلقة التى عقدها الرهبان الدومنيكان فى ريجيا اميليا ، لأن سافونارولا هو أولا وأخيرا صاحب كتاب « احتقار الدنيا » وصاحب فلسفة الموت الذى قضى حياته فى اعداد الناس للاعراض عن هذا العالم وتجهيز ارواحهم للعالم الآخر . ولعل الذى سحر بيكو ديللا ميراندولا فى هذه الموعظة

كان شجاعة سافونارولا في التنديد بمفاسد الكنيسة في عصره . وبعد سبع سنوات من هذه الحلقة ظل بيكو ديلا ميراندولا يفرى لورنزو دي مديتشى في ١٤٨٩ باعادة سافونارولا الى فلورنسا حتى استجاب له لورنزو عام ١٤٩٠ وبذلك تغير تاريخ هذه المدينة .



حين عرض بيكو « النتائج التسعمائة » في روما وأراد أن يدافع عنها علنا في مجمع الكراولة عام ١٤٨٧ . قدم لها بمقدمة ضافية تسمى « الخطبة » . وقد اهتم معاصرو بيكو ودارسوه بتحليل هذه الخطبة الضافية لما اشتملت عليه من مبادئ أساسية توضح كثيرا من جوانب أصحاب الفلسفة الانسانية في عصر الرنيسانس . غير أن بيكو لم يستطع القاء « الخطبة » بسبب صدور قرار البابا بتجريم القضايا التسعمائة جملة وإيقاف المناظرة . فكتب بيكو « الدفاع » (الابولوجيا) ليشرح وجهة نظره . أما « الخطبة » فهي تنشر عادة تحت عنوان « في كرامة الانسان » . . فهذا موضوعها . ويعدّها أكثر مؤرخي الفكر بمثابة « مانيفستو » أو « بيان » باعادة اكتشاف الانسان في عصر النهضة الأوروبية يمثل رأى دعاة المذهب الانساني .

وتبدأ الخطبة على الوجه الآتي : الانسان هو عجيبة العجائب في الخليقة وهو أحق المخلوقات بالعجاب والتجيد . غالله خلق كافة الكائنات من جماد ونباتات وحيوان . بل وخلق الملائكة . وحدد لكل مخلوق طبيعة ثابتة ومكانة ثابتة . الا الانسان الذي خلقه الله وأودع فيه القدرة على اختيار طبيعته وتشكيلها بنفسه . الله وضع في الانسان بذور كل أشكال الحياة وهو يستطيع أن ينمي من هذه البذور ما يختاره لنفسه . في استطاعته أن يصبح جمادا أو نباتا أو حيوانا أو ملاكا أو جرما من أجرام السماء ، بل وأن يصبح « ابن الله » متجاوزا كل المخلوقات في الاتحاد مع الله . وقدرة الانسان الخارقة هذه على تشكيل نفسه وفق ارادته هي وراء معتقدات الشعوب ورموزها في مختلف الثقافات والديانات منذ القدم . وفي « الخطبة » سرد لكلام الله آدم يبلغه فيه بهذا الامتياز على كافة المخلوقات وهو يذكرنا بما ورد في القرآن الكريم عن المكانة المتميزة التي حبا بها الله آدم على الملائكة وسائر المخلوقات منذ الخلق الأول .

كان تمجيد بيكو ديلا ميراندولا للانسان استنادا لهذه الحثيات الدينية عملا مرفوضا بالنسبة للكنيسة التي كانت تركز على قدرة الانسان على السقوط منذ العصيان الأول بدلا من أن تركز على قدرته على الكمال . وكان قول بيكو إن الانسان حر في أن يختار طبيعته بنفسه ، وإنه سيد نفسه

ومصيره ، وان عمل الانسان ونشاطه هما اللذان يسيران به الى الرقى أو الانحطاط ، بمثابة تجديد لأنه يلغى دور العناية الالهية أو التدخل الالهى أو « النعمة » الالهية فى انقاذ الانسان من السقوط وتمكينه من العمل الصالح ومن استحقاق الخلاص فى الدار الأخرى سواء بالايمان أو بالمعمودية أو بهما معا . . كما أن فى احياء بيكو أن فى امكان الانسان أن يصبح « ابن الله » زندقة واضحة بالمقياس المسيحى لأنه بمثابة غض من الوهية المسيح وافتراض واضح لطبيعته البشرية وفهم لللاهوت المسيحى و « الكريستولوجيا » على انها مجرد مجموعة من الرموز الاسطورية السامية لا تختلف فى كثير عن قصة ارتقاء هرقل الى مصاف الآلهة بأعماله الصالحة أو قصة آلام برومئوس من أجل انقاذ البشرية عند اليونان .

فنظرية بيكو ديلا ميراندولا بتمام حرية الارادة الانسانية فى تشكيل طبيعة الانسان أفضت الى مجموعة أخرى من النتائج منها اعادة تعريف العلاقة بين الله والانسان واعادة تعريف العلاقة بين الانسان والعالم . وكانت أكمل تعبير عن روح « الفردية » المطلقة الى حد التأله التى تميز بها عصر النهضة الأوربية ، وأكمل تعبير عن روح « الحرية » و « التمرد » العبرى التى شاعت فى كل وجه من وجوه الحياة فى عصر الرينيسانس ، وأكمل تعبير عن روح « الحرية » و « التحدى » و « الثورة » و « المغامرة » وكل هذه المعانى التى تبلورت فى « الشخصية الفاضلية » . وهى التجسيد الأمثل لشخصية الانسان فى الحضارة الأوربية الحديثة بداية من ماركو بولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) حتى رواد الفضاء واللاعبين بالرغوس النووية .

أما حركة صعود الانسان فقد قسمها بيكو ديلا ميراندولا الى ثلاث مراحل هى : تطهير الروح بالفلسفة الأخلاقية وبالجدلية ، وتنوير الروح بالفلسفة الطبيعية وهى تشمل طبعا العلوم والفنون والآداب ، وبلوغ الروح مرتبة الكمال باللاهوت أو الالهيات . ففى فلسفة بيكو ديلا ميراندولا مكان حقا للالهيات فى أعلى السلم من العقل الانسانى ، ولكنها ليست بالضرورة الالهيات التقليدية التى أسست عليها العقيدة المسيحية الكاثوليكية أو غير الكاثوليكية .

خذ مثلا نماذج من « النتائج التسعمائة » التى رفضتها الكنيسة جملة ونوهت بزندقة ثلاث عشرة قضية منها :

هناك قول بيكو إن المسيح « لم يدفن فى العالم السفلى » بمعنى أنه لم يدفن فى القبر ، وهذا يوحى بأن بيكو ديلا ميراندولا كان مطلعا على

القرآن الكريم في نصه العربى لأنه كان يتقن العربية أو على بعض التفاسير الإسلامية للقرآن الكريم . وأنه كان مقتنعا بأنهم « ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وأن الله رفع المسيح « مكانا عليا » . وعلى كل فقد كان مثقفو العالم المسيحى في عصر النهضة الأوروبية ، ولاسيما في الأوساط الجامعية ، على علم كاف بأساسيات العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامى والفلسفة الإسلامية من خلال تشتت علماء الأندلس في عديد من جامعات أوروبا .

وهناك أيضا قول بيكو في « النتائج التسعمائة » إن الصليب والصور الدينية لا ينبغى أن تقدس بنفس الطريقة التى يقّس بها الله . . وانزعاج الكنيسة الكاثوليكية من هذا المبدأ لا تفسر له إلا انها اشتتت فيه اتهاما لها بأنها قد انحدرت الى الوثنية .

وهناك أيضا رأى بيكو أن الكبائر أو ما يسمى في العرف الكاثوليكي « بالخطايا السبع القاتلة » كالقتل والزنا والطمع والكبرياء . . الخ . لا يمكن أن تستحق العقاب بالجحيم الأبدى لأنها ترتكب في حياة الإنسان المحدودة بالزمن . فما كان محدودا لا يمكن عقابه بالألا محدود . . وهنا أيضا يبدو أن بيكو كان متأثرا بالعقيدة الإسلامية والفكر الإسلامى . فالله فيهما يمكن أن يغفر كل ذنب فيما خلا الشرك .

كذلك هناك أكثر من قضية في « نتائج » بيكو تتعلق بالقربان المقدس عند المسيحيين وتحول لحم المسيح ودمه الى الخبز والنبيذ .

وليس من الضرورى أن نفترض أن مصادر فكر بيكو كانت كلها إسلامية أو عربية فهناك من فقهاء الدين المسيحى أمثال أوريجن الاسكندري (١٨٣ — ٢٥٤) الذى ذهب الى نظرية الغفران الشامل في الآخرة ، وكان ينزع مثل بيكو الى فهم المسيحية فهما مجازيا ، وقد رفضت الكنيسة الغربية تخريجاته . وهناك أريوس الاسكندري (٢٥٦ — ٣٣٦) الذى أنكر وحدة الثالوث وبالتالي أنكر الوهية المسيح . وقد رفضت الكنيسة رأيه في مجمع نيقية عام ٢٣٥ . كما انه كان يرى أن المسيح لم يصلب الا في الظاهر فقط ، وهو نفس ما قاله بيكو ديللا ميراندولا بتفسيره الرمزي للعقيدة المسيحية . وقد ذكر بيكو أوريجن بالفعل بين مصادر وطالب الكنيسة بالاعتراف به . ومع ذلك فقد كانت المصادر الإسلامية والمصادر المسيحية المرفوضة من الكنيسة كلها متاحة أمام بيكو في عصره الذى كان يهوج بالأمكار الجديدة والقديمة الخلاقة .

وقد انقرضت أكثر اعتراضات بيكو على اللاهوت المسيحى . ولكن بقيت بعض هذه الاعتراضات وغدت جزءا لا يتجزأ من المعارك الفكرية واللاهوتية التى اقترنت بحركة الاصلاح الدينى فى عصر النهضة الاوربية ، واقترنت بظهور المذاهب البروتستانتية المختلفة . مثال ذلك معركة الجبر والاختيار ، ومعركة الصور والتماثيل ، ومعركة « اليوخاريست » أو العشاء الربانى وتحول جسد المسيح الى الخبز والنبيذ .

حتى مشكلة اللغة التى اثارها بيكو ديلا ميراندولا فى كتاباته كانت وجها هاما من معركة لغة التعبير التى لازمت خروج اوربا من عصرها الوسيط الى عصرها الحديث . فقد كان بيكو ديلا ميراندولا من دعاة كتابة البحوث الفلسفية واللاهوتية بلاتينية مبسطة سهلة الفهم على المثقف العادى . وكانت تعرف فى عصره « بأسلوب باريس » . . بينما كان كرادلة روما يتشيعون للاتينية الكلاسيكية الفصحى العالية البلاغة . . او ما كان يسمى يومئذ « اسلوب شيشرون » ، بل وكانوا يتمصبون لهذه اللغة الفصحى ويعدونها لازمة لاكتمال الايمان .

ونحن اليوم نربط بيكو ديلا ميراندولا بحركة الهيومانزم او المذهب الانسانى . . وهى حركة تمثل فى جوهرها التيار العلمانى فى عصر النهضة الاوربية . . باستثناء عدد محدود من كبار المفكرين مثل إرازموس والسير توماس مور الذين اقترنت اسمائهم بما يسمى « الهيومانزم المسيحى » ممن دعوا لتمجيد الانسان وعلومه وفنونه وآدابه ولكن رفضوا تمزيق العروة الدينية التى قامت عليها الكنيسة الجامعة (اى الكاثوليكية) وتمسكوا بوحدة العالم المسيحى .

ولكن معاصرى بيكو ديلا ميراندولا الذين كتبوا عنه قبل وفاته وبعد وفاته . . مثل باولو كورتيزى مؤلف كتاب « اعلام العلماء » فى ١٤٩٠ و « كتاب الحكم » (جمع حكمة) فى ١٥٠٤ وكتاب « الكاردينال المثالى » فى ١٥١٠ . . كانوا لا يرون فيه كل هذه العلمانية التى ننسبها اليه . وانما كانوا يرون فيه مفكرا دينيا فى المقام الاول ، بل ويدافعون عن صحة تأملاته اللاهوتية . وقد حاول كورتيزى ان يصوره فى صورة « الكاردينال المثالى » بالرغم من اتهام الكنيسة اياه بالزندقة . وهو نفس رأى السير توماس مور فيه .

كان الكاردينال المثالى عند كورتيزى هو نقيه الدين الذى يعمل العقل فى الدين ليتغلب على كل ما يتحدى العقل فى الدين . . وربما كان هذا الموقف

من بيكو ديللا ميراندولا هو التقدير الصائب لفلسفته حول الله والانسان
التي يمكن أن تكون تعبيرا عن محاولته التوفيق بين أفلاطون وأرسطو .

وبذلك لا تبقى الا نقطة محيرة واحدة . وهي انجذاب أكبر مدافع عن
شرف الانسان انجذاب المسحور الى أكبر داعية لاحتقار الدنيا ، فقد
أوشك سافونارولا أن يقود بيكو ديللا ميراندولا الى عتبة دير سان مارك
في فلورنسا .



ليوناردو دافنشى

LEONARDO DA VINCI

١٤٥٢ - ١٥١٩

□ كما نقول إن عصر النهضة الإيطالية بدأ في الأدب بالشاعر دانتي ، كذلك فلنقل انه بدأ في الفنون التشكيلية بالفنان جيوتو (١٢٦٦ - ١٣٣٧) الذى كان معاصرا لدانتي . وكما نقول ان ادب دانتي كان يمثل عصر الانتقال من العصور الوسطى الى بدايات العصر الحديث . فلنقل أيضا ان فن جيوتو كان يمثل هذا الانتقال ، من حضارة العصور الوسطى الى حضارة الرئيسانس ، ففيه من هذه وتلك شيء كثير .

هذا القلق الحضارى الذى تجلّى — ولا يزال — فى كل وجه من وجوه الحياة الأوروبية منذ نحو ١٣٠٠ بدأ باليلاد الجديد لفن التصوير بظهور جيوتو ، ثم باليلاد الجديد لفن النحت ، ثم بالتحول العميق الذى أصاب فن العمارة فتطورت من الطراز القوطى الى الطراز الكلاسيكى الجديد . . عبر « الكواترو تشنتو » ، أى من ١٤٠٠ الى ١٤٩٩ ، أى القرن الخامس عشر ثم عبر القرن السادس عشر ، الى ان تصدعت الكلاسيكية الجديدة وحلت محلها مدرسة الباروك ، او مدرسة « الإغراب » .

كان جيوتو يقف مثل دانتي بين عالمين : كان ينتمى الى العصور الوسطى لأن الهامه كان الهام دينيا محضا لا مكان فيه للتصوير الدنيوى ، ولأن اكتشافه للبعد الثالث او ما يسمى بالمنظور ، وهو العمق الذى به تتجسم المرئيات والصور والتماثيل وكل كتلة تقع عليها عين الانسان ، كان اكتشافا تقريبا لا يقوم على أسس علمية .

كانت أوروبا قد نسيت نحو ألف عام فن التجسيد أو التشكيل حيث تبدو المرئيات مجسمة كما هى فى الطبيعة . نسيت التجسيد أو التشكيل بسبب الحضارة المسيحية التى سادتها أكثر من عشرة قرون . ولأنها دخلت فى معارك حياة أو موت مع الحضارات الوثنية السابقة على ظهور التوحيد . عاشت فى جزع قاتل من كل ما هو مجسد فى الفن أو فى الحياة .

وبعد أن دمر المسيحيون الأول كل ما وصلت اليه أيديهم من أصنام الآلهة والبشر وصورهم خشية عودة الوثنية ، انقرض فن النحت تماما . ولم يبق من فن الرسم الا الزخارف التجريدية من الأمشاق الهندسية المتكررة أو أمشاق الأزهار وأوراق الشجر ، والا بعض الصور المقدسة (لدى المسيحيين) المسطحة ذات البعدين بالفسيفساء الشائعة في الفن البيزنطى ، أو بالزجاج الملون المعشق بالرصاص الشائع في نوافذ الكاتدرائيات القوطية في أوروبا الغربية .. ولم ينج من هذا الاضطهاد الا فن العمارة لحاجة الدين اليه في بناء دور العبادة ، ولحاجة الأمراء اليه لبناء الحصون والقلاع والقصور .

كان البعد الثالث أو العمق مرادفا للوجود في المكان والزمان . والمكان والزمان هما دار الفناء . والاستعداد للحياة الأبدية يقتضى التجرد من الجسدانية الفانية أو من الحياة الدنيا . لهذا فقد كان مجرد اشتغال جيو تو بالتصوير التجسدي « الفيغوراتيف » أى بالبعد الثالث ، مهما كان اجتهادا في البدايات .. حدثا ضخما لأنه كان بمثابة التقاء الدين والدنيا . لقد كسرت الحواجز التى كانت قائمة بين الدنيا والآخرة .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح ممكنا أن نخلد ذكرى العظماء بالتماثيل والصور ونحى ذكرى الأحياء بالرسوم والأيقونات دون أن نتهم بالوثنية .. لاننا ندرك أن رموز الفن ورموز العقيدة مستويان مختلفان . بل مستويات مختلفة .. فى الإدراك الإنسانى .. ومنذ ذلك التاريخ أصبح ممكنا للفن أن يقلد الطبيعة والحياة أو أن يبدع منهما ابداعا خلاقا دون أن يتهم الفنان بالشرك أو الردة الى اقامة الأصنام . وكان كل ذلك انتصارا للإنسان .

وبازدهار العلوم والآداب والفنون الإنسانية . ذلك الازدهار الذى اقترن باحياء حضارة اليونان والرومان .. استوحى فنانون عصر النهضة الأوروبية فنون النحت والتصوير والعمارة عند القدماء شكلا وموضوعا . أما من حيث الشكل فقد سيطرت قوانين التجسيد والتكوين والحركة درجة درجة على مصورى عصر النهضة الإيطالية ومثاليه حتى بلغت أوجها بعد قرنين من التطور التدريجى فى فن الأقطاب الثلاثة : ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) ورفاييل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) وميكلانجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) . أما من حيث الموضوع فقد شاع فى فن عصر النهضة استحياء الأساطير والموضوعات اليونانية والرومانية الى جانب استحياء القصص الدينى المسيحى والموضوعات الدينية المسيحية . وشاع الاهتمام بتصوير الطبيعة والحياة .. وشاع الاهتمام بتصوير أعلام الناس رجالا ونساء أو نحت تماثيلهم .. وشاع الاهتمام بتصوير أجسام الرجال والنساء بدقة تضاهى

دقة الطبيعة .. وبوجه عام كان فنانون الرنيسانس — كما كان 'فنسانو اليونان القديمة .. يرون في كمال أجسام الرجال جمالا يفوق جمال أجسام النساء .

وقد أدت الرغبة في تقليد الطبيعة والحياة الى اكتشاف قوانين التجسيد من جهة ، والى الاهتمام بدراسة التشريح من جهة أخرى . وكانت أكبر ثورة قام بها فنانون الرنيسانس هي اكتشاف أهم قانون من قوانين التجسيد ، ألا وهو قانون « المنظور » الذى به تأخذ المرئيات بعدها الثالث ألا وهو « العمق » (أو الارتفاع) .. فلا تبدو المرئيات مسطحة بالطول والعرض وحدهما . وأساس هذا القانون هو أن الأجسام تبدو أصغر وأصغر ببعدها أكثر وأكثر عن خط النظر ، وأن الخطين المتوازيين يبدوان أضيق فأضيق ببعدهما عن خط النظر حتى أنهما يلتقيان بالوهم في عين الناظر إذا امتدا بالدرجة الكافية . (أما في علم الهندسة فالخطان المتوازيان لا يلتقيان مهما امتدا) . ولم يكن الأقطاب الثلاثة ، ليوناردو دافنشى ورفاييل وميكلانجلو أول من اكتشفوا أهمية البعد الثالث أو التشريح ، ولكنهم كانوا أول من بلغوا بهما حد الكمال .



ولد ليوناردو دافنشى في ١٥ أبريل ١٤٥٢ في قرية انكبارى بالقرب من بلدة فنشى في ريف مقاطعة توسكانيا بجوار مدينة فلورنسا . وكان ابنا غير شرعى لحام ورجل أعمال ناجح يعمل موثقا للعقود اسمه بييرو دافنشى، من فتاة ريفية فقيرة تدعى كاترينا . وقد تزوج الأب في نفس عام ميلاد ليوناردو من فتاة من نفس مركزه الاجتماعى . أما الأم فلم تلبث أن تزوجت بعد انجاب ليوناردو من رجل رقيق الحال من بيئتها . وقد قبلت ليوناردو الصغير منذ مولده أسرة أبيه ، وتم تربيته في حضور الأسرة وعشرة أشخاص آخرين . وتولت تربية ليوناردو امرأة أبيه ، ولكن الأب تزوج بعد ذلك ثلاث مرات وأنجب أبناء كثيرين بلغ عددهم عشرة .

ولا نعرف الكثير عن حداثة ليوناردو غير أنه عاش في فنشى حتى سن الثالثة عشرة أو السابعة عشرة ، وأن تعليمه الابتدائى كان بسيطا ، إلا أنه أظهر استعدادا واضحا للرياضيات والهندسة والفنون التشكيلية ، وأنه لم يتعلم اللاتينية في صباه ، ولكنه علم نفسه اللاتينية قراءة وكتابة بدرجة كافية حين بلغ سن الأربعين . كذلك نعرف عن الصبى ليوناردو أنه كان شديد الالتصاق بأبيه ، ولكنه كان يقضى أكثر وقته خارج البيت ، غالبا

للتألف مع الطبيعة أو لعله كان حائرا بين أبيه وأمه .. كذلك لوحظ عليه أنه كان محبا للوحدة .

ويبدو أن ليوناردو كان في فنشى وحيدا بلا أصدقاء . ولكنه لم يكن يتململ من ذلك أبدا . وقد كتب يقول : « اذا كنت وحيدا ملكت نفسك » . وهناك احتمال أن يكون وضعه كابن غير شرعى قد سبب له المتاعب . فى حدائته سواء فى البيت أو فى المدرسة أو فى مجتمع فنشى الريفى الصغير ، فأدى ذلك الى انطوائيته وعزوفه عن مخالطة الناس .. بل والى عقده النفسية الكثيرة التى انتهت به الى الخوف من المرأة رغم أنه كان بشهادة كل معاصريه بالغ الوسامة والرثاقاة والأناقة .. بل وانتهت به الى الشذوذ الجنسى غالبا حتى لا يكرر غلطة أبيه .

أما أمه فقد انقطعت أخبارها . غير أننا نسمع أن ليوناردو حين بلغ سن الأربعين كان يقيم فى ميلان وكان يستخدم مدبرة منزل اسمها كاترينا توفيت غالبا أثناء العمل عنده . وقد دفنها على نفقته . وقيل إنها أمه .

وكان لليوناردو أخ اسمه فرانثيسكو أنجب غلاما فكتب اليه ليوناردو يقول « أنت سعيد لأنك خلقت لنفسك عدوا حريصا على استخلاص حريته التى لن ينالها منك قبل موتك » . فإذا كانت هذه العبارة تعبر عن شعور ليوناردو نحو أبيه فى مكنونات عقله الباطن .. شعور البغض الدفين بين الولد والوالد ، وربما بين الوالد والولد ، فربما أمكن بذلك تفسير شذوذ ليوناردو الجنسى على غرار ما حاول فرويد أن يفعله فى بحثه عن ليوناردو دافنشى .

وهناك وثيقة تثبت أن الوالد بيرو دافنشى عين رسميا موثق عقود السنيورية فى فلورنسا عام ١٤٦٩ .. ومن هذا نستدل على أنه انتقل الى فلورنسا فى تلك السنة حين كان ابنه ليوناردو فى السابعة عشرة من عمره .. وقد أثرى بيرو من زبائنه الخصوصيين حتى أنه امتلك شقة فى قصر البوديسستا فى فلورنسا واستأجر بيتا آخر فى المدينة كما أنه امتلك فيلا فى بلدة فنشى . ولا نعرف ان كان الأب قد اصطحب ابنه الى فلورنسا مع انتقاله اليها .

ولكننا نعرف ان الأب لاحظ نجابة ابنه فى فن الرسم منذ أن كان غلاما فى فنشى يرسم المناظر الطبيعية .. فعرض بعض رسومه على الفنان الشهير أندريا ديل فيروكيو (١٤٣٥ — ١٤٨٨) .. وهو رسام نحات ومعماري فى وقت واحد ، فقد كانت عادة الفنانين فى تلك الأيام أن يشتغلوا بالفنون التشكيلية جميعا فى وقت واحد .. وكان ذلك فى فترة ما بين ١٤٦٤

و ١٤٧٠ . . فقبله فيروكيو تلميذا في مرسمه . وفي ١٤٧٢ قبل ليوناردو دافنشي عضوا في « جماعة سان لوكا » ، وهي نقابة الفنانين التشكيليين في فلورنسا .

كذلك نعلم أن فيروكيو احتفظ بليوناردو دافنشي مساعدا له لمدة خمس سنوات بعد دخول ليوناردو دافنشي نقابة الفنانين التشكيليين . . ونعلم أن ليوناردو دافنشي كان في ١٤٧٦ يقيم مع فيروكيو . ومعنى هذا أن ليوناردو دافنشي ظل على صلة وطيدة بأستاذه فيروكيو ، تلميذا ومساعدا سبع سنوات على الأقل من ١٤٧٠ الى ١٤٧٧ ، أي بين سن ١٨ و ٢٥ . وقد اعترف فيروكيو فيما بعد بأن تلميذه تفوق عليه . وكان رأي ليوناردو دافنشي الذي دونه هو قوله : « من لا يتفوق على أستاذه فهو تلميذ متخلف » .

وفي ١٤٧٦ . . أي حين كان ليوناردو دافنشي في الرابعة والعشرين من عمره . . اتهم مع عدد من شبان فلورنسا بالشذوذ الجنسي . ولكن بعد جلستين من المحاكمة حفظت القضية لعدم كفاية الأدلة . غير أن أكثر الباحثين في سير الأعلام يجمعون على صحة هذا الاتهام . ولفرويد بحث هام في هذا الموضوع .



كانت لفروكيو وليوناردو دافنشي اهتمامات مشتركة، غير التصوير والنحت والعمارة والموسيقى . . كانا يهتمان بالرياضيات والهندسة والتشريح . وقد ترك لنا ليوناردو دافنشي مئات من الرسوم التشريحية التي يعدها البعض دراسات في علم التشريح . . ولكن أكثر هذه الرسوم لا تتجاوز التسجيل الظاهري . . أي تسجيل الفنان لا الطبيب . ومع ذلك فقد تجاوز ليوناردو دافنشي في بعض هذه الدراسات التشريحية اهتمامات الفنان ودخل منطقة العلم المتخصص .

ويقال إن أول من علم ليوناردو دافنشي علم التشريح كان الفنان فيروكيو . ويقال أيضا أن ليوناردو دافنشي درس التشريح دراسة منظمة في فلورنسا مع طلبة الطب .

ولما كنا نعرف أن لورنزو دي مديتشى نقل جامعة فلورنسا ، وفيها كلية الطب ، الى بيزا بمجرد انتقال ليوناردو الى فلورنسا فيمكن أن نستخلص أن ليوناردو دافنشي لم يتعلم التشريح مع طلبة الطب الا فترة وجيزة . وعلى كل فقد كتب ليوناردو نفسه يقول « وقد رأيت تشريح من

نفذ فيهم حكم الاعدام شنقا » ، وهو هنا غالبا يشير الى من جرى اعدامهم في مؤامرة باتزى عام ١٤٧٧ . وهناك كتاب لمؤلف مجهول معاصر يقول ان ليوناردو قام بتشريح جثث كثيرة في مستشفى سانتا ماريا الجديدة ، ولكن هذا يشير الى تاريخ اقامته الثانية في فلورنسا وليس الى فترة التكوين .

كان التشريح معروفا عند اليونان ثم في مدرسة الاسكندرية ثم عند العرب . ويقول أرسطو في « خلق الحيوانات » (٧/١) إن تعليم التشريح ينبغي أن يتم برسوم ايضاحية . وكان هيروفيلوس وراسيستراتوس ، عالما التشريح في مدرسة الاسكندرية يستعملان الرسوم الايضاحية عند شرح تشريح جسم الانسان . وكان علم التشريح أولا يوضح بالصور خمسة أشياء : العظام والعضلات والأعصاب والأوردة والشرايين ، ثم أضيف الى ذلك منظر المرأة الحامل ومنظر الأعضاء التناسلية عند الرجل وعند المرأة . وهذه هي التقاليد التي ورثها العرب ثم أحيها الأوربيون وجددوها وأضافوا اليها منذ عصر النهضة الأوربية .

وبضمور الحضارة الأوربية مات علم التشريح طوال العصور الوسطى ، ولم يبق منه الا تشريح الحيوانات ، لأن الكنيسة حرمت تشريح الجثث الأدمية خوفا من آثار التشريح الوخيمة على البعث في الدار الأخرى . وفي ١٣٠٠ أصدر البابا بونيفاتشيو الثامن مرسوما اسمه « موضوع القبر — — — » يعلن فيه تطبيق قرار الحرمان على كل من يخلو عظام ميت ولاسيما من المشاركين في الحروب الصليبية لتيسير حفظها ونقلها لتدفن في وطن صاحبها . . . وكان أول ذكر لعملية التشريح في ايطاليا عام ١٢٨٦ ، وكانت محاولة لمعرفة أسباب وفاة رجل توفي بالطاعون . . . وكانت هذه ارهاصة ببداية البحث العلمي الموضوعي الذي أدى ازدهاره الى نهضة أوروبا في العصر الحديث . وفي ١٣٠٢ جرت في بولونيا محاولة أخرى بالتشريح لمعرفة سبب وفاة رجل اشتبه انها جنائية ، وهو شيء قريب مما يفعله الطب الشرعي في العالم الحديث .

وكانت أول محاولة علمية في الموضوع ظهرت في أوروبا الحديثة هي كتاب موندينوس (١٢٧٠ — ١٣٢٦) ، « علم التشريح » (باللاتينية) ، عام ١٣١٦ ، وهو كتاب متأثر الى حد كبير بعلم الطب عند العرب ، والكتاب يتناول تكوين جسم الانسان ووظائف أعضائه . وقد اعترفت جامعة فلورنسا بعلم التشريح في ١٣٨٧ ثم اعترفت به جامعة بولونيا في ١٤٠٥ ، ثم جامعة بادوا عام ١٤٢٩ ، ومع ذلك فقد ظلت الرسوم الخمسة أو الستة المتوارثة كشرح لعلم التشريح سائدة حتى القرن السادس عشر .

وحين كتب فيزاليوس كتابه الشهير « اللوحات التشريحية » في ١٥٣٨ لم يصف جديدا وانما قدم المتوارث ولكن في اتقان شديد .

وكان الأطباء من قبل يحتقرون عادة هذه الشروح المصورة التقليدية لرداءة رسومها ، ويرون أنها لا تناسب الا حلقى الصحة . ولكن الفنانين بدءوا منذ جيوتو يهتمون بهذه الرسوم التشريحية ليستعينوا بها في تصوير الجسم الانسانى بواقعية شديدة . بل ان الفنانين في فلورنسا ، المصورين والمثالين ، انضموا منذ ١٣٠٣ الى نقابة الصيادلة والأطباء بسبب هذا الاهتمام بالتشريح ، وكان اهتمامهم بالتشريح لبلوغ الكمال في تقليد الطبيعة كلما تصدوا لرسم الأجسام العارية .

ثم بدأ الفنانون يقومون بالتشريح بأنفسهم ، وكان من أسبقهم الى ذلك المثال دوناتيللو (١٣٨٦ — ١٤٦٦) . وروى عن الفنان أنطونيو بولايولو (١٤٣٢ — ١٤٩٨) أنه كان يسلخ الجلد من الجثة ليدرك العرى الحقيقى ، وله صورة « معركة العرايا العشرة » ، التى تعد أهم دراسة في التشريح الظاهرى قبل ليوناردو دافنشى ، ولاسيما من حيث تكوين العضلات . وبالمثل اهتم فيروكيو ، تلميذ دوناتيللو وبولايولو وأستاذ ليوناردو دافنشى بعلم التشريح ، وعنه أخذ ليوناردو هذا العلم . كذلك روى عن الفنان لوكا سنيويللى (١٤٤٢ — ١٥٢٤) انه كان يزور المقابر بحثا عن أشلاء يدرس عليها علم التشريح . وربما كانت هناك مبالغاة في هذا الصدد لأن بعض الفنانين يعدون من شواذ الناس ، أو ربما رغبة من أعداء الفنون الجميلة في التشهير بالفنانين واطهارهم في صورة شيطانية . ومع ذلك فالثابت أن فيزاليوس علامة الطب ، كتب في ١٥٤٦ يقول ان المصورين والمثالين كانوا يتجهرون حوله أثناء اجرائه لعمليات التشريح .

غير أننا بوجه عام نستطيع أن نقول ان اهتمام الفنسانين كان بسطح الجسم وليس بالتشريح الحقيقى . فاهتمامهم الأول كان بالعظام والعضلات والأوعية الدموية الظاهرة وبلون الجلد وبلون اللحم الحى وبكل ما يدخل في باب التكوين . وقد كان ليوناردو دافنشى أقرب الفنانين الى دراسة التشريح بوصفه علما وفنا .

لا نعرف كيف تعرف ليوناردو دافنشى على لورنزو دى مديتشى . . ولكننا نقرأ في المؤلف المعاصر المجهول أن لورنزو حين اكتشف موهبة ليوناردو جعله يعمل في حديقته في ميدان سان ماركو وربما تدخل لتكليفه برسم الصورة في المذبح في كنيسة السنيورية عام ١٤٧٨ . كذلك نقرأ قول ليوناردو دافنشى فيما بعد : « لقد بنانى آل مديتشى وحطمونى » ،

فنعرف أنه مدين بشيء كثير للورنزو دي مديتشى ولكننا نعرف أيضا أن البابا ليو العاشر ، وهو من آل مديتشى ، كان يضع أمامه العراقيل أيام إقامته في روما ، ويقدم عليه المصور رفاييل .

وكان أول عقد فنى وقعه ليوناردو دافنشى في ١٤٧٨ وهو في سن السادسة والعشرين . ولكنه كان دائما يتوخى الكمال في عمله ، ولذا فقد كان بطيئا في عمله وكثيرا ما لا ينجز ما بداه . ولهذا قل زبائنه وشاع عنه أنه لا يعتمد عليه . حتى لورنزو دي مديتشى الذى كان معجبا بفننه لم يكفه بأى عمل له . وكان ليوناردو نفسه لا يكتفم سخطه على لورنزو وعلى حلقة المثقفين المتعلقين بأهدابه ويترفع عليهم ويصفهم بأنهم من طلاب المنافع .

وفي ١٤٧٨ كان ليوناردو دافنشى لا يزال في فلورنسا عندما جرت مؤامرة باتزى التى استهدفت اغتيال لورنزو دي مديتشى وأخوه جوليانو والإطاحة جملة بآل مديتشى وبحكمهم ، ولكنها لم تنجح الا في قتل جوليانو ، وخرج منها لورنزو أقوى مما كان . وفي ديسمبر رسم ليوناردو جثة أحد القتلة وهو باندينو بارونتشيللى ، مشنوقا من نافذة قصر السنيورية . وقد تعرف ليوناردو في ١٤٧٨ على عاهل ميلانو ، لودوفيكو سفورزا ، حين زار فلورنسا ليهنئ صديقه لورنزو بسلامة النجاة وليعزيه في موت أخيه جوليانو . وكان لورنزو هو الذى عرف ليوناردو بأمر ميلانو ، وقد أفضى ذلك الى أن ليوناردو دافنشى انتقل الى ميلانو في فترة ما بين ١٤٨١ و ١٤٨٣ ، ليلتحق ببلاط الدوق لودوفيكو سفورزا حاكم ميلانو .

هكذا قضى ليوناردو دافنشى الفترة الأولى من حياته في فلورنسا ، أكثر من عشر سنوات ما بين ١٤٧٠ و ١٤٨٠ ، قبل انتقاله الأول الى ميلانو . قضائها تلميذا للفنان فيروكيو ثم مساعدا له . فماذا أضاف ليوناردو للفن خلال هذه السنوات العشر ؟

هناك من فترة التلمذة جزء من صورة رسمها فيروكيو اسمها « يوحنا يعمد المسيح » ، وقد رسم ليوناردو في ركنها الأيسر صورة ملاك باللغة الاتقان جعلت فيروكيو يقسم أنه سيهجر الرسم بعد ظهور هذا الفنان المعجزة ، وبالفعل انصرف فيروكيو بعد ذلك الى فن النحت .

كذلك تنسب الى ليوناردو دافنشى في فترة فلورنسا الأولى صورة « بشارة مريم » التى رسمها أثناء عمله في أتلييه فيروكيو . وتتميز هذه الصورة بالتفصيل الشديد في رسم جناحي الملاك ، على غير الأسلوب

التقليدى فى القرن الخامس عشر . كذلك نجد ثوب المادونا ، اى مريم العذراء ، يتميز بشدة الواقعية والمطابقة للقماش الحقيقى الذى كانت تصنع منه الاثواب ، وقد كان الرسامون التقليديون يرسمون الثياب من الخيال . وشاع ان ليوناردو الشاب كان يستعمل موديلات حقيقية من الحياة ، يرسمها اولا بالتفصيل قبل ان ينقلها بالزيت على القماش او على الكرتون او على الجدران ، كما كان يدرس طيات الثياب وطريقة سقوطها عند الجلوس او الوقوف وفى مختلف الاوضاع . كان المهم عند ليوناردو دافنشى هو تقليد الطبيعة باقصى دقة ممكنة . وقد قلده معاصروه فى ذلك تقليدا حرفيا . ولم ينبغ منهم حقا فى حياة ليوناردو غير رفايل وميكلانجلو .

ومن آثار فترة فلورنسا الاولى « المادونا ذات الزهرية » (ربما من لوحات ١٤٧٠) . ومثلها صورة سيدة اسمها جينرفا وهى من عائلة بنشى المعروفة فى فلورنسا ، وتسمى فى تاريخ الفن « جينرفا دابنشى » . وهى غالبا من حصاد ١٤٧٤ . وتعد هذه الصورة المقدمة التمهيدية للصورة النصفية التى نعرفها فى أشهر نموذج لها ، وهى صورة « الموناليزا » المعروفة بالجيوكوندا . وهى الآن فى متحف اللوفر بباريس .

وفى ١٤٨١ رسم ليوناردو دافنشى صورة « ملوك المجوس يعبدون المسيح » ، وهى صورة ناقصة بعض الشيء ، ومع ذلك لمعظمها الفنية تسطع ، لأنها رغم تعدد الأشخاص فيها ، بل تكديسهم ، تجعل مريم والطفل فى بؤرة المنظر ، كما ان الملوك الثلاثة واضحون تماما وسط حشد الشباب والشيوخ والخيول والفرسان والخلفية من العمارة المتداعية . . وقد توصل ليوناردو دافنشى الى ابراز العمق الواضح فى الصورة عن طريق التكوين الهرمى ، كما ان التعبيرات على وجوه الناس آية فى الدقة .

ثم جاءت مرحلة ميلان الاولى التى امتدت نحو ثمانية عشر عاما ، من نحو ١٤٨٢ حتى نهاية ١٤٩٩ ، فقد ارسل لورنزو دى مديتشى ليوناردو دافنشى ، وقد قارب الثلاثين من عمره الى صديقه وحليفه لودوفيكو سفورزا عاهل ميلان حاملا اليه هدية هى عود مصنوع من الفضة ، وكانت هذه طريقة لبيعة لتزكية ليوناردو عند حاكم ميلان .

ولا احد يعرف لماذا « تنازل » لورنزو ، وهو الحريص على تجميع المواهب ورعايتها فى فلورنسا ، لصاحبه لودوفيكو عن ليوناردو دافنشى بهذه السهولة رغم ايمانه بعبقريته . اما التفسير المألوف فهو لانه وجد ان فلورنسا كانت متخمة بالعبقرات الفنية بينما ميلان بحاجة اليها . وهو تفسير غير كاف لان ميكلانجلو كان يومئذ لا يزال فى السادسة من عمره ،

ولورنزو دى مديتشى لم يتبن ميكلانجلو الا يافعا . ثم ان مدرسة فيروكيو (١٤٣٥ — ١٤٨٨) ودوناتيلو (١٣٨٦ — ١٤٦٦) من قبله ، كانت فى سبيلها الى الانقراض أو انقرضت بالفعل ولكن ، هناك احتمال أن فضيحة الشذوذ الجنسى التى ثارت حول ليوناردو أثناء اقامته مع فيروكيو عام ١٤٧٦ جعلت لورنزو دى مديتشى يتخرج من ضم ليوناردو رسميا الى بلاطه كما فعل مع ميكلانجلو .

وهناك خطاب كتبه ليوناردو دافنشى فى تلك الفترة موجهها الى لودوفيكو سفورزا يشبه طلبات الاستخدام ويعدد فيه ليوناردو مواهبه وقدراته كمهندس عسكرى وعالم رياضى ومهندس معمارى ومثال ، ولا يذكر صفته كفنان مصور الا فى آخر القائمة .

وفى ١٤٨١ استولى الدوق لودوفيكو سفورزا على السلطة فى ميلان بموجب انقلاب قام به على الحاكم الشرعى ، وهو ابن أخيه . فقد كان يحكم ميلان أصلا الدوق جالياتزو ماريا ، وبعد اغتياله كان وريثه فى الحكم جيان جالياتزو ، وكان عمره سبع سنوات ، فكان رسميا تحت وصاية أمه بونا دى سافوى ، ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد سكرتير الدوقية السابق ، وتدعى سيمونيتا ، فقام الدوق لودوفيكو سفورزا بانقلابه الذى أطاح فيه بنظام الوصاية وأصبح هو الحاكم الحقيقى لميلان بوصفه حامى الدوق الصغير ، ثم انفرد هو بالحكم رسميا رغم أن جيان جالياتزو عاش حتى ١٤٩٤ .

وقد أدى هذا الانقلاب الى ظهور حلف نابولى وميلانو وفلورنسا الذى انضم الى غيرارا . وكانت البابوية والبندقية تعترضان على هذا التحالف بعدوانية ، ولكن رغم انسحاب البابوية والتصالح مع البندقية ، استمرت الفتن الاقطاعية فى ايطاليا بتشجيع من البابوية . وبدأت فرنسا تطالب بحقها الوراثى فى ملك نابولى ثم فى ميلانو ، وقويت مشكلة التدخل الفرنسى المسلح للاستيلاء على هاتين الدولتين .

وواضح ان خطاب ليوناردو دافنشى الى لودوفيكو سفورزا ، الذى يعرض ليوناردو فيه كفاءاته كمهندس وخبير فى بناء الاستحكامات قبل كفاءاته كفنان ، قد كتب فى هذا الجو المشحون بنذر الحرب . وهكذا دعى ليوناردو دافنشى للعمل فى بلاط دوق ميلان ، فاشتغل بين ١٤٩٢ و ١٤٩٨ كمهندس استحكامات ومهندس للديكور الداخلى .

وفى ميلان تعرف ليوناردو دافنشى الى رجلين من أهم رجالات عصره ، هما عالم الرياضيات لوكا باتشيولى والمهندس المعماري دوناتو دانيولو

الشهير باسم برامانتى (١٤٤٤ — ١٥١٤) ، وهو الذى بنى كاتدرائية القديس بطرس فى روما ، وكان برامانتى هذا يشارك ليوناردو دافنشى حبه لعلم الميكانيكا الى حد الهوس . وحين انتقل ليوناردو الى بافيا مع الدوق لودوفيكو سفورزا اقام مع الدوق فى حصن المدينة ، وكانت به مكتبة هائلة فعكف ليوناردو على دراسة التشريح مع استاذ معروف يدعى مارك انطونيو ديلا تورا ، وعلى دراسة الرياضيات مع كاردانو استاذ الرياضيات بجامعة بافيا وقد اطلع فى هذه المكتبة على بعض الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية فى التشريح والرياضيات .

وفى ١٤٩٢ دعا لودوفيكو سفورزا شارل الثامن لغزو ايطاليا والاطاحة بالفونسو دى اراجون ، ملك نابولى الطامع فى عرش ميلان بسبب زواج ابنه من جيان جالياتزو الوريث الشرعى لعرش ميلان . وبالفعل اجتاح شارل الثامن من ١٤٩٤ ايطاليا كلها بتواطؤ ميلان . وهنا أدرك لودوفيكو سفورزا خطاه فى الاستعانة بقوات اجنبية لتثبيت عرشه فى ميلان ، فانضم الى التحالف المقدس فى ١٤٩٥ مع البندقية والبابوية واسبانيا ومكسميليان امبراطور النمسا لطردهم من فرنسا . ولكن بعد موت شارل الثامن غزا خلفه لويس الثانى عشر ملك فرنسا ميلان من جديد فى ١٤٩٨ ، واستولى عليها فى ١٤٩٩ ، وكان معجبا بفن ليوناردو دافنشى فعرض عليه العمل فى بلاطه ولكن ليوناردو اعتذر وترك ميلان فى نفس العام مع المهندس برامانتى والفنان كاراسو والعالم باتشيولى وغيرهم . أما لودوفيكو سفورزا فقد وقع فى الأسر وكان معتقلا فى فرنسا عام ١٥٠٠ .

وبعد رحيل ليوناردو دافنشى من ميلان قضى فى التجوال نحو ست سنوات (١٥٠٠ — ١٥٠٦) ، فمقصد أولا الى مانتوا بدعوة من حاكمها الدوق فرانشيسكو جونزاجا وزوجته الدوقة ايزابيلا ديستا التى اشتهرت برعايتها للفنون . ولم تطل اقامته فى مانتوا فمقصد الى البندقية حاملا خطاب توصية من حاكم ميلان الفرنسى يقول انه خير فى اقامة الاستحكامات وصناعة السلاح ، فقد كانت البندقية تتوقع غزو تركيا ، ولكن الغزو لم يتم ، فعاد ليوناردو الى فلورنسا فى ١٥٠١ ، ولكنه انتقل فى ١٥٠٢ لخدمة سيزار بورجيا فترة وجيزة كمهندس معمارى وعسكرى .

وفى ١٥٠٣ ترك ليوناردو خدمة سيزار بورجيا قبل اغتياله بفترة وجيزة .

ولم تشتهر « موناليزا » لجمال صاحبها ولا لرشعة قسماتها فهى أشبه شئ برة أسرة عاطلة من كل امتياز فهى خفيفة الحواجب سمكة الجفنين طويلة الأنف ولكن نصف الابتسامة الملعزة فى ركن من فمها وعينيها

المغرورقتين بندى خفيف توحى بأن ألوانها الزينية الغائمة ليست منقوشة على اللوحة بل مفروشة عليها بأنفاس الفنان . وبموت سيزار بوجيا والبابا اسكندر السادس عاد الهدوء الى فلورنسا .

وعاد ليوناردو الى فلورنسا حيث رسم صورة « الجيوكوندا » أو « موناليزا » التي تعد أشهر صورة في تاريخ الفن في العالم ، وقد أتمها ليوناردو في ١٥٠٣ ، وهي صورة امرأة من نابولي تدعى موناليزا ديلا جيوكوندا أو مادونا ليزا كانت زوجة موظف أو تاجر من أثرياء التجار في فلورنسا وقد كلف ليوناردو برسمها في ١٥٠٢ . وقد أقام ليوناردو في فلورنسا حتى ١٥٠٦ ثم عاد الى ميلان بدعوة من حاكمها الفرنسي . واسم ليزا جيوكوندا الأصلية هو ليزا جيزارديني وقد تزوجت من ديل جيوكوندا في ١٤٩٥ .

وهكذا انتهت إقامة ليوناردو دافنشي الثانية في فلورنسا وبدأت إقامته الثانية في ميلان ، وقد امتدت من ١٥٠٦ الى ١٥١٣ .

فماذا حقق ليوناردو دافنشي في مرحلة إقامته الأولى في ميلان ؟

في مرحلة ميلان الأولى التي امتدت من نحو ١٤٨١ الى ١٤٩٩ ، رسم ليوناردو دافنشي صورة « مادونا الصخور » أو « عذراء الصخور » عام ١٤٨٣ ، وهي الآن في متحف اللوفر ، وهناك صيغة أخرى منها في المتحف القومي بلندن . ومن هذه الفترة أيضا في متحف الأوفيس في فلورنسا « دراسة لرأس امرأة » .

وكان من أهم الأعمال التي صممها ليوناردو دافنشي ونفذها بين ١٤٨٦ و ١٤٩٣ تمثال ضخّم لفرانشيسكو سفورزا ، والد الدوق لودوفيكو سفورزا ، راكبا جواده ، قد استغرق صنعه سبع سنوات على الأقل بعد محاولات فاشلة في التصميم أو بعد تردد شديد بين أوضاع الجواد . وقد كان ارتفاع هذا التمثال الهائل ٧٢ متر ، وقد صنعه ليوناردو دافنشي من الصلصال وكساه بالجبس حتى يمكن تفريغ الصلصال من الداخل وصب البرونز مكانه ، وقد قدرت زنة البرونز المنتظر بمائة رطل . وقد فرغ منه في ١٤٩٣ وأقامه في ساحة الحصن أو قصر الدوق في ميلان تحت قوس النصر ، ولكن بعد أن استولى الفرنسيون على نابولي وفلورنسا وظهر خطرهم على ميلان عام ١٤٩٥ عدلت حكومة ميلان عن صب التمثال في البرونز نظرا لحاجتها الى البرونز في صناعة المدافع والأسلحة . وحين احتل الفرنسيون الغزاة ميلان في ١٤٩٩ استخدمه جنودهم هدفا للتدريب

على اطلاق النار . وقد ظل التمثال قائما في ميدان الحصن حتى ١٥٠١ ولكنه تحطم بهذا التخريب المتواصل وبفعل الرياح والأمطار ولكنه ظل سنوات رائعة من روائع الفن وشاهدا على عبقرية ليوناردو دافنشى التى بهرت كل معاصريه .

ولم يصبح ليوناردو دافنشى رسميا فنانا في بلاط لودوفيكو سفورزا الا بعد ثمانى سنوات من نزوله الأول في ميلان ، وظل طول هذه السنوات يقيم في استوديو خاص شاركه فيه فنان آخر يدعى امبروجيو دى بريديس . ثم انتقل ليوناردو للإقامة في قصر لودوفيكو سفورزا .

أما الرائعة الباقية من مرحلة ميلان الأولى فهى الصورة الحائطية الشهيرة ، صورة « العشاء الأخير » (بالزيت) التى بدأها ليوناردو في ١٤٩٦ أو قبل ذلك بتكليف من لودوفيكو سفورزا ، وهى قائمة الآن في قاعة الطعام بدير سانتا ماريا ديللا جراتزيا ، وهى أيضا مثل الجيوكوندا من أشهر الصور في تاريخ الفن ونحن نعلم أنه كان يعمل فيها في ١٤٩٧ .

ويبدو أن ليوناردو دافنشى كان شديد البطء في العمل طلبا منه للكمال حتى أثار حفيظة رئيس الدير الذى كان يستحثه للإنجاز . وكان ليوناردو يذهب الى الدير كل صباح للعمل في « العشاء الأخير » وكان يتأمل الصورة نصف ساعة ثم يضيف بريشته نحو عشر لمسات وبعدها ينصرف بقية النهار ليعود في اليوم التالى . وحين أظهر رئيس الدير ضيقه من ذلك ، أجابه ليوناردو بأنه يحاول أن يخلق تعبير الدناءة على وجه يهوذا ، ولكن اذا كان رئيس الدير متعجلا فهو في امكانه أن يضع صورته مكان صورة يهوذا .

ويلاحظ في الصورة التقليدية « للعشاء الأخير » أن الصورة مكونة من المسيح ومن حوله الحواريون الاثنا عشر نصفهم يجلس عن يمينه ونصفهم يجلس عن شماله وكل منهم مستقل عن الآخرين في وضعه وفي تعبيراته وكأنهم غرباء لا يعرفون بعضهم بعضا ، أما في «العشاء الأخير» لليوناردو دافنشى فنجد كل مجموعة من الحواريين تنقسم الى مجموعتين على اليمين ومجموعتين على الشمال وكل مجموعة من ثلاثة ، وكل ثلاثة منهمكون في الحديث أو التفكير أو في تخمين مقاصد المسيح من عباراته المبهمة الأخيرة ، الا يهوذا الذى اختفى وجهه في الظل .

ويلاحظ من النادرة المروية عن ليوناردو دافنشى ورئيس دير سانتا ماريا ديللا جراتزيا أن الفكرة الشائعة عن الفنان المصور يومئذ كانت أنه أشبه شئ بالنقاش الذى ينقش الجدران حسب الطلب . هكذا كان تصور

رئيس السدير .. أما فكرة الفنان المتأمل الخلاق الشبيه بالشاعر الملهم فكانت شبيها جديدا غير مألوف وهو ما استجد في نظرية الفن في عصر الرنيسانس . كذلك نلاحظ الاحساس بالعمق أو بالبعد الثالث الذى يجسم المرئيات نتيجة لتطبيق نظرية المنظور المدروس في رسم القاعة والأبواب والعروق الخشبية في سقف الغرفة .

وفي ميلان أيضا رسم ليوناردو في مرحلته الأولى صورتين لثنتين من عشيقات لودوفيكو سفورزا وقد دمرت ، وصورة « ذات الجبين المرصع » ، وصورة لودوفيكو سفورزا وهى في متحف اللوفر ، وصورة « موسيقى » . وفي مانتوا بدأ صورة للدوقة ايزابيلا ديستا ولكنه لم يتمها . أما فترة عمله مع سيزار بورجيا فكانت مستغرقة في بناء الاستحكامات ودراسة الطبوغرافيا ولم تدم أكثر من سنة واحدة هى سنة ١٥٠٢ . وفي مكتبة الامبروزيانا بميلان صورة بريشة ليوناردو ويقال انها صورة بيانكا ماريا سفورزا أخت لودوفيكو .

وقد ظلت العلاقة بين لودوفيكو سفورزا وليوناردو دافنشى علاقة بالغة الجودة حتى ١٤٩٧ حين توقف لودوفيكو عن دفع مرتب ليوناردو بسبب اضطراب أحواله المالية نظرا لظروف الحرب فساءت هذه العلاقة نوعا ما . ولكن آخر عمل قام به لودوفيكو سفورزا قبل فراره من ميلان كان اهداءه حقلا من حقول العنب في ضواحي ميلان الى ليوناردو دافنشى . واضطر ليوناردو بسبب سوء حالته المالية أن يغادر ميلان في ديسمبر ١٤٩٩ ، وكان عمره يومئذ ٤٧ سنة ، فنانا ذائع الصيت ولكنه قليل المال ، فلم يكن قد أدرج طوال هذه السنوات غير ٦٠٠ فلورين أودعها في فلورنسا وكان يسحب منها باستمرار . غادر ليوناردو ميلان مع عالم الرياضيات لوكا باتشيولى بحثا عن عمل جديد ، وأهمل دراساته التشريحية وتفرغ للفن . وفي ١٥٠١ و ١٥٠٢ كان يعمل في صورة « سانتا آنا » (القديسة حنة) ولكنه لم يتمها ، وهى الآن في متحف اللوفر .

فلما عاد الى فلورنسا في ١٥٠٣ أعاد قيد اسمه في سجل نقابة الفنانين في المدينة وكلفته السنيورية (المجلس الحاكم) برسم فريسكو على حائط في قاعة المجلس الكبرى في « القصر العتيق » (بالاتزو فيكيو) . يصور « معركة انجيارى » بين فلورنسا وميلان في ١٤٤٠ ، فبداه ولكنه لم يتمه رغم أنه تعهد بانجازه في فبراير ١٥٠٥ وبدلا من ذلك ذهب في ١٥٠٥ الى فييزولى ، وهناك انقطع لدراسة حركات الطيور فقد كان مستغرقا في فكرة اختراع طائر وبعد ذلك بعام كلفت السنيورية ميكلانجلو برسم فريسكو يصور « معركة كاشينا » التى تسمى أحيانا معركة بيزا .

لم تكن لدى ليوناردو خبرة كافية بفن الفريسكو فاستعمل تكتيكا جديدا بالشمع ، ولكن الشمع ساح وافسد الفريسكو .

وقد نقل روبنز نسخة من هذا الفريسكو التالف وبهذا حفظ لنا سماته الأساسية . كانت معركة ميكلانجلو عبارة عن استعراض لكمال أجسام الرجال المحاربين فهي دراسات في الأجسام العارية (الجنود يخرجون من نهر الأرنو على نداء النفير ويهرعون الى السلاح) ، أما معركة ليوناردو دافنشى فكانت تصور جنون الرجال المتقاتلين الذى امتد الى خيلهم فجعلها ايضا تقتتل في جنون ومحور الصورة أربعة فرسان يقتتلون لينتزعوا علما . وتوقف العمل في لوحة ليوناردو في ١٥٠٥ ، فقد كان لابد أن يبدأها من جديد بعد فسادها .

وفي أثناء اقامة ليوناردو الثانية في فلورنسا تعقدت حياته بعض الشيء ، فقد مات أبوه في ١٥٠٤ وحاول أخوته حرمانه من حقه في الميراث بحجة أنه ابن غير شرعى ، فلجأ الى القضاء ، وحكم القضاء لصالحه في ١٥٠٦ .

كذلك أوصى له عمه ببعض المال ، فلما مات في ١٥٠٧ حاول أخوته حرمانه من التركة فرفع عليهم دعوى واستمر نظر القضية حتى ١٥١١ ، فاضطر ليوناردو أن يلجأ الى رعاية المارشال شارل دامبواز حاكم ميلان الفرنسى بل والى لويس الثانى عشر ملك فرنسا وغيرهما حتى يتدخلوا لانهائها وقد كان ، وكان كل ذلك يقتضى من ليوناردو أن يتنقل بين ميلان وفلورنسا .

كان ليوناردو دافنشى قد تقاضى من السنيورية في فلورنسا مبلغا طائلا مقابل رسم فريسكو « معركة انجيارى » وكان موضع رعاية لويس الثانى عشر وحكام ميلان ، فقرر العودة الى ميلان في ١٥٠٦ ولكن حكومة فلورنسا اعترضت على رحيله حتى يتم فريسكو « معركة انجيارى » فكتب على نفسه تعهدا بالعودة الى فلورنسا لاتهام الفريسكو . واحتاج الأمر الى ضغط من حكومة ميلان حتى توافق حكومة فلورنسا على الانتظار الى أجل غير مسمى .

وهكذا بدأت مرحلة ميلان الثانية في حياة ليوناردو دافنشى ، وقد امتدت من ١٥٠٦ الى ١٥١٣ . بدأت بضغط لويس الثانى عشر ملك فرنسا على فلورنسا لكى تعير ليوناردو دافنشى الى ميلان الى أجل غير مسمى . وفي ١٥٠٧ أصدر لويس الثانى عشر مرسوما بتعيين ليوناردو دافنشى فنانا

مصورا ومهندسا معماريا في البلاط الفرنسي ولكن ليوناردو لم ينتقل الى فرنسا بل بقي في ميلان .

وفي ١٥٠٧ تعرف ليوناردو في ميلان على فرانشييسكو دي ملزي الذي لازمه بقية عمره وحفظ كل أوراقه . وكان فرانشييسكو دي ملزي غلاما موهوبا في فن الرسم فتتلمذ على ليوناردو الذي كان يقيم في منزل جيروم دي ملزي والد الفلام ، في ضاحية خارج ميلان . وفي ١٥١٢ انسحب الفرنسيون من ميلان وعاد الحكم الى آل سفورزا ، فتولى السلطة ماسيميليانو سفورزا بن لودوفيكو سفورزا . وانتقل ليوناردو دافنشي الى روما في ١٥١٣ ومعه فرانشييسكو دي ملزي .

ورغم أن حكم آل سفورزا دال في ١٥١٥ وسيطر الفرنسيون مرة أخرى على ميلان ، الا أن ليوناردو أقام في روما حيث كان البابا ليو العاشر من آل مديتشي ، فهو أصلا جيوفاني دي مديتشي بن لورنزو العظيم . وأقام ليوناردو في قصر البلفدير في الفاتيكان ولكن راعيه الحقيقي وصديقه كان جوليانو دي مديتشي أخا البابا ، لأن البابا نفسه كان أكثر حماسا للفنان رفاييل منه الى ليوناردو . أما جوليانو فكان يشارك ليوناردو شغفه بعلم الكيمياء وكانت في قصر البلفدير مكتبة ضخمة جذبت ليوناردو الى دراساته العلمية من جديد ، فانقطع لدراسة البصريات والتقطير وعاد الى دراسة التشريح في مستشفى الروح القدس .

ودس له البعض عند البابا واتهمه بالتجديف وبتشريح الجثث ، فغضب عليه البابا وحرم عليه دخول مستشفى الروح القدس . وفي ١٥١٦ مات صديقه جوليانو دي مديتشي فعاد الى ميلان في نفس العام . فعينه فرانسوا الاول ملك فرنسا فنانا مصورا في البلاط الفرنسي وأجرى عليه معاشا سخيا واصطحبه الى فرنسا وأنزله قصر كلو في امبواز على نهر اللوار ، حيث أقام ليوناردو مع فرانشييسكو ملزي ثلاث سنوات في رعاية الملك الشخصية حتى مات في ٢ مايو ١٥١٩ . وقد أوصى ليوناردو في وصيته لفرانشييسكو ملزي برسومه وأوراقه ومذكراته .

وقد حافظ ملزي على كل ما تركه له ليوناردو دافنشي حتى مات في ١٥٧٠ ، وكان يرفض كل ما يأتيه من عروض لشراء الرسوم أو المخطوطات، ولكن بعد موت ملزي انتقل هذا التراث الى أيد عديدة . وكان بينها ١٣ مجلدا آلت الى مكتبة امبروزيانا في ميلان عن طريق الاهداء في ١٦٣٦ ، ومن هذه المجموعة مجلد به ١٧٠٠ رسم ايضاحي ويسمى مجموعة الأطلسي . وقد بقيت كل هذه المجلدات في ميلان حتى استولى عليها بوناپرت في حملته

الاطيالية ونقلها الى المكتبة الاهلية بباريس والى مكتبة المجمع الفرنسى بها . وبعد سقوط نابوليون اعيد الى مكتبة ميلان مجلد واحد هو « مجموعة الأطلسى » عام ١٨١٥ بناء على طلب ايطاليا . ورغم موافقة فرنسا على اعادة بقية المجلدات الا انها تجاهلت الامر واحتفظت بها .

وقد انتهت مذكرات « تحليق الطيور » الى مكتبة تورينو فى ايطاليا ومذكرات الرسم بالزيت الى مكتبة الفاتيكان . كذلك حصلت انجلترا على بعض المذكرات ، ففى انجلترا ما يعرف « بمجموعة وندسور » و « مجموعة المتحف البريطانى » ومجموعة فورستر فى متحف فكتوريا والبرت ومجموعة ليسير بنورفولك ومجموعة اكسفورد « مكتبة كرايستس تشيرش » . وكل هذه المذكرات منشورة ، وهى تتناول ملاحظات ليوناردو دافنشى فى فنون المعمار والتصوير وفى علوم الطب والتشريح والهندسة والميكانيكا ، والجيولوجيا والفيزياء ، الخ . .

وقد ضاعت أكثر لوحات ليوناردو دافنشى ، وان كنا نعرف أسماء بعضها من كتابات المعاصرين ، مثل صورة « ليدا » و « بومونا » (فى أساطير اليونان والرومان) . ولم يبق من تراثه الفنى الا خمس عشرة صورة منها ، الى جانب ما تقدم ذكره ، صورة « يوحنا المعمدان » و « يوحنا جالسا » وهما فى متحف اللوفر ، وهذه الأخيرة تعرف أيضا بصورة « باخوس » رب الخمر عند القدماء . وبوجه عام نستطيع أن نقول أن ليوناردو دافنشى كان شحيحا فى إنتاجه الفنى منذ مرحلة ميلان الثانية ، أى ابتداء من ١٥٠٦ ، أما مرحلة روما (١٥١٣ — ١٥١٦) فقد كانت مرحلة عقم فنى وانصراف كامل الى الدراسات العلمية .

وقد اقترن اسم ليوناردو دافنشى بمدرستين : المدرسة الطبيعية فى الفن ، ومدرسة الخيال العلمى فى الحياة . أما المدرسة الطبيعية فقد كان أساسها تقليد الطبيعة فى قدرتها على الابداع وقد اقتضى هذا دراسة مفصلة لعلم التشريح ولعلم البصريات ولعلم الجيولوجيا . أما مدرسة الخيال العلمى فقد اقتضت من ليوناردو دافنشى أن يدرس دراسة مفصلة قوانين الرياضيات والميكانيكا والطبيعة والكيمياء ليعرف أسرار الحركة والسكون ومراكز الثقل والقدرة والمقاومة فى اليابسة والماء والهواء .

وقد كان شغف ليوناردو دافنشى بالعلوم وبالمنهج التجريبي يضاهى شغفه بالفن ، فترك لنا فى مذكراته دراسات حول مركز الثقل والروافع والقوة والمقاومة والقصور الذاتى فى السكون والحركة قبل أن يكتب جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) فى هذا الموضوع وقبل أن يضع نيوتن (١٦٤٣ — ١٧٢٧)

قوانينه المشهورة في القصور الذاتى وفي الفعل ورد الفعل — وكذلك ترك ليوناردو دراسات عن بعض قوانين الجاذبية وبعض قوانين الاحتكاك وبعض قوانين الصلابة ، ودراسات في تخطيط المدن ، ودراسات في الكبارى .

ففى تخطيط المدن كتب ليوناردو يقول : « دع الشارع يتخذ عرضا مساويا للارتفاع الاجمالى للمنازل » وذلك لمنع التكديس السكانى المؤدى الى انتشار الأوبئة . وتصور ليوناردو مدن المستقبل من مستويين : العلوى للمشاة والسفلى للعربات ، وهما يتصلان بسلام وكبارى والشوارع مغطاة بالبواكى مع نظام خاص للمجارى .

أما دراسات ليوناردو عن الكبارى فتناولت العقود الرومانية (نصف الدائرية) والعقود القوطية المدببة (ذات الأقواس المكسورة) ، واكتشف أن مركز الثقل فى العقد نصف الدائرى لا يقع فى منتصف العقد كما كان التصور قبله ولكن يقع فى طرفى الارتكاز . وفى ١٥٠٣ كتب ليوناردو الى بايزيد الثانى يقترح عليه انشاء كوبرى حجرى عبر القرن الذهبى طوله حوالى ٢٤٠ مترا فى هيئة قوس واحد منفرد .

واكتشف ليوناردو قياس المساحة بطريق حساب المثلثات من نقطتين مرتفعتين لعمل الخرائط المساحية .

وفى معدات القتال وضع ليوناردو تصميم مدفع ينطلق بضغط البخار ، ومدفع يحشى من الخلف ، كما وضع تصميم رشاش به ٣٣ ماسورة مركبة على ٣ صفوف ، وكل صف ينطلق تباعا . كذلك وضع تصميم الكبارى العسكرية السهلة التركيب والتركيب . واخترع قوس باليستا وهو نوع من المنجنيق لاطلاق القذائف الحجرية زنة ٤٥ كيلو جراما مشدودا بحبل طوله ٤٠ مترا ، وكان القوس معروفا أيام الرومان ولكن ليوناردو طوره . واخترع الدبابة والمصفحات وهى مركبة مغطاة لوقايتها من القذائف ومجهزة بمدافع للهجوم .

وكذلك وضع تصميم الغواصة وهى سفينة مزدوجة الجدار صعبة الاختراق تغوص لخرق قاع سفن الأعداء بسلاح حاد يدار بقوة البحارة . واخترع بدلة الغطس بأنبوبة هوائية بدلا من أنبوبة الأوكسجين وفى البدلة حاجز شفاف أمام العيون .

ولاستيلاء القوة الميكانيكية طور ليوناردو تصميمات توربينات الماء والهواء والهواء المضغوط بالمنفاخ وقد كانت معروفة فى العصور القديمة منذ اليونان والفرس لإدارة الطواحين وتكلم عنها المسعودى (المتوفى فى ٩٤٧)

والقزويني (١٢٠٣ - ١٢٨٣) وأبو طالب الدمشقي (١٢٥٦ - ١٣٢٧) . وبالمثل اخترع ليوناردو الفرملة الميكانيكية لاييقاف طواحين الهواء ، والسلاسل لنقل القدرة كالجنزير . ووضع تصميم الكوريك الرافع والوينش وتصميم الكراكات لتطهير الترع ، وماكينات لرفع المياه ، ولخراطة الخشب والمعادن وللقطع كالمناشير ، وللغزل تغزل وتلف الخيط معا ، وللطباعة تكون فيها التغذية بالورق آلية ، وللتجليخ والشحن والدرغلة ، كما وضع دراسات مستفيضة في الترويس للاستفادة منها على اكمل وجه في ميكانيكا الساعات وغيرها ، وانشأ أفرانا وانباب للتقطير .

وكان من أهم ما اخترعه ليوناردو دافنشي ماكينة للطيران على هيئة أجنحة وذيل تركب على الطيار ، وكان روجر بيكون قد تنبأ بهذا الاختراع في ١٢٥٠ ولكن تجربة ليوناردو في الاعتماد على قوة الطيار العضلية فشلت لعدم اكتمال دراساته . وكذلك وضع ليوناردو تصميم الباراشوت والهليكوبتر أو الطائرة العمودية .

أما في علم التشريح فقد ترك لنا ليوناردو دافنشي منذ ١٤٨٧ رسوما تشريحية ساذجة يمكن أن يكون قد استقاها من جالينوس وموندنيوس وابن سينا . وقد كان ليوناردو يقتنى في مكتبته كتابا في الصحة لأبي بكر الرازي (٨٦٦-٩٢٤) باللاتينية اسمه «الكشكول» ، وفي ليوناردو اشارات عديدة الى معرفة بعض مؤلفات ابن سينا ورسائل الكندي المتوفى عام ٨٧٣ . وعلى كل فقد كان كتاب « القانون في الطب » لابن سينا (لعله « الشفاء ») المرجع الأول في جامعات أوروبا منذ نشره باللاتينية عام ١٤٧٣ حتى منتصف القرن السابع عشر ، ويسمى باللاتينية الكتب الخمسة . ولكن معرفة ليوناردو بالتشريح الظاهري بلغت حد الكمال في دراسة العظام والعضلات والأوعية الدموية والأعصاب وقد انعكس ذلك في أعماله الفنية .

أما في علم البصريات فقد قرأ في مكتبة باغيا كتاب « الذخيرة في عالم الاوطيقى » للحسن بن الهيثم مترجما الى اللاتينية عام ١٢٦٠ ، وكان الأوربيون يسمونه « الهايزن » أو « الهاشم » ، وكان في متناول يده مترجما الى اللاتينية كتاب « الحاوي » في الطب العربي لأبي بكر الرازي وكتاب « الزيج » للخوارزمي (المترجم في ١١٢٦) وكتاب « الجبر والمقابلة » للخوارزمي (المترجم في ١١٤٥) .



رفاييل

RAPHAEL

١٤٨٣ - ١٥٢٠

□ كان أقطاب الفن الثلاثة في عصر النهضة الأوروبية هم : ليوناردو دافنشي وميكلانجلو ورفاييل . وكان أصغرهم جميعا رفاييل الذي ولد في أوربينو في ٦ أبريل ١٤٨٣ ومات في روما ٦ أبريل ١٥٢٠ ، فهو اذن قد توفي عن سبع وثلاثين سنة . وهو يسمى أحيانا رفاييل سانتى أو رفاييل سانتزيو لأن أباه كان يدعى جيوفانى سانتى أو جيوفانى سانتزيو ، وقد قرأت في إحدى توقيعات رفاييل على إحدى لوحاته اسم « رفاييل سانتى » ، وهذا هو الاستثناء لا القاعدة .

وكان الأب جيوفانى سانتى يعمل فنانا مصورا وشاعرا في بلاط أوربينو ، وهو بلاط الدوق فريديريكو دى مونتيفلترو الذى كان يجمع في بلاطه ، كعادة امراء عصره في الدويلات الإيطالية ، كوكبة من الفنانين والأدباء والمفكرين والمثقفين ، وكان أعظم فنان في بلاطه هو بيرو ديللا فرانشيسكا الذى كان علما من أعلام عصره . أما جيوفانى سانتى ، الذى ولد عام ١٤٤٠ فقد عرف بين رسامى أوربينو بأنه شاعر وعرف بين شعرائها بأنه رسام . باختصار : كان جيوفانى سانتى فنانا تافها وأديبا تافها ، ولم يكن له شيء من عبقرية ابنه العظيم رفاييل ، ومع ذلك فقد كان مرسما الأب هو أول مكان تعلم فيه الابن بدايات الفن .

وقد فقد رفاييل أمه ، ماجياتشيارولا وهو في الثامنة من عمره، وتزوج أبوه بسرعة فاضحة . ثم مات أبوه في ١٤٩٤ حين كان سن رفاييل في الحادية عشرة من عمره ، فكفله أعمامه وتولت تربيته أرملة أبيه . وتلمذ رفاييل على الفنان الكبير بيروجينو في الفن والفلسفة — وكان المعتقد أن هذه التلمذة بدأت عام ١٤٩٥ ، غير أن بعض نقاد الفن اكتشفوا أن بيروجينو كان قد انتقل الى فلورنسا بين ١٤٩٣ و ١٤٩٩ ، فالأرجح اذن أن تلمذته على بيروجينو امتدت من ١٤٩٩ حتى ١٥٠٤ ، عام رحيله الى فلورنسا . ولكن الذى لا شك فيه هو أن الفنان المصور الكبير بيرو ديللا فرانشيسكا كان من

أكبر المؤثرات في تكوين رفاييل لأنه كان المسيطر على الجو الفني في أوربينو عندما كان رفاييل في يفاعته وشبابه الباكر . ولابد أن رفاييل درس كتاب بيرو ديللا فرانثيسكا الهام المسمى « المنظور في الرسم » وتعلم منه نسبي المساحات والمسافات في فن التصوير . ومع ذلك فقد كان أقوى مؤثر في فن رفاييل في صدر شبابه هو الفنان بيروجينو أنجب تلميذ لبـيرو ديللا فرانثيسكا .

وفي ١٥٠٠ تلقى رفاييل أول تكليف في حياته الفنية برسم صورة لمذبح كنيسة سان نيكولا ، ونجحت هذه الصورة فانهمرت عليه التكاليفات وهو لا يزال في السابعة عشرة من عمره تلميذا لبيروجينو . وفي الواقع أن قصة حياة رفاييل كانت من بدايتها الى نهايتها قصة نجاح متصل ، فكان يسير من نجاح الى نجاح ، ولم يتعثّر في حياته قط أو يتعرض لعواصف الحياة كما حدث لليوناردو وليكلانجلو . كان فتى من أسرة طيبة ميسورة الحال تعيش متعلقة ببلاط أوربينو وكان رضى الخلق رضى النفس محبوبا موفقا في حياته المادية فقد جمع من فنه مالا كثيرا ، يحسن الاستفادة من كل أسلوب عظيم ، وبسبب شمائله الارستقراطية كان مقربا الى البابوات والنبلاء حيثما ذهب .

ولكن هذا لا يمنع طبعاً أنه بطريقته الهادئة هذه كان وراء كثير من المتاعب التي واجهها ليوناردو دافنشى وميكلانجلو مع البابوات في روما والنبلاء في أوربينو ، وقد اتهم رفاييل أنه كان يدس لهما في الفاتيكان وفي بلاط أوربينو مع صاحبه المهندس الكبير برامانتى ، مؤسس كنيسة القديس بطرس الجديدة في الفاتيكان . أما نحن فينبغى أن ننظر الى كل هذه الأمور على أنها من تحاسد الفنانين الأنداد ، بحيث لا نحكم من هو الجانى ومن هو المجنى عليه .

والاعتقاد الشائع أن رفاييل تعلم من الفريسكو بعمله مع أستاذه بيروجينو في تصوير الفريسكات الحائطية في « قاعة الكامبينو » في مدينة بيروجيا بين ١٤٩٦ و ١٥٠٠ . وكان عمر رفاييل عندما شارك في هذا العمل سبعة عشر عاماً . ومعنى هذا أنه لم يشارك في هذا العمل الا قرب نهايته . وقد كانت أهم خصائص بيروجينو التي تأثر بها رفاييل ولازمته حتى في مرحلته الرومانية ، الاعتماد على موتيفات الزينة كمجرد ملحقات اضافية لموضوع الصورة وليس كالموضوع الرئيسى للصورة واستخدام الصور المعمارية كالأعمدة والبواكى وواجهات المعابد كخلفية لصوره لاشاعة التوازن والرسوخ في الصورة ولتحديد نسب الأشخاص والأشياء ، مع استخدام

ظلال الأشخاص والأشياء على مساحات واسعة لاشاعة جو من الهدوء في صورته . وهذا بعض ما بقى من بيروجينو في فن رفايل الذى نراه في الفاتيكان ونموذجه فريسكو « مدرسة أثينا » الشهير .

ويبدو أن رفايل أدرك بحاسة الفنان العظيم أن جو إقليم أومبريا لم يعد فيه شيء يمكن أن يتعلمه ، فانتقل الى فلورنسا في ١٥٠٤ وأقام فيها أربع سنوات حتى ١٥٠٨ ، أى بين سن الحادية والعشرين والخامسة والعشرين ، ولكنه كان قبل انتقاله الى فلورنسا قد اشتهر كأعظم فنان في إقليم أومبريا ، وكان من فلورنسا يقوم بزيارات قصيرة الى أوربينو وبيروجيا وسينينا لينفذ بعض تعاقداته .

كان رفايل قبل انتقاله الى فلورنسا قد رسم في ١٥٠٢ صورة القديس سباستيان التى نجدها في أكاديمية كارا في برجامو ، وفي ١٥٠٣ رسم « تنويج العذراء » ، وهى في متحف الفاتيكان ، وفي ١٥٠٣ — ١٥٠٤ رسم لوحات « الثالوث » و « خلق حواء » ، وهما في متحف تشيتادى كاستيللو ، و « زواج العذراء » ، وهى في أكاديمية بريرا في ميلان ، و « الصلب » ، وهى في المتحف القومى بلندن ، و « المسيح على الصليب » ، وهى في متحف ددلى وورد في لندن ، و « قيامة المسيح » ، وهى في متحف الفن في سان باولو بالبرازيل . ومن أعماله الباكرا أيضا « العذراء بين القديس فرنسيس والقديس جيروم » ، و « العذراء حاملة الكتاب » ، وهى الآن بمتحف الأرميتاج في ليننجراد ، ومن أقدم لوحاته التى تؤرخ عادة في ١٥٠١ « المادونا » . . أى العذراء في مجموعة سولى . . وهى الآن في متحف الدولة ببرلين . ولعل أعظم عمل لرفايل في حياته الباكرا هو لوحة «تنويج العذراء» التى رسمها رفايل أصلا للقديس فرنسيس في بيروجيا وهى الآن محفوظة في متحف الفاتيكان ، وهى تنسب عادة الى عام ١٥٠٣ .

وكانت فلورنسا لاتزال أعظم مركز للفنون التشكيلية ، فلما انتقل رفايل من بيئة أومبريا المحدودة الى بيئة فلورنسا الرحبية وجد الكثير مما يمكن أن يتعلمه من فن ليوناردو وفن ميكلانجلو وفن فرا بارثولوميو الذى كان مثله تلميذا لبيروجينو . وكان رفايل أصلا يقلد فن أستاذه بيروجينو ومدرسة أومبريا تقليدا حرفيا ، ولكنه بعد ذلك أخذ يقلد مدرسة فلورنسا ويستوعب تقاليدها ، فلما انتقل الى روما بعد ذلك أصبح لا يعترف بشيء الا فن قدماء الرومان ، وقد قيل في ليوناردو دافنشى أنك لا تستطيع أن تميز رسوم شبابه من رسوم شيخوخته ، أما رفايل فهو نموذج أعلى للفنان الذى تطور درجة درجة . كان ليوناردو يمثل الفطرة العبقرية ، أما رفايل فكان يمثل الدراسة المنهجية التى تبلغ بصاحبها درجة الكمال .

وفي فلورنسا انضم رفاييل الى جماعة الافلاطونية الحديثة التي أعيد تشكيلها بعد انقشاع ظل سافونارولا . وفي فلورنسا رسم رفاييل مجموعة كبيرة من صور « المادونا » (العذراء) و « العائلة المقدسة » وكانت أعظم هذه الصور « مادونا بلاكين » . وأصبح رفاييل أهم فنان مصور في فلورنسا نظرا لغيبه ليوناردو دافنشي في ميلان وميكلانجلو في روما أكثر الوقت . واحتذى الفنانون الشبان ، من أمثال أندريا ديل سارتو ، حذو رفاييل ، كما تعلم رفاييل عن ميكلانجلو القوة والجلال وتعلم عن ليوناردو ذلك الأسلوب الغائم الذي اشتهر في الجيوكوندا واشتهرت به الجيوكوندا ، وهو نثر طبقة خفيفة من الضباب الشفاف على سطح الصورة ، وهو الأسلوب الـ « سفوماتو » كما يسميه فنانو ايطاليا . ولكن رفاييل أطلع على دراسات العرى التي كان يقوم بها ميكلانجلو وليوناردو وبولايولو في فلورنسا .

وفي أثناء إقامة رفاييل في فلورنسا كان يقوم بزيارات قصيرة لأومبريا ، بعضها لبروجيا وبعضها لأوربينو ، وفي هذه الفترات أنجز « حلم الفارس » في ١٥٠٤ التي نجدها الآن في المتحف القومي بلندن ، و « دفن المسيح » في ١٥٠٨ ، وهي الآن في متحف بورجيزي بروما ، وأتم فريسكو موضوعه « المسيح في جلاله مع القديسين » لكنيسة سان سيفيرو في بروجيا ، و « مادونا انسيداي » (١٥٠٤ — ١٥٠٦) ، وهي الآن في المتحف القومي بلندن ، و « العائلة المقدسة » لدوق ريبالدا . ولعل أهم ما رسمه رفاييل في زيارته لأوربينو كان صورة « مار جرجس على جواد » في ١٥٠٦ ، وهي الآن في متحف الأرميتاج في ليننجراد ، وصورته الذاتية و « صورة امرأة » اللتين نجدهما في متحف الأوفيتزي في فلورنسا .

وفي مرحلة فلورنسا ظهر تأثير فن ليوناردو وميكلانجلو في فن رفاييل فتخلّى عن المعالم الواضحة التي تعلمها من أستاذه بروجينو كما في صورة « حلم الفارس » ، وازداد احساسه بالجو العام في الصورة فلم يعد الأشخاص في مجموعات منفصلين انفصالا تاما كما كان الحال في صورته الأولى ، وكان هذا بتأثير ليوناردو الذي علم معاصريه ضرورة وجود علاقة عضوية أو حوار نفسي بين أشخاص مجموعات كما في « العشاء الأخير » . ومن أروع صور فترة فلورنسا صورة « مادونا الفراندوق » وهي من أعمال ١٥٠٤ — ١٥٠٥ ، وهي الآن في متحف بالاتزو (قصر) بيتي في فلورنسا ، وتذكرنا بالموناليزا ، ولكن بغير لغزها ، و « البستانية الجميلة » (١٥٠٧) ، وهي الآن في متحف اللوفر ، وهي آية في ابداع التكوين وتذكرنا بالتكوين الهرمي في « سيدة الصخور » لليوناردو دافنشي ، وفيها نجد

المادونا مع الطفلين يسوع ويوحنا ، والحوار النفسى قائم بين الأشخاص الثلاثة ، وبين المادونا وخلفتها من الطبيعة الفسيحة القائمة وكأنها همزة الوصل بين الأرض والسما . ومن آثار مرحلة فلورنسا صورة « كاترين قديسة الاسكندرية » (نحو ١٥٠٩) ، وفيها نرى سانت كاترين وقد غمرها الوجد الإلهى تتطلع فى استسلام الى السماء قبل تعذيبها وكأنها تتوق الى الاستشهاد .

وتعد فترة ١٥٠٧ — ١٥٠٩ نقطة تحول فى حياة رفاييل جعلته يترك فلورنسا وينتقل نهائيا الى روما فى أواخر ١٥٠٨ وقد تعددت الآراء لتفسير هذا الانتقال . قيل انه كانت فى صالونات القصر العتيق فريسكات ناقصة بريشتى ليوناردو وميكلانجلو وكان رفاييل يأمل أن تسند اليه السنيورية أمر اتمامها ولكنها لم تفعل ذلك فغضب رفاييل . وقيل ان رفاييل أحس بدنو أزمة سياسية وشيكة يمكن أن تنزل بفلورنسا . والأرجح أن رفاييل ترك فلورنسا لأنه أحس بأن فلورنسا لم يعد فيها ما يمكن أن يتعلمه .

على كل فقد انتقل رفاييل الى روما فى أواخر ١٥٠٨ حاملا خطاب توصية من المهندس برامانتى مصمم كاتدرائية القديس بطرس فى روما ، ودخل رفاييل فى رعاية البابا يوليوس الثانى رساما للبلاط البابوى فى ١٥٠٩ ، وفى ١٥١١ بدأ رفاييل فى تجميل بعض أجنحة الفاتيكان .

وفى حياة البابا يوليوس الثانى ، أى حتى ١٥١٣ أتم رفاييل بحماس عظيم أول قاعتين مخصصتين فى الفاتيكان لهذا البابا ، وهما قاعة السيناتورا (أى « التوقيع » ، الذى يبدو أنه كان يحتوى مكتبة البابا ومكتبه) ، وقاعة الهليودوروس . . ومن الطريف أن يوليوس الثانى ما أن رأى فى بداية عمل رفاييل موهبة رفاييل الساطعة حتى استغنى عن كان يستخدمهم من الفنانين لتزيين جناحه الخاص . . وكان من بين هؤلاء بيروجينو نفسه ، أستاذ رفاييل . أما بقية القاعات فقد أتم رفاييل رسمها فى عهد خلفه البابا ليو العاشر ، ولكن فى متور واضح ، وظل يعمل فيها بقية حياته .

ومن ١٥٠٩ الى ١٥١١ رسم رفاييل الفريسكو الشهير « مدرسة أثينا » الذى يغطى جدران قاعة السيناتورا فى الفاتيكان ، وموضوعه هو تمجيد « العقل » والبحث عن الحقيقة من خلال أكبر فيلسوفين فى العالم القديم ، وهما أفلاطون وأرسطو اللذان يتوسطان الفريسكو ، ومن حولهما بعض اعلام الاثينيين الذين يمثلون العلوم النظرية والعلوم التجريبية ، مثل فيثاغورس وأفليدس ، وقد أقدم رفاييل فى هذا الفريسكو على تجربة تعد ثورة

في مبادئ التكوين وهي وضع صورة شخصين في منطقة البؤرة في اللوحة الفنية ، وقد جرى العرف على وضع صورة شخص واحد في منطقة البؤرة ، والشخصان طبعاً هما أفلاطون وأرسطو .

والأرجح أن رفاييل فعل ذلك رمزا لالتزامه بالحيدة بين هذين الحكيمين المتعارضين ، أو بين فلسفة أفلاطون المثالية وفلسفة أرسطو المادية . وفي الفريسكو نرى أفلاطون حاملاً كتابه « تيمائوس » ، ونرى أرسطو حاملاً كتابه « الأخلاق » ، أما الخلفية من وراء مجموعات الفلاسفة والحكماء والعلماء والتلاميذ اليونان فكانت تمثل معماراً كلاسيكياً رومانياً السمات . والعمل الفني كله يعد تحية الفن لحركة الهيومانزم وأحياء العلوم والفنون والآداب اليونانية والرومانية التي اجتاحت أوروبا في عصر الرينيسانس .

والفريسكو في قاعة السيناتوراً يمثل في مجموعته وجوه المعرفة الأربعة ، وهي اللاهوت والفلسفة والقانون والفن ، لكن أروع جانب منه هو الجانب الذي يمثل الفلسفة كما عبر عنه في « مدرسة أثينا » .

ومن ١٥١١ إلى ١٥١٤ رسم رفاييل فريسكو القاعة الثانية التي تسمى قاعة هليودوروس في الفاتيكان . وفي هذه القاعة رسم رفاييل ما يسمى «تحرير القديس بطرس» . من سجنه ، وفي هذا الفريسكو نشاهد من خلال القضبان أربعة أنواع من النور : هي نور القمر ونور الفجر ونور المشعل ونور الملاك المضيء .

كان ميكلانجلو في تلك الفترة يرسم فريسكو سقف محراب السستين ، فتبين أن رفاييل ند له . وكلف البابا يوليوس الثاني رفاييل برسم صورة زيتية تسمى « مادونا (عذراء) السستين » فأجزها رفاييل في ١٥١٢-١٥١٣ ، وهي الآن في متحف درسدن بألمانيا الشرقية . وفي الفن الديني رسم رفاييل صورة « النبي أشعيا » لكنيسة سان أجوستينو . وفي نفس الوقت كان يضع تصميم محراب سانتا ماريا دل بوبولو بتكليف من البنكر كيجي .

وكان ميكلانجلو وهو يرسم فريسكات محراب السستين في الفاتيكان شكاكاً في كل الفنانين ، يخشى أن يطلع أحدهم على منهجه أو أسلوبه في العمل فيسرق منه ألوانه أو موضوعاته أو رؤيته ، ولهذا فعل ميكلانجلو كل ما يستطيع لحجب فريسكات السستين عن رفاييل ، ولكن رفاييل استطاع بوسائله الخاصة أن يطلع على عمل ميكلانجلو وأن ينتفع منه فعلاً ، وكان أكثر ما أخذه رفاييل عن ميكلانجلو هو عنصر القوة والصلابة الذي تجلى في الصراعات البطولية التي كان ميكلانجلو يصورها في فريسكاته .

وكانت في روما ، وفي بلاط الفاتيكان بالذات ، حلقة من انصار الأفلاطونية الحديثة ، منهم الكاردينال بمبو ، وكاستليونى رجل البلاط المشهور ، وانجرامى ، فانضم رفاييل الى هذه الحلقة . وقد ظهر اهتمام رفاييل بالأساطير اليونانية في أنه رسم في ١٥١١ — ١٥١٢ فريسكو لفيلا يملكها في روما البنكر كيجى ، وموضوعها « انتصار جالاتيا » ، وكان هذا الفريسكو ترجمة بالخط واللون لقصيدة شاعر فلورنسا بوليتزيانو حول هذا الموضوع .

كذلك رسم رفاييل في ١٥١٤ — ١٥١٥ صورة رائعة لرجل البلاط كاستليونى صاحب كتاب « رجل البلاط » ، الذى يعد ، بعد كتاب « الأمير » لكيافيللى ، أهم كتاب في فن الحكم في الرنيسانس . وصورة كاستليونى موجودة الآن في متحف اللوفر . وهى تمثل نموذجا رائعا في الاعتدال والتوازن في ذلك العصر الهائج المساج الملىء بالتطرف والمتناقضات . وبعد موت البابا يوليوس الثانى في ١٥١٣ استمر خلفه البابا ليو العاشر ابن لورنزو دى مديتشى في رعاية رفاييل . وبموت المهندس برامانتى في ١٥١٤ عين ليو العاشر رفاييل مكانه كبيرا لمهندسى كاتدرائية القديس بطرس الجديدة ، فأصبح رفاييل بمعنى الكلمة الدكتاتور الفنى في الفاتيكان ، مما دفع ميكلانجلو الى الانسحاب الى فلورنسا . كذلك وصل ليوناردو دافنتشى الى روما في تلك الفترة ، فأهمله البابا ليو العاشر ولم يكلفه بعمل ما واكتفى بأن أنزله ضيفا في قصر بلفدير في الفاتيكان ثم انقلب عليه بحجة اشتغاله بتشريح الجثث مما جعل ليوناردو يقبل دعوة ملك فرنسا الى أن يقيم معه غانا في البلاط الفرنسى .

وكان ذلك عصر الكشوف الأثرية والتنقيب عن آثار روما القديمة الذى اقترن بحركة الهيومانزم وحياء آداب اليونان والرومان وفنونهم وعلومهم . ومنذ عهد البابا اسكندر السادس اكتشفت الرسوم الحائطية الرومانية واكتشف تمثال أبولو بلفدير . وفي عهد يوليوس الثانى اكتشف تمثال « اللاوكون » وتمثال فينوس الفاتيكان كما اكتشف تمثال كليوباترا النصفى ، وفي ١٥١٦ عين ليو العاشر رفاييل مديرا للآثار في روما ، فقد كان ليو العاشر من أشد المتحمسين لحياء أمجاد روما القديمة وفي عهده امتلأت قصور النبلاء والكرادلة بالتمائيل والتحف الأثرية ، وكلف ليو العاشر رفاييل بأن يعد له تقريرا عن عمائر روما القديمة وفنونها ، فقدم رفاييل تقريره عام ١٥١٨ أو ١٥١٩ ، قيل بمساعدة كاستليونى ، عن آثار روما المظورة تحت خرائبها وتلالها .

ولم يعيش رفاييل بعد ذلك طويلا فقد أصيب بحمى لم تمهله غير أسبوع

فمات في ٦ أبريل ١٥٢٠ في عيد ميلاده السابع والثلاثين ودفن في البانتيون (مقبرة الخالدين) في احتفال مهيب ، وكان قبره تحت صورة « التجلى » ، وهي صورة غير مكتملة بدأها رفايل عام ١٥١٧ .

والناس اليوم تتحدث كثيرا عن ليوناردو وعن ميكلانجلو لأن حياتهما كانت عاصفة وملئية بغرائب الأمور ، ويتحدثون قليلا عن رفايل لأن حياته كانت سلسلة من بدايتها الى نهايتها وليس فيها شيء فاجع الا موته المبكر . ولكن بعض نقاد الفن يرون أن فن رفايل كان النقطة العليا في فن الرنيسانس وأنه جمع بين ملحمية ميكلانجلو ودرامية ليوناردو وأضاف اليهما غنائية من عنده وصفاء عظيما . وربما كان في هذا نوع من المبالغة ، لأن عصر الرنيسانس كان كل هؤلاء مجتمعين . . . وأكثر . . . وربما كان رفايل أكثر الثلاثة انضباطا وصفاء ، ولكن ميكلانجلو كان أكثرهم قوة وشموخا ، بينما كان ليوناردو أشدهم حيوية وأقربهم الى الطبيعة البكر .



ميكلائنجلو

MICHELANGELO

١٤٧٥ - ١٥٦٤



□ وهذا ثالث الثلاثة الذين لا يذكر الفن في عصر النهضة الأوروبية الا وذكرت أسماؤهم مجتمعة ، وهؤلاء هم ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) ورفاييصل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) وميكلائنجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) . وقد مات ليوناردو عن ثمانية وستين عاما قضى اكثرها في « الكواتروتشينتو » أى في « الأربعمئة » (بعد الالف) ، من ١٤٠٠ الى ١٤٩٩ (القرن الخامس عشر) ، ومات رفاييل في شرح شبابه عن سبعة وثلاثين عاما قضى منها سنوات التكوين في « الكواتروتشينتو » ، أما ميكلائنجلو فقد مات طاعنا في السن عن نحو تسعين عاما فتكون في « الكواتروتشينتو » ولكنه عاش حتى يرى ظهور مدرسة فنية جديدة هي مدرسة « الباروك » أو مدرسة « الإغراب » التى ربما كانت احدى نتائج فنه العظيم بعد ان خبا نور الالهام العظيم .

وكان اسم عائلة ميكلائنجلو بوناروتى ، أو بوناروتى سيمونى ، فقد كان هو يحب أن ينسب عائلته الى آل سيمونى كونت كانوسا الذى جاء الى فلورنسا فى ١٢٥٠ وكان رأس هذه العائلة وزعيما لحزب « الجويلف » ، أو « السود » أو أنصار التقارب مع فرنسا والبابا ، فى ١٣٩٢ . أما بوناروتى سيمونى ، الأب ، وأولاده فى زمن ميكلائنجلو فكانوا من أوساط الناس ، وربما من صغار أوساط الناس . وكان أخوه الأكبر ليوناردو من أشياع سافونارولا وبالفعل دخل بتأثيره دير سان مارك فى ١٤٩١ وظل به حتى ١٥١٠ . أما ميكلائنجلو نفسه فقد كان موزعا بين اعجابه بسافونارولا ، وولائه لأسرة مدينتى صاحبة الفضل عليه وعلى أكثر فنانى عصره .

وقد كان ميكلائنجلو تلميذا مستعصيا فتعلم الإيطالية ولكنه لم يتعلم اللاتينية ، وكان دائما يهمل دروسه لرسم أو ليصنع التماثيل ، فكان أبوه أو عمه يضربه عقابا على ذلك . ولما يئس منه أبوه أرسله ليتعلم الفن فى مرسم الفنان المعروف جيرلاندايو لمدة ثلاثة أعوام ، ولكنه لم ينتفع

كثيرا من جيرلاندايو فتمرد عليه كما تمرد بيتهوفن على أستاذه هايدن . وكان ميكلانجلو يتصور أن أستاذه يغار منه كما أنه كان سليلط اللسان في نقد أستاذه ، وكان يتقاضى منه بوصفه « صبيًا للأوسطى » ستة فلورينات في السنة الأولى وثمانية فلورينات في السنة الثانية وعشرة فلورينات في السنة الثالثة .

وبعد أن تعلم ميكلانجلو الرسم واللون في مرسم الفنان جيرلاندايو ، تجلت موهبته العظيمة في فن النحت ، فصنع من الرخام حيوانا خرافيا من أساطير اليونان في حديقة لورنزو دي مديتشي . . وما أن رأى لورنزو التمثال حتى قرر أن يبسط رعايته على ميكلانجلو ، فأرسل الى أبيه يدعوهُ لمقابلته . وأدرك الوالد مراد لورنزو دي مديتشي فأجاب بأنه لا يريد لولده أن يكون « حجارا » وعلق بأن لورنزو يريد أن يقود ابنه ميكلانجلو في طريق الغواية . ولكن الأب ، لودوفيكو بوناروتى ، اقتنع أو اقنع أخيرا فقابل عاهل فلورنسا وسلمه ولده ميكلانجلو ليرعاه عام ١٤٨٩ ، وكان ميكلانجلو يومئذ في الخامسة عشرة من عمره . واستمرت هذه الرعاية ثلاث سنوات حتى وفاة لورنزو دي مديتشي في عام ١٤٩٢ حين بلغ ميكلانجلو سن الثامنة عشرة . . وكذلك عين لورنزو أباه ، لودوفيكو بوناروتى موظفا في جمرِك فلورنسا ليعينه على الحياة .

تبنى لورنزو دي مديتشي الفتى ميكلانجلو وعامله كولد من أولاده ، فأقام ميكلانجلو في قصر آل مديتشي بفلورنسا حيث خصصت له حجرة محترمة وكان لورنزو يجالسه دائما على مائدة الطعام فيجلس بين أهل البيت وبين ضيوف العاهل من كبار رجال الدولة ومن الشعراء والفلاسفة . وكان من عادة لورنزو أن يجالس ضيوفه على العشاء بحسب ترتيب قدومهم لا بحسب أصول البروتوكول ، وكثيرا ما احتل ميكلانجلو الفتى المقعد المجاور لرب البيت فكان أدنى الى لورنزو من بنيه . وكان الشاعر بوليتزيانو ، وهو من أعلم أهل عصره في الآداب القديمة والحديثة ومن أشعر شعراء فلورنسا باللغة الإيطالية (العامية) ، مؤدبا لأولاد لورنزو دي مديتشي فشمّل بتأديبه الفتى ميكلانجلو . وهكذا قضى ميكلانجلو فترة التكوين من حياته في أزهر مكان في فلورنسا يوم أن كانت فلورنسا أعظم مصدر للاشعاع الثقافى في أوربا كلها وكانت تذكر العالم بمجد اثينا الثقافى فيما بين الحروب الفارسية وحروب البلوبونيز . كذلك كان لورنزو يجرى على ميكلانجلو خمس دوقيات شهريا كمصروف جيب ويتكفل بكسوته .

أما ميكلانجلو الفتى فقد عرف عنه أنه كان محبا للوحدة والتأمل ، لا يأنس الى الناس ، غضوبا كثير الشجار مع جيرانه ، لاذع التهكم بزملائه

من الفنانين . وقد جرت عليه سلاطة لسانه شجارا انتهى بكسر أنفه رغم أنه كان لا يحب الشحان الجسدى . وكان يشارك في الكرنفالات التي تميزت بها فلورنسا في عصره وكان يغذيها لورنزو دى مديتشى ليلهى الناس عن السياسة بالمسكات أى الأقنعة (و « الماسكيرا » هى « المسخرة ») ، وبالأغاني والرقص والاستعراضات في شوارع المدينة . وكان لورنزو نفسه ينظم لهم الأغاني مثل أغنية : « ياشباب ويابنات ، انعموا باليوم فلا أحد يعرف ما يأتى به الغد » فيكرر الناس هذا القرار وهم يحتفلون بالمهرجان .

كل هذا انتهى بموت لورنزو دى مديتشى في ١٤٩٢ وباحتلال شارل الثامن فلورنسا بجيوشه الفرنسية في ١٤٩٤ ، وبطرد بيرو دى مديتشى ابن لورنزو من فلورنسا وطلب رأسه مقابل جائزة مالية . حتى هذا الازدهار الفكرى الذى عرفته فلورنسا بدأ ينقرض سريعا : غفى ١٤٩٤ مات بوليتزيانو وبيكو ديللا ميراندولا ، وفي ١٤٩٩ مات الفيلسوف فيتشينو . كل هذا الازدهار الثقافى انقرض بتولى سافونارولا زمام الأمور في فلورنسا . حتى الازدهار الفنى أخذ ينقرض بهجرة كبار الفنانين الى روما .

وكان ميكلانجلو أحد هؤلاء الفنانين المهاجرين من فلورنسا الى روما رغم اعجابه بسافونارولا واستماعه على الدوام لخطبه منذ ١٤٩٤ في ميدان الدومو (القبة) وفي دير سان مارك . وفي هذه الفترة تفرغ ميكلانجلو لدراسة التشريح كمقدمة أساسية للاحاطة بتكوين جسم الانسان قبل رسمه أو نحته . وفي ١٤٩٤ غادر ميكلانجلو فلورنسا قاصدا بولونيا حيث نحت تمثال « كوبيد نائما » في الرخام وباعه لتاجر تحف في روما لقاء ٣٠ دوقية . وكان هذا التمثال شبيها بآثار القدماء فباعه هذا التاجر الى الكاردينال رياريو على أنه تحفة أثرية وتلقى منه مقدما قدره ٢٠٠ دوقية ، غير أن الكاردينال اشتبه في هذا التزييف فأوفد رسولا الى فلورنسا لتقصي الحقيقة فاهتدى الرسول الى ميكلانجلو واصطحبه الى روما . وغضب الكاردينال رياريو ورد التمثال الى التاجر واسترد منه ما دفع . وانتهى التمثال الى سيزار بورجيا بعد استيلائه على دوقية أوربينو ، ثم أهده سيزار بورجيا الى المركيزة دى مانتوا في ١٥٠٢ . وكان هذا التمثال بداية شهرة ميكلانجلو في روما التي قضى فيها أكثر حياته الجديدة .

وفي ١٤٩٥ عاد ميكلانجلو من بولونيا الى فلورنسا وفيها نحت تمثال « يوحنا المعمدان » ، وظن الناس زمنا ان هذا التمثال الذى نحته ميكلانجلو وهو في سن العشرين من عمل دوناتيلو (١٣٨٦ — ١٤٦٦) ، شيخ مثالى فلورنسا في عصره وهو الآن في متحف برلين .

وانتقل ميكلائجلو الى روما عام ١٤٩٦ . وفي روما نحت ميكلائجلو في الرخام تمثال « باخوس » (ديونيزوس) رب الخمر عند اليونان والرومان ، واشتراه منه بنكير في روما من رعاة الفن اسمه يعقوب جابو ، والتمثال موجود الآن في متحف بارجيللو ، كما نحت تمثال «كوبيد» (رب الحب) وهو الآن في ساوث كنسجتون بلندن . وقد صور ميكلائجلو باخوس في هيئة شاب مرح يترنح سكرًا حاملاً كأساً على غير عادة القدماء — فقد كان القدماء لا يمثلون باخوس مفتشياً وإنما ينسبون النشوة أو السكر الى أتباعه من العذارى المعروفة باسم « الباكانتى » ، أى « عذارى باخوس » ، ومن التيوس التى كانت تمثل عندهم الشهوانية الحيوانية . أما باخوس نفسه فقد كان يمثل عندهم النشوة الروحية كذلك .

وفي فترة اقامة ميكلائجلو الأولى في روما تعاقد في ١٤٩٨ مع الكاردينال دى سان دنيس على اقامة تمثال من الرخام اسمه « الرحمة » (البييتا) مقابل ٤٥٠ دوقية ذهبية من عملة الفاتيكان خلال سنة من تاريخ العقد ، وضمن البنكير جالو ميكلائجلو في تنفيذ هذا العقد فقد كان ميكلائجلو حتى ذلك التاريخ غير معروف بالدرجة الكافية . والتمثال يمثل جسد المسيح الجريح بالحجم الطبيعى ملقى على حجر مريم العذراء . وبدت العذراء في هذا التمثال شابة فانتقده النقاد قائلين انه كان ينبغى أن تبدو في سن أم المسيح ، ورد عليهم ميكلائجلو بقوله ان النساء لا تهرمن ملامهن الا نتيجة للمعاشرة الجنسية ، وهو ما لا ينسب لمريم ، والتمثال موجود الآن في الكنيسة القديمة من كاتدرائية القديس بطرس بروما في محراب « المادونا ديلا فيبرى » ، أى « العذراء الحامية من الحمى » ، وهناك دفن البابا اسكندر بورجيا عام ١٥٠٣ .

وفي روما نحت ميكلائجلو أيضاً في الرخال تمثال « مادونا بروج » ، أى مريم العذراء حامية مدينة بروج ، والتمثال قائم الآن في محراب صغير بكاتدرائية بروج ، وهو من طراز تمثال الرحمة أو « البييتا » ، وفيه نرى العذراء جالسة على كتلة من الحجر صارمة الملامح في اعتزاز يوشك أن يبلغ مبلغ الكبرياء ، وفي حجرها يسوع الطفل يهم بالنزول الى الأرض . وقد كان المفترض أن يشحن هذا التمثال الى بروج ، ولكن هناك وثائق تدل على أن ميكلائجلو أخفاه في بيت أبيه في فلورنسا .

وبهذه التماثيل الثلاثة « باخوس » و « مادونا ديلا فيبرى » و « مادونا بروج » أصبح ميكلائجلو أشهر مثال توسكانى . بل أشهر مثال ايطالى وكان عمره يومئذ ستاً وعشرين سنة .

وعاد ميكلائنجلو الى فلورنسا حيث اقام من ١٥٠١ الى ١٥٠٤ . وكانت أسرته تعاني من ضائقة مالية شديدة لأن أباه فصل من وظيفته في الجمرک بعد طرد آل مديتشي من فلورنسا . وظل ميكلائنجلو يعين أسرته — أباه وأخوته الأربعة — ماليا حتى آخر يوم في حياته ، بل وظل يساعدهم على اقتناء الأملاك في فلورنسا ليرفع من شأن الأسرة . وكان كلما أعطاهم طالبوا بالمزيد . وازداد جشعهم حتى ساءت العلاقات بينه وبينهم ، ومع ذلك فقد ظل يساعدهم بقية عمره . أما ميكلائنجلو نفسه فقد كان طوال حياته يعيش في زهد وتقشف رغم ضخامة موارده وشاع عنه البخل ولكن الأرجح أنه كان لا يحفل بالمال ، فقد كانت تأتيه العروض السخية فلا يقبلها وإنما يعمل دائما بوحى من إلهامه واستجابة لمشاعر المودة .

وقبل أن ينتقل ميكلائنجلو نهائيا الى روما ، وقع في فلورنسا عقدا في ١٦ أغسطس ١٥٠١ مع لجنة الأشغال بالمدينة بأن ينحت لمدينة فلورنسا تمثالا للنبي داود من رخام ، تعهد بأن ينجزه خلال سنتين من تاريخ توقيع العقد ، مقابل ستة فلورينات ذهبية شهريا علاوة على تكاليف الخامات والأدوات ومكافآت الأسطوات المساعدين والعمال . ونص العقد على أنه عند اكتمال التمثال يترك للجنة الأشغال أن تقرر ان كان ميكلائنجلو يستحق مكافأة اضافية أم لا ، وكان الأمر متروكا لضمائر أعضاء اللجنة . وفي ٢٨ فبراير ١٥٠٢ كان العمل في التمثال قد تقدم بدرجة كبيرة حتى أن اللجنة قدرت لميكلائنجلو ٤٠٠ فلورين ذهبى . وقد اشتهر هذا التمثال في فلورنسا باسم « العملاق » ، وكان أصلا كتلة ضخمة من الرخام من كارارا أساء قطعها مثال آخر فأصبحت لا تصلح لشيء . وقد أقيم تمثال « داود » بعد مداولات طويلة عند مدخل القصر العتيق « بالاتروفيكيو » لمدة ثلاثة قرون ، ثم نقل في ١٨٧٣ الى قبة « الأكاديمية ديل بلارتي » (أكاديمية الفنون الجميلة) ، لمزيد من صيانتته .

وتمثال « داود » في فلورنسا من أهم الروائع التي خرجت من يدي ميكلائنجلو ، وقد وضعت في مكانه الأصلي ، أمام البوابة الكبرى لقصر السنيورية ، نسخة منه طبق الأصل . والتمثال نموذج حي لأسلوب ميكلائنجلو في فن النحت الذى يتميز بالقوة والجلال ، بل والرغبة الباعثة على « الرعب » ، كما أجمع كافة نقاد الفن على توصيفه وتوصيف شخصية صاحبه ، فهو تمثال مخيف ، وفي التصور العام حرارة واندفاع . غير أن بعض نقاد الفن قد لاحظوا أن رأس « داود » كبير وغير متناسب مع جسمه ، وكذلك اليدان والقدمان . ويبدو أن الموديل البشرى الذى اتخذه ميكلائنجلو

نموذجاً لتمثاله كان بحاجة الى سنتين من النمو لتنضج رجولته ويتناسب تكوينه التشريحي . . ومع ذلك فهناك في التمثال اعتزاز عظيم .

وقد ترك لنا كاتب فرنسي معاصر من القرن السادس عشر رأى ميكلانجلو يعمل وصفا لطريقته في العمل : قال انه رآه في حالة هياج وهو يندت « داود » . . قال إنه رآه يكسر بمطرقته من الرخام في ربع ساعة أكثر مما يكسره ثلاثة حجارين في قمة فتوتهم في أربع ساعات ، وكان يتصور حين رآه أن كتلة الرخام كلها ستنفلق في يده ، لكنه كان يعمل في دقة عجيبة فلا يتجاوز شعرة عن المراد قطعه والا تلف الرخام ، فالخطأ في الرخام لا يمكن اصلاحه . ولم يكن أمام ميكلانجلو الا نموذج من الشمع من تصميمه .

وفي ١٥٠٥ استدعى البابا الجديد ، يوليوس الثاني ، خليفة اسكندر السادس (او رودريجو بورجيا) ، ميكلانجلو الى روما وكلفه ببناء مقبرة خاصة به تقام في كاتدرائية القديس بطرس بروما ، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حياة ميكلانجلو . . مرحلة العمل الذى لا ينقطع لتحقيق أحلام سلسلة من البابوات المتعاقبين ، وقد امتدت هذه المرحلة الى نهاية عمره . وبدأت بما يسمى في تاريخ الفن « مأساة مقبرة يوليوس » ، وتلتها مرحلة مشروعات التحجير وشق الطرق التى تبناها البابا ليو العاشر ، ثم مشروع تجميل كاتدرائية سان لورنزو بفلورنسا حيث مقبرة آل مديتشى ، ثم المشروعات الهندسية الخارجة عن اختصاصه .

وكان البابا يوليوس الثاني (١٤٤٣ — ١٥١٣) رجل سياسة ورجل حرب لا رجل روحانيات ، وكان يرعى الفنانين لجده الشخصى ولمجد الفاتيكان الدنيوى . كان يتصرف كأمر دنيوى لا يهدف الى توحيد ايطاليا بقدر ما يهدف الى اخضاع دويلاتها ووضعها تحت سيطرة البابا الدنيوية في روما وتوسيع نفوذ البابوية الدنيوى . وكان يستعمل في ذلك سلاح الحرب ويخرج بنفسه للمعارك على رأس جيشه فكان كل هذا غريبا في رئيس رومى . وقد جلس على الكرسي البابوى من ١٥٠٣ الى ١٥١٣ ، وكان أهم من رعاهم من الفنانين المعماري الشهير برامانتى والمصور رفايل والمثال ميكلانجلو .

تعاقد البابا يوليوس الثاني مع ميكلانجلو لبناء مقبرته ، فوضع ميكلانجلو تصميمها للمقبرة غاية في الفخامة فكانت في شكل بناء رخامى ضخم مستطيل ذى أربع واجهات ، به أكثر من أربعين تمثالا من الرخام وعلى سطحه ملائكة

يحملون التابوت الرخامى . ووضع البابا لحساب ميكلانجلو فى بنك سلفياتى فى فلورنسا ٢٠٠٠ دوقية تحت حساب المقبرة ولكن دون تحديد لمرتبه فيما خلا نفقات اكله وشربه ومسكنه ، وأوفده الى كرارا لأكثر من ثمانية شهور لقطع الرخام اللازم للمقبرة ، فشحن بالبحر الى روما أكثر من ٣٤ عربة محملة بالرخام ، ومعها حمولة ١٥ عربة أخرى .





الفن يغزو الكنيسة

□ وعاد ميكلانجلو الى روما وبدأ العمل في اواخر نوفمبر ١٥٠٥ ، ولكن المقبرة لم تستكمل الا في ١٥٤٥ ، اى بعد اربعين عاما ، رغم أن يوليوس الثانى توفى في ١٥١٣ ، وتعاقب بعده من البابوات : ليو العاشر ، الذى جلس على الكرسي البابوى بين ١٥١٣ و ١٥٢١ ، وادريان السادس ، الذى جلس بين ١٥٢١ و ١٥٢٣ ، وكلمنت السابع ، الذى جلس بين ١٥٢٣ و ١٥٣٤ ، وبول الثالث الذى جلس بين ١٥٣٤ و ١٥٤٩ ، الخ .. وبتعاقب البابوات كان لكل منهم رأى فى التصميم ، ومنع كل تعديل كان ميكلانجلو يوقع عقدا جديدا بمواصفات جديدة كلها تتجه نحو اختصار الفخامة وضغط النفقات ، حتى بلغ عدد العقود التى وقعها ميكلانجلو خمسة عقود — بل لقد انتهى الامر بتغيير مكان المقبرة ذاتها فأقيمت المقبرة فى كنيسة القديس بطرس فى فينكولى بدلا من كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان . وكان المقدر أولا للمقبرة انها كانت ستتكلف ١٦٥٠٠ دوقية ذهبية ، ولكن النفقات اختصرت فى النهاية فلم يتسلم ميكلانجلو فى ثلاث سنوات من ١٥١٤ الى ١٥١٦ سوى ٦١٠٠ دوقية ذهبية من ليو العاشر ، ثم شحت الاعتمادات المخصصة للمقبرة كلما تعاقبت السنون على رحيل صاحبها .

كان البابا يوليوس الثانى عدوانيا فى موته كما كان عدوانيا فى حياته لأن تنفيذ تصميم مقبرته على صورتها الأصلية الضخمة كان معناه ازالة العديد من قبور أسلافه البابوات فى الفاتيكان ليحتل هو مكانهم ، ولعل هذا كان بسبب كثرة التعديلات التى طرأت على تنفيذ مشروع مقبرته .

ولم يبق من ذلك التصميم الضخم الا مقبرة ذات واجهة واحدة صغيرة الحجم تحف بها ستة تماثيل ، كان أحدها تمثال « موسى » ، وهو من أعظم التماثيل التى نحتها ميكلانجلو بيده من البداية الى النهاية ، أما الخمسة الأخرى ، وهى تمثال « المادونا والطفل » وتمثال « حياة العمل » وتمثال « حياة التأمل » وتمثال « نبي » وتمثال « عرافة » ، فقد أتمها ميكلانجلو بيده ولكن عهد بتشطيبها الى مثال آخر . وكل هذه التماثيل قائمة الآن فى كنيسة القديس بطرس فى فينكولى .

وقد كان في التصميم الأصلي طائفة من التماثيل التي استبعدت من التصميم الأخير ، منها تمثال « الأسيرتان » ، وهما فتاتان في الأغلال تمثلان الفنون والآداب وقد وقعتا في الأسر بعد وفاة البابا يوليوس الثاني ، وقد أهدى ميكلانجلو هذا التمثال لصديقه البنكر استروتزى ، والتمثال موجود الآن في متحف اللوفر . ثم هناك تمثال « أدونيس » وهو الآن في المتحف القومي بفلورنسا . ثم هناك تمثال « ليا وراجيل » وهو في كنيسة القديس بطرس في فينكولى ، وتماثيل أخرى متفرقة في أماكن أخرى .

وحتى في حياة البابا يوليوس الثاني شجر خلاف بين البابا وميكلانجلو ، قيل لان البابا لم يف بتعهداته المالية ، وقيل بسبب دسائس الفنان رفاييل والمعماري برامانتى اللذين كانا يقومان ببناء الكنيسة الجديدة للقديس بطرس داخل الفاتيكان . فعاد ميكلانجلو الى فلورنسا سنوات واستدعاه يوليوس الثاني مرارا لاتمام عمله ولكنه رفض ، وكان يخشى أن يغتال في روما بالسهم أو بالخنجر . وأخيرا كتب البابا الى « السنيورية » (المجلس الحاكم) في فلورنسا يطالب بإبعاد ميكلانجلو وتسليمه اليه . فعاد ميكلانجلو الى روما بعد أن زودته السنيورية بخطاب للبابا يؤمنه على حياته ، ويقول ان أى عدوان عليه يعد عدوانا على فلورنسا .

وفي أثناء اقامة ميكلانجلو في فلورنسا أتم فريسكو (رسما حائطيا ملونا على الجبس قبل جفافه) عن معركة بيزا وهو يصور الجنود عرايا يستحمون في نهر الأرنو فلما نادى النفير هرعوا للسلاح وهم عرايا . وهذا الفريسكو موجود في قصر مدينتشى ولكن لم يبق منه شيء مذكور . . وكان لليوناردو دافنشى فريسكو في قاعة البابا بكنيسة سانتا ماريا نوفيللا بفلورنسا .

وقبل عودة ميكلانجلو الى روما أقام فترة في بولونيا ، وهناك صنع تمثالا من البرونز للبابا يوليوس الثاني بضعف الحجم الطبيعى تقريبا . وكان قد تلقى من البابا ١٠٠٠ دوقية مقدما .

هذه قصة « مأساة مقبرة يوليوس الثاني » في ايجاز شديد : لم يبق من تماثيلها في المقبرة نفسها الا تمثال امرأتين ، احدهما تمثل « حياة العمل » والأخرى تمثل « حياة التأمل » ، ويتوسطهما تمثال « موسى » جالسا ، وهو التمثال الذى أفاضت في وصفه كتب الفن واتخذة النقاد ، كتمثال « داود » في فلورنسا وكتمثال « الرحمة » في محراب السستين في كنيسة القديس بطرس بروما ، عنوانا على عبقرية ميكلانجلو ونموذجا أعلى لأسلوبه الفنى في عصر الرنيسانس . هذه التماثيل الثلاثة من صنع يد ميكلانجلو من الألف الى

الياء ، أما بقية تماثيل المقبرة فقد نحتها ميكلانجلو في أساسها ثم عهد لغيره من المثاليين بتشطيبها بسبب كثرة التزاماته نحو بابوات روما .

ولعل من سخرية التاريخ الا يشغل ميكلانجلو نفسه في تخليد ذكرى هذا البابا الغريب. الأطوار الا بهذه الجوانب الثلاثة من شخصية يوليوس الثانى . فقد كان هذا البابا المحارب اقرب الى القائد العسكرى المستغرق فى « حياة العمل » منه الى الأب الروحى المستغرق فى « حياة التأمل » . وقد تجسد هذان الرمزان فى شخصية موسى كما تجلت فى سفر خروج بنى اسرائيل فى « التوراة » .

ثم عاد ميكلانجلو الى روما ليبدأ العمل فى نقوش محراب السستين الفريسيكية وتمثال « الرحمة » فى المحراب ، ثم انتقل الى فلورنسا ليجدد كنيسة سان لورنزو ومقابر آل مديتشى ، ثم عاد الى روما ليتم عمله فى كاتدرائية القديس بطرس بالفاتيكان ، كل ذلك بحسب نزوات البابوات او حبه للفنون ، فأصابته الكنيسة رواء ما بعده رواء ، وأصاب ميكلانجلو مجدا لا يبلى مع الأيام .

فى روما بدأ ميكلانجلو يرسم صور فريسكات محراب السستين فى كاتدرائية القديس بطرس بالفاتيكان بتكليف من البابا يوليوس الثانى . والفريسكو هو الرسم الملون على الجدران او على السقف قبل أن يجف الطلاء او الملاط او الجبس او المصيص .

بدأ بفريسك القبة فى ١٠ مايو ١٥٠٨ وانتهى منه فى اكتوبر ١٥١٢ ، فكان ميكلانجلو كسا قبة محراب السستين بالنقوش التصويرية فى أربع سنوات ونصف . ويقال انه تقاضى عن ذلك ٣٠٠٠ دوقية ذهبية عن فريسكات قبو محراب السستين . وكان يعمل بمفرده .

واستمر ميكلانجلو يضيف الفريسكات على جدران محراب السستين بصورة متقطعة ، ولم يفرغ منه تماما الا فى ديسمبر ١٥٤١ ، وبهذا يكون العمل فى نقوش السستين قد استغرق نحو ٣٣ سنة متقطعة .

وقد صور ميكلانجلو فى فريسكات محراب السستين قصة الخليقة وسقوط آدم وحواء وقصة الطوفان وقصة المسيح حتى يوم القيامة كما استوحى هذه القصص من أسفار التوراة والانجيل ، ومع هذه القصص صور بابوات روما .

ومحراب السستين محراب في الفاتيكان بناه في ١٤٧٣ معمارى من فلورنسا اسمه باتشيوبونتيللى للبابا سكستوس الرابع ، ولذا عرف بالسكستين أو السستين . وطول المحراب ٣٩ مترا و ٦٠ سم وعرضه ١٣ مترا و ٢٠ سم وارتفاعه ٢٠ مترا و ٤٠ سم . والمحراب تنيره ١٢ نافذة في كل جانب . وقد كان على الجانبين قبل ميكلانجلو ١٢ فريسكو تمثل موضوعات دينية مثل سيرة موسى وسيرة المسيح وغيرها ، وهى بريشة أعلام الفنانين في القرن الخامس عشر مثل بوتيتشيللى وسنيويللى وروسيلى وبيروجينو وجيرلاندايو . وعلى الجدار الشرقى رسم بوتيتشيللى صفا من البابوات عددهم ٢٨ بابا ، أما الجدار الغربى فقد كساه بيروجينو بثلاث فريسكات تمثل « صعود العذراء » يتوسط صورة « العثور على موسى » وصورة « ميلاد المسيح » .

وقد هدم ميكلانجلو فريسكات بيروجينو على الحائط الغربى وكسا الحائط الغربى بفريسك جديد يصور « يوم القيامة » . وفى سقف القبو رسم ميكلانجلو تسعة مشاهد من قصة خلق الكون وطرده آدم وحواء من الجنة وقصة الطوفان .

وكان أسلوب ميكلانجلو يسمى « الأسلوب الجديد » . فقد كان الفنانون المصورون من قبله في القرن الخامس عشر يتوسعون في الاعتماد على الزينة فيما يرسمون من موضوعات مقتبسة من الكتاب المقدس أو من أساطير القدماء ، أما ميكلانجلو فقد تجنب رسم متاظر الطبيعة والأشجار والأزهار والطيور والحيوانات كما تجنب رسم أوراق الشجر والفاكهة والأرابيسك والشمعدانات وتجنب رسم المجموعات الثانوية من الأشخاص مجرد ملء الفراغ ، باعتبار أن كل هذه كانت موتيفات وسفاسف رخيصة يستجدى بها الفنان الكسول اعجاب المشاهدين بسهولة ، وبدون اجتهاد .

أما ميكلانجلو فقد كان مركزا على جسم الانسان بوصفه دراسة مضنية في التشريح . وكان شديد الاعجاب بجمال جسم الرجل ولا يحفل بجمال جسم المرأة ، وهى سمة كثيرا ما نلاحظها في الفن اليونانى القديم ، ولذا جاءت أكثر أعماله الفنية من تماثيل وصور دراسات فائقة الدقة في كمال أجسام الرجال .

وفى ١٥١٤ كلفه راع من رعاة الفن يدعى فارغ دى بوركارى بنحت تمثال يسمى « المسيح منتصرا » (على الموت) أو « المسيح قائما من بين الأموات » (كريستو ريزورتو) ، ولكنه لم يبدأ العمل فيه جديا الا فى ١٥٢١ وأتمه فى ١٥٢٣ ثم سلمه لصبى موهوب اسمه بيترو دى أوربينو كان يعمل

عنده ليتولى صقله . وكان هذا الصبي يشيع بين الناس أنه هو صانع التمثال ، وبالفعل عبث به بتدخله فأفسد أجزاء من أصابع اليدين والقدمين واللحية وأرنبة الأنف ، فسلم ميكلانجلو التمثال الى مثال يدعى غريقتزي ليرممه ويقيمه على قاعدة ، فقام بترميمه . . غير أن ميكلانجلو عرض على مشترى التمثال أن يصنع له غيره ، ولكن المشترى تمسك بالتمثال قائلاً : أنه كنز من كنوز الفن . ومن المبالغات التي قيلت في هذا التمثال يومئذ أن « ركة » المسيح منتصرا « تساوى روما كلها . وبالفعل فقد أجمع نقاد الفن على أن هذا التمثال معجزة فنية ، وقد اشتهر أمره حتى أن فرنسوا الأول ملك فرنسا استخرج منه نسخة برونزية . ولكن الجديد في هذا التمثال أن ميكلانجلو خرج عن الصورة التقليدية للمسيح الذى اشتهر بالوداعة ، فجسده في الرخام عارى الجسد تماما قويا مثل هرقل فكان بقسمات جسمه معجزة في التشريح وكان بشعره المتدلى على الكتفين معجزة في الوضع والحركة .

وكان ميكلانجلو رجلا غريب الأطوار وكان سييء الحظ « مع صبيانه » وخدمه ومن عاونه من الأسطوات . . فكان في فترة عمله في محراب السستين يقيم في روما في غرفة واحدة أو في شقة العازب ويشرك معه فيها ثلاثة من مساعديه وخادمه الغلام . وكان كثيرا ما ينام بملابسه كاملة . . وكان في العادة يستقدم خدمه وصبيانه من فلورنسا ، ثم لا يلبث أن يعيدهم اليها : هذا لأنه كسول لا يخدم ولكن ينتظر من سيده أن يخدمه ، وهذا لأنه نصاب ، وهذا لأنه يتصرف كاللوردات ويختال في روما بحذائه القطيفة . وكان لا يطيق وجود خادمة في البيت لأن الخادومات في روما « كلهن بغايا وكلهن خنازير » ، أما صبية روما « فكلهم أوغاد » ولا يصلحون خدما . وكان لا يكف في خطاباته عن تعنيف أسرته لأنهم شرهون يرهقونه بطلب المال وكلما أعطاهم طالبوا بالمزيد ليشتروا الأطيان رغم أنهم يعرفون أنه يحرم نفسه ليعينهم ويعمل الليل والنهار ، فهو يشقى من أجلهم لترتفع مرتبتهم قليلا في الحياة . وبالمثل كان يستقدم الصبيان أو الأسطوات من فلورنسا وكانت أسرته تتولى إرسالهم اليه .

وكان حاد الطباع الب على نفسه الكثيرين من فناني عصره بسبب صراحته ، سريع الغضب ، متسرعا في القول وفي الفعل ولكنه كان يهدأ بسرعة . . وكان كثير الشكوك الى حد المرض ، شديد الاكتئاب الى حد الجنون ، يكره البشر ويرعب من يخالطه من الناس ، متقشفا الى حد الظهور بالاملاق ، متهما بالبخل رغم أنه ساعد الكثيرين ماليا . وكان محبا للوحدة لا يطيق أن يشرك معه أحدا في العمل ولا يحب أن يعلم عنه لأحد ، وكان

كتوما لا يطلع احدا حتى اقرب معاونيه على تصميمات مشروعاته الفنية ، وقد تسبب جهلهم بنواياه في تغيير تصميماته بعد وفاته . وكان جباناً على مستوى الشجار البدنى ، ولكن كانت له طاقة ماردة على العمل . وكان بعض أصدقائه الخالصاء يتهمون به بأنه سكير . وقد عرف عنه حبه للشبان الوسيمين وعدم اكتراثه بالنساء . أما ميكلانجلو الفنان فقد كان شديد التواضع في الفن ، رغم أنه كان متطرف الكبرياء على المستوى الاجتماعي ، فقد كان يكره أن يسمى مثالا ، وكان شديد الاعتداد بنسبه البعيد الى اشراف كانوسا .

ولأن ميكلانجلو لم يعلم احدا شيئا ، فهو لم يترك مدرسة رغم أنه عمر الى التسعين ، بينما ترك رفايل مدرسة زاهرة في تاريخ الفن رغم أنه مات في شرح الشباب . كان رفايل يكلف تلامذته بالأعمال ثم يصححها ، أما ميكلانجلو فكان يضطلع بأي عمل يتصدى له من الالف الى الياء .

وكان ميكلانجلو متعاطفا مع مبادئ سافونارولا رغم أنه كان ربيب لورنزو دي مديتشى . ومع ذلك فقد كان يخشى التدخل في السياسة . وبعد معركة رافينا في ١٥١٢ غرض ريموندو دي كاردونا أسرة مديتشى من جديدة سادة على فلورنسا . وكانت لأسرة ميكلانجلو عواطف نحو حزب سافونارولا ، فكتب اليهم ميكلانجلو يحذرهم من التدخل في السياسة . وبالفعل فرضت عليهم بعد عودة آل مديتشى في ١٤ سبتمبر ١٥١٢ غرامة مالية قدرها ٦٠٠ دوقية ، ولكنهم سلموا من الاضطهاد لتفاهة شأنهم . وكتب ميكلانجلو الى الكاردينال جيوفانى دي مديتشى (بن لورنزو) يدافع عن أسرته ، ويبدو أن دفاعه اثر لأن أباه أعيد الى وظيفته .

وبعد وفاة البابا يوليوس الثانى جلس الكاردينال جيوفانى دي مديتشى ابن لورنزو على الكرسي البابوى باسم البابا ليو العاشر لمدة ثمانى سنوات ، حتى مات في ١٥٢١ . وكان هذا البابا لا عمل له الا تثبيت سلطة آل مديتشى في فلورنسا ، ولم يزدهر بسببه فنان ولا اديب . على العكس من ذلك ، فقد كلف ليو العاشر ميكلانجلو ورفايل وسانجالو بتجديد كنيسة سان لورنزو في فلورنسا حيث كانت مقابر آل مديتشى . وكانت تجربة مؤسفة لأنها ضيعت سنوات على ميكلانجلو . فقد رفض ميكلانجلو العمل مع غيره فوقع عليه العبء كله ، واهمل العمل في مقبرة يوليوس الثانى .

وبعد وفاة ليو العاشر في اول ديسمبر ١٥٢١ تلاه البابا أدريان السادس الذى كان مؤدب الامبراطور شرلكان ، ولم يجلس على الكرسي البابوى الا سنة وثمانية شهور لأنه مات في ٢٣ سبتمبر ١٥٢٣ . وكان

ادريان هذا لا يهتم بالسياسة ولا بالفن ولا بالأدب ، وانما يهتم بالدين وحده وكان يسمى التماثيل أوثنان الوثنيين ، فلما مات خلفه جوليو دى مديتشى باسم البابا كلمنت السابع (١٥٢٣ - ١٥٣٤) . وكلف ميكلانجلو بالعمل فى تجديد كنيسة سان لورنزو بفلورنسا وتجديد مقابر آل مديتشى فى هذه الكنيسة وأجرى عليه معاشا شهريا وأنزله مسكنا بجوار عمله ليطمئن الى تفرغه الكامل . وبالفعل حين عرضت عليه حكومة مدينة جنوا فى ١٥٢٣ ان يصنع لها تمثالا لمواطنها الشهير اندريا دوريا الذى كان أميرال أساطيل فرنسوا الأول وشرلكان على التوالى ، اعذر ميكلانجلو . وفى هذه الفترة صنع ميكلانجلو للدومو (القبة) فى فلورنسا ، ١٢ تمثالا خلال ١٢ سنة مقابل فلورينين ذهبيين شهريا .

وكان العمل فى سان لورنزو عمل مهندس معمارى أكثر منه عمل مثال ، ولم يكن ميكلانجلو سعيدا به . وزاد من شقائه أن دوق أوربينو قريب البابا يوليوس الثانى ، رفع عليه دعوى لأنه تقاضى ١٦٠٠٠ دوقية لبنى مقبرة البابا ولكنه لم يف بالتزاماته .

ثم اضطربت أمور روما وفلورنسا خلال عامى ١٥٢٧ و ١٥٢٨ حين دمرت الجيوش الغازية روما باسم الامبراطور شرلكان وطردت آل مديتشى من فلورنسا مرة أخرى . وانقطعت أخبار ميكلانجلو نحو سنتين وسط هذا الاضطراب السياسى . غير أن انجلترا وفرنسا اتفقتا مع شرلكان فى صلح برشلونة (٢٠ يونيو ١٥٢٩) على إعادة فرض أسرة مديتشى على فلورنسا واطلاق يد البابا كليمنت السابع فيها . وسار اليها أمير أورانج بجيش لحصارها ، فاستعدت المدينة للدفاع عن نفسها وعينت لجنة الحرب ميكلانجلو مديرا للاستحكامات .

واشتم ميكلانجلو رائحة الخيانة فى أحد القواد فتسلل خارجا من المدينة وقصد الى البندقية حاملا ٣٠٠٠ دوقية ، وهناك استقبلته حكومتها استقبالا رسميا . . وكان فى نية ميكلانجلو أن ينطلق من البندقية الى باريس ، فكتب قنصل فرنسا فى البندقية ، لازار دى باييف ، الى فرانسوا الأول أن يضم ميكلانجلو الى بلاطه ، ولكن ميكلانجلو عدل عن هذه الرحلة وعاد الى فلورنسا فى ٢٠ نوفمبر ١٥٢٩ وسط الحصار قبل يسقوط المدينة فى يد أمير أورانج قائد جيش شرلكان فى أغسطس ١٥٣٠ نتيجة للخيانة كما توقع . واكتفت السنيورية بعزل ميكلانجلو من منصبه ومن المجلس الكبير لمدة ثلاث سنوات عقابا له على تسلمه من فلورنسا ، رغم أنها صادرت أملاك غيره من الفارين . وكان الاتفاق بموجب صلح برشلونة ان يعيد الامبراطور شرلكان الساندرو (اسكندر) مديتشى أميرا

على فلورنسا بعد أن زوجه من ابنته باعتبار فلورنسا « دوطة » منها
لزوجها . وحين سقطت المدينة اختفى ميكلانجلو في بلدة بعيدة خفية
البطش به .

ولما هدأت الأحوال وانتهت أعمال الانتقام وعده البابا كليمنت
السابع بالأمان لو عاد الى فلورنسا للعمل في كنيسة سان لورنزو ومقابر
آل مديتشى . فعاد وكان مرتبه خمسين كوروناً شهرياً . وفي هذه الفترة
وضع ميكلانجلو تصميم تمثاله « شمشون الجبار » ، ورسم لوحة
« ليدا والبجع » التى اشتراها فرانسوا الأول وظلت في قصر فونتنبلو حتى
عهد لويس الثالث عشر حين دمرت بأمر الوزير دينواييه بسبب إباحيتها ،
وفي هذه الفترة أيضاً نحت ميكلانجلو من الرخام تمثال « أبولو رامى السهم » ،
وتمثال « النزول من الصليب » في كنيسة الدومو (القبة) حيث نرى مريم
عاجزة عن حمل جسد المسيح .

ومن ١٥٣٠ الى ١٥٣٣ اشتغل ميكلانجلو في اتمام مقبرة آل مديتشى
في كنيسة سان لورنزو بفلورنسا . وكان مركزه قلقاً في المدينة بسبب عداوة
الدوق الساندرو مديتشى له . وفي هذه الفترة أيضاً تم التراضى بين
ميكلانجلو ودوق أوربينو ، بعد مفاوضات مضنية ، على أن تقتصر مقبرة
يوليوس الثانى على واجهة واحدة ومعها ستة تماثيل من صنع
ميكلانجلو نفسه مقابل كل ما تقاضاه من أموال . ثم سافر
البابا كليمنت السابع الى مرسيليا في ١٥٣٣ ليزوج بنت عمه كاترين
دى مدسيس للدوفين ، ولى عهد فرنسا . وقبل موت البابا في ٢٣ سبتمبر
١٥٣٤ بيومين وصل ميكلانجلو الى روما من فلورنسا ، وكان ذلك من حسن
حظه . فقد كان البابا ، وهو من آل مديتشى . . يحميه من غضب الساندرو
مديتشى أمير فلورنسا ، وبموته انتهت هذه الحماية . ومع ذلك فقد زار
ميكلانجلو فلورنسا مرة أخيرة ثم غادرها نهائياً الى بيزا وروما في ديسمبر
١٥٣٤ ، ولم يعد اليها حتى مات في ١٥٦٤ ليدفن فيها .

لم يعد ميكلانجلو قط الى فلورنسا بعد موت البابا كليمنت السابع ،
وكان عمر ميكلانجلو يومئذ ٥٩ سنة ، واستدعاه البابا الجديد بول الثالث
(تولى ١٥٣٤ — ١٥٤٩) ، وطلب اليه أن يدخل في خدمته ولكن ميكلانجلو
اعتذر بضرورة قيامه باتمام مقبرة يوليوس الثانى . . فغضب البابا بول
الثالث قائلاً انه انتظر هذه اللحظة ثلاثين عاماً فلما جاءت خيب ميكلانجلو
أمله . وهرب ميكلانجلو الى دير في جنوا ليتم عمله بجوار محاجر الرخام
في كرارا . ولكن البابا بول الثالث نجح في استقدمه الى روما ليكمل ما بداه
من فريسكات محراب السستين . وأصدر البابا بياناً بأن ميكلانجلو غير

مستول عن أى تعطيل فى مقبرة يوليوس الثانى وأن الفاتيكان يعفيه من أية تعويضات عن التأخير .

وهكذا تفرغ ميكلانجلو لرسم فريسكو « يوم القيامة » حتى أتمه وعرض على الجمهور فى ٢٥ ديسمبر ١٥٤١ ، وكان عمر ميكلانجلو يومئذ ٦٦ عاما . وهذا الفريسكو من الأعمال الخالدة التى اقترنت باسم ميكلانجلو . كذلك أتم ميكلانجلو فريسكات « محراب الباولين » بتكليف من البابا بول الثالث . أتمها فى سبع سنوات وهو فى الخامسة والسبعين من عمره .

وقد أرسل فرنسوا الأول الى ميكلانجلو فى سنة ١٥٤٦ خطابا يرجوه فيه أن يقيم له بيديه أثرا فنيا يعتز به . فاعتذر ميكلانجلو بالشيخوخة وبدنو الأجل . . قائلا انه لو كان فى الامكان عمل تماثيل فى الدار الأخرى ، حيث الشباب دائم ، فسوف يسعده أن يصنعها « لصاحب الجلالة المقدسة » .

أما حلم ميكلانجلو فى شيخوخته فقد كان قبة الكاتدرائية الجديدة للقديس بطرس مؤسس الكنيسة الكاثوليكية . . وقد كان البابا يوليوس الثانى أول من هدم كاتدرائية القديس بطرس القديمة لتتسع لتصميم مقبرته الضخمة التى لم يتم تنفيذها لأن البابوات المتعاقبين شغلوا ميكلانجلو عن تنفيذها بما صنع من تماثيل وما رسم من فريسكات وما أقام من معمار فى كنيسة القديس بطرس الجديدة .

وكان واضع تصميم هذه الكاتدرائية العظيمة المهندس المعمارى المشهور برامانتى الذى كان كبير المهندسين فيها حتى توفى فى ١٥١٤ . وكان تصميم الكاتدرائية يقوم على مبدأ الصليب المصرى اليونانى المتساوى الأضلاع فى الأرضية من المدخل الى الهيكل . فلما مات برامانتى قاد العمل مكانه فى ١٥١٧ الفنان رفايل أيام البابا ليو العاشر . . يساعده المهندس المعمارى انطونيو دى سانجاللو . وعدل رفايل التصميم فأأسسه على الصليب اللاتينى ، حيث الضلع الرأسى أطول من الضلع الأفقى . فلما مات رفايل فى ١٥٢٠ قاد العمل سانجاللو بمعاونة بيروتى ، وعادا الى تصميم الكنيسة على قاعدة الصليب المصرى اليونانى ، ولم يتقدم العمل كثيرا بسبب الارتباك السياسى . ثم مات بيروتى فى ١٥٣٧ وانفرد سانجاللو بالعمل فزاد من التعقيد الهندسى للمبنى ، مازجا الطراز القوطى بالطراز الكلاسيكى . . وأضاف ممرًا طويلا عند مدخل الكاتدرائية ليحقق وهما بقاعدة الصليب اللاتينى . ولكن كان له فضل اضافة القبة الوسطى الشامخة . وقد سيطر سانجاللو على العمل نحو ثلاثين سنة ، من ١٥٢٠

حتى بعد ١٥٥٠ ، كان خلالها مصدر استنزاف لأموال الفاتيكان وربى مدرسة ضخمة من معاونين الفاسدين شملت المقاولين الغشاشين والكرادلة والاداريين المرتشين . فلما تولى ميكلانجلو قيادة العمل بعد موت سانجاللو احاطوه بمؤامراتهم المستمرة لصدى البابوات وبوشاياتهم التى لم تنقطع حتى وفاته . . ولم ينقذ ميكلانجلو الا أنه كان يعمل متطوعا مكتفيا بما كان البابوات يهبونه من هبات .

عاد ميكلانجلو الى تصميم برامانتى الاصلى القائم على مبدأ الصليب القبطى اليونانى المتساوى الأضلاع . وعاد الى بساطة مشروع برامانتى ولكنه تمسك بالقبة الشامخة وزادها شموخا وأضاف مدخلا شامخا بعد أن اغنى الدهليز الذى أضافه سانجاللو ليوهم بأبعاد الصليب اللاتينى فى البناء وزيادة الطول عن العرض . وكان البابا بعد البابا يقرر تصميم ميكلانجلو رغم مؤامرات أتباع سانجاللو : بول الثالث المتوفى فى ١٥٤٩ ثم يوليوس الثالث المتوفى فى ١٥٥٥ ثم مارسيل الثانى الذى مات بعد أسابيع قليلة من توليه ثم بول الرابع ثم بيوس الرابع الذى جلس فى ١٥٥٩ .

ولأن ميكلانجلو كان يعمل دائما فى انفراد ولا يشرك معه أحدا ، بل ولا يطلع أحدا من معاونيه على خطواته التالية . . انتهى تصميمه بموته . فعدل أخلافه مشروعه وعاد صليبه القبطى اليونانى صليباً لاتينياً ولم يبق من ميكلانجلو حقيقة فى كاتدرائية القديس بطرس الا القبة الشامخة . ولم يترك ميكلانجلو رسوما هندسية بتصوره . حتى البنائين كانوا لا يعرفون مخططاته وإنما كانوا ينفذون ما يشير به جزءا بجزء .

وفى عهد بول الثالث وضع ميكلانجلو أيضا تصميم الكابيتول فى ميدان الكامبودوليو . ونفذ هذا التصميم فى عهد البابا اينوتشنتو العاشر (١٦٤٤ - ١٦٥٥) .

وعندما مات ميكلانجلو فى ١٨ فبراير ١٥٦٤ لم يجدوا عنده الا صندوقا مختوما بالشمع الأحمر به نحو ٨٠٠٠ كورون و ١٠ رسوم جديدة وبعض التماثيل القليلة غير المكتملة التى تمثل موضوعات دينية ، منها تمثال للقديس بطرس . . وكان يملك عند موته بيتا فى روما وبيتا فى فلورنسا وبضعة حقول فى توسكانيا الى جانب ما كان يرسله من اعانات كثيرة لأسرته . ونقلت رفاته من روما الى فلورنسا حيث دفنت فى كنيسة سانتا كروتشى فى احتفال مهيب شارك فيه كل الفنانين والآلاف من المواطنين .

أما عن علاقات ميكلانجلو بالنساء فليس لها وجود . فيما خلا صداقته لسيدة اسمها غيتوريا كولونا بنت حكمدار نابولى . . كانت متزوجة من محارب

اسمه المركيز دى بيسكارا وكان أحد قواد الامبراطور شرلكان ثم مات في ١٥٢٥ متهما بخيانة الامبراطور . وظلت المركيزة فيتوريا دى بيسكارا امينة لذكرى زوجها بين الاعتكاف في الدير والاعتكاف في دارها ونظم الشعر ، ولم نسمع عن صداقتها لميكلانجلو الا في ١٥٣٤ وهى في الحادية والاربعين من عمرها ، اما ميكلانجلو نفسه فكان قد قارب الستين . وكانت هذه السيدة تخالط المفكرين والفنانين وبعض رجال الاصلاح الدينى ، فكانت موضع اشتباه من المحافظين او دعاة « مناهضة الاصلاح الدينى » ، رغم انها لم تكن بروتستانتية او منشقة على الكنيسة الكاثوليكية . ولا أحد يعرف متى بدأت صلتها بميكلانجلو ولا مدى هذه الصلة . وربما اجتذبه فيها أنه كان مثلها من دعاة اصلاح الكنيسة وأنه كان متأثرا بمبادئ سافونارولا . وكان ينظم فيها قصائد الشعر وبينهما مراسلات كثيرة . وقد كان ميكلانجلو شاعرا لا بأس به .

اما بقية صداقات ميكلانجلو فكانت كلها مع الذكور ، ولاسيما الشبان من اهل الوسامة ، مثل النبيل الشاب توماسو كافالييرى وجيرهاردو بيرينى وغيرهما . وكانت له في توماسو كافالييرى قصائد عديدة تتمدح بجماله . . . شبيهة بسونيتات شكسبير التى كان يتمدح فيها بجمال ايرل ساوثهامبتون . ويلاحظ أن الاخوة بوناروتى الخمسة . . وفيهم ميكلانجلو . . لم يتزوج منهم الا واحد فقط .



إذا تكلمنا عن عصر الرنيسانس لم يكن هناك مناص من الكلام عن عشرات من الفنانين التشكيليين من مصورين ومثالين ومعماريين في كل بلد من بلاد أوربا . . وعلى قمتهم ليوناردو دافنشى ورفاييل وميكلانجلو . جددوا بالخط واللون والحجر ذلك النفس الجبار الذى شاع في حضارتى اليونان والرومان وفى سائر الحضارات القديمة منذ أن كان الدين مصدر الهام عظيم لكافة الفنون . . فتجددت بالفنون الجميلة نهضة أوربا على أساس التوفيق بين مجد الله ومجد الانسان ، دونما خشية من العودة الى الوثنية .

وكان من أكبر انتصارات المذهب الانسانى أو الهيومانيزم أن الكنيسة الكاثوليكية نفسها أصبحت منذ جيوتو (١٢٦٦ — ١٣٣٧) حتى ميكلانجلو أكبر راع للفنون الجميلة في أوربا بعد أن ظل العالم المسيحى نحو ألف عام يرتعد خوفا أمام الصورة والتمثال وكل تجسيد بالبعد الثالث باعتباره احياء

لوثنية القدماء . فذبلت الفنون الجميلة ولم يبق منها الا فن الزخرفة البلهاء
التي تستهلك مواهب الانسان التشكيلية والموسيقية فى أمشاق أو أنساق
أو أنماط مكررة عقيمة من الجمل اللونية والموسيقية المجردة من كل مضمون
يعبر تعبيرا خلاقا عن الدين أو الدنيا . وغدت الزهرة المسطحة أو ورقة
الشجر أو الخطوط الهندسية الجوفاء أو حروف الأبجدية أهم من الانسان
ومن قصص الأنبياء .



إرازموس

ERASMUS

١٤٦٩-١٥٣٦



□ لم يكن عصر النهضة الأوروبية مجرد انفجار ثقافي وفكري وعملي غير معالم الحياة في أوروبا ومقاييسها وقيمها في جيل واحد أو قرن واحد ، بل كان عصر النهضة الأوروبية مجموعة من الحركات الثقافية والفكرية والعملية التي استغرقت نحو ثلاثة قرون بين ١٣٠٠ و ١٦٠٠ ميلادية على وجه التقريب على مساحة أوروبا كلها ، أو فنقل بين دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) في إيطاليا الى شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) في إنجلترا .

وقد شهدت هذه القرون الثلاثة تغيرات جوهرية في الحياة الأوروبية غاية في الخطورة كان من أهمها :

- ١ - تبلور اللغات والآداب القومية الحديثة في أوروبا .
- ٢ - تبلور حركات الاستقلال القومي والوحدة القومية فيها .
- ٣ - تبلور الكنائس القومية وانسلاخها من الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) وتقلص سلطة الخلافة الرسولية المعروفة بالبابوية ، وما تبع ذلك من سيادة الدولة على الدين بدلا من سيادة الدين على الدولة .
- ٤ - تبلور فكرة الحق الطبيعي وحلولها محل فكرة الحق الالهي ، وما ترتب على ذلك من حلول القانون الوضعي وحقوق الانسان محل القانون السماوي .
- ٥ - انهيار النظام الاقطاعي نتيجة لحركات الوحدة القومية وظهور الملكية المطلقة ثم الملكية المقيدة ثم الديمقراطيات الحديثة .
- ٦ - حركات الإصلاح الديني باعادة فتح باب الاجتهاد في الدين على اساس احلال العقل محل النقل ، والغاء احتكار الفقهاء والكنهنة كمفسرين للوحي والغاء دور الاولياء كوسطاء بين الناس والله .

٧ — الايمان بأن للانسان قيمة في ذاته وأن الانسان سيد مصيره وأن
لحياة الانسان وعلومه وفنونه وآدابه وفلسفاته ومساعيه قيمة في ذاتها
لا تغنى عنها علوم الدين ولا نسك الرهبان ولا اعتبار الحياة الدنيا مجرد
معبر للآخرة واضمحلال الأديرة وتحولها الى جامعات .

٨ — احياء التراث الوثنى السابق على المسيحية (اليونانى
والرومانى) — بوصفه جزءا لا يتجزأ من تراث الانسانية وازدهار الابداع
الأدبى والفكرى نتيجة لذلك .

٩ — حلول الطباعة محل النسخ اليدوى منذ اخترع جوتنبرج (١٣٩٤ —
١٤٦٨) المطبعة وطبع اول كتاب في تاريخ النشر وهو الكتاب المقدس في
١٤٥٠ ، بعد أن نقل الأوروبيون عن الصينيين صناعة الورق .

١٠ — اكتشاف أمريكا في ١٤٩٢ وغيرها من بقاع العالم المجهولة وبداية
عصر الاستعمار الاستيطانى .

هذه كانت أهم مقومات عصر النهضة الأوروبية الذى امتد نحو ثلاثة
قرون بين ١٣٠٠ — ١٦٠٠ بعد نحو ألف عام من العصور الوسطى منذ
سقوط روما في يد أتيليا عام ٤٥٢ ، وهذه المقومات هى أسس الحضارة
الغربية الحديثة . . وقد كان ارازموس (١٤٦٩ — ١٥٣٦ م) قطبا بين
كتاب عصر النهضة وكان معبرا صادقا عن أكثر هذه المقومات . ومع ذلك
فرغم اتفاقه مع أكثر كتاب عصره في تمجيد الانسان والحياة الانسانية وتهكمه
بالرهبانية والزهد ورفض الحياة الذى كانت تدعو له الكنيسة الكاثوليكية
ومقارؤها ، فقد انفرد ارازموس في هولندا مع معاصره وصديقه السير توماس
مور في انجلترا (١٤٧٨ — ١٥٣٥) برفض مبدأ تشقق العالم المسيحى الى
قوميات متحاربة وكنائس قومية متنازعة متعارضة في ظل كنيسة رسولية
جامعة واحدة هى عنده الكنيسة الكاثوليكية التابعة للبابوية في روما .

وقد كان من اقوال ارازموس المشهورة : « ان نهر الراين لا ينبغى
أن يفصل المسيحى عن المسيحى » . أما السير توماس مور فقد دفع حياته
ثمنا لولائه لوحدة العالم المسيحى في ظل بابوية روما ولوقوفه باصرار ضد
التيار القومى فى الدين والسياسة فى زمن هنرى الثامن ملك انجلترا .

كان منطق هذين المفكرين العظميين : الاصلاح الدينى ، نعم . ولكنه
الاصلاح من الداخل بما لا يفتت وحدة العالم المسيحى . وبهذا الموقف الفريد
انفرد ارازموس والسير توماس مور بين كافة دعاة الهيومائزم أو المذهب

الانسانى فى عصر النهضة الأوروبية بمحاولة التوفيق بين قيم العصور الوسطى وقيم الرنيسانس ، فوضعا أساس ما يسمى فى تاريخ الفكر الأوروبى « بالهيومازم المسيحى » وهى صيغة مركبة كانت فى زمانه على الأقل ضد مجرى التاريخ . بل هى فى زماننا ضد مجرى المنطق . فقد كان على أرازموس أن يقول بوحدة النوع الانسانى فى كل زمان ومكان ، لا بوحدة العالم المسيحى فقط فى كل زمان ومكان . كان على أرازموس لا أن يقول ان الراين لا ينبغى أن يفصل المسيحى عن المسيحى ، بل أن يقول ان جبال الأورال أو البحر المتوسط أو المحيط الأطلسى أو صحراء منغوليا أو الغابات الاستوائية أو حواجز الدين أو اللون أو الجنس أو العنصر أو اللغة أو الطبقة لا ينبغى أن تفصل الانسان عن الانسان .

بغير هذا لا تكون هناك انسانية ولا مذهب انسانى . واتخاذ وحدة الدين أساسا لمفهوم وحدة الانسان لا يقل عنجية ولا تمزيقا لوحدة البشر وحققهم المتساوى فى الحياة وفى الكرامة وفى السعادة من اتخاذ وحدة العرق أو القوم أو الوطن الخ . . أساسا للأخاء الانسانى .

ومع كل هذا فقد كان أرازموس عند الكثيرين يلقب بأمر الانسانين، بسبب قوة دعوته للأخاء الانسانى فى زمن مزقت فيه الخلافات والحروب الدينية أوروبا بأسرها .

ولد ديزيدير أرازموس بمدينة روتردام بهولندا ، واشتهر بمكان مولده حتى كان يعرف عادة باسم أرازموس الروتردامى . وكان أصغر ابنين فى أسرته . وكانت أمه ، واسمها مرجريت ، ابنة طبيب ، وأبوه ، واسمه جيرار ، فقد نزع من مدينة روتردام على دلتا نهر الراين بهولندا الى روما حيث اشتغل نساخا للمخطوطات . ومما يذكر عن أرازموس أن أباه وأمه لم يتزوجا قط ، وقد توفيا عنه وهو بعد يافع فى الخامسة عشرة من عمره ، وتركاه مع أخيه فى رعاية أوصياء .

وقد بدأ أرازموس تعليمه فى سن الخامسة فى جودا ثم دخل فى سن السادسة عشرة كتاب الكنيسة فى بلدة ديفنتر الذى أسسه داعية لمذهب دينى اسمه « أخوة الحياة المشتركة » . وحين شب أرازموس أراد أن يدخل مع أخيه الجامعة ، ولكن الأوصياء ضغطوا عليهما ليدخلا سلك الرهبان ، فدخل أرازموس مدرسة دينية ثم التحق بعد عامين بدير إيموس ببلدة شتاين ، ورسم قسيسا فى ١٤٩٢ أى فى الثالثة والعشرين من عمره ، على طريقة القديس أوغسطين .

وقد جاءتته فرصة التحرر من سلك الكهنوت — حين عرض عليه أن يعمل سكرتيرا لاتينيا لهنرى برجن أسقف كامبريه الذى كان أهم رجل من رجال الدين فى بلاط بورجونيا بفرنسا ، وساعده هذا الأسقف على دخول جامعة باريس عام ١٤٩٥ ، حيث التحق بكلية مونتاجيو . ولكنه لم يسكن كالعادة فى الكلية وانما أقام خارجها فى بيت خاص حيث كان يعلم التلاميذ ، وفى ١٤٩٨ حصل على درجة بكالوريوس فى اللاهوت . وفى باريس كتب أولى « محاوراته » ، ثم انتقل الى جامعة لوفان ببلجيكا حيث كتب كتابه « دليل الجندي المسيحى » عام ١٥٠٣ .

وقد زار ارازموس انجلترا لأول مرة فى ١٤٩٩ فى معية أحد تلاميذه الانجليز وهو اللورد مونتجوى الذى استضافه فى داره فى جرينتش حيث تعرف ارازموس على السير توماس مور الذى كان وقتئذ يدرس العلوم الانسانية ويزاول المحاماة فى لندن ، وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان عمر ارازموس يومئذ ثلاثين سنة . ومنذ رحلته الاولى الى انجلترا تعددت زيارته لها خمس مرات فتركت انجلترا فى تفكيره آثارا باقية .

وفى زيارته الاولى تعرف ايضا على الأمير الغلام البرنس هنرى ابن الملك هنرى السابع ، وهو الذى ارتقى العرش فى شبابه (١٥٠٩) باسم العاهل الخطير هنرى الثامن (١٤٩١ — ١٥٢٧) ، وكان الأمير يومئذ فى التاسعة من عمره . وفى اكسفورد تعرف على العلامة جون كوليت الذى كان أشهر محقق للتراث اليونانى واللاتينى ولا سيما رسائل القديس بولس . فى زيارته الثانية تعرف على جون فيشر ، أسقف روشستر ورئيس جامعة كامبريدج ، ووليم وارهام كبير أساقفة كانتربرى .

وكانت رحلته الثالثة الى انجلترا أطول رحلاته فاستغرقت نحو خمس سنوات من ١٥٠٩ و ١٥١٤ . وفى أثناء هذه الإقامة اشتغل ارازموس بتدريس اللغة اليونانية وآدابها بجامعة كامبريدج بنفوذ الأسقف فيشر . ثم قبل كرسى الدراسات اللاهوتية الذى أنشأته الليدى مرجريت تيودور فى تلك الجامعة ، وأقام فى كلية كوينز . وبعد رحلة ارازموس الايطالية وعودته الى انجلترا فى ١٥٠٩ كتب كتابه الأشهر « دفاع عن حماقة » (حرفيا « فى مدح حماقة ») أثناء إقامته بدار السير توماس مور . وفى فترة إقامته بكامبريدج اتم دراسته عن « النص اليونانى للإنجيل » .

وقد أتيح لارازموس أن يقوم بزيارة ايطاليا بعد رحلته فى ١٥٠٦ . ذهب الى ايطاليا كمؤدب لأولاد الطبيب الايطالى الذى كان طبيب هنرى السابع ملك انجلترا . وفى ايطاليا حصل ارازموس على درجة الدكتوراه فى اللاهوت .

من جامعة تورينو . كما أنه تعلم في جامعة بولونيا ، وقضى عاما في البندقية ضيفا على الناشر الشهير الدو مانوتزيو الذي اكتسب شهرته من طبع مخطوطات التراث اليوناني ولا سيما أعمال اسخيلوس . وفي ايطاليا تجول ارازموس بين مدنها الشهيرة بادوا وفيرارا وفلورنسا وسينا وروما ، وقد نشر له الناشر الدو طبعة أنيقة من كتابه « الأمثال » . ثم عاد ارازموس الى انجلترا بدعوة من أصدقائه الانجليز في ١٥٠٩ بعد اعتلاء هنري الثامن عرشها ، بأمل أن يجد فيها مزيدا من التقدير بعد أن أصبح علما من أعلام الدراسات الانسانية في أوروبا وبالفعل أصبح ارازموس أستاذا لليونانيات في جامعة كامبريدج بضع سنوات .

وبعد أن غادر ارازموس انجلترا في ١٥١٤ ، استقر أكثر حياته الباقية في حوض نهر الراين حيث ولد وترعرع ، رغم أنه لم يكف عن التنقل في أوروبا، فنراه أستاذا بجامعة لوفان ببلجيكا التي أقام فيها أربع سنوات بين ١٥١٧ و ١٥٢١ . وكان أكثر مقامه في مدينة بازل بسويسرا حيث أقام أولا سنتين (١٥١٤ — ١٥١٦) ، ثم ثماني سنوات (١٥٢١ — ١٥٢٩) ، ثم آخر سنوات في حياته حتى توفي في ١٥٣٦. كذلك نراه في كونسطنس في سويسرا وبيزانسون بفرنسا وفريبورج ، وبريسلاو بألمانيا ، وهي كلها مدن مجاورة . وكانت بازل على الراين من أشهر مدن أوروبا بجامعة العريقة وبتجمع المثقفين والكتاب والفنانين فيها ، ودار النشر الكبيرة فيها ، وهي دار جون فروبن الذي أصبح ارازموس مستشارها الأدبي والمشرّف على ما تصدره من مؤلفات ثقافية . وقد نشر فروبن لارازموس دراسته « النص اليوناني للانجيل » عام ١٥١٦ . وفي بازل كان يقيم الفنان العظيم هانز هولباين وفيها رسم صورة ارازموس الشهيرة .

وفي أكتوبر ١٥١٧ علق مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) بيانه الشهير « خمس وتسعون قضية » احتجاجا على صكوك الغفران التي كانت تصدرها الكنيسة الكاثوليكية وبابوات روما للمؤمنين الخطاة لتنقذهم من نار جهنم وتبيعهم قصورا ومربعات في الجنة ، علق بيانه على أبواب كنيسة ويتنبرج بألمانيا ، وبذلك وضع حجر الأساس في المذهب البروتستانتى المنسوب اليه. ولم يكن لوثر وحده في الاحتجاج على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية في زمانه ، بل كان يمثل حلقة هامة فيما يسمى « حركة الاصلاح الدينى » . وفي ١٥١٩ بدأ المصلح الدينى زوينجلي حركة الاصلاح الدينى في مدينة زيورخ التي أصبحت مركز الثورة الروحية على بابوية روما .

وكان ارازموس يرقب كل هذه التشنجات الروحية التي تجتاح أوروبا في عصره ويحاول ما أمكنه الا يدخل دائرة الصراع بين المذاهب المسيحية المنشقة والكنيسة الكاثوليكية الأم .

فقد كان مشغولا حتى تلك المرحلة بمحاولة احتواء ثورة العديد من المثقفين الأوروبيين من دعاة المذهب الانساني على الدين المسيحي في جملته ، بسبب افتتانهم بفلسفات اليونان وآدابهم وفنونهم . وكان شغله الشاغل هو أن يثبت للمثقفين أن روح المسيحية لا تقل عن روح الوثنيات اليونانية والرومانية تمجيدا للحياة الدنيا واعترافا بقيمة الانسان وحقه في المعرفة والقوة والسعادة على الأرض وانها ليست مجرد اعداد للحياة الأخرى . وكان هذا هو الهيومائزم داخل الاطار المسيحي الذي كان يدعو اليه ارازموس ، مستخدما ترسانته الضخمة من التراث الوثني وترسانته الضخمة من التراث المسيحي .

فلما وجد البيت يتصدع من داخله دخل المعركة أملا في أن يكون رسول سلام بين المتحاربين . . وقد كان موقف ارازموس موقفا فريدا بين مفكرى عصره ، فقد كان مقتنعا بصواب دعاة الاصلاح الدينى وموضوعية ثورتهم على مفسد الكنيسة الكاثوليكية وتجاوزات رجالها وجمود مفسريها بمثل ما كان مقتنعا بضرورة الحفاظ على وحدة الكنيسة الجامعة . وكان هذا تقريبا موقفه من دعاة الهيومائزم الثائرين على الدين جملة : ليس من الضروري أن نتخلى عن العلم والمعرفة لنكون متدينين . . هكذا كان يقول للجامدين من المؤمنين . ليس من الضروري أن نتخلى عن الدين لنكون متعلمين . . هكذا كان يقول للملحدين والشكاك .

وبالمثل فقد بدأ ارازموس بمحاولة التوفيق بين لوثر والكنيسة الكاثوليكية . حاول أن يحمى لوثر من الاضطهاد وأن يتيح له فرصة عادلة لكى يشرح آراءه، فاقترح تشكيل لجنة تحكيم من الفقهاء المستنيرين المحايدون تستمع للطرفين وتقضى بينهما . وحاول ارازموس نفسه أولا أن يقف موقف الحياد في هذا الصراع الفكرى والروحى ، فلم ينجح الا فى اكتساب عداوة الطرفين . . فسقط بين جمود الجامدين من رجال الكنيسة الكاثوليكية وبين مارتن لوثر وعناده .

وجد ارازموس نفسه موضع سخط الكاثوليك والبرتستانت جميعا . وفى ذلك الزمان الذى كانت محاكم التفتيش تحرق فيه المصلحين بتهمة الزندقة وكانت مجامع البرتستانت تعدم الكاثوليك بتهمة العمالة لروما ، أوشك ارازموس أن يدفع حياته ثمنا لاعتداله وبغضه للعنف والتطرف . كتب الفنان الشهير دورر فى فكرته يقول : « أى ارازموس الروتردامى : ترى أين يكون مكانك يا فارس المسيح ! أذهب أنت لتلبس تاج الشهداء ! » .

دفاع عن الحماقة

□ وعندما ألغى دعاة الإصلاح الدينى فى سويسرا القداس وأزالوا الصور والتماثيل المقدسة فى كنيسة بازل باعتبارها أوثانا ، غادر ارازموس سويسرا عام ١٥٢٩ وانتقل الى مدينة فرايبورج فى الغابة السوداء فى جنوب ألمانيا حيث عاش بقية حياته فى هدوء العلماء يدرس فى الجامعة . وفى فرايبورج جاءتة الأنبياء من إنجلترا فى صيف ١٥٣٥ باعدام هنرى الثامن لصديقيه السير توماس مور والأسقف فيشر لاعتراضهما على فصل كنيسة إنجلترا عن كنيسة روما ، فغادر ارازموس الى بازل حيث أقام نحو عام حتى مات فى يوليو ١٥٣٦ . وكان عطر ذكراه لا يزال يملأ أرجاء جامعة بازل فحصل تلاميذه نعشه الى كاتدرائية المدينة بتبعهم أساتذة الجامعة حيث دفنوه على الشعائر الكاثوليكية . وشاركت سلطات المدينة فى جنازته المهيبة قيل : ولم يتخلف استاذ ولا طالب عن هذا الوداع الأخير .

ماذا كان ارازموس يمثل فى زمانه والى يومنا هذا ؟ كان ارازموس يحض أبناء العالم المسيحى على احياء التراث الوثنى القديم عند اليونان والرومان فى الفنون والآداب والفلسفة والعلوم الانسانية بعامة وكان يرى أن البحث عن الحقيقة كان غاية الحضارات والثقافات الوثنية يمثل ما كان غاية الحضارة والثقافة المسيحية ، ولذا فقد أنفق كل حياته فى تحقيق التراث اليونانى والرومانى ونشره وتدريسه والتعليق عليه جنبا الى جنب مع ما كان يحققه وينشره من نصوص آباء الكنيسة فى اليونانية واللاتينية .

كان يرى أن الطرق الى بلوغ الحكمة متعددة ، وإن عصره يمكن أن ينتفع من حكمة القدماء لو استطاع أن يهتدى الى جوهر الفكر المسيحى وجوهر الفكر الوثنى على السواء . وكان جوهر الفكر المسيحى عند ارازموس لا يؤدى الى سحق الانسان كما كان ينادى فقهاء الدين الضيقو الأفق ، وإنما يؤدى الى مجد الانسان ، هذا الذى يبهنا فى فلسفات العالم القديم والوثنيات الاولى . فليس من داع لأن يتخلى المسيحى عن مسيحيته حتى يصيب هذه الحكمة ، والمسيحى العاقل يستطيع أن يجد فى دينه كل ما يجده عند اليونان والرومان من شرف الحياة الدنيا ومن كرامة الانسان على الأرض وحقه فى الحرية والسعادة وزينة الحياة .

أما أهم أعماله فهو « دليل الجندي المسيحى » الذى نشر فى أنتويرب عام ١٥٠٣ ، و « دفاع عن حماقة » الذى نشر فى باريس عام ١٥١١ ، و « محاورات مألوفة » الذى نشر عام ١٥١٨ ، وكلها مكتوبة فى لاتينية صافية رشيقة تفيض بالدعابة والتهكم الشديد . نعم . الدعابة والتهكم الشديد من جهل الجهال وخرف المخرفين ونطاعة الجامدين من فقهاء الدين ونفاق القساوسة والرهبان وحذقة المجدفين من عبدة الآداب الوثنية .

كان الاحتكام الى العقل عند ارازموس هو الطريق الى الدين والطريق الى حكمة الاولين على حد سواء . كذلك ترك ارازموس نحو ٣٠٠٠ خطاب . نشر اكثرها فى مجموعات اثناء حياته وكلها مكتوبة باللاتينية ، وتعتبر بحق سجلا هاما للصراعات الفكرية التى شغلت المثقفين فى عصر الرئيسانس وحركة الاصلاح الدينى .

كان ارازموس مثل كافة دعاة الهيومانزم فى عصره يبحث عن الانسان ولا يكتفى بالبحث عن الله ، وكان يدعو لاكتشاف الدنيا ولا يكتفى باكتشاف الآخرة ، ومع ذلك فقد تميز أدبه بظاهرتين فريدتين فى عصره : هما أنه كتب كل ما كتب باللغة العالمية فى العصور الوسطى الا وهى اللغة اللاتينية بدلا من أن يكتب باحدى اللغات القومية كالهولندية أو الألمانية أو الإيطالية ، وأنه كان من دعاة التمسك بالكنيسة العالمية الجامعة (الكاثوليكية) ، رافضا لمبدأ قيام الكنائس القومية المستقلة التى فتتت بها المذاهب البروتستانتية المختلفة وحدة العالم المسيحى .

بعبارة أخرى ، فقد كان ارازموس من القلة القليلة بين مفكرى الرئيسانس الرافضين للفكرة القومية . وبهذه النقائص فقد وقف مثل صديقه السير توماس مور فى منتصف الطريق بين العصور الوسطى وعصر النهضة الأوروبية .

أهدى ارازموس كتابه « دفاع عن حماقة » أو على الأصح « فى مدح حماقة » الى صديقه السير توماس مور بنوع من الدعابة قائلا ان اسم « مور » باللاتينية يذكره بالحماقة (مورياى) فكأنه فى الواقع يكتب كتابا فى مدح توماس مور لا فى مدح حماقة !

بهذه الدعابة يبدأ ارازموس كلامه مستخلصا أن نهجه اذن هو اصلاح اخطاء البشر وحمائاتهم بالتهكم والسخرية التى مهما كانت لازعة لا ينبغى أن تكون جارحة . فاذا ضحك الناس من أخطائهم كان هذا بداية الاصلاح :

« فهناك مثلا المسرفون في التدخين الى درجة تدعو الى السخرية : هؤلاء نجدهم على استعداد لاحتمال أى تعريض مهما كان قاسيا بالمسيح نفسه على الا تمس شعرة من رأس البابا أو الأمير ، ولا سيما اذا كان هذا النقد ينتقص من مكاسبهم . فمن انتقد حياة الناس على هذا النحو دون أن يخصص بالاسم احدا ، فهل يقال عنه انه يجرح ويهدم أم يقال عنه انه يعلم ويعظ ؟ وبناء عليه فلو قال احد انه المقصود بهذا النقد فهو المريب الذى يفضح زلله بنفسه ويقول خذونى . »

والحماسة تدافع عن نفسها بأنها رغم سوء سمعتها الوحيدة التى يضحك منها الآلهة والبشر ، فما أن تقف لتتحدث فى أى مجمع حتى تنفرج أسارير الناس ابتهاجا وكأنهم مجمع الآلهة فى هوميروس وقد انتشيت بقطر الندى ، بعد أن كانوا يجلسون عابسين وكأنهم لتوهم عائدون من استخارة ولى يقرأ الغيب . ومواعظ العالم كله وخطب البلغاء المملة لا تهدىء العقل المضطرب بقدر ما تهدئه رؤية الحماسة ولو لحظة واحدة . المهم ألا يستمع الناس لكلام الحماسة بنفس الأذان التى يستمعون بها لكلام القسيس فى الكنيسة ، ولكن بالأذان التى يستمعون بها الى المهرجين والبهلوانات والحواة .

و « الحماسة » تقول عن نفسها انها ربة كربات اليونان ، وهى ليست كغيرها ، ليست كآلهة هوميروس وهسيود ، بنت جوبيتر أبى الآلهة والناس ، بل بنت بلوتو رب المال والثراء ومسكنه ليس فى السماء ولكن تحت الأرض ، وهو لم يخلقها كما خلق جوبيتر الربة أثينا من رأسه ، ولكن بلوتو خلقها من معاشرة الحورية التى يسمونها « هيبا ربة الشباب » زينة الحور .

ومادما نتحدث عن البنين والبنات وعن الانجاب ، فهل هناك اله أو انسان لا يحتاج الى « الحماسة » لكى ينبج ؟ . . حتى الفلاسفة الرواقيون الذين يخالون انفسهم فى المقام التالى للآلهة ، نجد أن الواحد منهم حين يعاشر زوجته يخلع لحيته رمز وقاره وحكمته ، فان احتفظ بها أصبحت عليه كلحية التيس رمز الاخصاب ، ولكنه على كل حال ملزم بأن يتنازل عن وقاره وغطرسته ومبادئه الصارمة فى الزهد والعفة ان اراد ان ينسل ولدا . . نعم . . ان الحكماء انفسهم بحاجة الى « الحماسة » فى غراش الزوجية . ثم منذ البداية ليس كل رجل بحاجة الى « الحماسة » لكى يضع حول عنقه حبل الزوجية ؟ ثم أية امرأة فى كامل عقلها تقبل مخاطر الحمل وعناء تربية الأطفال ، فتسعى مشوقة الى حماسة الزواج . ان فينوس نفسها ربة الحب ، تعترف أن كل جهودها تضع سدى بغير مساعدة منى أنا ،

ربة الحماقة : « فمن هذه اللعبة المضحكة ، لعبة الربيع ، ولد الفلاسفة المتعالون الذين حل محلهم ذلك النوع من البشر السذى يسميه العالم الرهبان والكرادلة والقساوسة والبابوات المقدسين ، « كما يقول ارازموس فى « دفاع عن الحماقة » .

الناس اذن تلتبس النصح عند ربة « الحماقة » فتتصحهم بالزواج فهو رغم حماقته ممتع ولذيذ ، وهو يدمت خشونة الرجال بحماقة النساء . وأفلاطون نفسه لم يكن يعرف كيف يصنف المرأة : يضعها فى فصيلة الانسان أم فى فصيلة الحيوان . وكانت اليونان تقول : « القرد هو القرد ولو لبس أحمر فى أحمر » . كذلك المرأة هى المرأة تحت أى قناع تلبس .

والمرأة يجب أن تعترف بفضل الحماقة عليها فهناك أولا جمالها الذى يجعلها تطغى على أعتى الطفافة . أما الرجال فيدركهم مرض الحكمة فيتغضن جبينهم ويخشوشن جلدهم وتطول لحاهم ويظهر عليهم الهرم . أما النساء فخدودهن دائما ممثلة وناعمة وأصواتهن دائما ناعمة عليهن الشباب الدائم . ثم أنه لا عمل لهن فى الحياة الا ارضاء الرجال ، والا ما معنى التفتن فى الثياب والاستحمام المستمر وتصفيف الشعر والعطور وترجيح الحواجب وتطرية الجلد ، كل هذا فى النهاية طلبا للذة . وهذه الحماقة نفسها هى مصدر سعادة الرجل . فمن لم تهتم بزيئتها اهتمت بالطبخ وهذا أيضا مصدر سعادة الرجل .

تقول « الحماقة » دفاعا عن نفسها : أنا أجعل الرجل يقبل عنق عشيقته رغم أنه مكسو بالنمش ، أو يقبل الكيس الدهنى النامى على أنفها ، وأجعل الوالد يقسم أن ابنه الأحول هو أجمل مخلوق فى الدنيا ، وأجعل عين الرضا عن كل عيب كيلة ، ومع ذلك فهذه الحماقة هى التى تقيم الود وتبعثه بين الناس وبغيرها ما امدت صداقات ولا دامت زواجات .

وكم من طلاق — بل ما هو أفظع — كان يمكن أن يحدث يوميا لولا أن حديث الزوجين قائم على الملق والرقعة والجهل واخفاء الحقائق . ولو دقق كل زوج فى الاعيب زوجته الجميلة المحتشمة قبل الزواج لما تم زواج ، ولولا جهل الأزواج أو غفلتهم عن كثير من تصرفات الزوجات بعد الزواج لما أبقى الطلاق على زواج . والناس تسخر من الرجل السذى يلحق دموع زوجته ، ومع ذلك فالزوج المخدوع اسعد من الزوج الذى تنهشه الغيرة . كل هذه السعادة لا تبقى بغير الحماقة والغفلة .

لولا حماقة لما احتملت الشعوب حكامها ولا احتمل الحكام شعوبهم
ولما احتمل الخادم سيده ولا السيد خادمه ، ولا الطالب أستاذه ولا الأستاذ
تلميذه ، ولا الجندي قائده ولا القائد جنوده . . لولا حماقة لما احتمل صديق
صديقه ولا زوج زوجته .

الليست هي حماقة التي تجعل كل عطايا أمان الطبيعة وجمالها تنتهي
الى فساد وزوال ؟ فما نفع الجمال ، وهو نعمة السماء الاولى ، اذا خاومه
التكلف . وما جدوى الشباب اذا كان الفريسة المحققة للشيخوخة القاسية ؟
وما قيمة اى عمل فى الحياة مادامت الانانية او حب الذات يداخل كل عمل .
وبعد ، ليست الانانية اختى ، أخت حماقة ؟ اليس من حماقة أن يخصص
كل منا حياته للاعجاب بنفسه ؟ ومع ذلك فلولا هذا الاعجاب بالنفس لما
خطب خطيب ولا عزفت موسيقى ، ولولا حب الاطراء لصغر الجمهور للممثل
ليجلو عن المسرح ولاستسحق الناس شعر الشعراء وفن الفنانين بل
ولامرضوا عن طب الأطباء . لولا حب النفس والاعجاب بالنفس لما اتقن
أحد شيئا . لكى يرضى الناس عن عملنا يجب أن نرضى نحن عنه أولا .

ما أسعد كل منا بشخصه ومواهبه وخلالله : هاتوا لى رجلا يخجل
من وجهه ، أو من عقله ، أو من نسبه ، أو من بيته أو من أسلوبه فى العيشة
أو من وطنه أو من أمته ، فلا الجبلى يرضى بأن يكون ايطاليا ولا الطراقي
يرضى بأن يكون اثينيا ولا الريفى يرضى بأن يكون ابن المدينة ولا البدوى
يرضى بأن يكون حضريا . كل سعيد بذاته وصفاته والقرء فى عين أمه غزال .
أليست هذه حماقة ؟ ومن أين لنا بهذا النعيم بغير حماقة حب الذات والرضا
عن الذات ؟ .

من المتفق عليه أن كل شهواتنا نابعة من حماقة ، ومن كان بغير
شهوات أو مسيطرا تماما على شهواته فهو أعقل العقلاء ، وهو الحكيم
الأكمل الذى حدثنا عنه الحكيم الروائى سنيكا . ومثل هذا الرجل ،
لو وجد ، لكان من طينة الآلهة لا من طينة البشر ، ولما وجد بين الناس
من يشابهه أو يشاركه صفاته أو يفهمه ، بل لخاف الناس وفروا من هذا
الرجل الفريد الذى لا يشترك مع أحد فى مشاعره ولكان مكانه الأوحى
هو على رأس جمهورية أفلاطون أو مدينته الفاضلة . . هذا الانسان
الكامل لا مكان له بين البشر . مثل هذا الانسان الكامل لو رشح نفسه
لانتخاب ، غاية مدينة تختاره حاكما عليها ، وأى جيش يقبله قائدا له ، وأية
زوجة ترضى به بعلا لها ؟

مثل هذا الانسان الكامل ذى العقل البارد ، لو وجد ، سوف
يعيش معزولا فى برج عاجى ، بلا أصحاب ولا أتباع . الأمر اذن بحاجة

الى درجة من درجات الحماسة ليعيش المرء سعيدا مع زوجة تشاطره حماقته وأصدقائه يتحامقون معه ورؤساء ومرؤوسون يذوقون معه طعم الحماسة ، فلو كنا جميعا حكماء لكنا من طينة غير هذه الطينة ولكان الفخار الذى صنعنا منه خيرا من هذا الفخار .

أما هبتي الخاصة لهؤلاء الشيوخ الحكماء فهى انى أبلغ بهم فى شيخوختهم الطاعة مبلغا يردهم الى طفولتهم السعيدة ، فيصبحون سعداء رغم مشيبتهم ، وصلعهم ، وتهتهم ، وغافاتهم لأنهم غدوا بلا أسنان ، وهرقهم ، لأنهم ارتدوا الى الطفولة الثانية ، وضمور أجسادهم حتى أصبحوا جلدا على عظم ، ولا ينقصهم الا الحلمة ليرضعوا منها كما وصفهم أرسطوفانييس ، ومع ذلك فهم سعداء بالحياة حريصون على أن يبدوا شبابا فى عيون الآخرين . . فتراهم يصبغون شعرهم ان بقى لهم شعر ، أما من أصابهم الصلع فهم يلبسون الباروكة ومن فقد أسنانه نراه يلبس طقم أسنان ليخفى درده ، وترى الواحد منهم يتيم صبابة ببنت شابة ولا يخجل أن يطاردها أكثر مما يطاردها شاب فى سن أحفاده .

فما أكثر ما نرى أمثال هؤلاء العجائز الطاعنين فى السن برجل فى الدنيا ورجل فى القبر يتزوجون من صبايا ممثلات الأجساد حتى لنحسب أن هذه الزيجات « موصوفة » للعجائز — وأدعى للضحك من هذا أن نرى النساء العجائز الناحلات كالهياكل العظمية يرددون دائما قولهن : « ما أحلى الحياة » ، ويضعن الأصباغ يوميا على وجوههن ، ولا يغيب بصرهن عن المرأة ويرقصن ويكتبن الرسائل الغرامية ويخضن فى أعراض الناس . . ورغم أن سلوك العجائز موضع تفكه الناس الا أن أصحابه سعداء به أيما سعادة بفضل ما وهبتهم من حماقة . ومع ذلك فأنى أسأل : أيهما أفضل : سعادة الحمقى هذه أم أن « يشنقوا أنفسهم بحبل غليظ كما يوصيهم المثل السائر » .



والحمقى هم أسعد الناس طرا . فهم أولا لا يهابون الموت لأنهم لا يفكرون فيه . وهم ثانيا لا يعذبهم ضمير ولا ادراك لمعنى الشر ، وهم لا يخشون الجن ولا الأرواح ولا الأشباح ، وهم يعيشون بغير خوف ولا أمل فى المستقبل ولا تزعجهم هموم الحياة الكثيرة ، وهم لا يعرفون التواضع أو الطموح أو الحسد أو الحب ، ولأنهم فى جهل العجاوات فهم لا يعرفون الخطيئة .

هؤلاء الحمقى هم المهرجون والمضحكون والبهلوانات • ولذا نجد
الملك والأمراء يقربونهم منهم أكثر مما يقربون مستشاريهم العقلاء من رجال
الدولة ، فتراهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يسمرون إلا ومعهم مضحكهم
ومهرجهم • • لماذا ؟ لأن الحكماء من رجال الدولة لا يحدثون الملك
والأمراء إلا في الأمور الجادة الخطيرة المثيرة للهموم ، وهم استنادا إلى علمهم
وحكمتهم لا يخشون خدش مسامع سادتهم ببعض الحقائق المرة ، أما
المضحكون والمهرجون فكل كلامهم هزل في هزل ولغو في لغو .

• • •

جوردانو برونو

GIORDANO BRUNO

١٥٤٨ - ١٦٠٠



□ بعد مائة عام من احراق سافونارولا في فلورنسا سنة ١٤٩٩ .
احرقت الكنيسة الكاثوليكية جوردانو برونو في « ميدان الازهار » (كامبو
دي فيوري) بروما في ١٧ فبراير ١٦٠٠ .

وقد كانت التهم الموجهة الى سافونارولا تهما واضحة ومحددة ،
وهي : قلب نظام الحكم . . والتخابر مع دول اجنبية لقلب البابوية . . وادعاء
النبوة . اما التهم التي وجهت الى جوردانو برونو فلا نعرفها على وجه
التحديد . . لأن محاضر محاكمته في روما ضاعت بعد نقلها الى باريس بأمر
نابوليون ثم بيعت بعد سقوط نابوليون كورق دثت . . ولم يبق للمؤرخين
الا محاضر محاكمته التمهيدية امام محكمة التفتيش في البندقية .

ومع ذلك فيمكن بعد تحليل ما لدينا من وثائق ومن كتابات جوردانو
برونو أن نلخص التهم التي وجهت الى جوردانو برونو على الوجه الآتي :

١ — الزندقة والردة والظن في العقيدة المسيحية .

٢ — الدعوة لنظرية كوبرنيك (١٤٧٣ — ١٥٤٣) في الفلك ، وهي
النظرية القائلة بان الأرض ليست مركز الكون و بان الكواكب تدور حول
محورها وحول الشمس معا ، وهو ما يتنافى مع الجغرافيا والفلك كما
استخلصتهما الكنيسة من الكتاب المقدس ومن أعمال أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢
ق.م) وبطليموس الجغرافي (ق ٢ للميلاد) . . صاحب « المجسطى »
وكتاب « الجغرافيا » .

٣ — الاشتغال بالسحر . ويدخل في هذا الباب الدعوة للعلم
للسيطرة على الطبيعة .

٤ — التواصل مع بعض ملوك الدول الأجنبية الذين يهددون الكنيسة
الكاثوليكية بدعوى « الاصلاح الديني » .

وبعض هذه التهم غامض كالكلام عن « الزندقة » و « الردة » و « الطعن في العقيدة المسيحية » . وهى تهم كانت صحيحة يومئذ باعتبار أنه لم يكن للمسيحية في أوربا إلا تفسير واحد . . تاريخا وعقيدة . . هو ما كانت تملكه الكنيسة الكاثوليكية في تلك الأيام . . أما اليوم فنحن نرى الأبعاد التراجيدية بأكملها في مأساة جوردانو برونو كما نراها في مأساة الحلاج وابن عربى والنفرى وابن الراوندى والسهرورى المقتول وعامة المتصوفة الذين دعوا لنظرية الحلول ولوحدة الوجود . . ومنهم في عالمنا من دافع حياته أو حريته ثمنا لدعوته .

ولكن كل هذه البشاعات التى ارتكبتها السلطة الروحية والسلطة الدنيوية في العصور الوسطى كانت الثمن الذى دفعته الانسانية في سبيل حرية الفكر والتعبير والعقيدة والبحث العلمى . وفى سبيل اقرار حق الاختلاف بين الناس . . بل وحق الخطأ وفى سبيل حل المتناقضات بالحوار بدلا من القهر وسفك الدماء .

ولولا ما وجده جوردانو برونو . . وكوبرنيك (١٤٧٣ — ١٥٤٣) وكبلر (١٥٧١ — ١٦٣٠) وجاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) من عنت نحو ١٦٠٠ لما أمكن تحقيق شئ من فتوحات العلم الحديث . ولولا انتصار أكثر نظرياتهم بحيث أصبحت من بديهيات العلم الحديث لظل الأوربيون ينظرون الى الكتاب المقدس . . كما كانوا يفعلون . . على أنه كتاب في الفلك وفى الفيزياء وفى الجيولوجيا وفى التاريخ الطبيعى وفى البيولوجيا وفى الطب . بل وفى التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والقانون والعلوم السياسية ، لا يفرط فى شئ من علوم الأرض أو السماء .



ولد جوردانو برونو عام ١٥٤٨ فى بلدة نولا بالقرب من نابولى على سفح جبل فيزوف حيث البركان الثائر الشهير . . وقد دخل دير الدومنيكان عام ١٥٦٣ وهو فى سن الخامسة عشرة . وهو الدير الكبير الذى دفن فيه القديس توماس الأكوينى . وبعد أن أقام جوردانو برونو فى الدير ثلاث عشرة سنة ، واجه المتاعب فى ١٥٧٦ لاتهامه بالزندقة . فهرب من الدير وهو فى الثامنة والعشرين من عمره . . وخلع مسوح الرهبان . وذهب يطوف بلدان أوربا : فقصدا أولا الى جنيف ولكنه لم يأنس الى حكومتها الثيوقراطية (الدينية) ولم تأنس اليه حكومتها الثيوقراطية التى أسسها المصلح الدينى كالفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤) . فانتقل جوردانو برونو الى تولوز بفرنسا حيث حاضر نحو سنتين فى علم الفلك التقليدى القائم على الأبراج

الساوية والتشبيهة بمعارف المفجمين . وفي أواخر ١٥٨١ انتقل جوردانو برونو الى باريس وهو في سن الثالثة والثلاثين .

وفي باريس القى جوردانو برونو محاضرات عديدة كان أهمها محاضراته الثلاثين عن صفات الله الثلاثين . فاسترعى نظر هنري الثالث ملك فرنسا . . وفي باريس أيضا نشر كتابين عن « فن الذاكرة » ربطا اسمه بالاشتغال بالسحر . . وهذان هما كتاب « ظلال المثل » أو « ظلال الأفكار » الذى نشر في ١٥٨٢ . . وكتاب « أغنية كيركيه » (اسم الحورية الساحرة في « أوديسا » هوميروس التى أعطت لبحارة أوليس شرابا سحريا جعلهم يتحولون الى خنازير) .

والإشارة في « ظلال الأفكار » هي لظلال « المثل » (جمع مثال) الأفلاطونية . . وهى النماذج العليا المجردة التى كانت موجود فى عقل الله قبل أن تنعكس ظلالها فى موجودات الكون المادى . . وهى تمثل كل ما فى الوجود فى جوهره الحقيقى النورانى الكامل قبل أن يلقى بظلاله فى العالم المادى . فما الكون المادى عند أفلاطون الا محض ظل للحقائق المثالية العليا الموجودة فى ذهن الله . ولهذا كان من الأصوب أن نترجم عنوان كتاب جوردانو برونو اللاتينى « ظلال المثل » ، أى الحقائق المجردة العليا وليس « ظلال الأفكار » .

أما الكتاب الأول فهو كتاب فى « فن الذاكرة » ، ولذا يعالجه دارسو جوردانو برونو على أنه امتداد لتلك التقاليد والقواعد التى تركها شيشرون الخطيب وكوينتيليان علم البلاغة الرومانى لتعليم فن الخطابة بتدريب الخطيب على تذكر ما ينبغى أن يقوله بحفظ سلسلة من الأسماء والألفاظ تذكره بالأفكار التى ينبغى أن يتناولها فى خطابه . وقد استمرت هذه التقاليد والقواعد من العصر الرومانى عبر العصور الوسطى ، وتبناها بعض مفكرى الكنيسة غالبا لتدريب الوعاظ على الوعظ .

ولكن عنوان الكتاب وموضوعه يدلان على أن المقصود ليس « فن الذاكرة » ولكن « علم الذكريات » . والذكريات هنا هى « الذكريات الأفلاطونية » . فمنحن نعرف أن « المعرفة » و « الإدراك العقلى » هما عند أفلاطون عملية استحضار عقل الانسان لذكرياته الموقلة فى القدم . . ذكرياته عن وجوده الأول قبل ميلاده حين كان عقل الانسان أو روحه جزءا من عقل الله أو روحه ، فى كماله النورانى الأول ، أى قبل أن يخامره النسيان بسقوطه فى ظلال المادة .

فالعودة الى الله اذن عملية تذكر للمثال أو المثل التى كان عليها الانسان فى كماله الأول . و « فن التذكر » الذى يحدثنا عنه جوردانو برونو ليس من تذكر الالفاظ أو المعانى عند الخطباء والوعاظ . . ولكن من تذكر المثل أو الحقائق الالهية العليا التى نسيها الانسان منذ عاش فى ظلال الأفكار أى فى وجوده المادى . وأسلوب جوردانو برونو فى هذا الكتاب يقوم على التهكم الموجه بالنحاة وبأساتذة الخطابة والبلاغة .

وكتاب « ظلال المثل » عبارة عن محاورات بين ثلاثة أشخاص هم هرميز وفيلوثيموس ولوجيفر . وهرميز هو قطب الأقطاب فى هذه المحاورات لأنه كان رسول الآلهة الى البشر كما كانت اليونان تقول — وكان كاتب الآلهة واله الكتاب . وهو المرادف عند قدماء اليونان للإله تحت أو جحوتى أو توت عند قدماء المصريين فى عصورهم المختلفة . فهو اذن اله الحكمة وملهم الحكماء وهو ترجمان السماء لأهل الأرض . ومن هنا فقد اتخذ الهرامزة ، أى أتباع ديانة هرميز ، نبيا لهم وينبوعا للحكمة فى كل تلك المتون المقدسة التى دونها الأولون فى القرون القليلة السابقة على ميلاد المسيح وعرفت فى تاريخ الأديان بمتون « هرميز المثلث العظمت » وكانت أقرب شئ فى الوثنيات الأولى لدعوة التوحيد .

كانت الهرمزية العبادة الخاصة للفلاسفة والمتفلسفين والنساك وتلك الجماعات التى عرفت فى العالم القديم باسم « الغنوصيين » أو « العارفين بالله » وصحتها « النوسيون » ، ومنها اشتقت كلمة « النسك » و « النساك » . وقد ازدهرت هذه الديانة بتأثير تداخل الثقافة اليونانية والثقافة المصرية القديمة فى مدرسة الاسكندرية ، وأدت الى ظهور الأفلاطونية الحديثة التى أسسها أفلوطين (٢٠٥ — ٢٧٠) وتلميذه بورغريوس (٢٣٤ — ٢٦٥) فى جامعة الاسكندرية وحاولا فيها التوفيق بين مثالية أفلاطون والمثالية المسيحية .

وشخصية لوجيفر (أى حامل المنطق أو صاحب المنطق) ، يعرف كل ما قاله الجهابذة عن « فن التذكر » ويستشهد بما قاله نطس الأطباء عن أنواع الاطعمة وأساليب الصيام والافطار التى تنعش الذاكرة . أما هرميز فيشرح لصاحبيه أن قوة الذاكرة لا تكون الا بدراسة الأبراج السماوية ومدارات الأفلاك ، وعنده أن « شمس المعرفة » هى التى تسحق كائنات الظلام وتبرز كائنات الضياء .

والمعنى الباطنى فى كلام جوردانو برونو أننا لا نقترّب من ذكر الله بالصوم كما يقول الأطباء ، ولا نحى ذكريات الكمال الأول فىنا بأكل الزيت

أو مقاطعة هذا النوع من الطعام أو ذاك ، ولكننا نقترّب من ذكر الله ونحيى ذكريات الكمال الأول فينا بالمعرفة ودراسة الكون وحركة الأفلاك ، ولا سيما الشمس .

وبالفعل ، عندما انتقل جوردانو برونو الى انجلترا كتب كثيرا عن نظريات كوبرنيك التي طرحها في كتابه : « في دوران الأفلاك السماوية » الذي صدر في ١٥٤٣ شهورا قليلة قبل وفاته ، ولم تنتبه له الكنيسة وقت ظهوره لأنه كان كتابا مليئا بالمعادلات الرياضية التي لا يفهمها الا الرياضيون . ولكن حين شرح جوردانو برونو نظرية كوبرنيك في الفلك تنبّهت الكنيسة الى تعارضها مع ما جاء عن خلق الكون في الكتاب المقدس ، ومع اجتهادات القدماء ورجال الدين في علم الفلك فحرمّت تلك النظريات وأخذت تطارد كل من يروج لها . وهذه النظريات لم تخرج عن قول كوبرنيك ان الشمس لا تدور حول الأرض وان الأرض هي التي تدور حول الشمس ، وان الأرض ليست ثابتة ولكنها تدور حول محورها ، وان ما يصدق على الأرض يصدق على بقية الكواكب السيارة ، وان الأرض ليست في مركز الكون بل في ركن مهمل من أركانه .

ولكن مشكلة جوردانو برونو هي أنه خلط دعوته للنظريات العلمية في الفلك بتعاليم السحر التي أخذها عن ديانة الهرامزة وفلسفتهم ، وذهب يدعو لهما باعتبار أن كل ما في عالم الظلال أو العالم المادي هو مجرد صورة باهتة لعالم المثل الكامل في الكون أو في السماء .

وقد عرّفت أوربا ديانة هرميز وفلسفة « هرميز المثلث العظّمات » منذ نحو ١٤٦٠ حين وصل الى فلورنسا من مقدونيا راهب كان يعمل مع عديد من أمثاله في خدمة البنكيز كوسيمو دي مديتشى في جمع المخطوطات اليونانية واللاتينية بعد استيلاء الاتراك العثمانيين على القسطنطينية ، وصل حاملا نسخة مما يسمى « متون الهرامزة » أو « النصوص الهرمزية » . وكانت النسخة ناقصة لأنها كانت تشتمل على ١٤ من ١٥ نصا من المحاورات فلم يكن ينقصها الا نص واحد هو النص الأخير .

وكان المثقفون الأوروبيون يعرفون بوجود نصوص « هرميز المثلث العظّمات » من كتابات فقهاء المسيحية الأولين ، ولا سيما من كتابات القديس كلمنت السكندري . . بابا الاسكندرية من ٨٨ الى ٩٧ ميلادية ، السّدى ذكر في وصف مواكب الكهنة المصريين في اواخر أيام مصر الفرعونية الوثنية أن « المنشد » على رأس الموكب كان يحمل كتابين من الموسيقى والمزامير أو التراتيل من تأليف هرميز ، وأن « المنجم » كان يحمل أربعة كتب من وحى

هرميز أو تأليفه عن موضوع النجوم البازغة والفاربة ووقت المواليد وعلاقتها بالسعد والنحس . وقد ذكر كلمنت السكندري في هذا الوصف أن هناك ٤٢ كتابا من وحى هرميز المثلث العظمت أو من تأليفه . . منها ٣٦ كتابا تشتمل على كل حكمة المصريين ، أما الستة الباقية فهي في الطب . وكان المثقفون في عصر النهضة يعتقدون أن من بين صحف هرميز كتاب « اسكولاب » أو « اسكوليب » الشهير بين النصوص الهرمزية .

كذلك عرف المثقفون الأوروبيون بأمر ديانة هرميز من كتابات لاكتانس (٢٥٠ — ٣٢٥ م) ، وهو من آباء الكنيسة ودعاتها ، ولا سيما من كتابه « المدونة » ، ومن كتابات القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠ م) ، ولا سيما من كتابه « مدينة الله » . وفي جميع الأحوال كان هؤلاء الفقهاء يصفون هرميز بأنه حكيم عظيم « أعطى المصريين آدابهم وقوانينهم » في غابر الزمان كما يقول لاكتانس ، وأن له وجودا حقيقيا وأنه تحدث عن الإله « الأوحد » ، وهكذا يضعونه في موضع النبی أو الرسول كما نقول نحن ، رغم أننا نعلم الآن من تاريخ الأديان أن هرميز هذا لم يكن إلا الاسم اليوناني للإله تحت أو توت إله الحكمة عند قدماء المصريين . . ولا كتانس يصفه في مقاله عن « الغضب الإلهي » بأنه سابق على أفلاطون وفيثاغورس . وهو يترجم اسم كتاب هرميز المسمى باليونانية « اسكوليب » بعبارة « الكلمة الكاملة » في اللاتينية . وبينما نجد لاكتانس يمدح هرميز ويستشهد به على صحة الدين المسيحي ، نجد أن أوغسطين يندد به على أنه رمز لوثنية المصريين واشتغالهم بالسحر وكلفهم بالخرافات .

كانت مخطوطات أعمال أفلاطون في أصلها اليوناني قد جمعت في فلورنسا أيام كوسيمو دي مديتشي ، وكان المتفق أن يتفرغ الفيلسوف فيتشينو لترجمتها إلى اللاتينية ، ولكن ما أن وصلت نصوص « هرميز المثلث العظمت » إلى فلورنسا نحو عام ١٤٦٠ حتى طلب كوسيمو دي مديتشي من طبيبه الفيلسوف فيتشينو أن يؤجل ترجمتها وأن يتفرغ لترجمة نصوص هرميز بدلا منها ثم يتجه إلى ترجمة أفلاطون بعد أن يفرغ منها ، وقد كان .

حكمة المصريين قبل حكمة أفلاطون : هكذا كان الأوروبيون في عصر النهضة يفكرون في تلك الأيام . . ولم يكن لديهم من « نصوص هرميز » إلا ترجمة لاتينية قديمة لسفر « اسكوليب » ، فأتى فيتشينو لترجمة بقية الأسفار في بضعة شهور . . وفي المقدمة ذكر أن هرميز كان معاصرا لموسى وأنه أسس مدينة هرموبوليس ، أي مدينة هرميز كما يسميها اليونان وهذه هي تونا الجبل والأشمونين . وبهذا نقرب من مدينة اخيتاتون التي بناها

اخناتون لتكون عاصمة للملكه ولتكون صورة من الجنة على الأرض ، وقد كانت الأشمونين في الدولة الحديثة مركز عبادة الاله تحوت (جحوتى) أو تحت (توت) كبير « الثامون » أو الآلهة الثمانية التي كانت تحكم مصر غالبا منذ أن اكتشفت مصر الاله الواحد أيام اخناتون (١٣٧٢ — ١٣٥٤) . وكانت نموذجا للمدينة الفاضلة أو لجنة عدن ، وكان اسمها في النصوص الهرمزية « أدوكتين » وهي مدينة « الأشمونين » .

وقد سمي فيتشينو ترجمته للنصوص الهرمزية باسم « بيماندر » ، وشاع أمرها فكانت هناك منها نسخ وفيرة ، وطبعت عام ١٤٧١ لأول مرة وصدرت منها ١٦ طبعة حتى نهاية القرن السادس عشر . . كذلك ترجمت الى الإيطالية ونشرت في ١٥٤٨ . وقد دل ثيوعها على اهتمام المثقفين بها .

وفي كتاب « ظلال الأفكار » أو « ظلال المثل » يقول برونو على لسان فيلوثيرموس أو فيلوتيو أو تيوفيلو (أى محب الله) ان معلمه هو هرميز المثلث العظمت ، وان هرميز هو الذى سسلمه كتاب « ظلال المثل » ، فهو من صحف هرميز ، وموضوعه هو السحر الشمسى ، ليس سحر الشمس الظاهرة للعين ، فديانة قدماء المصريين هى كما يقول ديانة العقل ونور الفكر . . وبحسب ما يقول القديس أوغسطين ان المسيحيين هم الذين صادروا هذه الديانة وحرموها بموجب القانون ، فكانت هذه هى الضربة القاضية لحضارة مصر القديمة الوثنية .

وجوهر كتاب « ظلال المثل » هو أن كل ما على الأرض ظلال أما حقائق هذه الظلال فهى المثل الكائنة في السماء في العقل الالهى . وعملية « المعرفة » ليست الا عملية « تذكر » لهذه المثل . وما على الانسان لكى يبلغ الحكمة الا أن يستوعب صورة الكون الاعلى في عقله باستيعاب الأبراج السماوية ومنازل القمر وكل ما كان في النجوم والكواكب متحكما في حياة الانسان ، وهذا ما ادخل جوردانو برونو في عالم السحر .

اما الكتاب الثانى الذى صدر في باريس في نفس العام ، وهو « نشيد الساحرة كيركيه » (١٥٨٢) ، فهو عبارة عن نشيد تغنيه هذه الحورية كتعويذة للشمس ، ثم تعقبها أغان أخرى كالتعاويذ موجهة الى الكواكب السيارة : الى القمر وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد . والقصد من هذه التعاويذ هو كالعادة اقتراب « المثل » من عقل الانسان حتى يدركها أو يتذكرها ويعيش فيها .

ويبدو ان جوردانو برونو كان يعارض بكتابه « نشيد كيركيه » عرضا موسيقيا راقصا رآه عام ١٥٨١ في البلاط الفرنسى أو سمع به أو قرأ

نصه المنشور في ١٥٨٢ ، وهو يدور حول تعاويذ الساحرة كيركيه التي حولت بالسحر الأسود البشر الى قطيع من الخنازير فقاموا بالمذابح الدينية وبحرب الأديان التي نشبت بين الكاثوليك والبروتستانت حتى وضع هنري الثالث ملك فرنسا حدا لها بقسوة السحر الأبيض . وبالمثل فان أناشيد كيركيه في جوردانو برونو كانت « أسراراً بربرية » أطلقت الشر من عقله وجعلت مخلوقات الضياء تقرر أمام مخلوقات الظلام . . ولكن كيركيه لا تلبث أن تتوجه بنشيدتها الى الشمس وهي تحرق البخور الزكية وتتأوه في صلاتها على اختفاء « أستريا » ، رمز العدالة في العصر الذهبي ، وهنا تتجلى قوة السحر الأبيض المتمثل في ضياء الشمس وتنجلي الظلمة ويغنى ديك الصباح . وقد فهم يومئذ أن الشمس هو ملك فرنسا وقد كافأه الملك بتعيينه استاذاً في الجامعة .

والمفهوم في رمزية جوردانو برونو ان اشراق الصباح يمثل اشراق الإصلاح الديني وانقشاع ظلام عصور التعصب والجمود . ولكن مشكلة جوردانو برونو هي انه كان يلتمس الإصلاح الديني من خارج اطار العقيدة المسيحية السائدة في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت . . كان يدعمو لاهياء ديانة مصر القديمة .





أكاديمي بلا أكاديمية

□ غادر جوردانو برونو فرنسا وقصد الى انجلترا حاملا خطاب توصية من هنري الثالث ملك فرنسا الى ميشيل دي كاستلنو دي موفيسير سفير فرنسا في انجلترا الذي استضاف برونو في داره طيلة اقامته في انجلترا ، وهو امر ثابت تاريخيا ، وثابت كذلك أن سفير فرنسا في انجلترا تكفل أيضا بحماية برونو من الشغب الذي ثار بسبب ما نشره من كتب هناك هيجت عليه الخواطر وبسبب مسلكه الذي أثار عليه حفيظة الكثيرين .

وقد أتيح لجوردانو برونو اثناء اقامته في انجلترا أن ينشر افكارا لو نشرها كاتب انجليزي في عصر اليزابيث لحوكم أو أودع السجن أو صودرت كتاباته ، كما حدث للشاعر المسرحي الكبير كريستوفر مارلو (١٥٦٤ - ١٥٩٣) وللشاعر المسرحي الأعظم وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) ، فقد كانت الرقابة على المسرح والادب والفكر محكمة في عصر اليزابيث .

ومن هنا يفترض مترجمو سيرة جوردانو برونو أنه كان يتمتع بنوع من الحصانة التي جاءت من ملك فرنسا . ولم تكن أفكار برونو غريبة على الانجليز حتى قبل وصوله الى انجلترا ، فقد كتب هنري كوبهام ، سفير انجلترا في فرنسا الى فرانسيس والسينجهام ، رجل البلاط اليقظ المقرب من اليزابيث ، منها اياه الى قرب وصول « الدكتور جوردانو برونو النولاني ، أستاذ الفلسفة الذي ينوي المجيء الى انجلترا ، وهو رجل لا يستطيع أن ازكي عقيدته الدينية » . ويلاحظ هنا أن السفير لا يشير الى فلسفة جوردانو برونو ولكن يشير الى « عقيدته الدينية » .

وبدا جوردانو برونو دعوته الفكرية في انجلترا باصدار كتاب باللاتينية عام ١٥٨٣ يشتمل على ثلاثة أجزاء : جزء هو « فن الذاكرة » الذي سبق نشره في باريس ضمن « نشيد الساحرة كيركيه » ، وجزء اسمه « تفسير الأختام الثلاثين » (باللاتينية) ، وجزء اسمه « خاتم الأختام » (باللاتينية) .

وفي ١٥٨٣ زار انجلترا امير بولندي يدعى البرت الاسكو ، وبناء على توجيه اليزابيث أعد لاستقباله برنامج حافل من الولائم والمحاضرات في

جامعة اكسفورد ، وكذلك من العروض المسرحية والشعرية والغنائية ، وكان في بعثة الشرف المرافقة لهذا الأمير بأمر الملكة الكاتبة الكبير السير فيليب سيدنى . وقد شارك جوردانو برونو في المناظرات الفلسفية التي عقدت في اكسفورد لهذه المناسبة .

ومن الأدب الانجليزى فى عصر اليزابيث نستطيع أن نستخلص أن جامعة اكسفورد لم تكن سعيدة بأراء جوردانو برونو ولا بوقاحته وغطرسته فى التعامل مع الأساتذة . ومن كتاب صدر فى ١٦٠٤ للأسقف جورج أبوت الذى أصبح فيما بعد رئيس أساقفة كانتربرى ، نعلم أن برونو جاء اكسفورد فى حاشية الأمير الاسكو فى ١٥٨٣ ، وأن هذا « الحاوى الايطالى » قام بطرح افكار عديدة من بينها دفاعه عن نظرية كوبرنيك « القائلة بان الأرض تدور وان السماء ثابتة » ، بينما فى واقع الأمر أن رأسه هو الذى يدور وأن مخه هو غير الثابت » ، وأن أحد الأساتذة اكتشف أن محاضراته الأولى والثانية منقولتان حرفيا تقريبا من كتاب الفيلسوف الايطالى فيثثينو « مقارنة الحياة السماوية » . والغريب أن هذا التهمك الموجه جاء فى معرض مهاجمة الأسقف للكاثوليك والبابوية من وجهة نظر بروتستانتية ، أما انطباع جوردانو برونو عن الحياة الأكاديمية فى اكسفورد فهو أن أساتذتها كانوا مجموعة من النحاة المتحذلقين فى اليونانية واللاتينية ، وقد سجل هذا الرأى فى كتابه الذى أصدره فى لندن عام ١٥٨٤ « عشاء أربعاء الرماد » ، وهو عبارة عن محاورات باللغة الايطالية مهداة الى سفير فرنسا فى لندن . وقد عاد برونو الى هجاء أساتذة اكسفورد فى كتابه التالى « فى العلة والمبدأ والواحد » (١٥٨٤) وهو أيضا مهدى الى السفير ، ويبدو أن الشغب الفكرى الذى حدث بين أساتذة اكسفورد وجوردانو برونو كانت له أصداء واسعة فى الحياة الفكرية والأدبية الانجليزية فى عصر اليزابيث ، لأننا نجد أصداء له فى مسرحية كريستوفر مارلو « الدكتور فاوست » وفى مسرحية روبرت جرين « الراهب بيكون والراهب بنجى » (١٥٨٧) ، وربما فى « خاب سعى العشاق » لشكسبير . وكان برونو يسمى نفسه « أكاديمى بلا أكاديمية » . وفى السنة نفسها (١٥٨٤) أصدر جوردانو برونو محاوراته الايطالية المسماة « الكون اللانهائى » ومحاوراته الايطالية المسماة « طرد الوحش المنتصر » (قيل إنه يقصد بالوحش بابوية روما وبداية الاصلاح الدينى) ، وفى هذا الكتاب دعا لحياء ديانة قدماء المصريين فى مرحلتها الهرمزية القائمة على وحدة الوجود وعلى نظرية الحلول ، والكتاب مهدى الى السير فيليب سيدنى . وفى ١٥٨٥ أصدر جوردانو برونو كتابه « الجنون البطولى » ، وهو مجموعة قصائد فى الحب الصوفى ، و « سحر براق

الشعر « (١٥٨٥) ، وقد طبع على هذا أنه صدر في باريس والحقيقة أنه صدر في لندن .

وفي أكتوبر ١٥٨٥ استدعى السفير موفيسير الى بلاده فعاد من إنجلترا الى فرنسا ومعه جوردانو برونو في حاشيته . . وفي أثناء عبور المانش هاجم القرصان السفينة التي كانت تحملها وسلبوها . وعند وصولهما الى باريس كان الجو ملبدا ينذر بالحرب الدينية . فقد عبأ الدوق دي جيز قواته بمساعدة الأسبان لغرض الهيمنة الكاثوليكية في فرنسا وسحق الهيجونوت ، أي استئصال البروتستانتية ، مستعينا بالحلف الكاثوليكي (المقدس) بتوجيه من البابا ، الذي كان يناصر أسبانيا في تسابقها الاستعماري مع إنجلترا للسيطرة على الدنيا الجديدة (الأمريكتين) .

فالواقع أن أهم أهداف الصراعات الدينية في أوربا كان التسابق الاستعماري للسيطرة على الدنيا الجديدة ونهب ثرواتها بين دول جنوب أوربا بقيادة أسبانيا ودول شمال أوربا بقيادة إنجلترا منذ أن اكتشف كولومبوس الأمريكتين في ١٤٩٢ — وهذا الصراع الاقتصادي يفسر ضراوة الكاثوليك في البلاد الكاثوليكية في اضطهاد البروتستانت وضراوة البروتستانت في البلاد البروتستانتية في اضطهاد الكاثوليك . فالتهمة المعلنه كانت دائما الزندقة أو الهرطقة الدينية ، ولكن التهمة الحقيقية كانت التعاون أو التعاطف مع أعداء الوطن السياسيين والاقتصاديين .

ومنذ أن ترك برونو إنجلترا لم يكتب شيئا بالاطالية وانما كانت كل كتبه باللاتينية ، وبعد عودة برونو الى باريس طبع له كتابه « تصوير الفيزيكا لأرسطو » (١٥٨٦) ، ومحاورتان عن « فابريزيو موردانتى » (١٥٨٦) ، ومحاورتان أخريان إحداهما بعنوان « الأبله منتصرا » والثانية بعنوان « تفسير الأحلام » (١٥٨٦) .

وقد كانت لفابريزيو موردانتى قصة طريفة مع جوردانو برونو . فقد كان موردانتى مهندسا رياضيا ايطاليا بارعا يقيم في باريس ، وقد اخترع بوصلة تحمس لها برونو حماسا شديدا ، وكان يصف مخترعها بأنه « اله بين علماء الهندسة » . ولما كان موردانتى يجهل اللغة اللاتينية ، فقد أعانه برونو بأن شرح اختراعه في كتاب باللاتينية نيابة عنه . وبالفعل كتب برونو أربع محاورات عن بوصلة موردانتى ، ولكنه انتهز هذه المناسبة ليقول ان موردانتى لم يكن يدرك حقيقة أبعاد اختراعه العظيم وإن الفضل يعود الى برونو نفسه لأنه كشف عن هذه الأبعاد .

وكان هذا تكرارا لما سبق ان فعله جوردانو برونو حين كان في انجلترا . فهو في كتابه « عشاء اربعاء الرماد » قد تصدى لشرح نظرية كوبرنيك في دوران الأرض والمجموعة الشمسية حول محورها وحول الشمس ، ولكن شخصيته المعقدة وامتلاءه بنفسه جعلاه يقول أن كوبرنيك لم يكن الا عبقرى عالما بالرياضيات ، ولذا غانه اكتشافا عبقرى ولكنه لم يدرك معناه تماما . أما هو — جوردانو برونو — فقد اكتشف بهذا الاكتشاف سر الأسرار ، وهو وحدة الله والكون وتجلى الله الشامل في الطبيعة ، وهو ما خفى على فقهاء اكسفورد المتحذلقين الذين لم يدركوا أن ديانة مصر القديمة قد وعت كل هذه الأسرار الالهية والطبيعية .

كان طبيعيا اذن أن يغضب موردانتى لما كتبه عنه برونو من أنه اخترع شيئا عظيما لم يدرك أهميته وبدأ يقاتل برونو عن طريق الدين ، فانضم الى حزب الدوق دى جيز قائد التيار الكاثوليكي المتعصب في فرنسا وعدو هنرى الثالث وكل دعاة الاصلاح الدينى . وحين ساء مركز هنرى الثالث أمام الدوق دى جيز الذى كان يزحف على باريس وأنصاره المسلحون في باريس في كل مكان ، أصبح جوردانو برونو بلا حماية وتخلى عنه الملك في مصالحاته المتقطعة مع الحلف الكاثوليكي ، فترك برونو فرنسا وذهب الى المانيا في ١٥٨٦ .

وكان آخر ما فعله جوردانو برونو في باريس انه نشر في ١٥٨٦ كتابا صغيرا اسمه « مائة وعشرون وصية للرد على المشائين » (باللاتينية) باسم تلميذ من تلاميذه يدعى جان هنيكان ، والكتاب كله هدم للفلسفة الارسطاطاليسية ، وهو مهدى الى هنرى الثالث ملك فرنسا . ثم نظم برونو مناظرة لمناقشة هذا الكتيب ، او على الأصح المحاضرتين اللتين ألقاهما هنيكان بدلا من برونو في كلية كامبريه يومى ٢٨ ، ٢٩ من مايو ١٥٨٦ ، بينما جلس برونو نفسه بجوار باب القاعة يرقب أثر المحاضرتين في السامعين (والمثاعون هم تلامذة أرسطو ، لأن أرسطو كان يعلم وهو يمشى) .

ولم يكن في المحاضرتين جديد : كانت فكرتهما تقوم على نظرية تشابه العالم المادى مع الكهف الأفلاطونى . نحن نعيش سجناء في سجن مظلم ومن هذا السجن لا نرى الا نجوم السماء على البعد البعيد . أما الآن فقد أطلق سراحنا بعد ثورة كوبرنيك في علم الفلك باكتشاف دوران الكواكب في المجموعة الشمسية ، فنحن نعرف الآن أنه ليست هناك الا سماء أثرية واحدة تتحرك فيها كل الأجرام السماوية المتأججة النيران ، وهذا ما يعلن لنا عن عظمة الله وجلاله . وهذا يدفعنا الى أن نتأمل لانهاية

العلة الأولى (الله) وراء هذا المعلول اللانهائى (الكون) . وهو يجعلنا نرى أن الذات الالهية ليست بعيدة عنا ولكن غينا لأن مركزها فى كل مكان ، فى عالمنا كما هى فى العوالم الأخرى . والكون اللانهائى تصور أقرب الى عظمة الله من الكون المحدود (كان أرسطو يعلم أن الكون محدود بالسموات السبع حيث الكواكب السيارة ومن بعدها الخلاء التام) .

وفى نهاية الكلام وقف برونو ليسأل ان كان هناك من يعقب . فبرز له محام يدعى رودولف كاليريوس ودافع عن أرسطو ونسدد بجوردانو برونو فى قسوة بالغة . وأراد برونو الانصراف ولكن الطلبة احاطوا به وأصروا على الاستماع لدفاعه . فوعدهم برونو بالحضور فى اليوم التالى ، ولكنه لم يفعل ، بل اختفى نهائيا من باريس بعد شهر .

وانتقل برونو الى ويتنبرج فى المانيا حيث أقام سنتين بين ١٥٨٦ و ١٥٨٨ — أستاذا فى الجامعة التى تعلم فيها مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية . ويبدو من غزارة إنتاجه فى هذه الفترة أنه كان مستقرا ، وعلى علاقات طيبة مع بيئته الجديدة ، ولكن يبدو أيضا أن أكثر مؤلفات هذه الفترة كان من مذكرات محاضراته . ومن هذه المؤلفات كتاب عن « فلسفة ريموند لولى » ، وكتاب عن « تقدم المنطق » ، وكتاب عن « كتاب الفيزيكا لأرسطو » ، وهذه طبعت فى أعمال جوردانو برونو باللاتينية . كذلك هناك كتاب عن « صناعة الخطابة » طبع فى ١٦١٢ بعد اعدام برونو . وهناك كتابه الهام عن الكائن الأعظم : « اللامحدود واللامحدود » ، وقد نشر فى المانيا عام ١٥٩١ ، كما أن هناك كتابه « فى السحر » وكتاب « حلقات السلسلة » ، وهما من مؤلفات ١٥٩٠ — ١٥٩١ ، ولكنهما لم ينشرا الا فى أواخر القرن التاسع عشر .

ومن مؤلفات تلك الفترة كتاب « التماثيل الثلاثون » الذى أكمل به شرحه لديانة الهرامزة أو العارفين بالله أو الغنوصيين . . فهو قد بدأ « بالظلال الثلاثين » فى كتابه « ظلال المثل » أيام باريس الأولى ، ثم كتب وهو فى انجلترا « الأختام الثلاثون » ، وكتب فى المانيا « الحلقات الثلاثون » و « التماثيل الثلاثون » ، كل ذلك لتوضيح تجلى الذات الالهية فى كل كائنات الوجود .

ثم تغيرت الأحوال فى جامعة ويتنبرج ، فبعد أن كان يسيطر عليها أساتذة مشايعون للمصلح الدينى مارتن لوثر ، سيطر عليها أساتذة مشايعون للمصلح الدينى كالفن ، ممن كان جوردانو برونو يرميهم فى باريس بالزندقة أو الهرطقة . وهكذا أدرك برونو أنه بلغ نهاية المطاف فى جامعة ويتنبرج . فالتقى فى الأساتذة « خطبة الوداع » وسافر الى براج فى ١٥٨٨ حيث أقام

نحو ستة شهور . وكان الامبراطور رودولف الثانى يجمع فى بلاطه الفلكيين والمنجمين والمشتغلين بالكيمياء والسييمياء ويبسط عليهم رعايته ليساعده على العثور على حجر الفلاسفة . فوضع جوردانو برونو مؤلفا بعنوان « الرد على الرياضيين » وأهداه للامبراطور ، وهو كتاب لم يطبع الا فى ١٨٨٩ بين أعمال برونو اللاتينية .

ومن المصادفات الغريبة ان فابريزيو موردانتى ، مخترع البوصلة فى باريس ، كان يشغل وظيفة « الفلكى الامبراطورى » فى بلاط رودولف الثانى وقت ان كان جوردانو برونو فى براج . فليس مصادفة اذن ان الامبراطور منح برونو مكافأة على كتابه ولكنه لم يعينه فى منصب ما .

وبعد ذلك انتقل جوردانو برونو الى هيلمشتاد حيث كانت الجامعة فيها منشأة حديثا . وفيها القى « خطبة العزاء » بمناسبة وفاة منشئها يوليوس دوق برانسويج الذى كان حاكما بروتستانتيا ، فامتدحه مدحا اخذته عليه فيما بعد محكمة التفتيش التى حاكمته فى روما وأدانته ، مثلما اخذت عليه امتداحه لاليزابيث ملكة انجلترا البروتستانتية بعبارات مثل « اليزابيث الالهية » ، ومثل تمجيده لهنرى الثالث ملك فرنسا المتعاطف مع البروتستانت ، ولدوق ناغار البروتستانتى الذى أصبح فيما بعد هنرى الرابع ملك فرنسا (١٥٨٩ - ١٦١٠) . وقد كان هنرى الثالث وهنرى الرابع معادين للحلف الكاثولىكى المقدس الذى كان يعاون اسبانيا فى صراعها الضارى مع انجلترا للسيادة على البحار والمحيطات والعالم الجديد والقديم .

لقد كانت تهمة العمالة للدول البروتستانتية فى تلك الايام اشبه شىء فى العالم الكاثولىكى بتهمة « الخيانة الوطنية » فى العصر الحديث ، تهمة تجر على صاحبها عقوبة الاعدام . أما طريقة الاعدام ، فبسياف الجلاذ او بالشنق او بالحرق او بالمقصلة الخ . . فهذه كانت مسألة تفصيلية يحددها اختلاف العصور .

وانتقل جوردانو برونو نحو منتصف ١٥٩٠ الى فرانكفورت حيث طبع بعض الأشعار اللاتينية . ثم قضى شهورا قليلة فى سويسرا ، ثم عاد الى فرانكفورت . وفى سويسرا كتب برونو كتابا اسمه « فى تركيب الخيال والاشارات والأفكار » ونشره فى فرانكفورت عام ١٥٩١ . والأرجح ان هذه هى الفترة التى كتب فيها برونو كتابه « فى السحر » وكتابه عن « حلقات السلسلة » .

ثم عاد جوردانو برونو الى ايطاليا فى أغسطس ١٥٩١ ليواجه سنوات

مديدة من السجن في البندقية ثم محكمة التفتيش والاعدام حرقا في روما عام ١٦٠٠ .

ولا أحد يعرف بالضبط كيف التقى جوردانو برونو بيديه الى التهلكة بهذه البساطة وكأنه رجل خلا تماما من كل احساس بالخطر . لعله كان يتوهم وهو حول الأربعين من عمره أن موعد رسالته قد حان وأنه عائد الى موطنه للتبشير بدينه الجديد . لقد كان طوال طوافه بفرنسا وانجلترا والمانيا يحلم بتأسيس دين عالمي يزيل حزازات التعصب بين البشر ويضع حدا للمذابح والحروب الدينية ، وكان هذا الدين العالمي عنده هو احياء الديانة المصرية القديمة في مرحلة عناقها مع الفيثاغورية والأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة ، وهي ديانة « هرميز المثلث العظمت » ، ديانة (العارفين بالله) او المتصوفة من الغنوصيين المؤمنين بحلول الله في الكون وبوحدة الوجود .

قليل بل كانت له مهمة سياسية موالية لفرنسا بعد أن جلس على عرشها هنري الرابع البروتستانتى عام ١٥٨٩ وهزم انصار الحلف الكاثوليكي عام ١٥٩٠ وتأهب لاقتحام باريس .

ايا كان الأمر فالذى حدث هو الآتى :

كان هناك وراق (كتيب) في البندقية اسمه تشيوتو يعرف جوردانو برونو منذ التقى به في سوق الكتاب في مدينة فرانكفورت . وكان يتردد على هذا الوراق زبون اسمه زوان موتشينجو ، كان ينتمى لأسرة نبيلة عريقة في البندقية ، وكان يشتري بعض كتب برونو من هذا الوراق . وأعرب موتشينجو عن رغبته في استضافة جوردانو برونو ليتعلم منه « أسرار الذاكرة » . وحمل الوراق هذه الدعوة الى برونو في فرانكفورت فقبلها ، وبالفعل وصل الى البندقية ونزل ضيفا على موتشينجو . ولكن برونو لم ينزل ضيفا على موتشينجو الا بعد شهر من عودته الى ايطاليا ، وقد أقام ثلاثة شهور في بادوا قبل انتقاله الى البندقية في مارس ١٥٩٢ . وحين انتقل الى البندقية عاش في مسكن مستقل فترة ، وكان يتردد على الوراق وعلى المنتديات العلمية قبل انتقاله الى دار موتشينجو . وكل هذا يثبت أن دافع جوردانو برونو الى العودة الى ايطاليا لم يكن مجرد الاستجابة للدعوة التي تلقاها من موتشينجو .

كانت دعوة موتشينجو هي الفخ الذى نصب لجوردانو برونو . فقد كان موتشينجو يكتب التقارير بانتظام لسلطات التفتيش في البندقية بكل

ما يسمعه من جوردانو برونو أثناء اقامته في داره نحو شهرين . وكان برونو يعد كتابا عن «الفنون الحرة السبعة» بنشاط محمود بغية طبعه في فرانكفورت واهدائه الى البابا كليمنت الثامن عسى أن يكون بداية طيبة لاسترضاء البابا . ويبدو أن برونو قد بدأ يشتبه في نوايا مضيفه فأعد العدة للسفر الى فرانكفورت ، ولكن موتشينجو منعه بالقوة من مغادرة داره بأن حبسه في احدى غرف الدار ، ومنها نقل الى سجن محكمة التفتيش في البندقية في ٢٦ مايو ١٥٩٢ . وبقي في السجن ثماني سنوات حتى اعدامه .

وبعد أن فرغت محكمة التفتيش في البندقية من استجواب جوردانو برونو تراجع عن كل ما كان يدعو اليه وأعلن توبته وطلب الرحمة من المحكمة . وبموجب القانون كان لابد من عرض قضيته على محكمة التفتيش في روما حيث مركز البابوية .

وطالت المحاكمة . وفي ١٥٩٩ لخص قس جزويتى مشهور يدعى روبرتو بيلارمين نقاط الزندقة في كتابات جوردانو برونو في ثماني قضايا ، وطلب الى برونو أن يتراجع عنها فأبدى استعداداه لذلك . ولكنه بعد ذلك سحب كل تراجعاته وأصر على أنه ليس في كتاباته ولا في اقواله أى شيء ينطوى على الزندقة ، واتهم كهنة الفاتيكان باسائة تأويل آرائه . فصدر عليه الحكم بالكفر ، وسلمته الكنيسة للسلطات المدنية لاعدامه ، فأحرق حيا في ميدان كامبو دي فيورى في ١٧ فبراير ١٦٠٠ .





عاشق الله

□ هناك طريقتان يمكن أن نعرف بهما لماذا أعدم جوردانو برونو بتهمة الكفر أو الزندقة : احدهما أن نفظر في أعماله لنعرف ماذا قال . . والأخرى أن ندرس ملف قضيته لنعرف التهم الموجهة اليه أو الثابتة عليه . وخير من هذه وتلك أن نلجأ الى الطريقتين معا .

لعل أهم ما قاله جوردانو برونو في مؤلفاته وأهم ما نسب اليه من تهم فكرية هو قوله بنظرية وحدة الوجود أو نظرية الحلول ، أى حلول الله في الكون أو العالم المادى والروحانى . وهذه النظرية تنتهى في النهاية الى اعتبار الانسان هو « الميكروكوزم » أى « العالم الأصغر » ، واعتبار « الميكروكوزم » صورة مصغرة من « الماكروكوزم » أو « العالم الأكبر » . وقد عبر المتصوفة العرب عن ذلك بقولهم عن الانسان :

« وتحسب أنك جـرم صـغير
وفيك التقى العـالم الأكبر »

وحيث كان الحلاج يقول : « ما فى الجبة غير الله » ، انما كان يعبر عن الفلسفة الصوفية القائلة بان الله لا وجود له خارج الكون ، فهو الروح الاعظم المتجلى فى الكون وكل ما يحتويه .

وقد جرى العرف على اعتبار نظرية الحلول ووحدة الوجود خارج اطار الفكر الدينى القويم الذى يقوم على أن الله يتجاوز الكون وليس متوحدا معه ، فهو سابق للكون فى الوجود وهو العلة الاولى فى كينونة الكون بمعنى أنه خالق العالم وهو لامتناه فى الزمان وفى المكان وفى الصفات بينما الكون متناه فى الزمان والمكان والصفات ، وهكذا دواليك . وحين تخطى المتصوفة العرب عن نظرية « التجاوز » الذى يفترض بطبيعة الحال ازدواج الله والعالم ، والروح والمادة . . الخ . . وقالوا بنظرية « الحلول » أو « وحدة الوجود » لا قوا من العنف فى العالم الاسلامى ما لاقاه جوردانو برونو فى العالم المسيحى ، ومن لم ينته منهم نهاية حزينة عاش حياته مطاردا من السلطات الدينية والدنيوية .

وبوجه عام نستطيع أن نرد بدايات وحدة الوجود أو الحلول الى فلسفة افلوطين والافلاطونية الحديثة التي كانت ذاتها تطويرا للفيثاغورية والافلاطونية ، وهما في ذاتهما تطوير لأساسيات المثالية في الديانة المصرية القديمة التي تعلمها اليونان من المصريين وفلسفوها وحولوها الى مقولات تخضع للمنطق والجدلية .

وازدواجية المثل (جيج مثال) والظلال في افلاطون أقوى منها في تاسوع افلوطين ، الذي يقول ان الله هو بمثابة نافورة النور في المركز الذي يعشى ضياؤه الأبصار ، وكلما ابتعدت دوائر الوجود والموجودات عن المركز النوراني خامر الظلام النور أكثر فأكثر حتى نصل الى دائرة العالم المادى حيث كثافة المادة تكاد تحول دون ابصار نور الذات الالهية .

وبالرياضة الصوفية أو بالتأمل يقترب الحكماء من نافورة الضياء ويحاولون التوحد مع الذات الالهية . وهؤلاء هم العارفون بالله . هذا ما وصلت اليه مدرسة الاسكندرية في تلك القرون الرهيبة التي فصلت ما بين وثنية القدماء والتوحيد المسيحي .

وقد حاول بعض فقهاء المسيحية الاوائل أن يوفقوا بين الافلاطونية والافلاطونية الحديثة من جهة وبين العقيدة المسيحية من جهة أخرى . فقد كانت الصفوة المثقفة تنظر الى المسيحية على أنها دين الموت والحياة الأخرى ولا تليق الا بالعبيد والبسطاء والمعذبين في الأرض ، وعلى أنها ديانة معادية للثقافة والحضارة والفكر والفنون والآداب وكل نشاط دنيوى . . فأتجهت الصفوة المثقفة الى ابتكار عقائد توفق بين الأخلاق المسيحية وثقافة القدماء، وكان أهم هذه العقائد الرواقية والافلاطونية المسيحية والغنوصية أو مذهب العارفين بالله .

والمشكلة في مذهب الحلول ، وفي الاعتقاد بأن الله ليس خارج الكون ولكن داخله وملزم له ، هي أنه ينتهى بالاعتقاد بالوهية الانسان بالفعل أو بالقوة (أى بالامكان) ، وبالوهية الكون ، وهو ما مكن برونو من أن يتحدث عن « الله (أو) الطبيعة » . وهو يسمى الله « روح الأرواح » و « حياة الحيوانات » و « جوهر الجواهر » ، ولكنه يرفض مبدأ الخلق من العدم ، ويذهب الى أن الذات الالهية تتجلى بذاتها في الكون وكائناته ، أو كما يقول في « عشاء أربعاء الرماد » : « ونحن نقرر المبدأ القائل بعدم البحث عن الالهية بعيدا عنا . لأننا نملكها بالقرب منا ، بل نملكها في داخلنا » . وهو في « الكائن الأعظم : اللامعدود واللامحدود » يذكرنا بأن هرميز المثلث العظمت وصف الانسان بأنه « المعجزة الكبرى » ، ولأن أصل الانسان الهى ففى

استطاعته أن يعود إليها كما كان . وهذا جوهر الروح الفأوسية التي تفشت في عصر الرنيسانس فلم يقف الأمر عند استرداد كرامة الإنسان ومجد الإنسان ، بل تجاوز ذلك إلى تأله الإنسان . وكان هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي تناولها أدب الرنيسانس تناولاً مأسوياً .

كان جوردانو برونو يلقب نفسه في محاوراته باسم « فيلوتيو » أو « تيوفيلو » بمعنى « عاشق الله » . وهذا يدل على أنه لم يكن ينظر إلى نفسه على أنه ملحد ، بل كان مثل عامة المتصوفة يحاول أن يصل إلى ذات الله أو يتواصل معها « بالعشق الإلهي » كما يقول المتصوفة . وحين شرح في « عشاء أربعاء الرماد » نظرية كوبرنيك في دوران الأرض والأفلاك ، أضاف إليها من عنده شيئين لم يردا في كوبرنيك وهما أولاً أن الأفلاك تدور بقوة الحب الإلهي . وثانياً أن الكون لانتهائي في الزمان والمكان وليس محدوداً كما جاء في فلسفة أرسطو أو فلك بطليموس الجغرافي أو في تصور فقهاء الدين المسيحي الكاثوليكي في ذلك الزمان : فالأرض عند برونو ليست مركز الكون ولكنها في ركن مهمل منه ، وروح الله هي التي تدفع الأجرام السماوية في حركتها الدائبة والكون اللانهائي أجدر بعظمة الله من الكون المحدود . وقد كانت الكنيسة والعرف العام والعلم المتوارث عن القدماء قبل كوبرنيك تقول كلها بأن الأرض ثابتة في مركز الكون وبأن الشمس هي التي تدور حول الأرض ، وكانت تحكم بالكفر على من يقول غير ذلك .

أما مصطلحات الصوفية ، مثل « العشق الإلهي » ، فقد بدأت تعرف بين المثقفين الأوروبيين منذ أن ترجم فيتشينو « تواسيع » أو « تاسوعات » أفلوطين ، ونصوص « هرميز المثلث العظمت » قبل برونو بنحو قرن ونصف قرن . وقد عرفت المسيحية الكاثوليكية مبدأ « الحب الإلهي » ولكنه كان شيئاً مختلفاً عن « العشق الإلهي » ، لأن « الحب الإلهي » هو حب الله للبشر (« هكذا أحب الله العالم . . الخ ») أما « العشق الإلهي » فهو عشق البشر لله كما نعرف من كتابات الصوفية وأشعارهم .

لهذا نجد أن جوردانو برونو ببناء فلسفته على الهرمزية أو الغنوصية كان يفكر خارج الإطار المسيحي التقليدي ، وقيل أنه يوم أحرقه عرض عليه الصليب ليقبله ، على عادة الكاثوليك إذا حضرتهم الوفاة ، فأشاح عنه بوجهه . لقد تحولت العقيدة المسيحية في وجدانه إلى مجموعة من الرموز الفلسفية التي لا تتماشى مع الفكر الديني التقليدي .

قال برونو لمحكمة التفتيش في البندقية إن الكون لا نهائي لأن القوة الإلهية التي خلقت لا نهائية ، واللا محدود لا يخلق وكما قال فيثاغورس

الأرض كوكب كالقمر ، وبقية الكواكب والعوالم الأخرى نجوم بلا عدد .
وفي هذا الكون اللانهائي عناية الهية تجعل كل شيء يحيا ويتحرك ، وهذه
الطبيعة الكونية ظل للالوهية أو لله الذى لا يمكن ادراكه أو تفسيره .

أما صفات الالوهية فهو يتفق فيها مع فقهاء الدين واقطاب الفلاسفة ،
وهى القوة والحكمة والخير ، وهذه الصفات مرادفة للذهن والعقل والحب .
وهذه تقابل فى اللاهوت « الآب والابن والروح القدس » ، كما يقول جوردانو
برونو . فالحكمة هى بنت الذهن ، وهى ما يسميه فقهاء اللاهوت « الكلمة »
ويسميه الفلاسفة « العقل » ، أما « الحب » فهو مرادف لما كان القدماء
يسمونه « روح العالم » .

• ويقرر جوردانو برونو أمام محكمة التفتيش فى البندقية أن رأيه فى
« الآب » أو « الذهن » يتمشى مع المذهب الكاثوليكي ، وأن رأيه فى
« الروح القدس » أو « روح العالم » أو « الحب » يتفق مع آراء الكثيرين
من فلاسفة الأفلوطينية المسيحية . ولكن المشكلة عنده هى أنه لا يستطيع
أن يقتنع تماما بما يقوله اللاهوت المسيحى من أن « الابن » أو « الكلمة »
تجسد فى اللحم أو فى شخص انسانى . وهو لهذا يفضل العودة الى الديانة
المصرية الهرمزية فيما يتصل بتصورها « لابن الله » ، وهذه عند برونو
لا تمثل الارهاصات الأولى للديانة المسيحية كما كان يقول علماء اللاهوت
ولاكتانس ، بل تمثل الديانة الصادقة .

وقد شهد أحد السجناء مع جوردانو برونو أنه سمعه يقول أن
« الصليب فى حقيقته رمز مقدس عند قدماء المصريين ، وأن الصليب الذى
صلب عليه المسيح شيء مغاير للصليب الذى نراه على المذبح فى الكنائس ،
فهذا الذى نراه هو فى حقيقته الصليب المنحوت أو المنقوش على صدر الربة
ايزيس فى مصر القديمة ، ولكن المسيحيين « سرقوه » من المصريين . . »
وحين سألت محكمة التفتيش جوردانو برونو فى ذلك أيد هذا القول ،
وقال : « أظن أنى قرأت فى مارسيليو فيتشينو أن فضيلة هذه العلامة
وقداستها (يقصد الصليب) أقدم بكثير من زمن تجسد المسيح ، وإنها
كانت معروفة فى زمن ازدهار الديانة المصرية نحو زمن موسى ، وأن هذه
العلامة كانت تربط على صدر سرابيس (أوزيريس أبيس) » .

وقد كان جوردانو برونو صادقا فيما ذكر لأن هذا الكلام وارد بالفعل
فى كتاب فيتشينو « مقارنة الحياة بالسماء » . غير أن فيتشينو لم يقل أن
المسيحيين « سرقوا » علامة الصليب من قدماء المصريين وإنما قال أن
الصليب المصرى القديم كان بمثابة تنبؤ بمجىء المسيح .

والصليب المصرى القديم الذى يتحدث عنه جوردانو برونو هو علامة « العنخ » أو « مفتاح الحياة » كما يسمونه . ونحن الآن لا نجد موضعا للتكفير فى هذا الكلام وانما نجد فيه مجرد سوء أدب من جوردانو برونو ، أو ربما حماسة فى غير موضعها . فنحن لا نقول ان المسيحيين « سرقوا » علامة الصليب من علامة « العنخ » أو « مفتاح الحياة » ، وانما نقول ان علامة « الصليب » تطورت من علامة « العنخ » ، على الأقل فى مصر ، كما اثبت علماء الآثار بمابقى من نقوش وصور باقية من القرون الأولى لدخول المسيحية فى مصر .

فمن يزور المتحف القبطى يرى من آثار مصر المسيحية ، على الأقل خلال القرون الأربعة الأولى بعد الميلاد ، أن المصريين حين اعتنقوا الدين المسيحى لم يعرفوا فى بادئ الأمر الصليب برسمه المسيحى المعروف الآن ، وانما كان صليبههم هو علامة العنخ أو مفتاح الحياة كما نرى فى النقوش والصور المحفوظة فى المتحف القبطى ، ودرجة درجة وضعوا الصليب المألوف داخل رأس العنخ ، أى داخل « الخية » العليا ، ثم درجة درجة رسموا الصليب المألوف حول أضلاع العنخ ، وأخيرا اختفى العنخ تماما وحلت محله صورة الصليب المألوف .

فجمود الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك العصر وخونها من كل جديد جعلها اذن تجرم هذه الحقيقة الثابتة فى تاريخ الأديان ، وهى أن المصريين قدسوا العنخ أو مفتاح الحياة قبل أن يقدسوا الصليب بعد دخولهم المسيحية فيما يسمى العصر القبطى ، وأن الصليب ، على الأقل فى مصر صورة متطورة من العنخ أو مفتاح الحياة .

وبالمثل فان جمود الكنيسة فى ذلك العصر وخونها من كل جديد هو الذى دفعها اذن لتحريم نظرية كوبرنيك فى دوران الأرض وكواكب المجموعة الشمسية حول محورها وحول الشمس ، ومن بعد كوبرنيك قوانين كبلر (١٥٧١ — ١٦٣٠) ، وأهمها أن مدارات الكواكب حول الشمس بيضاوية (١٦٠٩) وليست دائرية وأن مربع زمن دوران الكواكب يتناسب مع مكعب المحاور الأكبر للمدار (١٦١٩) ، وقوانين جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) فى الأجسام الساقطة وفى الحركة وفى القصور الذاتى ، واثباته لقوانين كوبرنيك « الكافرة » فى اثبات دوران الأرض والمجموعة الشمسية حول الشمس (١٦٣٢) . . وقد كانت الكنيسة تكتفى فى معارفها الفلكية بنصوص سفر التكوين وغيره فى الكتاب المقدس ويعلم الفلك كما ورثته عن أرسطو وعن بطليموس الجغرافى .

كل هذه القوانين والنظريات الفلكية التي أصبحت في العالم الحديث من بديهيات العلم كانت في مخاض ولادة الحضارة الحديثة من حضارة العصور الوسطى تهما بالكفر تزج بأصحابها في غياهب السجون وتنتهى بهم الى الاعدام بعد الحرمان الكنسى . وقد ظلت نظرية كوبرنيك في الفلك مجرد معادلات رياضية استغلقت على رجال الدين حتى فجر جوردانو برونو مغزاها أولا بشرح معنى هذه المعادلات ثم بما استخرجه منها من نظريات بلانهائية الكون وبأن وراء عالمنا الفلكى عوالم وعوالم بلا عدد ولا حدود ، بما زعزع الاعتقاد الدينى فى أوربا بأن الأرض هى مركز الكون وبأن الانسان هو القصد من الخليقة .

بل ان جوردانو برونو ذهب فى تخريجاته الى ان هناك عوالم مأهولة غير عالمنا ، وان الكون اللانهائى يتصف بالالوهية لأن « روح العالم » التى تحرك كل شىء وتثبت كل شىء وتجدد كل شىء وترقى كل شىء ليست الا « الروح القدس » أو روح الله الحالة فى كل موجودات الوجود . الله والعالم عند جوردانو برونو هوية واحدة بعلّة وحدة الوجود أو ما يسميه الفلاسفة « المونزم » .

وهنا يدخل جوردانو برونو دائرة المحظورات لأنه ينتهى الى القول بالوهية الانسان ، ذلك القول الذى اودى بكثيرين من المتصوفة الى التهلكة ، وهو الذى جعل الحلاج يقول : « لو أن ذرة من قلبى سقطت على الجحيم لأطفأته ، ولو أن ذرة من قلبى سقطت على الجنة لأنارتها » . والوهية الانسان ليست الوهية بالفعل ولكن الوهية بالقوة ، اى بالامكان ، بحسب درجة قربة أو بعده من الفيض النورانى النابع من نافورة الضياء الالهى . وبغية الحكماء ينبغى ان تكون تكثيف هذا الفيض النورانى فى انفسهم حتى يقتربوا من التوحد مع ذات الله .

هذا التوحد لا يتم « بالذكر » ولكن « بالتذكر » أو باسترجاع ذكريات وجودنا النورانى الكامل قبل أن نبعد عن مركز الضياء . وهذا معنى دراسات جوردانو برونو العديدة فى « فن التذكر » . وهى دراسات خامرها الكثير من دراسة « السحر » ، « السحر الطبيعى » لا سحر السحرة والمشعوذين . والسحر عند جوردانو برونو هو السيطرة على الكون بفض مغاليق الكون وتسخير الطبيعة باستكناة اسرار الطبيعة ، المعرفة أو الحكمة هى السحر الأبيض ، وهو للخير ، أما سحر السحرة فهو السحر الاسود ، وهو للشر .

أما وقد ضاع ملف قضية جوردانو برونو فلم يبق أمامنا الا « موجز محاكمة جوردانو برونو » الذى وجدته الكاردينال انجلو مركاتى عام ١٩٤٢

في الارشيف الخاص بالبابا بيوس التاسع (البابا من ١٨٤٦ الى ١٨٧٨) ،
ومما جاء في هذا الموجز أن برونو أدین لقوله في كتاباته ان لانهائية الله
(في الازلية والابدية والطبيعة) تتضمن لانهائية الكون ، وبسبب آرائه في
طريقة خلق روح الانسان ، ولقوله بدوران الارض ، ولقوله ان النجوم
ملائكة ، ولقوله بأن في الارض روحا حساسة وعاقلة ، ولقوله بان في الكون
عوالم متعددة .

وفي شهادة رجل يدعى جاسبار شوبيو كان حاضرا اثناء اعدام برونو،
ولعله سمع الاتهام والحكم يتلى امامه ، أن برونو أدین لأنه قال ان في الكون
عوالم بلا عدد ، وان السحر شيء نافع ومشروع ، وان « الروح القدس »
هو « روح العالم » ، وان موسى كان ساحرا يصنع المعجزات بسحره وان
سحره غلب سحر سحرة فرعون لأنه كان اكفا منهم ، وان المسيح كان
ساحرا . ونحن لا نعرف ان كانت هذه القائمة تمثل التهم التي لفقتها له محكمة
التفتيش في روما أم انها من صلب اقراراته التي رفض في النهاية ان يسحبها
او يتراجع عنها . وعلى كل فالقضية كلها يحوطها الغموض لأن « الموجز »
يذكر رأي برونو في أن الصليب مصرى في المنشأ. استنادا الى اقوال أحد
السجناء الذين سمعوا برونو يقول هذا الكلام . وهذا معناه أن محكمة
التفتيش كانت تبنى أحكامها على الدليل النقلى او على شهادة
الجواسيس .

ولكن اذا جاز لنا أن نبني على ما نعرفه عن محاكمة جوردانو برونو
في البندقية ، فقد كانت التهمتان الرئيسيتان الموجهتان الى برونو هما :
انه أولا كان يريد أن يؤسس دينا عالميا جديدا يضع حدا للتعصب والتقاتل
الدينى بين البشر ، وانه ثانيا كان على صلة بهنرى الرابع ملك نافار
البروتستانتى الذى تحول الى الكاثوليكية ليصبح ملك فرنسا ، وانه كان
يأمل منه أن يقوم باصلاح الكنيسة وبأن يجعله « كابيتانو » ، أى يجعله
« رئيسا » .

فقد ذكر الكتبى تشيوتو أن رئيس دير الكرمل الذى كان يقيم فيه برونو
اثناء إقامته في فرانكفورت أبلغه « ان برونو كان دائما مشغولا بالكتابة
وبالأحلام والتنبؤات بأشياء جديدة ، وانه كان يقول إنه يعرف أكثر مما كان
يعرفه حواريو المسيح ، وان في استطاعته لو اراد أن يجعل كل العالم
يتبع دينا واحدا . »

أما تقرير مضيفه موتشينجو في ١٢ مايو ١٥٩٢ الذى أبلغ عنه سلطات
البندقية فقد ورد فيه أن برونو قال له :

« ان المنهج الذى تستخدمه الكنيسة اليوم ليس المنهج الذى استخدمه الرسل ، لان الرسل حولوا عقيدة الناس بالوعظ وبالقدوة الحسنة فى حياتهم . اما الآن فكل من اراد أن يخرج على الكاثوليكية فلا بد له من تحمل القصاص والآلام . فالكنيسة الآن تستعمل العنف فى الاقتناع ولا تستعمل المحبة . والعالم لا يمكن أن يستمر على هذا النحو ، فليس فيه سوى الجهل ولا صلاح فى أى مذهب دينى . كذلك قال ان العقيدة الكاثوليكية أحب الى نفسه من أية عقيدة أخرى ، ولكن هذه العقيدة بحاجة أيضا الى اصلاح كبير . . . فهى فاسدة فى وضعها الحالى ، ولكن العالم سوف يشهد عما قريب اصلاحا شاملا ، فمن المحال استمرار هذا الفساد . وهو يعلق آمالا كبيرا على ملك نافار (هنرى الرابع) ، ولهذا فهو ينوى الاسراع بنشر كتبه لى ينال بها الحظوة . فحين يجيء الحين فهو يحب أن يصبح كابيتانو (أى رئيسا) وان فقره لن يدوم لأنه سوف ينعم بثروات الغير » .

ومن المحتمل أن يكون برونو قد قال لمضيفه جوهر هذا الكلام ولكن مضيفه بنى عليه تخريجاته الشخصية ، فمن المستبعد أن يكون برونو من الغفلة بحيث يصرح بأنه سينهب أموال الآخرين حين يصبح « كابيتانو » . وعلى كل فقد أنكر جوردانو برونو أنه يعرف هنرى الرابع أو التقى به أو بأحد وزرائه . ولكنه نفى عنه « الزندقة البروتستانتية » ونسبها الى ضرورات الحكم فى أن يساير معتقدات شعبه من أهل نافار . أما عن المنافع الخاصة التى كان يرجوها فقد ذكر برونو أنها لا تتجاوز أن يتيح له هنرى الرابع ما اتاحه له هنرى الثالث من التدريس فى الجامعة والقاء المحاضرات العامة .

ولا يسع أى دارس لسيرة جوردانو برونو الا أن يحس بأن الخلفية السياسية كانت هى العامل الفاصل فى نهايته التراجيدية أكثر من الخلافات الفكرية والفلسفية ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية فى أيامه تعيش فى ذعر من تصاعد أعمال العنف ضد الكاثوليك فى الدول البروتستانتية ومن تفسخ سلطان الكنيسة « الجامعة » وازدهار الكنائس القومية بازدهار الروح القومية فى كل مكان .

• • •

العارف بالله

□ « سوف يأتى زمان يستبين فيه أن تمجيد المصريين للذات الالهية بنقوى الفكر وبالمواظبة على الشعائر قد ضاع هباء منثورا . فسوف تصبح عبادتهم المقدسة بلا جدوى .. وسوف تغادر الآلهة الأرض وتعود الى السماء . وسوف تهجر الآلهة مصر .. هذه الأرض التى كانت فى الماضى وطن الدين سوف تحرم من آلهتها وتعيش فى عوز . سوف يملأ الأجانب هذه البلاد . ولن يقف الأمر عند حد اهمال الشعائر الدينية ، ولكن سيحدث ما هو أنكى .. وهو أن يفرض على الناس بقوة القوانين المزعومة وتحت رهبة العقوبات أن يحجم الجميع عن أعمال التقوى وعن عبادة الآلهة ، وعندئذ سوف تغطى هذه الأرض المقدسة ، موطن المعابد والمحاريب .. بالقبور وبجثث الموتى . آه يا مصر .. يا مصر .. لن يبقى من ديانتك الا الاساطير ، لأن بنيك لن يصدقوا مستقبلا معتقداتك . لن يبقى فيك الا كلمات منقوشة على الحجر لتتحدث عن أعمالك التقية . سيأتى القوقازى أو الهندى أو غيرها من جيرانك المتبربرين وينستوطنون فى مصر . هيا انظروا ! ان الالهية تصعد الى السماء ، وهى تتخلى عن الناس فيموتون جميعا . وحين تخلو مصر من الآلهة ومن الناس سوف تصبح مجرد صحراء جرداء .

« ونعيم البكاء يا أسكليب ؟ لسوف تتعرض مصر لأشياء أشد بشاعة من هذا .. فسوف تلوئها جرائم أخطر وأنكى . فهى حتى اليوم لا تزال أقدس مكان . وهى تتفانى فى حب الآلهة ، وهى فى الأرض البلد الأوحى الذى اختارته الآلهة موطنها لها لقاء تفانيها فى حبها ، وهى التى علمت البشر القداسة والتقوى . مصر هذه سوف تصبح مضرب المثل فى أبشع الوان القسوة وعندئذ لن يجد الناس أن للحياة قيمة تستحق الاعجاب أو الاحترام . فهذا (الكل) ، وهو الخير ، خير ما يرى فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل .. سوف يتهده الضياع ، وسوف يعتبره الناس عبئا ثقيلا عليهم ، ومن بعد ذلك سوف يزدرون هذا الكون فى كليته . وهو الابداع الالهى الذى لا نظير له .. ولن يحملوا أى حب لهذا البناء المجيد .. لهذه الخليقة العظيمة المؤلفة من أشكال مختلفة بلا نهاية . هى ارادة الله الذى يسبغ نعمه على كل ما خلق دون أن يغار من خليقته التى اجتمعت فى كل

واحد يقوم على الاختلاف المنسجم وعلى كل ما نراه جديرا بالاحترام والحب والثناء . . عندئذ سوف يفضل الناس الظلام على النور ويؤثرون الموت على الحياة . ولن يرفع أحد بصره صوب السماء . عندئذ سوف يعتبر الفاضل مجنونا والسافل عاقلا . وسوف يظن المنهوس شجاعا ويعد أخطر المجرمين رجلا صالحا . عندئذ سوف يسخر الناس من الروح وكل ما يتصل بها من معتقدات بخلود الروح بحكم طبيعتها أو بقدرة الروح على اكتساب الخلود كما علمتك . سوف يظن الناس كل هذا مجرد هراء . وصدقني حين أقول لك ان الايمان بدين العقل سوف يعد جريمة عظمى في نظر القانون . وسوف يستجد نظام جديد للعدالة وتنسن لها قوانين جديدة . ولن يحدث أحد في شيء مقدس أو قائم على التقوى أو خليق بالسماء أو بالآلهة التي تسكن السماء ، ولن يصدق أحد بوجود الروح .

« وسوف تنفصل الآلهة عن بنى البشر . ويا بئس هذا الانفصال . ولن يبقى الا ملائكة الشر وهم اصل الشقاء الذين سوف يختلطون بالناس ويدفعونهم قسرا الى الاسراف في كل اجتراء على الاجرام . . فيورطونهم في الحروب وفي اللصوصية وفي أعمال الغش وفي كل ما هو مناف لطبيعة الروح . عندئذ سوف يختل ميزان الأرض ويصبح البحر مهلكة للملاحين وتأفل أكثر النجوم . وتتوقف النجوم عن مسارها في السماء . وسوف يسكت الناس كل صوت الهى فيصمت . وسوف تذوى خيرات الأرض وتفقد التربة خصبها ويثقل الهواء بركود داهيس .

« هذه سوف تكون شيخوخة العالم : ضياع الدين ، والفوضى ، واضطراب كل الخيرات . وحين يقع كل ذلك . . اى اسكليپ . . أيتها الكلمة الكاملة . . فان المولى والأب ، الاله الأقوى ، الاله الواحد الخالق بعد أن يتدبر هذه الفعال وهذه الجرائم الاختيارية ، سوف يعمل بارادته الالهية على سد السبيل الى الرذائل والى الفساد الشامل وعلى تصحيح كل هذه الأخطاء ، بأن يحق كل الشرور اما باغراقها في طوفان واما باحراقها بالنار واما بتدميرها بالأوبئة التي ينشرها في كل مكان . عندئذ سوف يعيد العالم الى بهائه الأول ، حتى يعود العالم كما كان جديرا بالاحترام والاعجاب ، وحتى يمجد الناس الله خالق هذا الكون العظيم ومجدده . وعندئذ يعيش الناس في تسبيح دائم وبركات لا تنقطع . هكذا سيكون الميلاد الجديد للعالم متمثلا في تجديد كل الخيرات . واعادة قدسية جادة للطبيعة الى ما كانت عليه بقوة تفرضها ارادة الله عندما يأتى الأوان » . « اسكليپ » ، او « الكلمة الكاملة » ، عن ترجمة فرانسيس بيتس لترجمة فيتشينو في ١٤٦٣ لنصوص « هرميز المثلث العظمت » بعنوان « بيماندر » والمنشورة عام ١٤٧١ .

هذه كانت فكرة العارفين بالله في مدرسة الاسكندرية عن نهاية مصر القديمة وعن نهاية العالم بصفة عامة ، وهى شبيهة بفكرة اديان التوحيد عن قيام الساعة . والنصوص الباقية من كتاب الهرامزة المقدس تنتمى الى القرون الاولى القليلة بعد الميلاد . وهى القرون العvisية التى عاصرت ذلك الصراع الرهيب بين الوثنية والتوحيد فى العالم القديم ، ولذا فان نصوص العارفين بالله تحمل آثارا من تعدد الآلهة . وهى بمثابة زواج بين الديانة المصرية القديمة والديانة اليونانية القديمة ، ولكن على مستوى فلسفة الصفة ولاهوتها وليس على مستوى بسطاء الناس .

هذه هى « الديانة المصرية » التى دعا جوردانو برونو الى احلالها محل الديانة المسيحية فى أواخر القرن السادس عشر . فاستنزل على نفسه غضب الكنيسة وانتهى أمره الى المحرقة بعد أن عدل عن توبته عن هذه الزندقة .

وقد خفف من وثنية ديانة هرميز أو ديانة العارفين بالله أن الآلهة تحولت فيها الى بشر من أشباه الأنبياء والرسل . وأكثر المحاورات فيها تدور بين هرميز المثلث العظمت وأسكليب وتوت أو تحوت وهامون . . الذى يبدو أنه بقية من أمون وإيزيس وحوريس وموموس . . الخ . هؤلاء يلتقون فى معبد من المعابد المصرية التى لا يدخلها الا الحكماء ويدور بينهم الحوار حول الله والعالم والانسان . . وحول الروح والمادة . . الخ . . وهناك « العقل » يتحدث الى هرميز قائلا ان الكون كله انعكاس فى « العقل » . . قال « العقل » لهرميز المثلث العظمت :

« تأمل الكون من خلالى وانظر الى بهائه . . انظر الى تدرج السموات السبع والى نظامها ، تر كل شىء ممثلا بالنور . . وانظر الى الأرض مستقرة وسط (الكل) ، وهى الموضع التى تغذى كل مخلوقات الأرض . (الكل) مفعم بالروح . وكل الكائنات فى حركة . من خلق هذه الأشياء . . انه الاله الواجد . . لأن الله واحد . وأنت ترى أن العالم دائما واحد : الشمس واحدة والقمر واحد والنشاط الالهى واحد . وكذلك فان الله واحد . . وبما أن كل شىء حى والحياة واحدة فان الله دون شك واحد ، وكل شىء يخلق بفعل . والموت ليس تدميرا للعناصر المجتمعة فى الجسم ، ولكنه مجرد تفكيك لاتحادها . وهذا التغير يسمى الموت لأن الجسم ينحل ، ولكنى أعلن عليك ، أيها العزيز هرميز ، أن الكائنات التى تتحلل على هذا النحو لا تنتهى ولكن تتحول .

« كل ما هو موجود موجود في الله .. لا بمعنى انه موضوع في موضع ،
لان الكائنات ليست موضوعة على هذا النحو في ملكة التمثيل اللاتجسدى .
ولتحكم بهذا من تجربتك الخاصة : مر روحك أن تنطلق الى الهند أو أن تعبر
المحيط .. ولسوف يحدث هذا في لمح البصر . مرها أن تطير الى السماء
ولن تحتاج روحك الى أجنحة لتعمل ذلك ، ولن يعوقها شيء عن ذلك .
ولو شئت أن تخترق قبة الكون وتأمل ما وراءها — ان كان وراءها شيء —
فلن يمنعك شيء من ذلك .

« تأمل مدى ما تملك من قوة ومدى ما تملك من سرعة . وقس على هذا
تصورك لله . فهو الكل في الكل : هو كل ما هو موجود . وهو يحتوى داخل
ذاته ، كما يحتوى الفكر .. على العالم وعلى ذاته وعلى (الكل) . وبناء
عليه فلن تستطيع أن تفهم الله الا اذا جعلت من نفسك كفتا لله ، فلن يدرك
النظر الا النظر . اجعل ذاتك تتعاضد بلا حدود . وحرر ذاتك بوثبة
من الجسد . ارفع ذاتك فوق كل زمان وكن سرمديا . وعندئذ سوف تفهم
الله . أعتقد بأنه لا شيء يستحيل عليك . وتصور ذاتك خالدا وقادرا على
فهم كل شيء ، كل الفنون وكل العلوم وطبيعة كل كائن حي . اصعد أعلى
من أعلى عليين . وأنزل أسفل من أسفل سافلين . امتص في داخل نفسك
كل أحاسيس كافة المخلوقات ، النار والماء والجفاف والرطوبة . متصورا
أنك في كل مكان : على الأرض وفي البحر وفي السماء . وأنك لم تولد بعد .
وأنك لا تزال في رحم أمك . وأنك يافع وشيخ . وأنك ميت وفيما بعد
الموت . فلو استطعت أن تضم داخل فمك دفعة واحدة كل الأشياء
والأزمنة والامكنة والماهيات والصفات والكميات ، أمكنك أن تفهم الله .

« فلا تقل اذن ان الله غير مرئى .. لا تقل ذلك فليس هناك ما هو أشد
ظهورا من الله . فهو قد خلق كل شيء حتى يمكنك أن ترى هذا الكل من
خلال الكائنات . فهذه قدرة الله المعجزة . أن يظهر نفسه من خلال جميع
الكائنات .. فليس في الوجود شيء غير مرئى . حتى الكائنات غير الجسدانية
ظاهرة الوجود . العقل يظهر نفسه بالتفكير والله يظهر ذاته بالخلق » .
(« نصوص هرميز المثلث العظمت ») .

من السهل علينا بعد قراءة هذا النص وأمثاله في النصوص الهرمزية
أن نفهم سبب انزعاج أديان التوحيد من هذه الديانة المصرية القديمة التي
قد تلتقى بأديان التوحيد في قولها ان الله واحد وأنه ليس كمثله شيء وأنه
يظهر أو يتجلى في خليقته (الكون .. العالم .. الانسان .. الخ) ، ولكنها
تختلف عن أديان التوحيد من حيث أنها تقول ان فكر الحكماء العارفين بالله

يمكن أن يستوعب الذات الالهية بقدرات الانسان اللانهائية في الفكر والمعرفة والتوحيد مع ذات الله بالتأله .

وهذا في حقيقته لا يخرج عن كونه التعبير الفلسفى عن الشخصية الفاوستية المتمثلة في تأله الانسان ومحاولته بالرياضة الروحية أو العقلية أن يتوحد مع ذات الله ، وهى شخصية كانت شائعة بين الأوربيين ربما الى حد النمطية في عصر الرنيسانس ، وربما كانت في مجملها متمثلة في حضارة العصر الحديث منذ حركة الرنيسانس حتى اليوم .

ولا شك أن أديان التوحيد متفقة على أن الله خلق الانسان على صورته وأن روح الانسان قبس من روح الله ، ولكنها لا تتطاول الى حد الزعم بأن الجزء يمكن أن يستوعب الكل أو أن يكافئه أو يضاهيه أو أن يطابقه في الهوية ولو بالامكان .

وبمنطق العارفين بالله نقرا قول هرميز في « نصوص الغنوصيين » :

« وبناء عليه ، أى اسكليب ، الانسان هو (المعجزة الكبرى) ، وهو كائن خالق بالاحترام والتكريم ، لأنه يرقى الى شخصية الهه وكأنه بالفعل الهه ، وهو يالف معاشرة الجن لأنه يعلم أن أصله وأصلهم واحد . وهو يحتقر ذلك الجانب من طبيعته المحدودة بشريته لأنه يطمع في الهوية جانبه الآخر .

« والانسان يتحد بالآلهة بموجب ما فيه من جانب الهى وهو عقله . أما كل المخلوقات الأخرى فهى مرتبطة بالانسان بموجب المخطط السماوى وهو يربطها به بعرى الحب . وهذا الاتحاد الذى يقوم بين الآلهة والبشر ليس مفتوحا لكل الناس ، وإنما هو مقصور على أولئك الذين يتمتعون بملكة العقل . . وبهذا يكون الانسان هو الوحيد بين المخلوقات المزدوجة الطبيعة، فجزء منه يشبه الله ، والجزء الآخر مكون من العناصر » .

وجوهر هذا الكلام أن مدرسة العارفين بالله كانت تؤمن بنوع من الارستقراطية الروحية حيث معرفة الله والاتحاد بالله مقصوران على الحكماء أو الصفوة المثقفة ، أما الجاهل والطبقات الدنيا الناقصة في العقل فهى عاجزة عن معرفة الله . وهذا ما جعل الغنوصية أو الهرمزية دين السادة والمثقفين ، يتعالى على المسيحية المنافسة أيام نشأتها بوصفها دين الرعاى وبسطاء العقول . وهذا طبيعى في أية ديانة فلسفية نابعة من الأفلاطونية الحديثة . وتعتمد على نظرية الفيض الالهى النابع من نافورة الضسياء

في قلب الوجود او عقله لينير الكون وكائناته بالنور الداخلى ، بما يجعل نصيب الصفوة من القبس الالهى اضعاف اضعاف نصيب بسطاء الناس .

كذلك نستطيع ان نفهم انزعاج الكنيسة من نظرية برونو القائلة بلانهاية الكون او العالم ، لان اللانهاية صفة لا تطلق في اديان التوحيد الا على الله ، ولان خلق الله للعالم يجعل الكون حادثا لا قديما ويجعل الكون محدودا في الزمان والمكان . وما كان محدودا له بداية ونهاية . فالقول بلانهاية العالم هو المرادف عند برونو لما كان يعرف عند بعض فلاسفة العرب «بقدم العالم» وهو رأى الدهريين ، وهو ينقض وصف أرسطو واتباعه لله بأنه « العلة الأولى » . . و « المحرك الأول » . فالخلق اذن عند برونو ليس فعلا حدث في زمن ما داخل مكان ما ولكنه حالة أزلية أبدية ولا متناهية في المكان . وتفسيره عند برونو هو وحدة الوجود او وحدة الله والعالم .

الله عنده نور العالم ، والعالم عنده ظل النور ، أو النور الذى تخامره درجات من الظلمة بمقدار ما يبتعد عن نافورة الضياء وفقا لتاسوعات افلوطين .

هذه هى الحرب العوان التى اعلنها جوردانو برونو على أرسطو والارسطاطاليسية ، وعلى اساتذة جامعة أكسفورد والسوربون وعلى علماء اللاهوت من المدرسة الاسكولائية ، اتباع أرسطو . ومنذ كتابه الأول « ظلال المثل » او « ظلال الأفكار » (١٥٨٢) كان واضحا ان برونو كان يبحث عن « المثل » الأفلاطونية و «الذكريات» الأفلاطونية التى يولد بها الانسان ويقضى حياته محاولا استرجاع حقائق حياته التى كان يعيش بها فى عالم المثل قبل مولده ، أى قبل ان يدخل عالم الظلال .

كان واضحا منذ الكتاب الأول أن جوردانو برونو الذى استتر تحت اسم شخصية « فيلوثيروس » ، أى « عاشق الله » انما كان يطرح التفسير الأفلاطونى للوجود والحياة ، فى مواجهة شخصية « لوجيفر » ، أى « حامل المنطق » . . وهذا ليس الا أرسطو أبو المنطق ، وحوارهما يدور مع « هرميز » (تحوت) معلم الحكمة لجماعة « العارفين بالله » . ونفس الأمر بالنسبة لكتابه الثانى « نشيد الساحرة كيركيه » .

وفى كتب جوردانو برونو التى أصدرها فى انجلترا وأهمها : « طرد الوحش المنتصر » (١٥٨٤) ، و « عشاء أربعاء الرماد » (١٥٨٤) ، يتفجر تمجيد

برونو لديانة قدماء المصريين من جهة ، وتتفجر دعوة برونو لفلسفة الحلول
أو وحدة الوجود من جهة أخرى .

نفى كتاب « طرد الوحش المنتصر » يبحث برونو أمر حرب العقائد
الدينية والأوضاع الاجتماعية والسياسية وعلاقة الفرد بالدولة . ويقول
ان الناس في حاجة الى الدين لكي يسلس قيادها ، والعقل من يقبل عادات
البلد الذى يقيم فيه . . ولكن في الوقت نفسه لابد من التسامح ومن
حرية التعبير . والوحش المنتصر عند برونو هو أرسطو وعبيده من أساتذة
المنطق الصورى وفقهاء اللاهوت المسيحي الذين جمدوا الفكر الدينى
المسيحي بعقلانية المعلم الأول وبتعاليمه . والجل عنده هو العودة الى الديانة
المصرية القديمة .

وفي هذه المحاورات يحمل برونو حملة شعواء على التعصب الدينى
والحروب الدينية ، ولاسيما ضراوة الكاثوليك في اضطهاد البروتستانت ،
وضراوة البروتستانت في اضطهاد الكاثوليك . . وهو يدافع عن مبدأ الدولة
القومية . . واستقلالها عن سلطان الكنيسة الرومانية الجامعة . . بما
يوحى بأن مجاز « طرد الوحش المنتصر » كان يتضمن أيضا عند برونو
طرد البابوات الفاسدين ومن ظاهريهم من ملوك اسبانيا المتعصبين الذين
خلطوا الحماس للكاثوليك بالحماس للتوسع الامبريالى .

وقد حاول جوردانو برونو في محاورات « طرد الوحش المنتصر » ان
يدعو الى مقاييس جديدة في الاخلاق الاجتماعية لاصلاح حال المجتمع . فالهدف
من القانون عنده ليس البحث عن الحقيقة المطلقة ولكن تحقيق الخير العام
لجميع المواطنين . والقانون عنده سند النظام وضمان خير المجموع . وهو
يرى احياء الفضائل الرومانية القديمة كروح الخدمة العامة واهمال الفضائل
غير النافعة كالعفة مثلا . والقيم الحقيقية عنده مرتبطة بنفعها الاجتماعى ،
والفضائل الخاصة تأتى في المقام الثانى ، اما الفضائل التى تخدم الجماعة
فهى تستحق التكريم وبها يخلد الانسان . ومن هنا فبرونو يرى أن طلب
المجد ليس رذيلة كما يقول الدين ، بل فضيلة محققة . وبالمثل فان هروب
المثقفين والرهبان من خدمة المجتمع ومن آلام الدنيا واعتكافهم في برج عاجى
لمجرد البحث أو التأمل امر عقيم .

وكتاب « عشاء اربعاء الرماد » (١٥٨٤) يحمل هذا الاسم الغريب
لان اربعاء الرماد هو في الطقوس الكاثوليكية اللاتينية بداية الصيام في اليوم
القالى لعيد الكرنفال مباشرة . وعيد الكرنفال هو عيد البهجة الجماعية

وانطلاق الحواس والسكر والرقص الجماعى والموسيقى والغناء ومواكب الزهور والأقنعة وكل ما نسميه « المسخرة » أو « الماسكيرا » وفيه تباح الموبقات وأفراح الحياة باعتبار أن الحياة لحظة قصيرة يجب اهتبالها . ويليه « أربعاء الرماد » الذى يذكر الناس بالموت (« من الرماد والى الرماد تعود ») ، ويبدأ الصوم والتفكير فى الموت تكفيرا عن حب الحياة . وما أبعد الفرق بين عشاء الصائمين وعشاء الكرنفال .

فى « عشاء أربعاء الرماد » يهاجم برونو أرسطو ومدرسته ويشرح نظريته فى لانهائية الكون . هذا من جهة . ومن جهة أخرى نجده يهاجم دعاة الفهم الحرفى للكتاب المقدس الذين يعلمون الناس أن الشمس هى التى تدور حول الأرض وليس العكس كما جاء فى كتاب كوبرنيك فى علم الفلك . قالت محكمة التفتيش لجوردانو برونو : فليكن كما تقول أن الأرض تدور حول الشمس وأن الكون لا متناه فى الزمان وفى المكان ، ولكن ماذا نفعل بما قاله « سفر التكوين » عن خلق العالم ؟ .

وكان رد برونو فى كل كتبه أن الاعتقاد بوحدة الوجود ، أى وحدة الله والكون ، أو بحلول الله فى الكون ، وبوحدة المادة والصورة ، أى وحدة المادة والشكل ، هى الإجابة على هذا السؤال . كان رد برونو فى كل كتبه هو الوهية الكون وبأن الله كائن فى الكون ، لا بمعنى الحلول المكاني ، ولكن بمعنى الفيض الذاتى . فعلاقته بالعالم المادى هى علاقة النور المثالى بالظلال التى نسميها المادة .

ووجد جوردانو برونو أن فهم الدين القائم على ازدواجية الله والكون ، والروح والمادة ، ازدواجية مطلقة فهم خاطيء . ولذا لجأ الى احياء ديانة مصر القديمة أيام العارفين بالله حيث التواصل مستمر بين الله والعالم وحيث كان يمكن للانسان أن يخرج من دائرة الظل ويقترب من المثل النورانية حتى يتحد بنافورة الضياء .

هذا الاعتقاد فى امكان التواصل بين الطبيعة وما وراء الطبيعة ملاءم عالم جوردانو برونو بالمثل والأرواح والجان ، وجعل فى فلسفته الدينية مكانا عظيما للسحر ليتمكن الانسان من الارتقاء بالسيطرة على ظلال العالم المادى . وكان يسمى هذا « السحر الطبيعى » وليس سحر السحرة . وهو عنده مرادف للسيطرة على الطبيعة باكتشاف قوانينها .. فكان هذا أيضا مما أورده موارد التهلكة فى محاكم التفتيش .

جاليليو

GALILEO

١٥٦٤ - ١٦٤٢



ثورة الفلك

□ كانوا ثلاثة وكلهم رياضيون وفلكيون هم الذين وضعوا أساس علم الفلك الحديث وأنقذوا الانسانية من خرافات القدماء حول تكوين الكون القريب فيما يسمى بالمجموعة الشمسية .

وكان أولهم بولنديا هو كوبرنيك (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الذي اكتشف الحركة المزدوجة للكواكب حول نفسها وحول الشمس . وكان ثانيهم ايطاليا ، وهو جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) الذي اكتشف قانون تذبذب الأجسام وقانون الأجسام الساقطة ووضع أسس قانون القصور الذاتي واكتشف البقع الشمسية وقوانين المد والجزر واكتشف بعض التوابع غير المعروفة للقدماء واخترع التليسكوب والميكروسكوب وقضى حياته يدافع عن نظرية كوبرنيك في دوران الأرض حول الشمس ولقى في ذلك عنقا شديدا أمام محاكم التفتيش . أما الثالث فكان المانيا وهو كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) الذي اكتشف أن مدارات الكواكب حول الشمس بيضاوية ووضع بدايات قانون الجاذبية الذي بنى نيوتن عليه أهم نظرياته .

وأوسع هؤلاء الثلاثة شهرة هو جاليليو بسبب كفاحه المديد العنيد لما يسمى التوفيق بين العلم والدين . وهو في حقيقته كفاح مرير لجعل الكنيسة الكاثوليكية تقبل نظريات العلم الحديث ومنهج العلم الحديث . وقد خسر جاليليو معركته أثناء حياته ولكن جهاده توج بعد وفاته بتفتح الكنيسة درجة درجة للعلم الحديث في نظرياته ومنهجه .

وقد ولد جاليليو جاليلي في بيزا في ١٥ فبراير ١٥٦٤ لأب يدعى فنشنتزيو جاليلي كان يعمل موسيقيا ولكنه جمع بين الفن والنجارة بسبب قلة موارده من الفن . وكان أصلا من فلورنسا وينتمي الى عائلة مرموقة ، فكان منهم الوزير في القرن الرابع عشر وكان منهم الطبيب الشهير في القرن الخامس عشر ، ولا تزال قبورهم هناك في كنيسة سانكا كروتشي ، حيث مثوى

جاليليو نفسه . وكان الأب بارعا في العزف على العود ضليعا في نظريات الموسيقى وفي الرياضيات وفي الآداب اليونانية واللاتينية . ولكنه كان محافظا في الموسيقى ، فكان يعادى البوليفونية (تعدد الأصوات) والتجديد الموسيقى الواردين من البندقية ويدعو للعودة الى الميلودية ، وله في هذا مؤلفات .

وكان جاليليو هو الابن الأكبر على سنة أبناء آخرين ، منهم ابن وبنتان اختفى ذكرهم تماما ، أما الباقون ، وهم فرجيتا وليفيا وميكلانجلو فقد كان لهم دور هام في حياة جاليليو ، وقد عاشت أسرة فنشنتزيو جاليلي في بيزا حتى عام ١٥٧٤ ثم انتقلت الى فلورنسا . ودخل جاليليو في صباه ديرا حيث تعلم مبادئ المنطق ولكنه لم يستمر ، بل التحق في ١٥٨١ ، أى وهو في السادسة عشرة من عمره ، بجامعة بيزا بقسم « الفنون الحرة » بوصفه طالب طب بتوجيه من أبيه ، ولكنه لم يبد أى اهتمام بدراسة الطب ، ثم عاد الى فلورنسا في ١٥٨٥ دون اتمام دراسته ولم يحصل من الجامعة على درجة علمية في الطب أو في غير الطب .

وقد بدأ جاليليو يدرس مبادئ الرياضيات سرا دون علم أبيه عام ١٥٨٣ . وكان معلمه صديقا للأسرة اسمه أوستيليو ريتشى . وسطعت موهبة جاليليو في الرياضيات الى درجة أذهلت معلمه ريتشى ، فاستأذن ريتشى أباه في أن يواصل تعليمه فوافق الأب مشروطا ألا يجور ذلك على دراسة الطب التى اختارها الأب لابنه لأنها مهنة مجزية .

ولعل أهم ما أخذه جاليليو عن ريتشى أن ريتشى كان يعلم الرياضيات بعقلية مهندس ، أى على أساس أن مبادئ الرياضيات قابلة للتطبيق العملى . وكان تدريس الرياضيات مهملًا في جامعة بيزا كما كان تعليم الفيزياء مهملًا فيها ، ولذا احتاج جاليليو الى أستاذ آخر من فلورنسا ليعلمه الفيزياء ، وهو الأستاذ بوناميكو . ولكن مشكلة بوناميكو أنه كان يتبع مدرسة أرسطو التقليدية ، مدرسة المشائين ، وكانت ملتزمة بالفيزياء الأرسطاطاليسية ، وكان له كتاب فيها اسمه « فى الحركة » فى عشرة أبواب نشر فى ١٥٨٤ وتأثر به جاليليو الشاب كما تأثر بمحاضراته فى جامعة بيزا ، ويظهر ذلك فى كتابات شسابه . ولم تكن الفيزياء الأرسطاطاليسية مثل الفيزياء اليوم ، بل كانت خليطا من الميتافيزيقا والتجربة العملية أو نوعا من علم الكون المستخدم فى تفسير ظواهر محددة أو قوانين مادية محددة .

أما ريتشى فكان على العكس من ذلك يدعو جاليليو الى التخلص عن هذه الفيزياء الأرسطاطاليسية القديمة والى الاتجاه الى الفيزياء « الباريسية » ، وبالفعل نجح ريتشى فى التأثير على جاليليو .

وفي ١٥٨٣ اكتشف جاليليو نظرية تساوى الزمن فى ذبذبات البندول ، والمتداول أنه وصل الى نتائج من ملاحظة الحركة البندولية لمصباح معلق فى كاتدرائية بيزا . كذلك طبق جاليليو نظرية التساوى الزمنى فى الذبذبات البصغرة على ضربات النبض وعلى ضربات القلب . وهذا نموذج من اهتمامه الدائم بأن يجد تطبيقات عملية لنظرياته الرياضية .

وفي ١٥٨٥ عاد جاليليو الى فلورنسا وأقام فى أسرته أربع سنوات لا يعمل شيئاً الا الالتهام الثقافى للآداب والعلوم . وأقبل على الكلاسيكيات فدرس فرجيل وهوراس وأوفيد وسنيكا . وفى هذه الفترة تداخل الشعر والعلم فى وجدانه حتى أنه قدم لأكاديمية فلورنسا بحثاً فى ١٥٨٨ عنوانه «دروس فى شكل جحيم دانتي ومكانه وحجمه » ، وبذلك حول « جحيم » دانتي الى مجموعة من المشكلات الرياضية .

وفي ١٥٨٦ اخترع جاليليو الميزان الهيدروستاتيكى لتحديد الوزن النوعى للأجسام ، وكتب فى ذلك بحثاً اسمه « الميزان » نشر بعد موته . وفى ١٥٨٦ — ١٥٨٧ كتب جاليليو كتاباً عن مركز الثقل فى الأجسام ولم ينشره الا عام ١٦٣٨ .

وكان جاليليو طوال هذه الفترة يرتزق من تدريس الرياضيات فى فلورنسا . وكان ينقصه الاستقرار المادى فبحث عن منصب للتدريس الجامعى فجرب جامعة بولونيا ولكنها فضلت عليه أستاذاً آخر ، غير أنه عين أخيراً فى كرسى الرياضيات بجامعة بيزا بمرتب ضئيل هو ٦٠ أسكودى سنوياً ، بينما كان أستاذ الطب يتقاضى ٢٠٠٠ أسكودى سنوياً .

وقضى جاليليو فى بيزا ثلاث سنوات أستاذاً للرياضيات كان خلالها يعلم هندسة أقليدس وفلك بطليموس القائمين على أن الأرض هى مركز الكون . كان يعلم الهندسة التقليدية والفلك التقليدى بين ١٥٨٩ — و ١٥٩٢ ، بحيث لا يستطيع أحد أن يجزم اذا كان جاليليو فى هذه المرحلة مؤمناً بهما أم أنه كان يفعل ذلك من باب « أكل العيش » . وفى رأى الأستاذ كويريه أن فترة جامعة بيزا كانت بداية قبول جاليليو لثورة كوبرنيك فى علم الفلك وبداية الديناميكا الجديدة التى وضع جاليليو أساسها . فلما انتقل جاليليو الى جامعة بادوا شاع عنه أنه كان يعلم فلك بطليموس علناً ويدافع سرا عن فلك كوبرنيك .

وفي ١٥٩١ مات أبوه ، فكان على جاليليو أن يعول أسرته الكبيرة المكونة من أمه وأخوته وأخواته . وانتهى عقده مع جامعة بيزا فساعده

أحد رعاته من النبلاء على التعاقد في ديسمبر ١٥٩٢ مع جامعة بادوا لشغل كرسي الرياضيات لمدة أربع سنوات قابلة للمدد سنتين آخرين بموافقة دوق البندقية ، فقد كانت جامعة بادوا تابعة للبندقية . غير أن مرتبه ظل ضئيلا (١٨٠ فلورين سنويا) ، فلم يخفف هذا من ضنكه المالى .

وبدا اعراض جاليليو عن نظرية أرسطو في الحركة ، وهى أن الحركة نتيجة لتأثير الغلاف الذى تتحرك فيه الأشياء كقوة الماء والهواء ، منذ فترة تدريس جاليليو في جامعة بيزا . كذلك أعرض جاليليو عن نظرية «الدافع» التى كانت شائعة في جامعة باريس ، وأعرض عن الرياضيات الفيثاغورية ورياضيات الأفلاطونية الحديثة التى كانت تقرا في الأرقام خصائص ميثافيزيقية معينة وتربط ربطا سحريا بين الأرقام وبين بعض ظواهر الطبيعة .

وظهر اتجاه جاليليو الى ربط الرياضيات بالتطبيقات العملية . بل ظهر اعراضه عن الرياضة البحتة جملة وهى الرياضة الأفلاطونية ، فقد كان علم الرياضيات عند أفلاطون علما نظريا صرفا لا علاقة له بالواقع ، علما مثاليا يمثل الحقائق العليا الكاملة المجردة ، حتى لقد كتب أفلاطون على باب الأكاديمية التى أسسها خارج أثينا شعرا : « لا يدخلها الا الرياضيون » . ومنذ فترة بيزا أيضا اتجه جاليليو الى تكامل المعرفة فكان يكتب عن الشاعر الايطالى المسمى تاسو وعن الشاعر الايطالى المسمى اريوسطو كما سبق له أن كتب عن جديم دانتي ، وتجلت في كتاباته وحدة الثقافة العلمية والثقافة الأدبية . وكان يسخر في كتاباته من علماء البرج العاجى المنفصلين عن الحياة ويتهمهم بالحنقة . وقد عبر عن ذلك في هجائه للأرواب الجامعية وهى رداء العلماء .

وعلى الجملة فقد كان جو جامعة بيزا خانقا لجاليليو ، فلما انتقل الى جامعة بادوا وجد الجو العلمى فيها دافئا بروح الزمالة الحقيقية والاستاذية الصادقة وبحرية البحث العلمى التامة التى ضمنتها حكومة البندقية . واشتغل جاليليو في جامعة بادوا ثماني عشرة سنة وصفها فيما بعد ، عام ١٦٤٠ ، بأنها كانت أجمل سنوات عمره . وبدأ مرتبه في بادوا بمبلغ ١٨٠ فلورينا سنويا ، ثم ارتفع في ١٥٩٨ الى ٣٢٠ فلورينا سنويا ، ثم ارتفع في ١٦٠٦ الى ٥٢٠ فلورينا سنويا ، ثم ارتفع في ١٦٠٩ الى ١٠٠٠ فلورين سنويا . . ومع ذلك فقد ظل جاليليو في ارتباك مالى مزمن بسبب كنفالته لأسرته . فقد جهز أخته فرجينيا للزواج ثم جهز أخته ليفيا أيضا للزواج ، وكان ينفق على أخيه الموسيقى الموهوب المتلاف ميكلانجلو وعلى زواجه وعلى أولاده الكثيرين .

ويبدو أن هذه التبعات العائلية قد جعلت جاليليو يزهّد في الزواج أو يخاف من مسئوليات الزواج . ومع ذلك نجده قد أنشأ لنفسه أسرة غير شرعية ، فعاشر امرأة من البندقية تدعى مارينا جامبا عشر سنوات ، وانتقلت مارينا اليه في بادوا وأنجبت منه بنتين هما جينيا في ١٦٠٠ وليفيا في ١٦٠١ ثم غلاما هو فنشنتزيو في ١٦٠٦ . ولم تكن مارينا تقيم مع جاليليو تحت سقف واحد بل كانت تقيم في منزل مستقل ، ربما مراعاة للتقاليد وربما طلبا للهدوء . ثم انفصل جاليليو ومارينا عند انتقال جاليليو الى فلورنسا عام ١٦١٠ ، وكان انفصالهما على مودة فترك في كنفها ابنه الصغير فنشنتزيو لتربيته حتى بعد زواجها من أحد معارفه ، أما البنات فقد أدخلهما جاليليو الدير ، وهو لون من القسوة الفظيعة التي لجأ اليها جاليليو لعلمه بأن بنتيه لا أمل لهما في الزواج من أحد في مثل طبقته الاجتماعية .

وبسبب هذه الضائقة المالية المتصلة التي كان يعيش فيها جاليليو في بادوا كان يستكمل دخله باعطاء دروس خصوصية لطلبة الجامعة ، فتحول بيته الى ما يشبه النزل أو الفندق ، فكان يقيم فيه نحو عشرين طالبا جاءوا من مختلف أرجاء أوروبا ، بعضهم بسبب شهرة جامعة بادوا وبعضهم بسبب شهرة جاليليو نفسه ، وكان جلهم من أبناء البيوتات .

ووجد جاليليو وهو في بادوا أن مشكلته الحقيقية هي أنه كان يضع أكثر وقته على الدروس الخصوصية بدلا من تخصيصه للبحث العلمي أو للنشاط الثقافي ، فقرر أن ينهي علاقته بجامعة بادوا وأن يدخل في خدمة راع ينفق عليه حبا في العلم وطلبا للمجد . وبعد مفاوضات دخل بلاط الفرانديكو كوسيمو الثاني دي مديتشى أمير توسكانيا الذي كان أحسد طلبته في بادوا ومن أشد المعجبين به ، وترك له كوسيمو مطلق الحرية في البحث والتفكير والدعوة لما يعتنقه من نظريات . وقد ساءت عاقبة هذا الاختيار ولكنه بدا يومئذ لجاليليو أنه أفضل اختيار ممكن .

وفي فترة التدريس بجامعة بادوا لم يؤلف جاليليو كتباً ذات بال ، ولكنه اكتشف بعض قوانين الميكانيكا الهامة مثل قوانين تزايد سرعة الأجسام الساقطة تزايدا طبيعيا . والغريب أن جاليليو وضع كتابه المسمى : « رسالة عن الكرة الأرضية أو عن خريطة الكون » ، وليس فيه إشارة واحدة الى كوبرنيك أو اعتراض واحد على تصور بطليموس أن الأرض هي مركز الكون ، ومع ذلك غفى تلك السنة نفسها كان جاليليو يعلن لأول مرة دفاعه عن فلك كوبرنيك في خطاب بتاريخ ٣٠ مايو ١٥٩٧ الى أستاذ للفلسفة بجامعة بيزا يدعى ماتروني ، وفي خطاب بتاريخ ٤ أغسطس ١٥٩٧ الى

العلامة كبلر . وكان كبلر أستاذا للفلك والرياضيات بجامعة توبنجن بألمانيا، ونشر في ١٥٩٦ كتابه « مقدمة رسائل في شرح سر خريطة الكون بخمسة أشكال هندسية » . ويقول جاليليو في خطابه لكبلر انه اعتنق نظرية كوبرنيك في الفلك لسنوات مضت وبها استطاع تفسير عديد من ظواهر الطبيعة .

واذا كان جاليليو باعترافه قد اعتنق نظريات كوبرنيك الفلكية ، على الأقل منذ أوائل التسعينيات من القرن السادس عشر وهو يعمل في جامعة بادوا ، فلا شك أنه كان يتابع في صمت أولا بأول محنة جوردانو برونو أمام محكمة التفتيش في البندقية ثم في روما حتى اعدامه على المحرقة بتهمة الزندقة . وقد كان من الاتهامات الأساسية التي جرت الكارثة على برونو دعوته لثورة كوبرنيك في الفلك ورفضه نظرية أرسطو وببليوموس في أن الأرض هي مركز الكون وأنها ثابتة تدور حولها الشمس والكواكب السيارة السبعة فيما يسمى السموات السبع .

واذن فالأرجح أن جاليليو أدرك أن ما كان يجري لجوردانو برونو كان بمثابة انذار لكل علماء عصره . وقد طلب كبلر من جاليليو نشر الأدلة التي توصل اليها لاثبات صحة نظرية كوبرنيك ولكن جاليليو لم يستجب ، والأرجح أن الحذر كان وراء تكتّم جاليليو العلمى في هذه الفترة من حياته ، وليس تناقض الشخصية ، كما ذهب بعض مؤرخى الفكر . فاذا ذكرنا عبودية جاليليو المالية لأسرته خلال فترة عمله في جامعة بادوا ، أدركنا سر حرصه الشديد ألا يزج بنفسه في متاعب تعرضه وتعرض ذويه للتشرد في هذه الفترة من حياته .

أما صمته التام عن مأساة جوردانو برونو فالأرجح أن سببه أن برونو كان يستخرج من فلك كوبرنيك فلسفة روحانية خارج الاطار المسيحي تصل الى حدود الزندقة الصارخة ، بينما كان جاليليو يعلن دائما أنه صادق الايمان مخلص للكنيسة الكاثوليكية ، وأن قصارى أمله هو أن يكسب رجال الدين ، وعلى رأسهم البابا والكرادلة ، الى صف العلم والمنهج العلمى .

وكانت أول إشارة معلنة من جاليليو الى نظرية كوبرنيك في الفلك عام ١٦٠٤ . ففي ٣٠ سبتمبر ١٦٠٤ أبلغه راهب يدعى التوبيللى أنه رأى نجما جديدا في السماء ، وقد أيد هذه الرؤية عالم في ميلان يدعى كابرال الذى أبلغ جاليليو أن هذا النجم استمر في السماء لمدة ١٨ شهرا وأن حجمه

تضائل تدريجيا خلال هذه الفترة ، والقى جاليليو ثلاث محاضرات في هذا الموضوع حضرها جمهور كبير ، وكان رأى جاليليو ان ظهور هذا النجم يثبت بوضوح صحة نظرية كوبرنيك في الفلك .

وفي اثناء فترة بادوا أنشأ جاليليو في منزله ورشة يصنع فيها الموازين والمقاييس والعدسات والتليسكوبات ويجمع الأدوات المغناطيسية . واخترع مسطرة حاسبة كان يسميها « البرجل الهندسى الحربى » ، وقد شاع استعمالها في حساب اللوغاريتمات . واخترع مقياسا للحرارة هو في حقيقته ترمومتر بارومتري لأنه يتأثر بالحرارة وبالضغط الجوى . وفي ١٦٠٩ صنع نموذجا لتليسكوبه المشهور . كانت الثورة الثقافية تعنى عند جاليليو التعايش بين العلم والدين لا أكثر من هذا .

وفي ١٦٠٤ كتب جاليليو خطابا الى راهب يدعى باولو ساربي يشرح فيه نظريته حول قانون الأجسام الساقطة ، ملاحظا زيادة سرعة الاجسام الساقطة بنسبة ابتعادها عن نقطة السقوط ، وكانت هذه بداية البحث في الجاذبية ، ثم نقح نظريته أخيرا بقوله ان زيادة سرعة الأجسام الساقطة مطردة مع بعدها عن « لحظة » السقوط وليس مع بعدها عن « نقطة » السقوط .

وتحتل قوانين الميكانيكا ركنا هاما في أعمال جاليليو ، فقد وجه جاليليو كل اهتمامه لدراسة قوانين الميكانيكا وتدريبها بين ١٦٠٢ و ١٦٠٩ . وكان منذ ١٥٩٨ يخصص محاضراته لشرح الظواهر الميكانيكية بدءا بميكانيكا ارسطو التى كانت فرعا من فروع الفيزياء ، ولكنه لم ينشر شيئا في هذا الموضوع في تلك الفترة . والراجح أن تجاربه وملاحظاته ودراساته في تلك الفترة كانت الخامة التى بنى عليها كتابه العظيم الذى صدر في ١٦٣٨ ، وهو « حوار العلوم الحديثة » ، وربما أيضا نص كتابه « رسالة في الميكانيكا » الذى نشر في باريس عام ١٦٣٤ في ترجمته الفرنسية قبل نشره بالاطالية في ١٦٤٩ بعد وفاة جاليليو .

• • •



العاصفة الأولى

□ في كتاب « الطبيعة » (« الفيزيكا » أو « الفيزياء ») لأرسطو تحدث أرسطو عن الميكانيكا فقسم الحركة الطبيعية الى نوعين : حركة هابطة ، وهذه هي حركة الأرض والماء ، وحركة صاعدة ، وهذه هي حركة الهواء والنار .

أما جاليليو فقال ان الحركة الطبيعية حركة واحدة ، وهي الحركة الهابطة . بمعنى آخر ، كل جسم عند جاليليو له وزن ، وبناء عليه فهو يتجه طبيعيا بحكم وزنه الى مركز الأرض .

فإذا كانت هناك أجسام ذات حركة صاعدة فذلك لأنها تندفع في مجال ذي وزن نوعي أكبر من وزنها ، وهذا يدفعها الى أعلى كما اكتشف أرشميدس . حتى الهواء والنار ، إذا لم يوجد في مجال ذي وزن نوعي أكبر من وزنها ، فإن اتجاه حركتهما الطبيعية يكون الى أسفل . وقد تجاوز جاليليو أرشميدس في أن أرشميدس كان يطبق الرياضيات على الأشياء الاستاتيكية ، أي وهي في حالة ثبات ، أما جاليليو فكان يطبقها على الأشياء الديناميكية ، أي وهي في حالة حركة .

وبعد أن اكتشف جاليليو قانونه بأن الأجسام الساقطة تزداد سرعتها زيادة مطردة مع ابتعادها عن نقطة السقوط في المكان ، عدل نظريته وقال ان الأجسام الساقطة تزداد سرعتها زيادة مطردة مع ابتعادها عن لحظة السقوط في الزمان وليس عن نقطة السقوط في المكان .

وقد كان هناك اجماع بين مؤرخي العلم على أن جاليليو كان أول من اهتدى الى قانون القصور الذاتي ، ولكن مؤرخ الفكر العسامة كويريه حاول اثبات أن صاحب الفضل في اكتشاف هذا القانون كان ديكارت .

وكانت أهم آلة اخترعها جاليليو هي « التليسكوب » ، وهو المنظار المقرب للأشياء البعيدة بحيث تبدو أكبر حجما وأشد وضوحا مما هي للعين المجردة . وقد سبقه الى هذا الاختراع آخرون بعضهم من صنّاع عدسات الابصار في هولندا وغيرها . وكان كبلر وجيوفاني باتيستا ديلا بورتسا قد

توصلا في ١٥٨٩ و ١٥٩٣ و ١٦٠٤ ، وكانا من المختصين في البصريات ، الى دراسة طبيعة العدسات ، ولكن دراستهما وقفت عند الحد النظري . كذلك اخترع اسطى نظاراتى هولندى المنظار المقرب وعرضه على بعض الأمراء للأغراض الحربية ولكن لم يحفل به كثيرون وفشل تجاريا . وكان هذا النظاراتى الهولندى لا يعرف شيئا عن نظرية البصريات والعدسات ، فتجاهله كبلر وديلا بورتا تماما . وفي الطرف المقابل اهتدى كبلر نظريا في ١٦١١ الى نظرية التليسكوب ، ولكنه لم يصنع منظارا ولا نظارات .

صنع جاليليو التليسكوب ونسب اختراعه لنفسه وقدمه لجمهورية البندقية في ٢٥ أغسطس ١٦٠٩ فأثار فيها حماسا عظيما ، وكافأته البندقية بأن عرضت عليه مد عقده في جامعة بادوا مدى الحياة وزيادة مرتبه من ٥٠٠ فلورين الى ١٠٠٠ فلورين سنويا . وكثرت الحملات عليه بسبب اعلانه أنه صاحب هذا الاختراع ، فخاض معاركه مع كبلر وديلا بورتا بسبب هذا الادعاء ولم يسلم من تهجم عشرات من نظارتيه أوروبا الذين كانت حرفتهم صناعة العدسات . . ومع ذلك فمن المؤكد أن جاليليو ، سواء اكان المخترع الحقيقي للتليسكوب أم كان أول من صنع تليسكوبا متقنا ، كان أول من استخدم التليسكوب في رصد الكواكب ونجوم السماء .

استعمل جاليليو المنظار في دراسة نجوم السماء بانتظام . وفي يناير ١٦١٠ أعلن بعض النتائج الهامة . وإحدى هذه النتائج أن سطح القمر شبيه بسطح الأرض وفيه جبال أعلى بكثير من جبال الأرض . كذلك اكتشف جاليليو أن نهر المجرة يبدو « كمجموعة مكدسة من النجوم الصغيرة » ، كما اكتشف أن كوكب « جوبيتر » (المشتري) له ثلاثة أقمار تابعة له ، ثم اكتشف أن عدد هذه الأقمار أربعة وليس ثلاثة ، وقد أطلق جاليليو عليها اسم « أقمار مديتشي » أو « كوكبة مديتشي » ، وأرسل الى كوسيمو دى مديتشي الثانى عاهل فلورنسا منظارا مقريا بصفة هدية ووعده بمنظار افضل . وفي آخر يناير ١٦١٠ طبع جاليليو نتائج أبحاثه في كتيب صغير باللاتينية في البندقية ، أردفه في ١٢ مارس ١٦١٠ بكتابه اللاتينى الشهير « رسول النجوم » ، فأهداه كوسيمو الثانى قلادة من ذهب وميدالية .

وفي ٥ يونيو ١٦١٠ أرسل سكرتير كوسيمو الثانى الى جاليليو خطابا يقول فيه ان الغراندوق كوسيمو قرر تعيينه الرياضى الأول في جامعة بيزا وفيلسوف الغراندوق السامى ، مع إعفائه من واجبات التدريس في جامعة بيزا مع الإقامة في هذه المدينة بمرتب قدره ١٠٠٠ جنيه سنويا

من عملة فلورنسا . ووافق جاليليو على هذا العرض ووقع العقد في ١٠ مايو ١٦١٠ . وكان هذا بالضبط ما يصبو جاليليو اليه ، أن يحصل على منحة تفرغ تمكنه من الانقطاع للبحث العلمى وللتنوير الثقافى . وقد غضبت سلطات البندقية وبادوا من هذا الانصراف المفاجىء ، ولاسيما بعد كل ما غمرت به جاليليو من مظاهر التكريم .

وقبيل انتقاله المفاجىء من بادوا الى فلورنسا اكتشف جاليليو بعض البقع الشمسية التى سبق أن تحدث عنها شاعر الرومان الأعظم فرجيل فى ديوانه « أغانى الفلاحين » (« الجورجيك ») ، وكذلك اكتشف أن الكوكب ساتورن (زحل) ، وهو أبعد الكواكب السيارة ، مكون من ثلاثة نجوم . وبمجرد وصول جاليليو الى فلورنسا اكتشف أن منازل كوكب الزهرة تشبه تمامًا منازل القمر .

وكان لهذه الاكتشافات رد فعل قوى فى أوروبا كلها بالإيجاب والسلب معا ، وأدعى عالم اسمه سيمون مير أنه اكتشف توابع جوبيتر قبل جاليليو بأيام . ومن نقاد جاليليو عالم اسمه سيزار كريمونينى كان زميلا لجاليليو فى بادوا ، وقد ادعى أن تليسكوب جاليليو أداة لا تؤدى الى كشف صحيحة ، وكان أرسطاطاليسيا متمسكا بالنظرية التقليدية وهى أن الكواكب السيارة السبعة ، وهى القمر والزهرة وعطارد والمريخ والمشتري وزحل والشمس فى ظن القدماء ، كلها تدور حول الأرض ، وأن الأرض هى مركز الكون . ولم يهتم كريمونينى حتى أن ينظر الى السماء بمنظار جاليليو ، ونشر هجومه على جاليليو فى كتاب أصدره فى البندقية عام ١٦١٣ .

وكان أخطر اعتراض هو اعتراض أنطونيو ماجينى ، استاذ الرياضيات بجامعة بولونيا ، الذى زعم أن عدسة منظار جاليليو تجعل الرؤية مزدوجة . وكان جاليليو مهتما باقتناعه فسافر اليه بمنظاره ، ولكن جمود فكر ماجينى جعله يصر على أن هذه الرؤية المزدوجة تجعل جاليليو يتوهم رؤية أربعة توابع لا وجود لها . غير أن ماجينى بعد طول دراسة للسماء بمنظار جاليليو عاد واقتنع بصحة مشاهدات جاليليو ، فتراجع ماجينى واعتذر اعتذارا كريما .

وهو نفس ما سبق أن حدث للأب كلافيوس ، استاذ الرياضيات بجامعة روما ، الذى ظن فى أكتوبر ١٦١٠ أن عدسة منظار جاليليو تؤدى الى الخداع الحسى ، ولكن بعد طول دراسة للسماء بهذا المنظار اقتنع فى ديسمبر ١٦١٠ بصحة كشف جاليليو لثريا مديتشى .

وبالمثل كان كبلر أولا من المعترضين ، ولكنه تحول الى الاشادة باكتشاف جاليليو في خطابه اليه المؤرخ ١٩ ابريل ١٦١٠ . ومع ذلك فقد لام كبلر جاليليو لانه اغفل ذكر من سبقوه في صناعة المنظار او في الاهتداء الى نظريته ، من امثال ديلا بورتا وكبلر نفسه . وبين ٣٠ اغسطس و ٩ سبتمبر ١٦١٠ عكف كبلر على دراسة السماء بمنظار متقن كان جاليليو قد ارسله الى امير كولونيا ، واعلن كبلر تأكده من وجود كوكبة مديتشي على الأقل . واعلن ذلك على الملأ في بحث نشره عام ١٦١١ في فرانكفورت قال فيه « لقد انتصرت يا جاليليو » .

وكان على جاليليو ان يقنع علماء روما ، فانتقل الى روما في اول ابريل ١٦١١ ، واستقبله عديد من الكرادلة بحفاوة بالغة . ثم استقبله البابا بول الخامس نفسه وسمح له ان ينهض في حضرته بدلا من الركوع كما كان يقضى البروتوكول ، وكان معه الامير فرديريكو تشيزي ، مؤسس « اكاديمية لينتشي » للرياضيات والفيزياء والتاريخ الطبيعى وادخل الامير جاليليو عضوا بالاكاديمية .

وكان للآباء الجزويت في الفاتيكان سطوة عظيمة ، وكانوا من اوسع رجال الدين في ذلك العصر معرفة بالعلوم والرياضيات .

واستقبل الآباء الجزويت جاليليو أولا بحفاوة بالغة ، واعترفوا بوجود ثريا مديتشي حول كوكب جوبيتر بعد دراسة مركزة بالمنظار استغرقت نحو شهرين ، واعلنوا هذا في احتفال رسمى بحضور جاليليو في مايو ١٦١١ . ولكن الجزويت كانوا متحفظين بالنسبة لبقية استنتاجات جاليليو .

وكان الجزويت رغم سعة معرفتهم بالرياضيات والعلوم من أشد الطوائف محافظة على العقيدة الكاثوليكية التقليدية ، وكانوا يخشون ان يزعزع العلم الحديث هذه العقيدة التقليدية . . وكان زعيم هؤلاء المحافظين الكاردينال بلارمين رئيس محكمة التفتيش الذى سبق ان رآيناه يجرى التحقيق مع جوردانو برونو ويدينه في ١٦٠٠ . وما فتىء بلارمين يبدى المخاوف من النظريات الفلكية الحديثة حتى قرر مجمع الكرادلة في الفاتيكان في ١٦ مايو ١٦١١ الاستعلام سرا عما اذا كان اسم جاليليو قد ورد في قضية كريمونينى امام محكمة التفتيش . ورغم ان كريمونينى كان من اتباع أرسطو فقد اتهم بالزندقة ودافعت عنه جمهورية البندقية حتى برىء .

وكانت اعتراضات بعض الجزويت من اتباع أرسطو ، مثل الاب كلافيوس ، تقوم على ان وجود جبال في القمر يقلل من كروية القمر الكاملة .

فأجاب جاليليو بأن الكروية الكاملة ليست سوى مجرد افتراض تقليدي ، وفي العلم لا ينبغي التعويل الا على ما هو ثابت أو قابل للاثبات . كذلك اجاب بأن حواسنا قد تفضي الى الخطأ ، ولكن ليس معنى هذا أن نتخلي عن حواسنا كأدوات للمعرفة ونعتمد على أدوات غيبية أو خفية . المشاهدة والتجربة هما اساس المنهج العلمى ، وفضل جاليليو على المنهج العلمى كبير . وكانت مشكلة جاليليو بين ١٦١٠ و ١٦١٥ هى بنتاه الكبرى فرجينيا والصغرى ليفيا ، فأدخلهما دير سان ماتيو فى نهاية ١٦١٣ ، وكانت الاولى فى سن ١٣ والثانية فى سن ١٢ ، ولذا استحال أن تلبسا الحجاب فوراً ، ولكنهما دخلتا عهد الرهبة فى ١٦١٦ ، وكانت الكبرى مستسلمة أما الصغرى فكانت متمرده . وكانت هذه طريقة جاليليو الانانية فى التخلص من مسئولية الفتاتين حتى يتفرغ للعلم ، فقد كان يائسا من زواج بنتيه غير الشرعيتين من رجلين فى مكانته الاجتماعية .

وبين ١٦١١ و ١٦١٥ تفرغ جاليليو لبحث مشكلة الأجسام الطافية ومشكلة البقع الشمسية . وفى هذه الفترة نشر كتابيه « حديث فى الأجسام الطافية » (١٦١٢) و « رسائل شمسية » ، وكانت هناك مناظرة ودية فى قصر الفراندوق كوسيمو الثانى عام ١٦١١ حول قانون الأجسام الطافية شارك فيها عدد من العلماء والفلاسفة المدعويين ، ودافع فيها جاليليو عن نظرية أرشميدس ، وانحاز له الكاردينال بربرينى الذى غدا فيما بعد البابا أوربان الثامن . وفى الطرف الآخر كان هناك عالم أرسطاطاليسى من فلورنسا يدعى ديلا كولومبيه يؤيد الكاردينال جونزاجا واتباع أرسطو المعادين لنظرية كوبرنيك .

كان أرسطو ينسب طفو الأجسام على الماء الى أن الأجسام الطافية يتخللها الهواء لأن الهواء نازع للصعود . أما أرشميدس فمفسر طفو الأجسام بقلّة وزنها النوعى عن وزن الماء النوعى ، وانحاز جاليليو لأرشميدس .

أما بالنسبة للبقع الشمسية فقد ثار جدل فظيع حولها بين جاليليو وفلكى يدعى شاينر . وكان جاليليو قد أعلن عن وجودها فى مناقشاته واحاديثه الخاصة ولكنه لم ينشر عنها شيئاً ، فاذا بشاينر يفاجئه بنسبة هذا الاكتشاف الى نفسه . وكان تفسير شاينر للبقع الشمسية أنها نتيجة لتكدس النجوم أو السدم حول الشمس كطرود النحل وقرر أنها منفصلة عن الشمس . أما جاليليو فقال انها أشبه بالسحب والأبخرة منها بالسدم أو النجوم وانها من مادة حمم سائلة غير منفصلة عن الشمس وانما هى موجودة على سطحها ، وفسر ما يبدو من دوران البقع حول الشمس بأنه

دليل على أن الشمس نفسها تدور حول محورها ، ووجد في هذا تأييدا جديدا
لنظرية كوبرنيك القائلة بأن هناك علاقة بين دوران الشمس حول نفسها
ودوران المجموعة الشمسية حول الشمس .

وقد قضى جاليليو عشرين عاما يدعو لنظرية كوبرنيك عرف فيها
مرارة الهزيمة في ١٦٢٢ ثم المثول أمام محكمة التفتيش والسجن في ١٦٣٣ .
وكان جاليليو يعرف النتائج الخطيرة المترتبة على نظرية كوبرنيك في الفلك ،
ألا وهي زعزعة العقيدة الدينية ، ولكنه في الوقت نفسه كان يدرك خطورة
الكنيسة لو وقفت حائلا في طريق العلم الحديث ، لذا فقد قامت دعوته على
أن نظرية كوبرنيك لا تتعارض مع العقيدة الدينية . وكان مهتما باقناع كبار
رجال الدين بالكوبرنيكية لكي يحصل على تأييد الكنيسة .

كان يقول ان اقوال الكتاب المقدس في الفلك صحيحة ، واقوال كوبرنيك
صحيحة . ولم يحاول مثل الفلكي الدنماركي تيكو براهي أن يجرى تنازلات
في العلم للتوفيق بينه وبين الدين . فرفض جاليليو كل الحلول الوسط لارضاء
اصحاب القديم ، ولكنه في الوقت نفسه رفض كل تصحيح للعقيدة يمكن أن
يضع العلم خارج العقيدة .

وكان تفسيره للتناقض بين العلم والدين أنه تناقض ظاهري فقط ناشيء
من مشكلة التعبير اللغوي . فالعلم يتعامل مع حقائق الطبيعة والكتاب
المقدس يستخدم لغة تقرب حقائق الطبيعة من افهام عامة الناس . وهذا
التعبير المجازي التقريبي لا يغير حقيقة الطبيعة ولا يغير قوانينها الحقيقية
لأن الطبيعة أو الخليفة هي « الفعل » الالهى . ولغة العلم واضحة ودقيقة
لا مجال فيها للغموض والتأويلات ، أما اللغة المألوفة فهي مرنة وغير محددة،
الالفاظ فيها قد تحمل أكثر من معنى . وكان جاليليو يفضل الكتابة بالاطالية
من دون اللاتينية لينشر المعرفة العلمية على أوسع نطاق ممكن .

وقد حاول جاليليو أن يشرك معه في دعوة التنوير العلمى غيره من
العلماء ولكنهم أحجموا عن المجازفة . حتى كبلر كان يرى ان العلماء
لا ينبغي أن يخاطبوا الا العلماء وأن نظرية كوبرنيك في دوران الأرض
والكواكب حول الشمس لا يصح تداولها بين عامة الناس . بل لقد حمل كبلر
جاليليو مسئولية مصادرة الكنيسة لكتاب كوبرنيك وتحريم قراءته على المؤمنين
بعد أن ظلت قراءته مباحة مدى ثمانين سنة ، لأن جاليليو علم الناس أن
الأرض ليست مركز الكون وأنها تدور حول محورها وحول الشمس لا أن
الشمس تدور حول الأرض .

وقد بدأت متاعب جاليليو التى انتهت بمحاكمته الأولى فى ١٦١٦ عندما التقى راهب من الدومنيكان يدعى نيكولو لورينى فى أول ديسمبر ١٦١٢ موعظة فى كنيسة دير سان ماتيو بفلورنسا هاجم فيها جاليليو وعلم الفلك الجديد الذى وضع كوبرنيك أساسه . ثم ما لبث هذا الراهب الجاهل أن كتب خطابا لجاليليو معتذرا بأنه لم يقصد مهاجمته شخصا وإنما قصد مهاجمة « رأى ايبيرنيكو » المتعارض مع نصوص الكتاب المقدس . وكان جهل هذا الراهب موضوعا لتفكه المثقفين .

أما الهجوم الثانى فجاء فى ١٦١٤ من راهب دومنيكانى آخر يدعى كانشينى فى خطبة الأحد فى كنيسة سانتا ماريا نوفيللا بفلورنسا ، وفيها ندد كانشينى بعلم الرياضيات « الشيطانى » وبعلم الفلك « الشيطانى » ، واتهم جاليليو بالزندقة لأنه كان يتفحص السماء بمنظاره فى حين أن أنجيل لوقا استنكر فى أهل الجليل الشخصوص الى السماء وقت صعود المسيح .

وبعد أسابيع عاد الراهب لورينى الى مهاجمة جاليليو فأرسل الى أحد الكرادلة بالمقر البابوى نسخة من رسالة جاليليو الى راهب عالم يدعى كاستيللى ، واتهم جاليليو باسم كل رهبان دير سان مارك بالمروق عن الدين ونسب اليه قوله « ان الأرض تتحرك بينما السماء ثابتة » وقوله « ان بعض آيات الكتاب المقدس لا تطابق الحقائق العلمية » ، وقوله « انه فى مناقشة الظواهر الطبيعية لا ينبغى الرجوع الى الكتاب المقدس الا فى آخر الأمر » . وطالب الراهب لورينى الكاردينال باتخاذ اجراء لحماية العقيدة وقمع الفتنة فى مهدها .

وهكذا قرر الفاتيكان بناء على هذه الشكوى اجراء تحقيق فى سرية تامة ، وكلف كبير أساقفة بيزا ورئيس لجنة التفتيش بها بالحصول « بطريقة ماهرة » على أصل رسالة جاليليو الى كاستيللى بخط جاليليو نفسه وأحال الموضوع الى أحد مستشاريه .

وكانت هذه هى العاصفة الأولى .



سنوات الصمت

□ تناول التحقيق الرسالة الموجهة من جاليليو الى كاستيللى واتهامات الزندقة الموجهة الى جاليليو ومدرسته ، وأسفر بعد فحص الرسالة أن الاتهام زوبعة فى فنجان .

قال تقرير مستشار الفاتيكان ، الذى كلف بفحص رسالة جاليليو الى كاستيللى ، انه لم يجد فى هذه الرسالة الا ثلاث عبارات سيئة التعبير ، منها مثلا قوله ان الكتاب المقدس به كثير من التعبيرات « الخاطئة » لو اخذت بمعناها الحرفى . غير ذلك فقد شهد التقرير بأن رسالة جاليليو « لم تنحرف عن التعبير الكاثوليكي » .

وكان هناك اتجاه لحفظ الموضوع لولا ان الأب كاتشيني حضر بشخصه الى روما متطوعا للشهادة ضد جاليليو فى ٢٠ مارس ١٦١٥ . واستشهد برجلين أحدهما هو الأب خمينز والآخر هو الأب التافانتى ، ولكن الرجلين شهدا فى صالح جاليليو . قال التافانتى : « أنا ما سمعت قط السنيور جاليليو يتفوه بأقوال معارضة للكتاب المقدس أو لعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة ، غير انى فى النطاقين الفلسفى ، والرياضى ، سمعت السيد المذكور يقول وفقا لمذهب كوبرنيك ان الأرض تدور حول نفسها وانها تتحرك أيضا حول الشمس ، وان الشمس كذلك تدور حول نفسها ولكنها لا تتحرك فى مجال شئ ، كما يتضح من بعض رسائله التى نشرها فى روما بعنوان « البقع الشمسية » والتى أوافقه عليها جملة وتفصيلا » .

وفى ٢٥ نوفمبر ١٦١٥ قرئت الشهادتان فى جلسة المجلس البابوى وقرر المجلس الا يتخذ اجراءات أخرى سوى دراسة كتاب « البقع الشمسية » ، وعنوانه الحقيقى « رسائل شمسية » ، لمعرفة أبعاد المشكلة .

وفى أوائل ديسمبر ١٦١٥ انتقل جاليليو متطوعا من فلورنسا الى روما ليشرح قضيته بنفسه أمام كرادلة الفاتيكان وأمام البابا . . وأمر كوسيمو دى مديتشى الثانى جيتشياردينى ، سفير توسكانيا فى روما ، أن يخصص له جناحا ممتازا فى السفارة وسكرتيرا وخادما خاصا وبغلة يركبها فى

تنقلاته ، كما كتب الى عدد من الكرادلة يوصيهم خيرا بجاليليو ، كذلك كان لجاليليو معارف عديدون بين الكرادلة المثقفين . وكان جاليليو عظيم التفاؤل بكسبه قضيته ولكن ما مر أسبوعان حتى صدر قرار المجلس البابوى بتحريم نظرية كوبرنيك . أما السفير جيتشياردينى فكان منذ البداية شديد التشاؤم لأنه كان أعرف بمراكز القوى المحافظة داخل الفاتيكان . وقد كتب منذ البداية الى فلورنسا محذرا من مجيء جاليليو الى روما .

وقد كان الأمر بالفعل أكبر من جاليليو وقضيته : كان فى الكنيسة حزبان كبيران حزب تقدمى يطالب بفتح الكنيسة على العلوم والآداب الحديثة ، وحزب رجمى يخشى أن تزلزل العلوم والآداب الحديثة كيان الكنيسة وتزعزع العقيدة الدينية . وكان بين الفريقين صراع خفى ضار على السلطة داخل الفاتيكان ، ولم تكن شكاوى الراهبين الا مجرد واجهة لهذا الصراع .

وكان زعيم المتزمتين الكاردينال بلارمين الذى سبق أن رأيناه محقق محكمة التفتيش الذى استجوب جوردانو برونو عام ١٦٠٠ . وكان بلارمين يترصد لجاليليو منذ زيارته السابقة لروما فى ١٦١١ . نعرف هذا من رسالة أرسلها السفير جيتشياردينى فى ٥ ديسمبر ١٦١٥ لأحد الوزراء فى فلورنسا . قال جيتشياردينى ان نظريات جاليليو لم ترق لمجمع الكرادلة الى حد أن بلارمين هدد بأنه لو طالبت اقامته فى روما فمن الممكن مساءلته على أقواله . . وكان السفير غير مرتاح لزيارة جاليليو لروما للدفاع عن نظرياته او نظريات كوبرنيك . وقد أثبتت الأيام صحة هواجسه ، لأن الكرادلة الجزويت تخلوا عن جاليليو بعد أن بدا ميلهم الى تأييده .

وفى ١٥ مايو ١٦١٥ كتب الكاردينال دينى لصديقه جاليليو : « أنا أعلم أن الكثيرين من الجزويت متفقون معك فى الراى فى السر ولكنهم يسكتون عن الحق فى العلن » . وقد انتهى أمرهم بالانسحاب من هذا الخلاف خوفا من أن انتصار نظرية كوبرنيك قد يهدم فلسفة أرسطو ، وهذا ما جعل جاليليو يحمل لهم البغض بعد ١٦١٦ . ولكن غير واضح ان كان تدهور الموقف نتيجة لعدوانية الرهبان الدومنيكان أو نتيجة لصمت الجزويت .

وفى ١٩ فبراير ١٦١٦ قدم المجلس البابوى الى علماء اللاهوت قضيتين للبت فيهما .

« (١) ان الشمس هى مركز الكون وبناء عليه فهى لا تتحرك .

(ب) ان الأرض ليست مركز الكون وانها ليست ثابتة بل تدور حول نفسها وان هذا الدوران حركة يومية .

وفي ٢٤ فبراير أعلن علماء اللاهوت بالاجماع ان القضية الاولى سقيمة وتجاوى العقل من الناحية الفلسفية ، وانها تنطوى على كثر صريح من حيث تعارضها مع الافكار الواردة في الكتاب المقدس بمعناها الحرفي وكما فهمها آباء الكنيسة وفقهاء الدين . اما القضية الثانية فهي أيضا خاطئة من الناحية الفلسفية ، اما من الناحية اللاهوتية فهي على الأقل خاطئة من وجهة نظر العقيدة الدينية . وفي اليوم التالي قرئ هذا القرار على مجمع الكرادلة في اجتماعه العام .

ومن المهم ان نذكر انه لا القضية الاولى ولا القضية الثانية لهما أى ذكر بالنص الحرفي في كتابات جاليليو أو كوبرنيك ، وانهما مجرد ترديد لاتهامات كاتشيني . فجاليليو لم يقل إن الشمس ثابتة لا تتحرك . ولكن كان واضحا أن ادانة هاتين القضيتين هي ادانة عامة لنظام كوبرنيك الكوني . وبعد أيام ابلغ الأمر البابوي بتحريم نظرية كوبرنيك الى مجلس المصادرة . ففي ٥ مارس ١٦١٦ نشر المجلس قرار الادانة من ثلاث نقاط :

١ — سحب كتب كوبرنيك ودييجو دي زوتيجا من التداول حتى يتم « تصحيحها » .

٢ — ادانة كتب الأب فوسكاريني وتحريمها على وجه الاطلاق .

٣ — عدم ادانة كل الكتب التي تردد هذه النظريات ولكن تحريمها في مجموعها .

ولم يرد في القرار ذكر لأعمال جاليليو بالذات ولكنها أصبحت ضمتا محرمة . ولم يرد في القرار ادانة لرسائل جاليليو الى الأب كاستيللي والكاردينال ديني وكريستين دي لورين زوجة كوسيمو دي مديتشي الثاني باعتبار أنها رسائل شخصية رغم أنها كانت تنسخ لتقرأ على نطاق واسع . كذلك لم تصدر ادانة لكتاب جاليليو « رسائل شمسية » رغم أن المجلس البابوي نظر في أمرها في جلسة ٢٥ نوفمبر ١٦١٥ . والمؤرخون يفسرون هذا التفاضى بعدم رغبة الفاتيكان في اغضاب آل مديتشي سادة فلورنسا او ارهاق عالم كبير .

ومع ذلك ففي ٢٥ فبراير ١٦١٦ كلف البابا بول الخامس الكاردينال بلارمين باستدعاء جاليليو واخطاره بضرورة التخلي عن النظريات التي

أدائها الفاتيكان ، وفي حالة رفضه الانصياع لهذا الاخطار فقد كلف البابا الكاردينال بلارمين بأن « يحذره » في حضور موثق وشهود أن يكف عن تعليم هذه النظريات المدانة أو أن يحاول اثباتها عملياً ، أى باستخدام التليسكوب .

وفي ٢٦ فبراير ١٦١٦ استدعى بلارمين جاليليو ، وفي حضور القوميسير البابوي طالبه في محضر بالتخلي عن نظرياته ، ثم أمره بعدها مباشرة بالامتناع عن تعلم أو تعليم أو عرض هذه النظريات شفاهاً أو كتابة « بأية صورة من الصور » . ويقول المحضر ان جاليليو وافق ووعد بالامتناع عن كل ما حرم عليه من أفكار ، وبالتالي لم يكن هناك مجال للإشارة الى عقوبة السجن . اذا خالف التحذير .

كان هذا المحضر محضراً خطيراً رغم انه غير موقع ، لانه كان الأساس الذي بنيت عليه محاكمة جاليليو في ١٦٣٣ . وهناك من يقول بأنه محضر ملفق في ١٦٣٣ اثناء المحاكمة وليس المحضر الاصلى المدون في ١٦١٦ ، لأن فيه خروجاً على القرار البابوي الذي لا يذكر « التحذير » من تعليم نظريات الفلك الجديدة الا في حالة رفض جاليليو « التخلي » عن هذه النظريات . ثم ان القرار البابوي لم ترد فيه عبارة « بأية صورة من الصور » التي يتضح فيها التزيد بقصد التصيد . ولكن فحص الوثائق بالأشعة فوق البنفسجية قد أثبت الآن أن المحضر مدون على ورق من نفس أوراق قضية ١٦١٦ . ومع ذلك فهذا لا ينفي أن الكاردينال بلارمين المتخصص في صيد الزنادقة أو سواه سحب المحضر الاصلى في تلك الفترة نفسها ووضع مكانه هذا المحضر الغريب الذي لا يحمل توقيعاً بقصد استخدامه مستقبلاً كدليل على عصيان جاليليو للأمر البابوي . . والمعنى الحقيقي لقرار البابا هو أن جاليليو لو شاء التمسك بنظرية كوبرنيك فالكنيسة تنذره ان يحتفظ بأفكاره لنفسه ولا ينشرها بين الناس . « فالتحذير » ينصب على حالة واحدة وهي الترويج لنظريات الفلك الجديدة .

والمفهوم من المحضر أن جاليليو وعد بالطاعة أمر الكنيسة أو البابا فيما يمس تعليم الفلك الجديد لا أن جاليليو تراجع عن معتقداته . ومع ذلك فقد اتخذ أعداء جاليليو من هذا المحضر وسيلة للتشهير به ، فذهبوا يشيرون في كل مكان أن جاليليو تراجع عن كل نظرياته السابقة أمام الكاردينال بلارمين لاثبات ضعفه الخلقى أو زيفه العلمى ، حتى اضطر جاليليو أن يحصل على شهادة من الكاردينال بلارمين تبرئ « السنيور جاليليو من التراجع عن

آرائه أو نظرياته أمامنا أو أمام الغير ، في روما أو في غيرها ، في حدود علمنا » ، وتشهد بأن :

« كل ما حدث هو أنه أبلغ بقرار البابا الذى أعلنه مجلس التحريم المقدس ، وهو القرار الذى جاء فيه أن النظرية المنسوبة الى كوبرنيك والقائلة بأن الأرض تدور حول الشمس بينما الشمس ثابتة في مركز الكون دون أن تتحرك من الشرق الى الغرب ، نظرية منافية للكتاب المقدس وبناء عليه لا يجوز الدفاع عنها ولا اعتناقها » .

والشهادة مؤرخة ٢٦ مايو ١٦١٦ وتقول ان الغرض منها تبرئة جاليليو ازاء المشهرين به .

عاد جاليليو الى فلورنسا في يونيو ١٦١٦ ، وتلت عودته سنوات من الصمت . . كان في ١٦١٦ قد نشر كتابه « حديث عن المد والجزر » . وعاد جاليليو الى دراساته الفلكية ، فأخذ يتعمق في رصد توابع جوبيتر بالتليسكوب ورصد كسوفها وخسوفها ومحاقتها وتقابلها وتقاطعها للاعتماد عليها في تحديد خطوط الطول والعرض بدلا من الاعتماد على كسوف الشمس وهو نادر الوقوع .

وفي نوفمبر ١٦١٨ ظهرت ثلاثة مذنبات . . والقى جاليليو أمام أكاديمية فلورنسا بحثا اسمه « حديث المذنبات » رأى فيه أنها مجرد ظواهر بصرية مثل قوس قزح أو الهالات ، ثم تبين فساد رأيه .

وفي ١٦٢١ مات راعيه كوسيمو دى مديتشى الثانى غراندوق توسكانيا . وفي ١٦٢٣ انتخب صديقه الكاردينال بربريني بابا ، واتخذ اسم أوربان الثامن وذلك بعد وفاة بول الخامس . وفي ١٦٢٣ نشرت أكاديمية روما لجاليليو كتابه عن المذنبات بعنوان « المجتهد » وأهدته للبابا الجديد ، وهو كتاب مليء بالأخطاء . ولكن اعداء جاليليو كفوا عن ايذائه بسبب صداقته للبابا الجديد .

وقرر جاليليو ان يزور البابا أوربان الثامن شخصا بعد تهنتته ، فوصل روما في ٢٣ أبريل ١٦٢٤ ، وحاول جاليليو أن يجعل البابا يعدل موقف الكنيسة من نظرية كوبرنيك ، ولكنه لم يستطع أن يستخلص منه تصريحاً واحداً في هذا الاتجاه رغم أن البابا استقبله ست مرات خلال شهر ونصف . وكان أوربان الثامن يقول : حتى ولو اشارت دلائل عديدة الى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، فإنه من الممكن نظريا للقدره الالهية المطلقة أن تعكس الأمر بمعجزة وتصل الى نفس النتائج فتجعل الشمس تدور

حول الأرض كما يقول الكتاب المقدس . واشتهرت نظرية « المعجزة الالهية »
في تاريخ الفلك بأنها نظرية أوربان الثامن .

وأعلن الكاردينال زولر : « أن الكنيسة المقدسة لم تحكم بادانة نظرية
مركزية الشمس ولم تفكر في تحريمها بوصفها هرطقة ، وإنما أدانتها لمجرد
كونها اجترأ . . ومع ذلك فهناك ما يدل على أنه يمكن لأحد أن يثبت صحة
هذه النظرية صحة قاطعة » . وبدأ الأمل يراود جاليليو بإمكان تعديل موقف
الكنيسة .

وفي هذه الاثناء اخترع جاليليو الميكروسكوب عام ١٦٢٤ .

ومنذ أزمة ١٦١٦ كان فرانثيسكو أنجولى ، وهو من أشد أعداء
الكوبرنيكية . . قد نشر هجوما ضاريا على الفلك الجديد . وبعد تولى أوربان
الثامن كتب جاليليو « الرد على أنجولى » ، وهو رسالة مطولة في الدفاع عن
الكوبرنيكية لم تطبع ولم يرسلها جاليليو الى أنجولى ، ولكن يبدو أنها كانت
موجهة الى البابا وأنها كانت تتداول في الأوساط العلمية . وقد عاد فيها
جاليليو الى الدفاع عن الفلك الجديد ولكن بلغة أشد احتياطا عن ذي قبل
ومع عدم التعرض لللاهوت .

وفي ١٦٢٧ بدأت تتكاثر عليه المشاكل العائلية ، فعاد أخوه ميكلانجلو
بأسرته الكبيرة المكونة من زوجة وسبعة أبناء ، وعاش عبئا على جاليليو ،
ثم مات ميكلانجلو في يناير ١٦٣١ فازداد العبء . . وفي ١٦٢٨ حصل ابنه
فنشنتزيو على ليسانس الحقوق في جامعة بيزا وتزوج في ١٦٢٩ . وفي
١٦٣١ أجر جاليليو فيللا اسمها « الجوهرة » بجوار دير سان ماتيو ليكون
على مقربة من بنتيه الراهبتين . . وهى الفيلا التى حددت الكنيسة اقامته
فيها في ديسمبر ١٦٣٣ بأمر البابا .

وفي يناير ١٦٣٠ اتم جاليليو كتابه عن « المد والجزر » بعد ست
سنوات من العمل ، وهو في صورة حوار . وسمع جاليليو أن أوربان الثامن
استقبل كامبانيلا وقال له عن تحريم كوبرنيك : « ان مثل هذه الفكرة لم تدخل
في نوايانا . . ولو كان الأمر يتوقف علينا لما صدر هذا القرار » .

وفي أواخر مارس ١٦٣٠ ذهب جاليليو الى روما ليعرض مخطوطه على
السلطات الكنسية بقصد أن تقر نشره . وكان متفقا أن تنشره أكاديمية
روما ولكن موت مؤسسها الأمير تشيزي فجأة جعل الاكاديمية تتنصل من نشر
الكتاب رغم أن جاليليو حصل على موافقة مبدئية من الكنيسة على هذا
النشر . واقتنع جاليليو بنشر كتابه في فلورنسا حيث كان من السهل عليه
الحصول على ختم الرقيب المدني ، انتظارا لرأى كنيسة روما النهائى .

وهنا تحرك أعداء جاليليو فطلبت روما نص الكتاب لتفحصه من

جديد . وخاف جاليليو واقترح أن يعرض النص على ممثل التفتيش الكنسي في فلورنسا ، فوافقت روما بشرط أن يعرض عليها نص المقدمة والخاتمة .

وتلكت روما في مراجعة الكتاب ، ولكنها فرغت أخيرا من ملاحظاتها وتعديلاتها بضغط شديد من سفير توسكانيا في روما واسمه نيكوليني ، واشترطت عدم ذكر « المد والجزر » في عنوان الكتاب ، وابلغت كل ذلك الى مندوب التفتيش في فلورنسا في يوليو ١٦٣١ ، بل وكتبت للكتاب مسودة مقدمة لا يخرج جاليليو عن معانيها . وأخيرا صدر الكتاب في ٢١ فبراير ١٦٣٢ في فلورنسا بعنوان : « حوار النظامين العظيمين ، البطلمي والكوبرنيكي » .

وفي هذا الحوار تشترك ثلاث شخصيات منها شخصيتان حقيقيتان ، هما نبيل من فلورنسا اسمه فيليو سالفياتي (١٥٨٣-١٦١٤) كان جاليليو قد أهدى اليه كتابه « رسائل شمسية » ، ونبيل من البندقية اسمه ساجريدو (١٥٧١ — ١٦٢٠) ، أما الشخصية الثالثة فهي شخصية وهمية اسمها « سمبليتيو » بمعنى « الساذج » وهو نموذج للمفكر الأرسطاطاليسي المتحجر . ويدور الحوار بينهم لمدة أربعة أيام في قصر ساجريدو .

وفي اليوم الاول يبدأ الحوار بنقد نظرية كمال بعض الأرقام عند المشائين من أتباع أرسطو وعند فيثاغورس وأتباعه ، مثل العدد ٣ . ويتناول نقد الفيزياء الأرسطاطاليسية القائمة على التمييز بين الأرض والسماء ومحاولة أرسطو اثبات أن مركز الأرض هو مركز الكون . أما اليومان الثاني والثالث فالحوار فيهما يدور حول دوران الأرض اليومى حول محورها ودورانها السنوى حول الشمس . وفيه تسفيه لأرسطو وبطليموس ونيكو براهي وانتصار لكوبرنيك . وكذلك يدور حول حركة الكواكب السيارة وتوابعها . أما حوار اليوم الرابع فقد كان يدور حول المد والجزر . وفيه يهاجم جاليليو نظرية كبلر في جذب القمر لمياه الأرض . وكان جاليليو يرى أن المد والجزر نتيجتان ميكانيكيتان لدورتى الأرض . . وهو رأى خاطيء طبعا .

ولم يكن هذا الحوار عملا فلكيا ولا فيزيائيا موجها للعلماء بقدر ما كان عرضا أدبيا تعليميا تنويريا رائعا موجها للمثقفين العاديين . وقد كتب باللغة الإيطالية الدارجة وليس باللاتينية ليكون في متناول أفهام الجميع .

وكان لجاليليو هدفان من كتابه « حوار النظامين العظيمين » : أولهما هو نشر نظريات تلك الحديث بين المثقفين حتى يتخلوا عن الخرافات الفلكية التي ورثوها عن العصور الوسطى وعن العالم القديم . أما الهدف الثاني فقد كان تحذير الكنيسة من خطورة الجمود والاستمرار في تبني النظريات الخاطئة ومعارضة العلم الحديث . . وقد حقق جاليليو هدفه الأول . أما هدفه الثاني فقد جاء بنتيجة عكسية .

مأساة عالم

□ بمجرد أن طبع جاليليو كتابه الشهير « حوار النظامين العظيمين : نظام بطليموس ونظام كوبرنيك » بدأت المؤامرات تحاك من حوله يغذيها الأب شاينر وأعداء جاليليو من الآباء والكرادلة الجزويت المهتمين بالفلك القديم والجديد . واقنع الدساسون البابا أن جاليليو فصل شخصية « الساذج » في محاوراته على سمته ، بسبب نظرية أوربان الثامن بأن القدرة الالهية جعلت الشمس تدور حول الأرض وغيرت دورة الأفلak على سبيل المعجزة لتثبت قدرة الله على خرق قوانين الطبيعة .

بل أكثر من هذا . فقد راجت شائعة تقول أن صدور الكتاب عن « دار السمكات الثلاث » في فلورنسا كان فيه تعريض باطنى بالبابا لأن فيه إشارة رمزية الى أولاد أخته الثلاثة الذين كان يحايبهم البابا وينهب لهم املاك الكنيسة لكي يثروا . وكان البابا أوربان الثامن مشهورا بأنه واسع الثراء وبالفعل بدأ الفاتيكان يتحرى عما في هذا الرمز من معنى .

وهكذا غضب البابا على جاليليو رغم أنه كان من أصدقائه . ولكن الاكتفاء بهذه التفسيرات الشخصية تبسيط للأمور . فقد كانت الصورة أعقد من كل ذلك لأن فيها جانبا سياسيا حرض البابا لاذلال غراندوق توسكانيا ، وعاصمتها فلورنسا . . فقد كان البابا يتبع سياسة موالية لفرنسا ومعادية لحلف أسرة هابسبورج ولأسبانيا ، وفي ١٦٣٢ تجرأ الكاردينال جاسبار بورجيا سفير أسبانيا واتهم البابا أوربان الثامن علنا في اجتماع عام بأنه يحمى الكفار وأنه ناقص في غيرته « الرسولية » وأنه ليس أهلا للبابوية كما كان سلفه . وكان أوربان الثامن سىء السمعة على المستوى الشعبى بسبب الفساد والتكالب على المساديات ومحابة أقربائه .

كان البابا في موقف خطر فأخذ يستأسد في وجوه من كان يدخلهم في عداد الأعداء . . وقد كان غراندوق توسكانيا يدخل في عداد الأعداء بهذا المقياس لأنه كان من أنصار التحالف مع المانيا وأسبانيا لا مع فرنسا ، قائدة الحركة الانسانية في أوربا في القرن السادس عشر . وكانت وسيلة البابا في ذلك هي اذلال غراندوق توسكانيا بابداء الصرامة في معاملة أكبر عالم يرباه الغراندوق في بلاطه . . ألا وهو جاليليو .

وبدا الردع بخطاب كتبه الاب ريكاردى الى قوميسر التفتيش في فلورنسا ، ويدعى ايجيدى ، يقول ريكاردى فيه ان كتاب جاليليو وصل وهو يشتمل على اشياء عديدة لا يرضى عنها « سادتنا » ، وهم على كل حال يرغبون في اجراء تعديلات في الكتاب : « وبناء عليه فهذا امر من البابا المعظم ، ان يصادر هذا الكتاب ، وان يمنع من التداول حتى يخطر المقر البابوى بمواطن التصويب . واهم من هذا وذاك الا يسمح للكتاب بالخروج من فلورنسا . هذا امر البابا ولكن لا تذكر الا اسمى في هذا الشأن ، على ان تتفاهم مع القاصد الرسولى في فلورنسا وان تتصرف بمنتهى اللين حتى تصل الى الغرض المقصود » . لقد كانت صداقة جاليليو للبابا تستدعى هذا اللين .

وفي ٧ اغسطس ١٦٣٢ ارسل الاب ريكاردى خطابا آخر مؤكدا ضرورة استعمال منتهى اللين مع الاستفسار عن عدد النسخ المطبوعة وعن مكانها حتى يمكن جمعها . واحتج غراندوق توسكانيا على هذه المصادرة واعتبرها عدوانا عليه ، فكتب احد وزرائه الى سفير توسكانيا في روما في ٢٤ اغسطس ١٦٣٢ يقول ان كتاب جاليليو قدمه مؤلفه بنفسه الى السلطات الدينية والكتاب يحمل كل اختام الموافقة المطلوبة للنشر ، ويذكر ان الكتاب قرىء ثم اعيدت قراءته وتم تصحيحه وتعديله بالحذف والاضافة بمنتهى العناية ، بل ان المؤلف نفسه هو الذى كان يلح في اجراء التصويبات والتعديلات اللازمة ، ولذا فان قرار المصادرة قرار غير مفهوم .

وكانت اول خطوة اتخذها الفاتيكان احالة الكتاب الى لجنة خبراء لتقرر اذا ما كان الكتاب يحبذ الكوبرنيكية فعلا كما يدعى خصوم جاليليو ، برغم المقدمة والخاتمة اللتين تدينان الكوبرنيكية ، وهما من اضافات رجال الكنيسة في روما ، وقد قبلهما جاليليو تفاديا لكل سوء ظن .

وبعرض رأى الخبراء على المجلس البابوى بدأت محاكمة جاليليو التى انتهت في ١٦٣٣ بسجنه وهو في سن السبعين ثم بتحديد اقامته مدى الحياة .

وفي ٢٥ سبتمبر ١٦٣٢ كتب الكاردينال انطونيو بربريني ، اخو البابا ، الى مفوض التفتيش في فلورنسا ، يأمره باستدعاء جاليليو الى مكان فيه شهود وموثق ، دون ان يوضح له سبب حضور الشهود ، ثم ابلاغه بأمر حضوره الى روما في خلال شهر اكتوبر ليكون تحت تصرف القوميسر العام للمقر البابوى . وقد تم هذا الاستدعاء في اول اكتوبر ١٦٣٢ ، ودون جاليليو علمه بهذا الاستدعاء ووعده بالمثل بنفس راضية .

وكانت نفس جاليليو راضية الى حد أنه كتب الرسائل لكل أصدقائه الأقوياء يطلب منهم التوسط لتأجيل سفره الى روما بسبب اعتلال صحته وشيخوخته وانتشار الطاعون في الطريق من فلورنسا الى روما . كل هذا لم يجد شيئا . كذلك عبثا توسط السفير نيكوليني أن يتم الاستجواب في فلورنسا بدلا من روما .

وفي أول يناير ١٦٣٣ أرسل الكاردينال أنطونيو بربريني الى قومييسر التفتيش في فلورنسا يستحثه أن يحسم الأمر ، قائلا :

« ان مجتمعنا البابوي المقدس لا يقر عصيان جاليليو جاليلي للأمر الصادر اليه بالحضور الى روما على وجه السرعة ، ولا ينبغي له ان يتعلل بقسوة الشتاء لأنه المسئول عن اضطراره للسفر الآن . فان هو حاول أن يتستر للعصيان بدعوى المرض فانه سوف يسيء التصرف . ان قداسة البابا ونيافة الكرادلة الذين اتحدث باسمهم لا يريدون التسامح مع هذه الادعاءات بأي حال من الأحوال . وبناء عليه فيجب على نيافتك ابلاغ جاليليو انه اذا لم يصعد بالأمر فورا ، فسوف ترسل الى فلورنسا أطباء ليقبضوا عليه ويقودوه مكبلا بالأغلال الى سجون هذه المحكمة العليا ، لأننا نرى أنه حتى الآن قد أساء استغلال طيبة مجتمعنا الذي سيتكفل بكافة نفقات هذه القضية . فتفضلوا بالعمل بما هو محدد في هذا الأمر وابلاغنا بتنفيذه » .

وحاول جاليليو التسوية مرة أخرى ، وهرع الى غراندوق توسكانيا لبستنجد به ، ولكن الغراندوق تملص بلباقة ووعد جاليليو بأن يضع تحت تصرفه مركبة من مركباته وسائقا يتصف بالتكتم . ثم أن سمو الغراندوق يود أن ينزل جاليليو ضيفا على السفير نيكوليني لمدة شهر حتى تنتهي قضيته . ما أبعد الفرق بين هذا الغراندوق الجديد والغراندوق كوسيمو دي مديتشى الثانى الذى كان يحمى جاليليو فى بلاطه .

وهكذا سافر جاليليو الى روما فى ٢٠ يناير ١٦٣٣ فى زمهرير الشتاء ، فوصلها فى ١٣ فبراير وهو فى غاية الاجهاد . ولكنه وجد عند السفير وزوجته حفاوة بالغة ودفئا عظيما . وحين انقضى شهر الضيافة على نفقة الغراندوق أصر السفير وزوجته أن يكون جاليليو ضيفهما الشخصى .

وبعد مشقة سمحت الكنيسة لجاليليو بالاقامة فى دار السفير نيكوليني بدلا من اعتقاله على الفور واحتجازه فى سجن الفاتيكان ، ولكنها اشترطت عليه ألا يغادر المكان أو يستقبل أصدقاءه . وبقي هناك نحو شهرين

دون أن يستجد شيء ما . وأرسل له الفاتيكان كاردينالا في الظاهر ليواسيه ، ولكن في الواقع ليتجسس عليه ، حتى يعرف منه خطط دفاعه فيرتب الفاتيكان التهم المناسبة .

كان كل شيء يدور في تكتم كامل . . وحاول السفير نيكوليني أن يعرف الموضوع بوسائله الخاصة ، وأخيرا عرف أن الاتهام يدور حول خرق التعهد الذى قطعه جاليليو على نفسه عام ١٦١٦ في المواجهة بينه وبين الكاردينال بيلارمين بأمر البابا الا يدعو لنظرية كوبرنيك في الفلك او يدافع عنها ، كما يدور حول تجاهله في كتابه الأخير « حوار النظامين العظيمين » للتحذير البابوى المثبت في محضر ١٦١٦ وهو المحضر الخالى من التوقيعات . وأبلغ السفير نيكوليني غراندوق توسكانيا بذلك .

ولما علم جاليليو بهذا استهان بالأمر وظن أنه بئامن . وهذا ما دفع البعض الى الاعتقاد أن محضر التحذير محضر مزيف سواء في ١٦١٦ او في ١٦٣٣ لاضطهاد جاليليو بتهمة الاستخفاف بالتحذير البابوى .

بل لقد بلغ من سذاجة جاليليو أنه أخذ يتصور أن هذه سوف تكون فرصة مواتية له للدفاع عن قضية دوران الأرض ولاقناع الكرادلة بالتخلي عن آرائهم الجامدة ، واقناع القضاة بأنه ضحية مؤامرة حاكها له اعداؤه من العلماء الجزويت مثل الأب شاينر ، الذين كانوا يسرقون أفكاره قبل تدوينها وينسبونها الى أنفسهم .

أما السفير نيكوليني فقد صرح جاليليو بالخطر المحقق به ، ونصحه بالأيتكلم في دفاعه عن نظرية كوبرنيك ودوران الأرض أو أن يدافع عن آرائه العلمية ، بل أن يقفل كل هذه الأبواب المفتوحة وأن يوافق الكنيسة على كل ما تقوله . بل ان السفير نفسه ، رغم صداقته لجاليليو ، لم يفهم سر اصرار جاليليو على « اعطاء أهمية خاصة لموضوع دوران الأرض » . وكان أحيانا يراه غاية في الاكتئاب الى حد يدفعه للقلق على حياته .

وفي أوائل ابريل عرف نيكوليني أن جاليليو سوف يستدعى وشيكا الى المقر البابوى حيث يبقى متحفظا عليه لأيام عددها غير معروف ، وحذر هذا السفير الواقعى العليم ببواطن الأمور هذا العالم المثالى الجليل الذى لم يكن له الا حلم واحد هو ازالة الحواجز بين العلم والدين واقناع الكنيسة بقبول العلم الحديث ، حذره من أى كلام قد يزيد الموقف التهابا .

وفي ١٢ ابريل ١٦٣٣ قدم جاليليو نفسه للمقر البابوى ، ولم يكن يعلم أنه سيحتجز هناك الى آخر الشهر . ولم تكن هناك مناقشات

علمية أو فلسفية بل كانت هناك مناورات مأكرة للايقاع بجاليليو في فخ الكفر والخروج عن طاعة الكنيسة والحنث بالعهد ، ومناورات ساذجة من جانب جاليليو المسكين للفرار من هذا الفخ .

كانت مشكلة الكنيسة هي أن كتاب « حوار النظامين العظيمين » قد صدر بكل الموافقات التي اقتضتها الكنيسة وبكل الشروط التي فرضتها ، وكان اهتمام جاليليو بالحصول على تلك الموافقات وبقبول كل تلك التعديلات أن ذلك سوف يعنى اعطاء الضوء الأخضر للعلماء المهتمين بالفلك الجديد وأن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لن تتعرض لهم بالمنع في المستقبل .

ولم تجد الكنيسة حلا الا استغلال محضر ٢٦ فبراير ١٦١٦ بين جاليليو والكاردينال بيلارمين ، واتهام جاليليو بخرق نصوصه بأنه قصد عامدا متعمدا عدم ابلاغ الأب ريكاردى رقيب الفاتيكان بوجود هذا التحذير السابق (!) وكانت الصعوبة هي أن جاليليو لم يوقع هذا المحضر كما أن الشاهد البابوى لم يوقعه ، فكان الايقاع يتركز في استخلاص اعتراف شفوى من جاليليو في ١٦٣٣ بوجود هذا الحظر والتحذير في ١٦١٦ وبعلمه بهما وقبوله لهما . وانكر جاليليو وجود هذا « التحذير » ، وسماه « ابلاغا » بقرار البابا ، وانكر وجود شهود ، وانما قال انه كان هناك رهبان كثيرون يروحون ويجيئون في القاعة . ولكنه اعترف بوجود القرار البابوى . وعندما سئل : لماذا لم يبلغ ذلك للأب ريكاردى حين سلمه المخطوط لمراقبته والحصول على تأشيرة « لا مانع من النشر » ، اجاب جاليليو بأنه لم ير ضرورة لذلك ، ثم ان كتابه يقول ان أدلة كوبرنيك غير دامغة . وبهذه العبارة الأخيرة افسد جاليليو دفاعه .

وكانت جلسة الاستجواب الثانية في ٣٠ ابريل ١٦٣٣ . وظل جاليليو سجيناً لا في سجن الفاتيكان ، ولكن في جناح الكاردينال المحقق ، وقد كان جناحا مريحا . وفي جلسة ٣٠ ابريل اعترف جاليليو بأن في كتابه اتجاهات كوبرنيكية ونسب الى نفسه غرور العلماء وحبهم للمعان ولو على حساب الحقيقة . وحين اقر جاليليو بهذا الاعتراف أفرج عنه على أن يلزم دار السفير لا يبارحها .

وفي ١٠ مايو استدعى جاليليو من جديد للمقر البسابوى ليقدم دفاعا مكتوبا خلال ثمانية ايام وكان قد اعد مذكرة في ذلك قدمها للمحكمة و اضاف : « وكل ما بقى لى ان اقلوه هو انى اترك نفسى في كل شيء لعدالة المحكمة واضع نفسى تحت رحمتها المعروفة للجميع » .

وهكذا اكتملت أدلة ادانة جاليليو باعتراغه بمحضر ٢٦ فبراير ١٦١٦ .
ومر شهر آخر للبحث في « نوايا جاليليو » قبل صدور الحكم . وفي
٢٠ يونيو استدعى لاستجوابه في « معتقداته » ، وفي ٢١ يونيو تعرض لما
يسمى « الامتحان الصعب » ، وكان هذا الامتحان يبيح تعذيب المتهمين
ليقروا بالحقيقة كاملة ، ولكن غير ثابت أن جاليليو تعرض لهذا التعذيب ،
وكانت كل اجابات جاليليو انكارية ، قال : « أنا لا اشارك في رأى كوبرنيك ،
ولم اشارك فيه منذ أن ابلغت رسميا بوجوب التخلّي عنه . ولم يبقى الا
انى هنا بين ايديكم فافعلوا بى ما تشاءون » .

بعد هذا لم يفرج عن جاليليو بل احتجز في أحد سجون البابوية . ومن
هناك نقل في ٢٢ يونيو الى القاعة الكبرى في دير الدومنيكان في سانتا ماريا ديلا
مينرنا . وأمام المجمع المقدس قرئ عليه الحكم : وهو يتضمن مصادرة كتاب
« حوار النظامين العظيمين » والحكم بالسجن على مؤلفه رهن رغبة البابا ،
كما حكم على جاليليو أن يقرأ مرة كل اسبوع مزامير التوبة السبعة لمدة
ثلاثة شهور ، واحتفظ البابا لنفسه بحق تخفيف الحكم أو تعديله أو الغائه
جملة .

وبحسب تقاليد ذلك الزمان ، جثا جاليليو على ركبتيه وأعلن
الاستنكار التالى :

« أنا جاليليو بن فنتشنزيو جاليلي من فلورنسا ، البالغ من العمر
سبعين عاما ، الحاضر امامكم والجاثى في حضرتكم ، يا نيافة الكرادلة وقضاة
التفتيش العاملين باسم كل العالم المسيحي ضد كل انحرافات الزندقة ،
وأمام عيني الانجيل المقدس الذى أمسكه بكلتا يدي ، أقسم بأنى كنت
دائما أؤمن ، وبأنى الآن أؤمن ، وبمعونة الله سوف أؤمن دائما بكل ما تقبله
الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المقدسة ، وبكل ما تعظ به ، وبكل
ما تعلمه .

« وهذا المجمع البابوى نفسه سبق أن وجه الى رسميا وقانونيا
امرا بالتخلّي تماما عن الراى الزائف القائل بأن الشمس هى مركز العالم
وإنها لا تنتقل من مكانها . وحظر على تصديق هذا المذهب الزائف أو الدفاع
عنه أو تعليمه بأية صورة من الصور ، شفاها أو كتابة . .

« ورغبة منى في أن اقتلع من أذهان نيافتكم ومن أذهان كل المسيحيين
المؤمنين هذه الريبة القوية في عقيدتى ، وهى ريبة في موضعها ، غانى
بقلب صادق وبنية خالصة تماما ، استنكر هذه الأخطاء والزندقات المذكورة ،

وبوجه عام كل الأخطاء والزندقات والمعتقدات المتعارضة مع الكنيسة المقدسة ... الخ . تحرر هذا في دير مينرغا في ٢٢ يونيو ١٦٣٣ » .

وهناك قول شائع ولكنه غير موثق بأن جاليليو ما أن فرغ من تلاوة هذا الاستنكار حتى نهض وأقفا وضرب الأرض بقدمه صائحا « اييور سي مووى » ، ومعناها « ومع ذلك فهي تدور » ، وهى من أشهر العبارات التى دخلت الفولكلور العلمى .

وبمجرد صدور هذا الحكم خففه على الفور الكاردينال بربرينى الى تحديد اقامة جاليليو في حديقة ترينيتيه دى مون حيث نقله نيكولينى سفير توسكانيا . وفي ٣٠ يونيو وافق البابا على طلب السفير أن تحدد اقامة جاليليو لا في روما ولكن في توسكانيا حيث ينزل ضيفا سجيناً على كبير أساقفة مدينة سيينا وهو من أصدقاء جاليليو . وهكذا رحل جاليليو عن روما في ٦ يوليو ١٦٣٣ ووصل سيينا بعد ثلاثة أيام . وقد مكثه هذا الترتيب من رعاية مصالحه في توسكانيا ومن الحياة بالقرب من ابنتيه الراهبتين .

وهكذا اقتربنا من النهاية ، فقد قضى جاليليو السنوات التسع الأخيرة من حياته في عزلة نسبية عاكفا على بحوثه العلمية النظرية بعد أن تخلى تماماً عن كل محاولة لتنوير الناس وزيادة وعيهم بالفلك الجديد (فقد توفى في بيته ببلدة ارتشيتري في ٨ يناير ١٦٤٢ بعد أن أصيب بالعمى في أواخر عمره) .

بدأ جاليليو حياته الجديدة في سيينا يملؤه الشعور بالاحباط والمرارة ، ولكن صديقه الكريم ، اسكانيو بيكولومينى كبير أساقفة سيينا ، سرعان ما جعله يحس بأن القصر الاسقفى لم يكن معتقلاً بل جامعة حرة . فأخذ ينظم له « زيارات مستمرة » يقوم بها صفوة الناس لجاليليو ليستفسروا منه عن المشكلات العلمية . فاذا بجناح جاليليو يتحول الى ندوة علمية دائمة . واسترد جاليليو ثقته في نفسه لكثرة ما رأى من تبجيل الناس له فزال عنه الاكتئاب — وأقبل على البحث العلمى من جديد .

وعاد أعباء جاليليو للكيد له وكثرت شكاواهم للفاتيكان تتهمة وتتهم كبير الأساقفة بنشر الزندقة في سيينا ، ولكنها كانت شكاوى من مجهولين . ولم يستطع الفاتيكان تجاهل هذا اللفظ فوجد الحل في ابعاد جاليليو عن سيينا . وفي أول ديسمبر ١٦٣٣ قرر البابا اجابة جاليليو الى مطلبه ، وهو أن تحدد اقامته في بيته في فيللا ارتشيتري بجوار فلورنسا حيث يمكن لابنتيه

الراهبتين أن تزوراه يوميا . وعرفت نفس جاليليو السكون ولكنه سرعان ما رزىء في ربيع ١٦٣٤ بوفاة ابنته الكبرى التي كانت تحيطه برعايتها . فعاد الى عزلته المريرة لان ابنته الصغرى كانت من التفاهة بحيث لم تكن تبدى اكتراثا لما كان يجرى لابيها العظيم .

وكان النحصر المضروب حول جاليليو حصارا جديا . حتى تلامذته القدامى عجزوا عن زيارته الا بأذن من روما وفي حضور مندوب عن الكنيسة ، تحسبا لتجدد مدرسة جاليليو . ومع ذلك فقد نجح في زيارته عديد من العلماء الأجانب ما بين ١٦٣٤ و ١٦٣٨ وانشغل جاليليو في اكداس من المراسلات مع العلماء والمترجمين والناشرين خارج ايطاليا (في فرنسا وهولندا وألمانيا) . وفي ١٦٣٨ صدر في لايدن كتاب جاليليو المعروف « حوار العلوم الحديثة » (في الميكانيكا) .

وانطفأ نور عينه اليمنى ثم لم يلبث أن فقد الابصار تماما . وفي ١٦٣٩ سمحت الكنيسة لعالم شاب اسمه فيفياني أن يرافق جاليليو في أيامه الأخيرة ويدون ما يلقيه من ملاحظات ونظريات علمية . وفي أكتوبر ١٦٤١ سمحت الكنيسة لعالم شاب آخر ، هو العلامة الشهير توريتشيللى أن يلزم جاليليو أيضا في أيامه الأخيرة . وقد حفظ لنا هذان العالمان الشابان كثيرا مما أملاه جاليليو في ختام حياته .

ولم يرتفع غضب الكنيسة عن جاليليو حتى بعد وفاته ، فرفضت أن تقام له مقبرة تذكارية في فلورنسا ، فلم تقم هذه المقبرة الا عام ١٧٣٧ ، أى بعد وفاته بمائة عام .

أما غضب الكنيسة على أفكار جاليليو فقد استمر حتى ١٧٥٧ ، وهو تاريخ سحب قرار تحريم الأعمال التي تعلم الناس نظرية دوران الأرض حول الشمس .



كامبانيلا

CAMPANELLA

١٥٦٨ - ١٦٣٩



المدينة الفاضلة

□ في عصر النهضة الأوروبية شاع بين المثقفين نوع من الأدب الاجتماعي والسياسي والأخلاقي هو أدب « المدينة الفاضلة » ، وهو تصور أدبي فلسفي لقيام الجمهورية المثلى التي يتحقق فيها للإنسان أقصى الرقي والسعادة وسلام النفس ، قياساً على تجربة أفلاطون في « الجمهورية » ، وعلى تجربة القديس أوغسطين في « مدينة الله » ، وعلى تجربة الفارابي في « المدينة الفاضلة » ، وربما تجربة ابن طفيل في « حي بن يقظان » ، وعلى تجربة توماس مور في « المدينة الفاضلة » (يوتوبيا أو الطوبى) ، وعلى تجربة فرانسيس بيكون في « أطلنطيس الجديدة » ، وغيرها .

وقد أضاف كامبانيلا تجربته الهامة في « مدينة الشمس » إلى أحلام الفلاسفة في تصور نظام اجتماعي يقيم الجنة على الأرض أو يحقق الفردوس الأرضي كما يقولون .

ولد جيوفاني دومنيكو كامبانيلا عام ١٥٦٨ في بلدة سستيلو من أعمال إقليم كالابريا في جنوب إيطاليا . وكان غلاماً معجزة ، ففى سن الثالثة عشرة كان قد قرأ أكثر أعمال التراث اللاتيني في عصره الكلاسيكي باللاتينية وفي ١٥٨٢ دخل في سن الرابعة عشرة دير بلاكانيكا والتحق بسلك الرهبان الدومنيكان بعد عام وسمى نفسه الفرير (الأخ) توماسو كامبانيلا ، تيمناً باسم الفقيه الديني الشهير القديس توماس الأكويني .

درس كامبانيلا العلوم والفلسفة في مدرسة الفقيه تيليسيو في مورجنثيا ، كما درس اللاهوت في كوزنتزا بعد أن ترك دير عام ١٥٨٨ ، أي وهو في سن العشرين . وفي معهد كوزنتزا كان الرهبان يتداولون الكتب المحرمة ، وعندهم قرأ كامبانيلا أعمال الفقيه تيليسيو ، وهو معلم كبير الشأن في جنوب إيطاليا كان مولده في بلدة كوزنتزا . وكانت أهمية تيليسيو أنه كان ينادى باستخلاص الحقيقة من « طبيعة الأشياء » ، وليس

من العنينة أو اقوال الثقات ولا بمجرد الدليل النظري . وكان هذا من بدايات المنهج العلمى الحديث القائم على المشاهدة والتجربة كما نجد فى المنهج الأمبريقي الذى وضعه فرانسيس بيكون . وكان كامبانيلا تلميذ تيليسيو الروحى رغم أنه لم يلتق به أبدا .

ومنذ شبابه الأول كان كامبانيلا ، مثل جوردانو برونو وفرانسيس بيكون ، يرى أن أرسطو كان بمثابة الوحش فى عالم الفكر أو بمثابة التنين الذى يحتاج الى مار جرجس جديد ليخلص العالم منه ، وأنه سيطر بعبقريته الفذة على الفكر الدينى والفلسفى والأدبى والعلمى فى الطبيعة والتاريخ الطبيعى والفلك وكل وجه من وجوه الفكر . وهكذا ركز كامبانيلا هجومه على أرسطو وعلى أتباع أرسطو . فلما اشتدت حملاته على المعلم الأول وعلى التابعين له من رجال الدين والدنيا ، أنذروه فى الدير عام ١٥٨٨ بسوء المصير لو استمر فى غلوائه فى الهجوم على أرسطو .

وشدد أتباع أرسطو النكير على كامبانيلا فترك أديرة كالأبريا دون إذن من رؤسائه وانتقل الى حلقات عالم روحانى فى نابولى يدعى جان باتيستا ديلا بورتا . وفى ١٥٩١ أصدر كامبانيلا كتابه « شرح فلسفة الحواس » ، وكان عمره يومئذ ثلاثا وعشرين سنة . وفى هذا الكتاب هاجم أرسطو وانحاز لأفلاطون وتيليسيو . فأرسطو أقام تصوره للعالم ولكل شئ على ازدواجية المادة والصورة ، أما أفلاطون فقد أقامه على ثلاثية الجسم والعقل والروح .

وقد ظل كامبانيلا حتى هذه المرحلة داخل حظيرة الايمان المسيحى التقليدى ، يقبل مبدا الخلق من العدم ومبدا سقوط الانسان وخلصه بالمسيح ، ويقبل بكاره مريم العذراء وصدق الكتاب المقدس وسلطة الكنيسة . ولكنه كان يفصل العلم عن الدين ويقول ان العلوم الطبيعية لا تدخل فى نطاق العقيدة ولا شأن للكنيسة بها . وعنده أن العلم يعتمد على المعرفة الحسية الاستقرائية (الملاحظة والتجربة) وليس على الاستنتاج العقلى المجرد ، ورغم أنه هاجم التنجيم ، فإنه شاع عنه التعامل مع الأرواح . كذلك أشيع عنه ممارسة الشذوذ الجنىسى مع ديلا بورتا ومع شاب يهودى كان يعلمه السحر واليازرجة أو « الكابالاه » .

وقبض على كامبانيلا فى ١٥٩٢ ، وأودع سجن القاصد الرسولى (ممثل البابا) فى نابولى بوشاية من أحد الرهبان الذى اتهمه بأن له « أخا من الجن » يعلمه كل هذا العلم الغزير الذى يتجلى فى مناقشاته وفى كتاباته .

وحاكمته في نابولي محكمة من الرهبان الدومنيكان واثارت هذه المحكمة اهتمام الناس حتى أن سفير توسكانيا في نابولي وصف كامبانيلا بأنه « من اندر العبقریات » في ايطاليا . كذلك أصبح كامبانيلا موضع رعاية بعض المثقفين الاثرياء . واستطاع كامبانيلا أن يرد الاتهامات الموجهة اليه . ولكن السؤال الحائر ظل حائرا بين الرهبان الذين ظلوا يتساءلون كيف اتيح لهذا الشاب ابن الأسكافي الفقير أن يعرف كل هذه الأشياء عن الفلاسفة والقدماء دون أن يتعلم في الجامعة . وقد كان كامبانيلا وقحا في الرد على قضائته حين سأله هذا السؤال ، فأجابهم بقوله انه كان يحرق من الزيت في سراجيه أكثر مما يشربون من النبيذ .

وصدر على كامبانيلا حكم مخفف بالعودة الى الدير في كالابريا حيث يتلو صلوات التوبة وصلاة الموتى ثلاث مرات في يوم السبت .

وفي نابولي أيضا أصدر كامبانيلا كتابا اسمه « في الأحلام » وكتبا آخر اسمه « كرة اريستارخوس » يقارن فيه نظريات فيثاغورس بنظريات كوبرنيك الخاصة بالكرة الأرضية .

وبدلا من أن ينفذ الحكم ويذهب الى كالابريا ، ذهب كامبانيلا الى روما ثم فلورنسا ثم بولونيا ثم بادوا . وفي بولونيا سرق منه بعض الرهبان المزيين مخطوطات كتبه ، وفي بادوا التقى بجاليليو وغيره من العلماء . وفي بادوا حوكم بتهمة الفسق ولكنه برىء .

وقضى سنة من الهدوء النسبي ثم استولت الكنيسة هناك على مخطوطات كتبه وقدمته للمحاكمة عام ١٥٩٤ أمام محكمة التفتيش بتهمة التشيع لفلسفة الفيلسوف اليوناني ديمقريط (٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م) أول من تصور الكائنات مكونة من ذرات لا نهائية في عددها ، كما اتهمته بكتابة منشور الحادى ، ولكنه برىء من التهمتين ، غير أن الموضوع أحيل الى روما لمزيد من التحقيق . وفي روما عذب كامبانيلا وحكم عليه في ١٥٩٦ بأن يستنكر علنا آراء الزندقة المنسوبة اليه . وبعد سنة سجن مرة أخرى بتهمة الزندقة ، ولكن أفرج عنه بشرط أن يحدد رؤساؤه اقامته في الدير . وفي أغسطس ١٥٩٨ أعيد الى كالابريا .

ومنذ ١٥٩٣ اشتهر كامبانيلا بدعواته لتنظيم عالمي للمجتمع تحت قيادة بابوية جديدة في كتابه « ملكية المسيحيين » وكتابته « في نظام الكنيسة » ، وكانت هذه بدايات حلمه بالمدينة الفاضلة للانسانية كلها وباصلاح الكنيسة وبعودة البشر الى حالة البراءة الاولى .

كذلك كان كامبانيلا معاديا للحكم الأسباني في كالابريا ، ولكنه كان يحتقر الفلاحين والطبقات الشعبية ويعتبرها في عداد البهائم أو في حكم الوحوش . وكان البديل عنده هو حكم « الفيلسوف الملك » على نهج أفلاطون في « الجمهورية » أو « البابا ملكا » الذي يجمع في يديه حكم العالم روحيا وزمنيا .

وفي ٦ سبتمبر ١٥٩٩ قبض على كامبانيلا في كالابريا لاشتراكه في مؤامرة لطرد المحتلين الأسبان وتأسيس جمهورية إيطالية في كالابريا ، وحوكم في نابولي بتهمة الزندقة وبتهمة إثارة الفتنة . وكان شركاؤه خليطا من الوطنيين والرهبان الإباحيين وأنصار الحرية والنبلاء المفلسين الذين لا تكاد تميزهم من قطاع الطرق . ولكن كامبانيلا كان يحلم باقامة جمهورية عالمية هي جمهورية الشمس حيث الدين كامل النقاء .

وتحت وطأة التعذيب اعترف كامبانيلا بالتهمتين ، ولكي ينجو من الاعدام ادعى الجنون طوال فترة التحقيق مع التعذيب التي امتدت سستا وثلاثين ساعة . وأنتهت المحاكمة في ١٦٠٢ بالسجن مدى الحياة بعد أن اقتنع المحققون بجنونه . واستمر كامبانيلا في ادعاء الجنون بين زملائه المسجونين وأمام الحراس حتى ظنوه بالفعل مجنونا . غير أن ممثل الادعاء الموفد من قبل نائب ملك إسبانيا دس عليه الجواسيس في الزنازين المجاورة ، وكان يحدث أحدهم باللاتينية فبدأ كامبانيلا له عاقلا ، وقد ظل سجينا ٢٧ سنة، من ١٥٩٩ حتى ١٦٢٦ ، حين أفرج عنه بواسطة البابا أوربان الثامن ، وكان عمر كامبانيلا يومئذ ٥٨ سنة .

وفي السجن كتب كامبانيلا مؤلفات عديدة كان أهمها « مدينة الشمس » الذي وضعه في ١٦٠٢ في سجنه بكالابريا ، ولكنه لم ينشر الا في ١٦٢٣ في مدينة فرانكفورت ثلاث سنوات قبل اطلاق سراحه في ١٦٢٦ .

ثم سجن كامبانيلا مرة أخرى في روما وأفرج عنه في ١٦٢٩ ، فقد شاع عنه أنه مشترك في مؤامرة قام بها أحد مريديه . وكانت حياته في خطر فاعتكف في دير فراسكاتي ، ثم فر الى باريس في ١٦٣٤ بنصيحة البابا وبمساعده وبمساعدة سفير فرنسا في روما . وفي باريس بسط عليه الكاردينال ريشليو رعايته وأجرى عليه ملك فرنسا معاشا ، فقضى السنوات الخمس الأخيرة من حياته في هدوء حتى مات في ١٦٣٩ . ولكن ديكرت وغيره من فلاسفة فرنسا ومفكرها وأدبائها كانوا ينظرون اليه نظرهم الى رجل مثالي مجذوب من بقايا عصر مضى وانقضى ، وهو عصر

الرئيسانسن ، عصر ما قبل العقلانية،عصر المغامرة بالفكر وبالخيال وبالأسفار
في عوالم لم يألّفها الإنسان .

وقد لوحظ على كامبانيلا أثناء سجنه في كالايريا أنه حافظ على
تحديه الفكرى جملة سنوات . ولكن كتاباته منذ ١٦٠٦ اتسمت بمشايعة
العقيدة الكاثوليكية وقبول السلطة البابوية . ولا أحد يعلم على وجه اليقين
ان كان ذلك يمثل تحولا حقيقيا في أفكار كامبانيلا أم أنه كان مجرد تراجع
تكتيكي لتجنب التعذيب بالخداع .

وكان كامبانيلا منذ شبابه قد اتخذ لنفسه شعارا هو : « لن أصمت
أبدا » وكان يقول عن نفسه : « أنما ولدت لأقاتل ثلاثة شرور ، هي الطغيان
والفسسة والنفاق » . وقد كتب خلال حياته ٨٨ كتابا لم يعد أحد يقرأ
منها إلا أربعا هي : « مدينة الشمس » (١٦٠٢) ، وهى المدينة الفاضلة،
و « فى الملكية الاسبانية » (١٦٠٢) ، وهو كتاب يهاجم الاستبداد السياسى،
و « الحس بالأشياء » (١٦٢٠) ، وهو كتاب يدافع عن علم الفسيولوجيا ،
أى وظائف الأعضاء ، كما كان معروفا فى زمانه ، و « دفاع عن جاليليو »
(١٦٢٢) ، وهو دفاع مجيد عن العلم رغم أنه لم يخرج عن الأطار
الافلاطونى ويقوم على قبول حياة الرهبانية .

كان كامبانيلا يصف فلسفة أرسطو وأرسطاطاليسية العصور
الوسطى بأنها مجرد معارك كلامية ، وقد حاول بناء الميتافيزيقا أو علم
ما وراء الطبيعة على العلوم الطبيعية . وكان معبد العلم عنده متحفا ضخما
للتاريخ الطبيعى يشتمل على صور لكل ما فى السماء وما على الأرض ، وكان
أطفال مدينته الفاضلة يتعلمون مبادئ الجغرافيا والفلك والبيولوجيا وعلم
التشريح بالاطلاع على هذه الصور . أما الدراسات اللغوية فقد كانت عند
كامبانيلا مجرد تحصيل يعتمد على الذاكرة ، وكذلك فقد أهدر كامبانيلا
الدراسات الانسانية التى كان يدعو إليها دعاء الهيومانزم أو المذهب
الانسانى ، وأهدر أحياء التراث الفكرى الذى تركه القدماء ، وكان يرى ان
أساس الفلسفة هو العلوم وليس الآداب .

وكان الانجليز فى القرن السابع عشر يسمون كامبانيلا « مكيافيللى
الثانى » ، لدوره فى حركة التحرير الوطنى فى جنوب ايطاليا ومقاومة الحكم
الاسبانى ولاعتباره أن الغايات تبرر الوسائل — ولدعوته القائلة بسيادة
الكنيسة على الدولة ، مما أفسح لكامبانيلا مكانا فى تاريخ النظريات
السياسية بوصفه من واضعى أساس نظرية السيادة ، وقد خصص له
هيجل صفحات فى كتابه « فلسفة التاريخ » يمثل ما خصص لجوردانو

برونو . وقد استحق كامبانيلا بسبب رؤياه التى صور فيها المدينة الفاضلة أن ينقش اسمه على مسلة فى الميدان الأحمر فى موسكو بين أسماء من يعدهم الروس آباء الثورة الروسية .

وقد لاحظ بعض مؤرخى الفكر أن التهم التى وجهت الى كامبانيلا فى ١٥٩٩ أيام مؤامرة تحرير كالابريا من الأسبان كانت كافية للحكم عليه بالاعدام شنقا وحرقا بمنطق ذلك الزمان لو ثبتت عليه . فبين التهم الدينية: انكار وجود الله والجنة والنار والجن والشياطين ، والقول بان الأسرار المقدسة كسر القربان المقدس لا قيمة لها ، وانما هى وسائل لتوطيد سلطة الكنيسة أو توطيد سلطة الدولة عن طريق الكنيسة ، كذلك انكاره لمعجزات الأنبياء وقوله انها ظواهر طبيعية وقوله بأن الثالوث فكرة فاسدة . أما التهم السياسية فأهمها أنه كان ينوى الانضمام الى الأتراك الذين كانوا يحاولون غزو كالابريا والاستيلاء عليها من الأسبان ، وأنه كان ينوى إقامة جمهورية فى كالابريا .

وقد كان بين شهود الإثبات شهود زور من بين الرهبان وزملاء فى مؤامرة كالابريا اعترفوا بما يخالف الحقيقة تحت وطأة التعذيب . . ومن بين هؤلاء قاطعا طريق من النبلاء المتآمرين المشتركين فى الثورة على الحكم الأسباني ، وقد اعترف أحدهما ، وهو موريتسيو دى رينالدو قبل أن يصعد الى المشنقة أن كامبانيلا لم يكن على علم بالمفاوضات التى كانت تجرى مع رجال أسطول سيكالا قائد البحرية التركى . ولم يعترف كامبانيلا نفسه الا بوضعه مشروعا لإقامة جمهورية مسيحية فى كالابريا ثم فى ايطاليا ، بعد تحريرها من الأسبان ، ثم فى العالم كله .

ويفسر بعض المؤرخين الاكتفاء بسجن كامبانيلا دون اعدامه بأنه تعبير عن التناقض بين السلطات الروحية والزمنية أو بين السلطات الايطالية والسلطات الأسبانية ، باعتبار أن كامبانيلا رغم تجديفه — أو على الأقل رغم آرائه غير المألوفة — كل بطل تحرير قومي . وعلى كل فمن المهم أن نذكر أن كامبانيلا نفسه كان يعدل من مخطوطات كتبه أو يعيد صياغة ما طبع منها مع اختلافات واضحة فى المضمون بقصد اتقاء شر أعدائه الذين أبقوه فى السجن سبعا وعشرين سنة ، أو بقصد تضليلهم عن مراميه الحقيقية . وقد حوله السجن المديد والتعذيب الى انسان مكر مراوغ يظهر مالا يبطن . حتى كتابه « مدينة الشمس » الذى يعد حجر الزاوية فى فلسفته عرف بعض التعديلات فى طبعاته المختلفة .

وقد أتم كامبانيلا « مدينة الشمس » في ١٦٠٢ أثناء سجنه في كالايريا باللغة الإيطالية . ثم ترجمها الى اللاتينية وصدرت في طبعتها اللاتينية في فرانكفورت عام ١٦٢٣ ، وهو لا يزال مسجوناً ، ثم في باريس عام ١٦٣٧ أثناء اقامته فيها وقبل وفاته بعامين ، ثم في أوترخت عام ١٦٤٣ بعد وفاته بأربعة أعوام ، وفي كل هذه تعديلات ملحوظة ، كما كان هناك عديد من المخطوطات التي جرى عليها التعديل، ولكن الجوهر واحد بطبيعة الحال .

وأهم ما تمثله « مدينة الشمس » لكامبانيلا أمران : أولهما أنها تعد أكبر قاعدة في علم المعرفة لفلسفة العلوم التي قامت عليها الحضارة الأوروبية الحديثة ، ولأسيما العلوم الطبيعية . ومن مؤرخي الفكر من يذهب الى أن فرانسيس بيكون ، مؤسس المنهج العلمي التجريبي في الحضارة الأوروبية الحديثة ، ربما قد أطلع على « مدينة الشمس » في طبعة فرانكفورت عام ١٦٢٣ ، قبل أن يكتب مدينته الفاضلة الشهيرة « بأطلنطيس الجديدة » . فنحن لا نعرف على وجه التحديد متى فرغ بيكون من تدوين كتابه هذا .

وقد كانت عبادة العلم من مآلوف الأشياء التي تميز بها فكر أنصار الجديد في عصر النهضة الأوروبية رغم مقاومة الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تستمد تعاليمها في الفلك وفي الطبيعة وفي التاريخ الطبيعي وفي التاريخ وفي الجغرافيا الخ . . من الكتاب المقدس ومن كتب أرسطو وبطليموس الجغرافي ، وتقف موقفا معاديا لكل منهج علمي أو مقولات علمية تتعارض مع هذه الموروثات بالدليل النقلي . بل لقد كانت هناك « ثقافتان » متميزتان : ثقافة العلماء والمثقفين التي تقوم بفتوحات العلم الحديث وتحاول أن تحل المشاكل الفكرية والدينية على الأساس العلماني ، وثقافة فقهاء الدين التي لا تعرف بوجود هذا البرزخ الذي يصل الدين بالدنيا ويجعل للعالم مكانا وسط كل هذه الالهيات .

ولكن الأمر الثاني في « مدينة الشمس » الذي كان بمثابة صدمة فكرية لمعاصري كامبانيلا ، كان دعوة كامبانيلا لالغاء الملكية الفردية والغاء نظام الأسرة . وقد قرأ مكسيم جوركي « مدينة الشمس » وهو في إيطاليا وحدث عنها لوناتشارسكي ولينين . وكان أكثر ما لفت أنظار مؤسسي الشيوعية الروسية هو طريقة تعليم العلوم بالصور ، وقد صدرت بعد الثورة الروسية توجيهات ثورية بوضع الفن في خدمة العلم .





مدينة الشمس

□ و « مدينة الشمس » هي المدينة الفاضلة . كما يسميها كامبانيلا . ونستطيع أن نلمح فيها تأثيرات من جمهورية أفلاطون ، والنص نفسه قائم على حوار بين رجلين ، هما قائد من قواد « فرسان القديس يوحنا » وقبطان من ميناء جنوا كان ينزل ضيفا عليه .

ويطلب القائد من القبطان أن يروي عليه ما جرى له خلال ترحاله .

قال القبطان انه طاف بالعالم كله ، وفي أسفاره وصل الى مكان اسمه تاوروبان ، واضطر أن يرسو هناك ، ولكنه اختبأ في غابة خوفا من السكان الأصليين . وحين خرج من الغابة وجد نفسه على سهل تحت خط الاستواء مباشرة ووجد نفسه بين عدد غفير من الرجال وبين نسوة يحملن السلاح وأكثرهم كان لا يفهم لغة وطنه .

وعلى الفور قادوه الى مدينة الشمس وهي فردوسهم الأرضي . . ووجد المدينة مبنية في هيئة دوائر قطرها ميلان ومحيطها سبعة أميال . وهي مقامة على تل مرتفع يحيط به سهل متسع .

وكانت المدينة مقسمة الى سبع دوائر واسعة ، الدائرة ضمن الأخرى، سميت على أسماء الكواكب السيارة وكأنها صورة مصغرة من النظام الفلكي كما كانوا يتصورونه في العصور الوسطى ، وهذه الدوائر متصلة فيما بينها بأربع بوابات مفتوحة على الجهات الأربع الأصلية .

وقد صممت المدينة بطريقة تجعل غزوها غاية في الصعوبة : فاذا غزيت الدائرة الأولى وسقطت فالغزاة يحتاجون الى ضعف عدتهم من الرجال والعتاد والجهد لاقتحام الدائرة الثانية . وهكذا فلابد من مضاعفة الهجوم كلما اقترب الغزاة من مركز الدائرة أو مركز مدينة الشمس حيث المعبد قائم في مأمن من كل يد عادية . قال القبطان : وفي رأيي ان مناعة أسوار الدائرة الأولى ذاتها تجعل اقتحام نطاقها الأول أمرا مستحيلا .

واستطرد القبطان قائلا : وأخذوني لاجتياز البوابة الشمالية ، فرايت مسافة مستوية عرضها سبعون خطوة ما بين السورين الأول والثاني . ومن

هناك أبصرت قصورا فسيحة كلها متلاصقة ، ظهرها مستند الى دائرة السور الثانى بطول الدائرة حتى لقد حسبت أنها قصر واحد . وفى واجهتها بواكى ترتفع الى منتصف القصر بطول الدائرة . وعلى هذه البواكى طرق للنزهة ترتكز على أعمدة ضخمة جميلة متسقة ، فكأنما البواكى أقباء دير جميل .

وبين كل سور دائرى وسور دائرى آخر هناك سهل خصيب . وفى مركز هذه الدوائر السبع سهل عظيم فى أعلى التل ، يتوسطه معبد عظيم يصل اليه القاصد بدرج خفيف التدرج لا مشقة فى ارتقائه حتى بلوغ هذا المعبد المركزى فى قمة التل ، وهذا الدرج يمتد من السور الخارجى حتى آخر سور فى الداخل .

أما المعبد فهو دائرى الشكل فى بنائه ولا تحيط به أسوار ، وإنما يقوم على أعمدة غلاظ شامخة منسقة فى بهاء . وفى أعلى المعبد قبة ترتفع من قبة ، وهى فوق المذبح مباشرة ، ومن حول المذبح أعمدة . والمعبد نفسه على رقعة طولها ٣٥٠ خطوة ، ومحوط بالبواكى القائمة على أعمدة ترتفع فوقها حلقة أخرى من الأعمدة ، وكل هذه البواكى تحتها ممرات أو طرقات رصفها آية فى الجمال ، وفيها آرائك ثابتة بين الأعمدة . وهناك كراسى تنقل باليد وهى تحف عظيمة البهاء . وليس على المذبح الا كرة جسيمة نقشت عليها نجوم السماء ، وكرة أخرى تمثل الأرض ، وعلى النجوم أسماؤها ووصف لتأثيرها على كائنات الأرض . ورصيف المعبد لامع ومطعم بالأحجار الكريمة، وفيه سبعة مصابيح ذهبية دائمة الاشتعال ، وهى مسماة على أسماء الكواكب السيارة .

وهناك فى أعلى المعبد عدد من الصوامع الجميلة التى تحيط بالقبة الصغرى ، كما أن هناك صفوفًا من الصوامع تحت الأقباء أو البواكى فى الداخل والخارج ، وهى فى أحجام مختلفة ، وفيها يقيم كهنة المعبد وعددهم تسعة وأربعون كاهنا ، وعلى القبة الصغرى يرفرف علم يلف فى اتجاه الرياح ويبين للكهنة مسار الرياح ، ومنه يعرفون الطقس وأنواع السنوات فى البر والبحر . وتحت القبة كتاب منقوش بحروف من ذهب .

وحين يسأل القائد عن نوع الحكومة القائمة فى هذه المدينة الفاضلة ، يجيبه القبطان قائلا : يحكم « مدينة الشمس » كاهن أسمى اسمه « هوه » (تنطق على وزن « خوخ » بالعربية العامية) ، ولكن يجب علينا أن نسميه « ميتافيزيكا » (أى ما وراء الطبيعة) . ومعنى هذا أن كامبانيلا يقول لنا

ان رئيس هذه الدويلة ، او هذه المدينة الفاضلة ، هو اعلم حبر في امور الالهيات او في امور الغيب — وهو ارفع الكهنة شأنا واقواهم سلطة كما انه يقضى في كل الامور الروحية والمادية .

ويعاون « هوه » في ممارسة سلطاته ثلاثة امراء : اأدهم يدعى « بون » (ينطق على وزن « بن » القهوة ولكن بباء ثقيلة) ، وهو « أمير القوة » ، والثاني يدعى « سن » (وينطق على وزن « سن » مفرد « أسنان ») ، وهو « أمير الحكمة » ، والثالث يدعى « مور » (وينطق على وزن « مر » ، عكس « حلو ») ، وهو « أمير الحب » .

وتتبع « أمير القوة » شئون الحرب والسلم ، وهو يتحكم في الجيش وفي القادة العسكريين ، وتتبعه الذخيرة والتحصينات والأسلحة والعتاد والحدادون وصناع السلاح .

أما « أمير الحكمة » فتتبعه الفنون الحرة والفنون الميكانيكية وكافة العلوم ، انما يدخل تحت ولايته العلماء والفقهاء . ومن العلماء التابعين له عالم اسمه « الفلكي » ، وآخر اسمه « عالم الفضاء » ، وثالث اسمه « عالم الرياضيات » ، ورابع اسمه « المهندس » ، وخامس اسمه « المؤرخ » ، وسادس اسمه « الشاعر » ، وسابع اسمه « المنطيق » ، وثامن اسمه « عالم البلاغة » ، وتاسع اسمه « النحوى » ، وعاشر اسمه « الطبيب » ، وحادى عشر اسمه « الفسيولوجى » ، وثانى عشر اسمه « الأخلاق » . ولهؤلاء العلماء كتاب واحد يسمونه « كتاب الحكمة » ، وقد سطرت فيه كافة العلوم بدقة متناهية وبأسلوب متدفق ، وهم يقرءون هذا الكتاب على الناس على طريقة الفيثاغوريين ، وهذه « الحكمة » هى التى تزين أسوار « مدينة الشمس » العليا والسفلى ، من الداخل ومن الخارج بالصور الرائعة ، وهى التى ترسم فى هذه الصور توضيحات كل العلوم وعلى جدران المعبد وعلى القبة رسمت صور النجوم بحسب جرم كل منها وما فيه من حركة وماله من تأثير .

فعلى السور الدائرى الأول من الداخل رسمت مبادئ الرياضيات ، كل الأرقام والمعادلات الرياضية ومعها تفسيراتها وحلولها مبلورة فى قصائد صغيرة جميلة ، وهذه هى الطريقة الفيثاغورية فى التعليم . أما من الخارج فقد رسمت الأرض كلها وكل قطر من أقطارها أى مبادئ علم الجغرافيا ، مع توضيح عاداتها العامة والخاصة وقوانينها ومنشأ سكانها ، أى مبادئ علم الاجتماع ، كل الشعوب موضحة فوق أبجدية « مدينة الشمس » .

وعلى السور الدائرى الثانى من الداخل هناك صور لكل الأحجار الكريمة وغير الكريمة والمعادن وخصائص كل حجر ومعدن ملخصة فى بيتين من الشعر ، فهى تصور مبادئ الجيولوجيا . أما من الخارج فقد صورت كافة البحار والبحيرات والأنهار وكل ما فى الأرض من سواحل ، كما كانت هناك رسوم للزلازل والبرق والثلج والعواصف . وهذا استكمال للجغرافيا وللأرصاد الجوية .

وعلى السور الدائرى الثالث من الداخل رسمت مبادئ علم النبات : كل أنواع الأشجار والنباتات مع بيان طبيعة كل منها . أما من الخارج فقد رسمت كل أنواع الأسماك والمخلوقات البرية مع بيان خصائصها ، وبذلك وضعت أساس علم « الأحياء المائية » .

وعلى الدائرة الرابعة من الداخل رسمت كل أنواع الطيور مع بيان طبائعها وخصائصها وعاداتها . وسكان « مدينة الشمس » وحدهم يملكون العنقاء الوحيدة فى العالم . أما من الخارج فقد رسمت كل أنواع الزواحف والحشرات ، الخ ..

وعلى الدائرة الخامسة من الداخل رسمت حيوانات الأرض الجسيمة ، وهى الف مرة أكثر مما نعرف ، ومن الداخل رسمت فصائل هذه الحيوانات ، فكانت من الحصان وحده مائة فصيلة .

وفى الدائرة السادسة رسمت كل الفنون الميكانيكية مع أدواتها وبيان طرق استعمالها ومخترعيها . أما من الخارج فقد رسمت صور كل المخترعين والمكتشفين فى العلوم وفى فن الحرب وصور المشرعين . أما المشرعون عند كامبانيلا فقد كانوا أوزيريس وجوبيتر وهرميز وليكورجوس وفيثاغورس وصولون من عصور الوثنية ، وموسى والمسيح ومحمد من عصور التوحيد . أما عظماء التاريخ فقد رأى القبطان منهم صور الاسكندر ويوليوس قيصر وبيروس وهانيبال .

وقيل للقبطان ان اهل « مدينة الشمس » يعرفون كل لغات العالم ويوفدون المكتشفين والسفراء الى كل البلاد ، ومن هنا معرفتهم بتاريخ كل بلد وبعادات كل شعب ، ومنهم عرف القبطان ان اهل الصين عرفوا المدفع والمطبعة قبل ان تعرفهما أوروبا ، والأطفال فى « مدينة الشمس » يتعلمون كل شئ من الصور دون عناء .

قال القبطان :

فى « مدينه الشمس » نجد الرجال والنساء متحابين ولذا فهم ينسلون احسن النسل . وهم يعجبون منا لاننا نهتم بسلالات الخيل والكلاب بينما نهمل سلالات البشر . ولذا فان تعليم الاطفال عندهم من اختصاص « امير الحب » .

وحين استفسر قائد فرسان القديس يوحنا عن نظام الحكم فى « مدينه الشمس » ، ان كان ملكيا ام جمهوريا ام ارسقراطيا ، اجاب قبطان جنوا ان اهل « مدينه الشمس » جاءوا اصلا من الهند فرارا من سيوف المجوس ومن الطغاة النهابين ، وقرروا ان يعيشوا معا فى اخاء الحكماء والفلاسفة فجعلوا كل شىء مشاعا بينهم : المعرفة والمجد واللذات والمال . كل شىء عندهم على المشاع ، حتى الزوجات . وهم يقولون ان الملكية الفردية انما تكتسب وتنمى بسبب نظام الاسرة ، وهذا يؤدى الى حب الذات . فاذا الغى نظام الاسرة لم يبق الا حب الدولة .

صاح قائد فرسان القديس يوحنا : هذا ما يقوله افلاطون فى « الجمهورية » ، وقد رد عليه ارسطو بقوله ان هذا سيفرى الناس بالتواكل والانصراف عن العمل ليعيشوا على ثمار عمل الغير . فاجاب قبطان جنوا قائلا انه لاحظ ان اهل « مدينه الشمس » من اكثر الشعوب تفانيسا فى حب وطنهم ، ومن يمت دفاعا عن الوطن لا يقيم وزنا للمال . ولو ان الرهبان اظهروا مثل زهدهم فى المال لجعلوا الدنيا مكانا لحياة ارقى .

قال القائد : اذن فالصداقة بينهم لا معنى لها عندهم لانهم لا يتبادلون الهدايا والعطايا . فاجاب القبطان بان العطايا عندهم ممنوعة ، فكل منهم يحصل فقط على ما ياتيه من الجماعة . والحكام يحظرون ان يأخذ اى منهم اكثر مما يستحق او يحتاج اليه ، ولكنهم يضمنون الضروريات للجميع . اما الصداقة عندهم فتتجلى عند المرض وفى الحرب ويتبادل التعليم ، وابناء كل جيل يسمون بعضهم بعضا « الاخ » فلان . وليست بينهم سرقة ولا قتل عمد ولا زنا ولا تدنيس الحرام ولا انحلال خلقى كالذى نجده فيما بيننا . والقضاة يسهرون على ذلك .

وكل شىء فى الحياة مشترك فى قاعات الطعام او فى عنابر النوم . والرجال يقومون بالاعمال الشاقة ، والنساء يقمن بالصناعات المنزلية وبحلب اللبن وصناعة الجبن وبالفزل والنسيج والخياطة والحلاقة وقص الشعر . وهن يتعلمن الموسيقى من دون الطبله والنفير . والشباب دون الاربعين يخدمون الشيوخ فوق الاربعين . والسفرجية بنات وصبيان دون العشرين . والرجال يجلسون للطعام فى صف والنساء فى الصف المواجه ، والطعام

يجرى في صمت كما هو الحال في الأديرة . وأثناء الطعام يقرأ شباب كتابا بصوت مرتل . وكامبانيلا كان يستعمل كلمة « كومون » بمعنى الحياة المشتركة ، لوصف هذه الحياة الجماعية في « مدينة الشمس » ، وهذا ما جعل له مكانا خاصا في تاريخ الفكر الاشتراكي .

وبعد الفطام ترعى النساء الأطفال الاناث ويرعى الرجال الأطفال الذكور . . وبعد سن السادسة يتعلم الأطفال صنعة من الصنائع ، كل بحسب ميوله واستعداده . أما ضعاف العقول فيرسلون الى الحقول حتى يتم تدريبهم ثم يصبحون مواطنين . والعمل اليدوى شرف في « مدينة الشمس » . وهم يسخرون منا لأننا نحترق العمل اليدوى ونسمى من لا يتقنون عملا من الأعمال ويعيشون في بطالة بالوراثة « بالنبلاء » .

وليس بين أبناء « مدينة الشمس » أحقاد ولا تحاسد على المناصب لأنهم لا يطمعون في حياة الترف : فكل شيء عندهم يدار لصالح الأمة وليس لصالح الأفراد ، فهم يخالفوننا في نظرنا الى الأسرة والأطفال . نحن نرى أن النظام الطبيعى هو أن يعترف الانسان بنسله ويتكفل بتربيتهم ، وينظر الى زوجته وداره على انها ملك له . أما هم فيرفضون ذلك ويقولون ان الأطفال يأتون لحفظ النوع لا لمتعتنا الخاصة ، وهذا عين ما قاله القديس توماس الاكوينى .

ولما كان أكثر الناس ينجبون النسل بالخطأ ويربون الأبناء تربية خاطئة ، وهذا تخريب للدولة ، فأهل « مدينة الشمس » يعتقدون أن في امكانهم ازالة هذا التخريب لأنهم يعهدون بتربية أولادهم الى قضاة المدينة لأن الأولاد هم عباد الجمهورية ، وذلك من باب حماية الجمهورية . وهم لهذا ينتقون أفضل الشباب والشابات ليضمنوا انجاب أفضل نسل ممكن بحسب مبادئ الفلاسفة . ويرى أفلاطون أن هذا الاختيار يجب أن يتم فى الظاهر بالقرعة حتى لا تتور المحرومات من النساء غير الجميلات على قرارات القضاة . فلا مناص عند أفلاطون من الخداع بحيث تعطى أجمل النساء لأصح الرجال ، أما الرجال المعتلون فيوزع القضاة عليهم ما يستحقون مع ايهامهم أنهم نالوا نصيبهم .

أما فى «مدينة الشمس» فهذا الايهام لا لزوم له ، لأن أهل المدينة يعتقدون أن الجمال هو الصحة والصحة هى الجمال ، فاذا صنعت المرأة وجهها لتبدو جميلة أو أطالت كعبيها لتبدو طويلة أو أطالت ثوبها لتخفى حذاءها العالى حكم عليها بالاعدام .

وليس فى « مدينة الشمس » أرقاء لأن كل الناس تعمل أربع ساعات يوميا . (وهنا يقول كامبانيلا على لسان القبطان ان نابولى كان بها ٧٠٠٠٠٠

نسمة لم يكن يعمل منهم الا ١٥٠٠٠ نسمة أما الباقون فكانوا يتسكعون في حياة الكسل والشهوات وجمع المال الحرام ويستترقون آلاف الأسرات بسبب فقرها) . وبعد ساعات العمل الأربع يقضى أهل «مدينة الشمس» بقية يومهم في الاطلاع والمناظرات والكتابة والرياضة . والعباب الزهر عندهم محظورة وكذلك الشطرنج ، والالعب الوحيدة المصرح بها عندهم هى الالعب الرياضية الاسبرطية .

وعند أهل « مدينة الشمس » ان الفقر الشديد يجعل الناس عديمى القدرة ، ماكرين أفظاظا متجهمين ، لصوصا ، صعاليك ، كذابين ، يشهدون بالزور . أما الفنى الفاحش فهو يجعل الناس وقحين متفطرسين ، جهالا أذعياء ، خونة غشاشين ، فشارين يمزقون سمعة الناس دون ضمير ، ناقصين فى المودة ، الخ .

وقضاة المدينة فيهم الرجال والنساء ، وهم يلبسون نفس الزى ، الا ان عباءة النساء أطول من عباءة الرجال ، فهى تحت الركبة .

والرئيس « هو » منتخب مدى الحياة ، وهو عندهم أعلم الناس وأحكمهم وأعرفهم بالأمور الالهية ، وهو لا ينفرد بالسلطة أبدا بل يعمل فى انسجام مستمر مع « أمير القوة » ومع « أمير الحكمة » و « أمير الحب » . وحكمته تعصمه من الاستبداد .

والنساء فى « مدينة الشمس » يشتركن فى القتال مع الرجال . وأهل المدينة لا يهابون الموت لأنهم يؤمنون بخلود الروح ، وهم يتبعون الى حد ما البراهما وفيثاغورس ولكنهم لا يؤمنون بتناسخ الأرواح . وهم شديدا الاهتمام بفن الحرب ويتدربون على القتال يوميا خشية أن تصيبهم الطراوة فيعجزون عن رد العدو اذا نزلت نازلة مفاجئة . وليس فى المدينة الا سجن واحد يضعون فيه أعداء الجمهورية والثائرين عليها .

أما عن ديانة « مدينة الشمس » فأهلها يعبدون الله ، وهم يمجدون الشمس والنجوم ولكنهم لا يعبدونها : هم يعبدون الله ويعظمون الشمس . والثالث عندهم هو : القوة العليا والحكمة العليا والحب الأعلى وثلاثتها صفات لله الواحد ، وليس لها أسماء مستقلة أو وجود مستقل .

هذا مجمل وصف الحياة فى « مدينة الشمس » ، ويلاحظ فى تصور المدينة الفاضلة لكامبانيلا أنه بنى على بعض أسس جمهورية أفلاطون ، لان أفلاطون حصر شيوعية المال والنساء فى طبقتين هما الارستقراطية

(الصنوة) الحاكمة من جهة والجند والطبقات الدنيا من جهة أخرى . أما الطبقات الوسطى فهو لم يطبق عليها نظام الملكية العامة ، لأن حاسة الملكية الفردية لديها بالغة القوة .

ومهما يكن من شيء فإن مدينة كامبانيلا تمثل عودة للحلم الأفلاطوني معدلا بأن يحكم الجمهورية الفاضلة « الملك الفيلسوف » أو « الفيلسوف الملك » . وذلك لا يكون إلا إذا اجتمعت القوة والفكر أو العلم في شخص واحد . وهذا وجه التناقض في الفكر الأفلاطوني : الغزل الدائم بين الفكر والسيف ، ان أصحاب « مدينة الشمس » وجدوا أن أعلم الناس اقدرهم على الحكم ، وهم يرون أن نظامهم أفضل من نظامنا ، لأننا نضع في السلطة الجهال ونرضى بهم لجرد أنهم من أبناء البيوتات أو من محاسيب القوى السياسية والاقتصادية .

و « هوه » ، رئيس « مدينة الشمس » ، هو الوحيد الذي تأتيه حكمته من الحياة ومن الطبيعة . أما بقية حكماء المدينة ، فكل حكمته تأتيهم من بطون الكتب شأن قراءة أرسطو وغيره ، وهم لا يعرفون شيئا عن الحياة ، فكل علومهم ثقيلة من الذاكرة .

« والمؤثرات الاسبرطية » واضحة في « مدينة الشمس » كما هي واضحة في « جمهورية » أفلاطون ، وأهمها الشغف بالرياضة البدنية وعبادة « الصحة » والتقتشف الدائم والاستعداد الدائم للحرب والقسوة على الضعفاء الى حد تعريضهم عرايا لثلوج الشتاء وعواصفه حتى لا ينجو من الأطفال إلا من يصلح حقا للحياة . كذلك من المؤثرات الاسبرطية نظرية تحسين النسل بالانتخاب الصناعي أى بتزويج أصح الفتیان لأجمل الفتيات ، وكأننا في مزرعة خيول أصيلة .

وظاهر الأمر يوحى بأن كامبانيلا كان مطلعاً على قصة السندباد البحري وربما قصة « حى بن يقظان » لابن طفيل وربما قصة « الاسراء والمعراج » لابن عباس في ترجماتها اللاتينية أو في نصوصها العربية ، ولكن أهم ما في « مدينة الشمس » هو أنها كانت متحفا عظيما للعلوم ولمعارف الانسان فهي بمثابة البداية الحقيقية لحضارة العلم الحديث .

• • •

مطبوعات مركز الأهرام للترجمة والنشر

□ كتب للأطفال والنشء

في مجال العلوم

- الموسوعة العلمية الأولى للأطفال
- طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر
- ميكى يسأل ويجيب
- (ترجمة د . محمد أمين سليمان)
- (ترجمة د . أيمن الدسوقي)
- (ترجمة د . أحمد فؤاد باشا)

□ سلسلة علماء العرب

- ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى) .
- ابن الهيثم (عالم البصريات)
- البيرونى (عالم الجغرافيا الفلكية)
- جابر بن حيان (أبو الكيمياء)
- ابن البيطار (عالم النبات)
- ابن بطوطة (رحالة الاسلام)
- (سليمان فياض)

□ في مجال التربية البدنية والرياضية

- موسوعة جوفى الرياضية

- السباحة والغطس
- الالعاب الأولمبية
- العاب الأطفال
- (ترجمة : نجيب المستكاوى) .

□ في مجال ترقية المهارات والخيال

- ألوان ألوان
- ألوان ألوان - حيوانات الغابة
- ألوان ألوان - حول العالم
- ألوان ألوان - حيوانات أليفة
- تعال نصنع
- رحلة صيد
- حكايات أعجبتنى
- حكايات عربية واسلامية (جزئين)
- (حسين أبوزيد)
- (حسين أبوزيد)
- (حسين أبوزيد)
- (حسين أبوزيد)
- (حسين أبوزيد)
- (شاكر المعداوى)
- (يعقوب الشارونى)
- (علية توفيق - رسوم : كمال درويش)

□ في مجال التربية الفكرية

- حوار بين طفل ساذج وقط مثقف (أحمد بهجت)

□ كتب الابداع الأدبي

- طرائف دبلوماسية
- عرابي زعيم الفلاحين
- كانت صعبة ومغرورة
- المجانين لا يركبون القطار
- مسافر على الرصيف
- (السفير جمال بركات)
- (عبد الرحمن الشرقاوي)
- (احسان عبد القدوس)
- (لطفى الخولى)
- (محمود السعدنى)

□ كتب في الابداع الفكرى

- سرقة ملك مصر
- معجم الأمثال العامية مع كتشاف موضوعى
- انطباعات مستفزة
- مذكرات صائم
- ثورة الفكر في عصر النهضة الأوروبية
- (محسن محمد)
- (أحمد تيمور باشا)
- (د . يوسف ادريس)
- (احمد بهجت)
- (د . لويس عوض)

□ كتب دينية

- قراءة في وثائق البهائية
- القرآن مائدة الله للعالمين
- معانى القرآن بين الراوية والدراية
- الله في العقيدة الاسلامية
- الفاروق عمر بن الخطاب
- نحل العسل في القرآن والطب
- التدين المنقوص
- (د . بنت الشاطيء)
- (الشيخ احمد حسن الباقورى)
- (الشيخ احمد حسن الباقورى)
- (أحمد بهجت)
- (عبد الرحمن الشرقاوي)
- (د . محمد البنبي)
- (فهمى هويدى)

□ كتب سياسية وفكرية

- ملفات السويس
- محاربون ومفاوضون
- نحن والعالم ونحن وانفسنا
- المأزق العربى
- شهود العصر الأهرام ١١٠ مقالات و ١١٠ اعوام
- (محمد حسنين هيكل)
- (كمال حسن على)
- (ابراهيم نافع)
- (لطفى الخولى)

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٧ / ٢٤٧٣

مطابع الاهرام التجارية القاهرة - مصر

من أهم اهتمامات الأستاذ الدكتور لويس عوض - بعد النقد الأدبي - تاريخ الفكر . وقد صدرت له حتى الآن خمسة مجلدات في تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر اسماعيل ، ومن عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ .

وهو الآن يقدم دراسته الأولى عن تاريخ الفكر الأوروبى الحديث فى عصر الرنيسانس المعروف بعصر النهضة الأوربية ، ليبين لنا الارتباط الوثيق بين ثورة الفكر الأوروبى ونشأة الحضارة الغربية الحديثة . وقد بدأ بأعلام الأدب والفن والعلم والاستكشاف فى إيطاليا من ماركوبولو إلى جاليليو .

والأعلام الذين يتناولهم هذا الكتاب هم :

- | | |
|----------------------------|-----------------------|
| (١) ماركو بولو | (٩) ليوناردو دافنشى |
| (٢) دانتى اليجيبرى | (١٠) رفايل |
| (٣) بترارك | (١١) ميكلانجلو |
| (٤) بوكاشيو | (١٢) إرازموس |
| (٥) مكيا فيلى | (١٣) جوردانو برونو |
| (٦) لورنزو دى مديتشى | (١٤) جاليليو |
| (٧) سافونارولا | (١٥) كامبانيللا |
| (٨) بيكو ديللا ميراندولا | |

مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع

ش الجلاء - القاهرة